الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام

هند حسين طه

الأدب العربي في إقليم خوارزم

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

منشورات وزارة الاعلام ــ الجمهورية العراقية

سلسلة الكتب الحديثة

(١٠٠)

١٩٧٦

الأدبُ العَرَبيّ في إقليمِ خوارزم

منذ الفتح العربي (٩٣هـ) حتى سقوط الدولة الخوارزمية (٦٢٨هـ)

هند حسين طه

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com رابط بديل

الإهداء

إلى كل مخلص يبحث في تراثنا المجيد ، ويعمل في سبيل نصفة العرب ، وإحياء روائعهم ومآثرهم الفكرية الخالدة ...

إلى فلسطين ... تلك الحبيبة الأزلية المسافرة في جسدي ، والى إخوتي في خطوط النار ... والى رفاقي في معاناتي ...

أهدي هذا الجهد المتواضع ، ايماناً مني بتاريخ أمتنا المشرق ، وحضارتها العريقة ..

هند

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرسالة فريدة في بابها ، تحدثت فيها الكاتبة الفاضلة عن إقليم خوارزم ، وهو اقليم لا يكاد الكثير من قراء العربية الآن يعرفون تحديد موقعه ، ولا بلدانه . لقد كان هذا الاقليم من اقاليم المملكة الاسلامية التي يعنى بها الدارسون ، وقد عقد الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر باباً لشعرائه ، شأنه في ذلك شأن الأبواب التي عقدها لشعراء الشام وشعراء العراق و ... كان هذا في القرن الخامس الهجري ، أما الآن فكل الذي نعرفه عنه انه نبغ منه علماء وكتاب وشعراء نسبوا اليه ، وخلدوا على الزمن في ثقافتنا العربية الاسلامية ، وكان خلودهم مدعاة لخلود اسم هذا الاقليم في نفوسنا .

ونحن نحمد للكاتبة اختيارها هذا الموضوع الذي لفتت به أذهاننا الى اقطار ما وراء النهر ، وما جاور النهر ، وفيها بلدان كانت مرسحاً للثقافة العربية الاسلامية فاضت بالعديد من العلماء والكتاب والشعراء الذين أغنوا العربية ببحوثهم وكتبهم في العلم والأدب ، نثره ونظمه .

وقد بيّنت في بداية حديثها ما عانته من جهد في هذا البحث ، لأن مصادره في العربية قليلة ، وأكثر هذا القليل قد استقته من نتف متفرقة في الكتب القديمة التي عاصرت هذه الثقافة يوم كانت في أوجها في القرن الرابع الهجري ، والقرون الثلاثة التي تلته .

لقد عنيت دراساتنا الحديثة بالأندلس . ولعل من أسباب هذه العناية ، ان الاسبان في عصرنا هذا نظروا الى فترة حكم العرب عندهم على أنها حقبة من تأريخ بلدهم عليهم ان يستقصوها بحثاً ودراسة ، ويرصدوا اثرها في المواطنين وفي اللغة وفي الثقافة .

هذا كلّه مع بعدهم الآن عن الدين الاسلامي وعن اللغة العربية . ولقد التفتنا ، ولهم كبير الفضل الى الأندلس حتى جعلنا الأدب الأندلسي يدرّس في جامعاتنا ومدارسنا شأنه شأن بقية آداب بلداننا العربية اليوم . ان اندلس العرب أصبحت أثراً بعد عين ، ولكنها ما زالت حيّة في نفوسنا ، وكأنها في أزهى عصورها . وحسبك بها مقرونة في الدراسة الآن بالعراق والشام ومصر والمغرب وغيرها من أقطار عالمنا العربي الاسلامي .

اما أقاليم ما وراء النهر فلا نجد لها في حياتنا الحاضرة، ما نجده للاندلس. وربما كان أهل هذه البلدان قد نحوا نحو الاسبان في استقصاء ما كان للعرب وللثقافة الاسلامية من أثر فيهم . لقد رأيناهم يحرصون على الكتب العربية القديمة كلّ الحرص ، وأعجبنا بكثرة ما رأيناه عندهم من هذه الكتب ، ومن العناية الفائقة في حفظها وتجليدها . واعجبنا بما رأيناه بطشقند(١) وسمرقند خاصة من آثار اسلامية ومن كتب قديمة مخطوطة . وسررنا ان رأينا تمثال البيروني يقف شامخاً في ميدان من ميادين طشقند . كما سررنا برؤيتهم يحضّرون البحوث عن الدراسات والثقافة في تلك العصور .

نقول : ان الكثير منا يجهل هذا عنهم ، ولا تكاد تجد شيئاً من مؤلفاتهم في مكتباتنا . ونرى ان من واجب العرب الآن ، أن يسعوا الى استقصاء هذا ، وعسى أن تكون هذه الرسالة وسيلة تنبيه الى ما قلناه ، وعسانا نرى بعض الطلبة العرب يقصدون هذه البلدان فيتعلّمون لغة أهلها ويطلعون على ثقافتهم، ويثيرون ما للعرب والاسلام من أثر فيها . وتلك خدمة انسانية للعرب ولغيرهم. وعندي ان التنبيه الى هذا وحده له من الأهمية ما يستوجب شكرنا للباحثة الفاضلة ، كما نرجو لها شكر الأجيال المقبلة فيه .

هذا حديثنا في البحث وموضوعه . أما اقليم خوارزم فيقع على حافتي نهر جيحون في جهة الجنوب والشرق عن بحيرة خوارزم . وقد عدّه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٢٠هـ من أعمال خراسان . واعتبره الاصطخري من أقاليم ما وراء النهر ، وزاره ياقوت سنة ٦١٦هـ وقال : « اقليم منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر » .

وواضح ان اختلافهم في تحديد موقع هذا الاقليم انما يرجع لسبب اداري، لا لسبب جغرافي .

واقليم خوارزم الآن موزع بين جمهوريتين في الاتحاد السوفيتي ، هما اوزبكستان وتركمانستان ، وكان الروس قد ضموه اليهم بعد ان خلعوا أميره السيد عبدالله خان بهادر سنة ١٩٢٤ .

والعرب بداوا غزوهم لهذا الاقليم في خلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ غزاه سَلْم بن زياد عامل الحجاج بن يوسف والي العراق ، ثم دخل في حكمهم صلحاً سنة ٩٣ هـ على يد قتيبة بن مسلم الباهلي ، وقد استبشروا بدخوله

---

(١) زرنا هذه البلدان بدعوة من الاكاديمية السوفياتية لثلاثة من اعضاء المجمع العراقي في العام الماضي ، كنت احدهم .

في حكمهم وعدت هذه مأثرة لقتيبة بن مسلم مدحه فيها الشعراء ، ومنهم كعب الأشقري والكميت بن زيد الاسدي .

وأقليم خوارزم هذا واسع عامر ، وفي كتاب نخبة الدهر : « ان عمل خوارزم يشتمل على ستين الف قرية » ووصفه ابن حوقل : بأنه ناحية خصبة كثيرة الأطعمة والحبوب والفواكه . وقال القزويني عن بلدانه : انها جامعة لاشتات الخيرات والمسرات ، وزاره ياقوت سنة ٦١٦ هـ وبين انه : « موفور الخيرات كثير الثمرات ، جميل المناظر ، كثير المزارع والأشجار .

وظلّ هذا الاقليم في المملكة العربية الاسلامية أيام حكم الأمويين والعباسيين ، ثم آل الأمر فيه الى ثلاث دول ، هي : الدولة السامانية وقد حكمته من سنة ٢٦١ ــ ٣٨٩هـ ثم السلاجقة وقد حكموه الى سنة ٥٥٢هـ ثم الاسرة الخوارزمية الى سنة ٦٢٨هـ وقد خربه التتر وقتلوا الكثير من سكانه .

واهل هذه البلاد موصوفون بحسن معاشرتهم وحسن معاملتهم ، زارهم ابن بطوطه وقال : انه لم ير في بلاد الدنيا احسن اخلاقاً منهم، وقال الزمخشري: ان بخوارزم فضائل لا توجد في غيره من سائر الاقطار .

وشهر هذا الاقليم بمدارسه الكثيرة ، وكانت تجرى الارزاق على الطلاب فيها ، والمقدسي يقول عنهم : « انهم أهل فهم وعلم وقرائح وأدب ... وانه قلما وجد هناك امام في الفقه والقرآن والآدب الا وله تلميذ خوارزمي .

وانتشر مذهب الاعتزال ، وهو مذهب يؤمن بسلطان العقل ويتصف به ، بينهم حتى أصبحت لفظة« الخوارزمي» مرادفة للفظة المعتزلي من حيثالعقيدة، يقول ياقوت انه سأل الأديب الشاعر القاسم بن الحسينعن مولده ، فقال : « حنفي ولكن لست خوارزمياً، « لست خوارزمياً » يريد بهذا انه ليس معتزليا. قالوا : والغالب عليهم ممارسة علم الكلام حتى في الأسواق والدروب . وكانوا يناظرون من غير تعصب ، واذا رأوا من أحد تعصباً أنكروا عليه ذلك قائلين : الغلبة بالحجّة واياك وفعل الجهّال ! وكانت المناظرات ــ وهي وسائل تثقيف وتعليم عندهم ــ تعقد في البيوت والقصور والأسواق ، والمساجد ، بعد الصلاة وخاصة في ايام الجمع ، وكانوا يفخرون بالكرم والعلم والقدرة على الجدل وافحام الخصم المجادل .

واحبّ هؤلاء العربَ ، وتعلقوا بهم ، وربما كان من أسباب هذا ، ان العرب فتحوا بلدهم صلحاً وعاملوهم أحسن المعاملة . ورحل رجال منهم الى مصر والعراق والشام والحجاز وخراسان طلباً للعلم ، وكان من رجالهم من

ينتصر للعرب على الشعوبيين كالامام الزمخشري ، ووفد كثير من العرب ، علماء وشعراء وأدباء الى بلادهم ، ولقوا احسن المعاملة وأطيب الاقامة بينهم .

وشهر رجال منهم بعلم القراءآت ، ومن مقرئيهم المشهورين محمد بن احمد الكركانجي ــ وكركانج هذه من مدنهم العظمى ، وقد سماها العرب ((الجرجانية)) يقول عنه ياقوت : انه رحل الى الآفاق وصنّف تصانيف مفيدة في علم القراءآت ، ونشطت عندهم الدراسات البلاغية التي اتسمت بنزوعها الى الناحية العقلية وكان من رجالهم الذين لمعوا في هذا السكاكي والمطرزي . ويكفيهم أن يكون من رجالهم الزمخشري ، من قرية ((زمخشر التابعة)) ، وهو علم الدنيا في الأدب والتفسير واللغة والنحو والبيان .

ومن رجالهم البيروني وشهرته في علمه وفضلهلاتقل عن شهرة الزمخشري، ومن شعرائهم الخوارزمي ابو بكر ، وهو علم في الشعر وفي انشاء الرسائل ..

وشعرهم يتصف بالغوص على المعاني العقلية ، لشيوع مذهب الاعتزال فيهم ، وفيه ما يمس شغاف النفوس في الحنين الى الوطن يهجرونه حبّاً في طلب العلم ، ويعودون اليه وقد تعلقوا بالبلدان الاسلامية التي ارتحلوا اليهـا وقضوا بها صور شبيبتهم طلباً للعلم أيضاً .

هذه اشارات أشرت اليها عن أهل خوارزم وقد تفضلت الكاتبة الفاضلة ففصّلتها في كتابها هذا .

وبعد ، فهذا بحث اختارته الكاتبة الفاضلة ، وكنت أعجب لما تبذله من جهد في استقصائه ، مع أن هناك جوانب كثيرة من أدبنا العربي ما زالت في حاجة الى الاستقصاء والكتابة فيها ، ثم هي أسهل على الباحث العربي من الجري وراء بحث غير واضح المعالم كهذا البحث . ولطالما ساءلت نفسي عن هذا ، وقلت في الجواب : لعلّها ــ وهي فلسطينية ــ وجدت بعض العزاء لنفسها في البحث في أمور الدول والمواطن تقرأ اخبارها في الكتب وتراها كيف تمحّى وكيف تزول .

واني ليسرني وأنا اختم كلمتي هذه أن أبين ان اساتذتها الممتحنين اعجبوا ببحثها هذا ، وقدروا لها جهدها فيه ، فمنحوها عليه درجة((الماجستير)) بمرتبة امتياز .

وعسى أن يكون هذا مشجعاً لها في المضي في حياتها العلمية المقبلة باتحاف المكتبة العربية بالجديد النافع من الكتب .

واساله تعالى أن يمدها بمزيد من عونه وهدايته ، وهو وحده الهادي والمعين .

الدكتور جميل سعيد

المُقَدمَة

حين كنت ادرس في الجامعة ، وقع بين يدي كتاب الاستاذ حافظ أحمد حمدي ، الموسوم بالدولة الخوارزمية والمغول ، ولا أدري لماذا توقفت عند كلمة « الخوارزمية » ورحت اقرأ المقدمة بعناية تامة ، فأثار انتباهي قول المؤلف : إنّ طلاب الدراسات العليا يبتعدون عن الخوض ، في المواضيع التي تخص هذا الاقليم ، خوفاً من تفرق المادة في المصادر ، ووجودها في مصادر أجنبية منها : الفارسية والتركية والصينية ، وفي هذا كل الجهد والعناء .

وبدلاً من أن تُثَبِّط همتي هذه الكلمات ، رأيت فيها حافزا يشجعني على أن اقوم بمثل تلك الدراسة في المستقبل ، على الرغم من أنني لا أجيد اللغة الفارسية ، ولا أعرف اللغتين الأُخريين .

وقرأت مثل هذا في مقدمة كتاب البلاغة عند السكاكي ، للدكتور أحمد مطلوب ، فزاد اصراري وتمسكي بهذا الموضوع ، بغية القاء بعض الضوء ، وكشف حجب الظلام المخيم على هذا الاقليم ، من خلال دراستي للادب العربي الذي نشأ فيه .

وحينما أكملت السنة التحضيرية ، وبدأت أبحث عن موضوع ، يصلح لان يكون موضوعا لرسالتي ، وجدت أن رغبتي القديمة ما زالت كامنة في نفسي ، بل تأججت بعدما تأكدت ان التراث العربي في تلك النواحي ، لم ينل من البحث والدراسة ، الحظ الذي ناله في مناطق اخرى .

وعلى الرغم من كل الصعوبات التي تحيط بالموضوع ، والتي لمستها بنفسي ، ورغم كل التحذيرات التي تفضل كثير من اساتذتي ، في قسم اللغة العربية ، وفي قسم التأريخ ، وغيرهم ممّن استشرتهم ، وتأكيد الجميع صعوبة الموضوع ووعورته . رغم ذلك كله استمسكت بالبحث ايمانا به ، وشعورا بالمسؤولية تجاه جزء من تراثنا العربي ، وقررت الخوض فيه ، محاولة

استكشاف تلك الحقبة من تأريخ أدبنا العربي ، في ذلك الاقليم الذي كان في يوم ما ، من ربوع الدولة الاسلامية •

وقد واجهتني تساؤلات عديدة ، عن اختياري هذا المسلك الوعر ،وأسباب ايثاري له وتمسكي به ، وأنا اعلم ما يكتنفه من اهمال وغموض ، وأن الفترة التي يتناولها البحث طويلة جدا ، بالاضافة الى كون الموضوع بكرا لم يطرق بعد ، والأخبار عنه قليلة وغامضة •

وردا على هذه التساؤلات أقول : إنّني اخترت اقليم خوارزم بالذات ، موضوعا لبحثي في الأدب العربي ، لعدة أسباب منها : إنّ اقليم خوارزم وموقعه من الأدب العربي ، يصلح لأن يكون موضوع دراسة ادبية متكاملة الجوانب ، وخاصة ان الادباء والباحثين ، لم يولوه العناية الكافية التي هو بها جدير •

وكان من الواجب عليّ السعي الحثيث ، لإحياء الجوانب الغامضة ، من تراثنا العربي ، في بقعة كانت لها مكانتها في العالم الإسلامي ، على الرغم من بعدها عن مركزه •

أما مادة البحث فمتوفرة ، ولكنها متفرقة متنوعة ، متناثرة هنا وهناك ، دون أن تقوم عليها دراسة جدية ، لربطها وجلاء الغموض الذي يلف ذلك الاقليم ، ويكتنف أعلامه • وكان ذلك حافزا آخر لي ، على السعي جاهدة لضم ما تناثر منها ، والخروج من ذلك كله بدراسة وافية مستفيضة ، جهد الامكان عن ذلك الموضوع الذي ظل غامضاً فترة طويلة ، في تاريخ أدبنا العربي ، معتمدة على مختلف النصوص ، وشتى المصادر ، التي دأبت على دراستها وتحليلها ، مذللة كل الصعاب التي جابهتني في تحقيقها وشرحها ، وتحليلها ونقدها •

ومن الأسباب الاخرى ، التي دفعتني الى اختيار هذا الموضوع ، جدته وطرافته ، واغفال الباحثين له فيما مضى ، كما ذكرت سابقاً •

ولاتساع البحث وشموله ، كان عليّ أن أقوم برحلة طويلة مع المادة ، لأجمعها من مصادرها القديمة والحديثة ، أدبية كانت أو لغوية ، أو تأريخية أو جغرافية • وقد اقتضاني هذا العمل وقتاً كبيرا ، وجهدا مضنيا •

وقامت دراستي هذه ، على أسس دراسة أدبية لبيئة معينة ، متبعة في

ذلك الأسلوب المنهجي الحديث ، باعتبار ان لكلّ بيئة خصائصها المميزة ، وسماتها الخاصة بها •

لم أحدد بحثي بقرن من القرون ــ وقد تعمدت هذا ــ ، لأن في تقسيم الأدب تفتيتاً لتطوره ، ولذلك رأيت أن انتهج مذهب الضم ، لا مذهب التفريق، أو تخصيص قرن دون آخر • وغرضي من ذلك الإحاطة التامة ، بتطور الأدب شعره ونثره ، ومعرفة اتجاهات كل منهما ، منذ النشأة الأولى لهما •

كما دفعني الى عدم التحديد ، الغموض الشامل الذي يتصل بهذا الاقليم ، في جميع نواحيه • وقد حاولت أن أكون من الرواد لدراسة تكون خطوة أولى ، لدراسات تأتي بعدها ، تكون أكثر تخصصا ، أو لدراسات أخرى مشابهة •

ومن الجدير بالذكر أن أشير ، الى أنني اتبعت في دراستي النظرية الاقليمية ، والاستعانة بالنظريات الاخرى المعروفة • وقد أكدت كتب الجغرافية والتأريخ ، اقليمية خوارزم كما سنرى في اللمحة الجغرافية ، التي سنستهل بها بحثنا فنطّلع من خلالها على البيئة العامة لاقليم خوارزم • ولقد أكدت كتب الأدب تلك الاقليمية ، في تقسيمها للشعراء ، فقسمتهم حسب الأقاليم • فهناك شعراء أقليم فارس ، وشعراء أقليم خوارزم ، وغيرهما • وأول ما وصل الينا من الكتب التي اتبعت هذا المنهج : يتيمة الدهر لابي منصور الثعالبي • ودمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي • وخريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني •

وعلى هذا الأساس كان منهج البحث في دراستي هذه ، يقوم على الربط بين هذه النظرية ، وبين أكثر النظريات الاخرى • وحاولت أن اقيم دراستي على سبيل الربط ، بين المنهج التأريخي والمنهج الفني ، وترك الباب مفتوحا أمام النظرية الإقليمية ، التي اتخذتها أساساً للبحث ، والنظرية التي تقوم على دراسة الأجناس ، والاستفادة بقدر الامكان من النظريات الأخرى • ويتضح هذا جليّاً في تقسيمنا البحث الى تمهيد وبابين • حيث يقوم التمهيد برسم الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والأبعاد الثقافية العقلية والأدبية ،باعتبار أن هذه العوامل ، ذات تأثير فعّال في الأدب شعراً ونثراً • وهذا التمهيد خير مثال للمنهج التأريخي ، الذي يدرس الأدب فيه من خلال التأريخ •

أما المنهج الفني ، فيظهر واضحا في دراستنا للشعر ، في الباب الأول من هذا البحث ، الذي اتسع لدراسة الشعر العربي في هذا الاقليم ، دراسة تقوم على تبيان أغراضه وفنونه وخصائصه ، وتقويم نصوصه ، ثم تعمد الى التعريف بأهم شعرائه ، مع دراسة وافية عن شاعرين منهم ، متخذة في دراستي للشعراء ، الشهرة العامة ، أو وفرة الشعر ، أو التمكن من الصنعة .

واشتمل هذا الباب من البحث على ستة فصول : الفصل الأول دراسة الشعر ، دراسة عميقة متفحصة ، بيّنت فيها تطوره وأغراضه وموضوعاته ، واستخلصت اتجاهاته وخصائصه ، وجوانبه الفنية .

وتناولت في الفصل الثاني ، الشاعر أبا بكر الخوارزمي ، في دراسةوافية، بيّنت فيها مقدرته الشعرية ، وأثرها في اتجاهات الشعر العربي في هذا الاقليم . كما بيّنت مدى تأثيره أو تأثره بالشعر العربي ، خارج هذا الاقليم .

وخصصت الفصل الثالث،لدراسة الإمام الشاعر ، أبي القاسم الزمخشري، مبيّنة أهم الأغراض الشعرية ، التي تناولها هذا الإمام الشاعر، من خلال دراسة ديوانه .

أما الفصل الرابع ، فقد اتسع لدراسة شعراء آخرين ، هم القاسم بن الحسين ، ومحمد بن حامد ، والرقاشي . دراسة تحليلية نقدية وافية ، كلفتنا الجهد والعناء ، لقلة أخبارهم ، وضياع الكثير من شعرهم ، وتصميمنا مع ذلك على استجلاء أخبارهم ، وتقصي أحوالهم ، لما يمثله كل منهم من طريقة فنية ، في اتجاهه الشعري .

واتسع الفصل الخامس ، لدراسة الشعراء الوافدين الى اقليم خوارزم . بيّنت فيها مدى تأثرهم أو تأثيرهم في الاتجاهات الشعرية ، التي عرفها أهل هذا الاقليم .

أما الفصل السادس ، فهو دراسة وافية ، للشاعر رشيدالدين الوطواط، الشاعر المختص ببلاط الخوارزميين ، ولا سيما بلاط السلطان خوارزم شاه آتسز ، وما أضافه هذا الشاعر الى التراث العربي ، متوصلة في دراستي الى تغلّب النزعة الدينية ، التي تتجلى في شعره ، والى تعصبه للعرب والعربية ،

والدين الاسلامي • معللة كل ذلك بانتسابه للخليفة الثاني ، عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه •

ومن الجدير بالذكر أن نشير ، الى أن جميع هؤلاء الشعراء ، لم يدرسهم أحد من قبل ، وقد توفر لدينا جزء غير يسير من أشعارهم ، فتسنى لنا ـ من خلال ذلك ـ دراستهم • وكانوا على الأغلب ـ شعراء وناثرين في آن واحد•

والباب الثاني من هذا البحث ، جاء تكملة للمنهج الفني ، الذي اتخذته سبيلا في دراستي للشعر • وخصصته لدراسة النثر ، دراسة عميقة متفحصة مستقصية ـ مثله في ذلك مثل الشعر ـ وقسمته الى خمسة فصول : تناولت في الفصل الأول منه ، النثر في هذا الاقليم ، محاولة توضيح كل ما أحاط به منذ نشأته الاولى ، حتى نهاية الفترة التي تناولها البحث ، مع التعريف ببعض الكتّاب ، الذين كانوا بمثابة النواة الأولى لذلك النثر •

أما الفصل الثاني من هذا الباب ، فقد حاولت فيه أن أتوصل الى أهم الأنماط النثرية ، التي سادت ذلك الاقليم ، فوجدت نمطين مهمين من النثر ،هما النثر الأدبي ، والنثر العلمي • واعتبرت النثر الأدبي ، نثراً خالصاً تمثل في الرسائل والمقامات ، ونثراً تأليفياً صيغت به المعارف الانسانية ، التي ألفت في أسلوب أدبي • ويراد بالنثر الخالص ، تصوير عاطفة ، أو نقل تجربة ، لها بعض الاتصال بالعاطفة ، مع خلو النثر التأليفي منها ، لانه قيل من أجل التأليف، لا من أجل التعبير عن عاطفة ما •

والنمط الثاني هو النثر العلمي ، الذي شمل علوم الفلك والرياضيات ، والجغرافية والفلسفة ، والعلوم الصرفة وغير ذلك •

أما الفصل الثالث ، فقد خصصته لدراسة أبي بكر الخوارزمي ، بصفته هذه المرة كاتباً دراسة فنية وافية ، من خلال دراسة بعض رسائله وتحليلها ، أو دراسة بعضها الآخر دون تحليلها ، بحيث استطعت أن اتوصل الى تقدير منزلة هذا الكاتب ، في النثر العربي •

ومما تجب الاشارة اليه ، ان هذا الكاتب في حاجة الى وجوب التفات الكتّاب اليه ، وعنايتهم به ، نظراً لما يستحقه من دراسة مستقلة ، من خلال

ديوان رسائله . وقد اخترت هذا الكاتب بالذات ، لأنه يمثل النثر الخالص ، الذي يتمثل في رسائله الاخوانية .

وخصصت الفصل الرابع ، لدراسة الكاتب أبي القاسم الزمخشري ، من خلال مقاماته الوعظية ، ومقالاته في كتابه : أطواق الذهب . ومن خلال حكمه المسجوعة في كتابه : الكلم النوابغ ، وما مثلته مقاماته لأبرز الاتجاهات النثرية في هذا الاقليم . وخصصناه بهذه الدراسة،لأنه يمثل هذا الفن بنثره ،ولأنفراده ـ في حدود علمنا ـ بفن المقامات في هذا الاقليم .

واتسع الفصل الخامس من هذا الباب ، لدراسة رشيد الدين الوطواط ، وما أضافه هذا الكاتب ، الى التراث العربي في هذا الاقليم . وقد مثّل بنثره الغلو في الصنعة خير تمثيل .

وأخيراً أوجزت في خاتمة البحث ، ما توصلت اليه هذه الدراسة من نتائج. ثم عمدت الى التنبيه الى أهم الموضوعات ، التي رأيت من الضروري أن يلتفت اليها الباحثون ، وأن يصرفوا اليها العناية والجهد . وقد كانت المصادر والمراجع الرئيسة التي اعتمدتها في هذا البحث ، كتب التراجم والسير ، والتأريخ والأدب ، والجغرافية ، ودواوين الشعراء أحياناً ، وثمة كتب حديثة قام بها كتّاب محدثون ، تناولوا فيها بعض النواحي الخاصة بهذا الاقليم ، اكتفيت بالاشارة الى بعضها في هوامش البحث ، وفي قائمة المراجع .

وبعد فأرجو أن أكون قد أسديت بهذا البحث ، الذي بذلت في سبيله جهداً وصبراً غير قليل ، بعض النفع في تاريخ الأدب العربي ، وجلوت جوانب ظلت غامضة مدة طويلة ، وأكملت نقصاً في دراسة الأدب العربي ، في أحد أقاليم الدولة الاسلامية .

لقد حاولت جهد ما استطعت أن أقترب من الصواب ، في بحثي هذا ، فان وفقت فهذا غاية ما أرجو ، وان كان الصواب قد جانبني في شيء منه ، فحسبي أنني بذلت كل جهدي وطاقتي ، مخلصة فيما هدفت اليه . والله من وراء القصد ، وما العصمة الا لله .

تمهيد

اسم خوارزم

اقليم خوارزم

الحالة السياسية والادارية

الحالة الاقتصادية والاجتماعية

الحالة العقلية

الحالة الأدبية

اسم خوارزم :

قال ياقوت الحموي في هذا الاسم : « خوارزم أوله بين الضمة والفتحة ، والألف مسترقة مختلسة ، ليست بألف صحيحة ، هكذا يتلفظون به[١] » .

وتابعه في هذا القول ، كل من أبي عبيدالله ، عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي[٢] . وصفي الدين عبدالمؤمن،بن عبدالحق البغدادي[٣] . وعن هؤلاء أخذت بعض المراجع الحديثة مادتها[٤] .

وأهل العصر يلفظونها « خوارزم » كما تكتب جهلاً منهم ان الواو بين الخاء والألف لا تلفظ .

وقيل في سبب تسميته ، إنّ أحد ملوك الشرق القدماء ، غضب على اربعمائة من أهل مملكته وخاصة الحاشية ، فأمر بحملهم الى موضع منقطع عن العمران ، على مائة فرسخ منها ، فاتفق ذلك بموضع « كاث »[٦] ، وبعد مدة بعث من يستقصي خبرهم ، وكانوا قد بنوا لانفسهم بيوتاً واستقروا . وكانوا

---

(١) ينظر : معجم البلدان ٣ : ٤٧٤ . (طبعة السعادة ١٩٠٦م) . وضبطها الجواليقي في المعرب. ص١٣٣ « خُوارَزْم ». قالويروى :«خُوارِزْم»، تحقيق : أبو الاشبال احمد محمد شاكر . دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٦١هـ .

(٢) ينظر كتابه : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ٢ : ٥١٥ .

(٣) ينظر كتابه : مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ١ : ٣٧٠ (ليدن . بريل) .

(٤) The Encyclopedia of Islam. V. 11, P. 908—912.
وفي (الترجمة العربية) ٩ : ٣ .
القاموس الاسلامي ٢ : ٢٩٣ ، مجلة لغة العرب ـ الآباء الكرمليين ٣ : ١٣٤ للسنة الخامسة ، مط الأيتام للآباء الكرمليين . بغداد ١٩٢٧م .

(٥) كاث : من أجل مدن اقليم خوارزم . وصفها ياقوت بأنها بلدة كبيرة ، في الجهة الشرقية من نهر جيحون ، بخلاف نواحي خوارزم ، فانها في الجهة الغربية منه . ينظر : معجم البلدان ٤ : ٤٢٧ . (طبعة بيروت) ،

يصيدون السمك • يشوونه على النار التي يضرمونها من الحطب الموجود هناك وهو كثير • ورجعوا بهذا الخبر الى الملك ، فسألهم : وماذا يسمون اللحم ؟ قالوا : « خوار » قال : والحَطب ؟ قالوا : « رزم » قال : فاني أقررتهم بتلك الناحية ، وسميتها خوارزم[٧] • وأمر أن يحمل اليهم أربعمائة جارية تركية ، فالى اليوم قد بقي فيهم شبه من الترك ، على حدّ قول المقدسي[٨] •

وليس بخفي ما في هذه الرواية ، من تعليل أسطوري ، قد يكون بعيداً عن الحقيقة •

وذكر المقدسي أيضاً[٩] : أن الملك لما نفاهم الى ذلك الموضع ، شقّ اليهم نهراً من عمود جيحون يعيشون به ، وكانوا قوماً فيهم جلادة وقوة ، فاعتمدوا على أنفسهم في تدبير أمورهم ، وعرفوا كيف يبنون حياتهم بجدهم وجلدهم •

وسواء صحت هذه الرواية أم لا ، فإن العرب لمّا جاءوا الى تلك البلاد وفتحوها ، كانت تسمى بهذا الاسم ، وبقيت على ما هي عليه ، بعد الفتح العربي •

وفي : Encyclopedia Britannica ان اسمها مشتق من اللفظة الفارسية "Khur" أي الشمس ، وهذا لا يكفي ، لأنه كما يتبين لنا أنّها جزأت الكلمة مقطعين ، واكتفت بتعريف المقطع الأول ، ولم تتعرض لتعريف المقطع الثاني •

وقال أبو الفتح الجرجاني : « إنّ معنى خوارزم هيّن حربها ، لأنها في سهلة لا جبل فيها »[١١] •

---

(٧) أصلها « خَوارِرَزْم » خففت وقيل : «خَوارِزْم» استثقالا لتكرير الراء. وقد جاء به بعض العرب على الاصل ، فقال الاسدي :

وخافت من جبال الصغد نفسي وخافت من جبال خُوارِرَزْم

ينظر : معجم البلدان ٣ : ٤٧٤ (السعادة) .

(٨) ينظر احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . ص ٢٨٥ ، القاموس الاسلامي ٢ : ٢٩٣ .

(٩) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . ص ٢٨٥ .

(١٠) ١٣ : ١٣٣ مادة (Khorezm) .

(١١) معجم ما استعجم ٢ : ٥١٥ .

والظاهر ان أبا الفتح الجرجاني ، أخذ ذلك من فهمه للمعنى ، بعـــد تقطيع الكلمة الى مقطعين هما : « خوار » و « رزم » • ومن بين معاني «خوار» « سهل » ومن بين معاني « رزم » : حرب • فمزج بين الحرب والسهولة ،فقال معناها : هين حربها[١٢] •

(١٢) من معاني « خوار » ذليل ، سهل ، مستقيم . كما ورد في برهان قاطع ـ لابن خلف التبريزي ص ٤٥٣ « مادة خور » .
ومن معاني رزم : حرب ، حطب الطبخ ، كما ورد في المصدر السابق . ص ٥٣٩ « مادة رزم » .

اقليم خوارزم :

أصبح اقليم خوارزم بعد الفتح العربي ، من أمهات الأقاليم الاسلامية ، وأصبحت له مكانته المرموقة بين أقاليم العالم الاسلامي .

وهو يقع على حافتي نهر جيحون[١] ، في جهة الجنوب والشرق عن بحيرة خوارزم[٢] .

والجغرافيون المسلمون متفقون ، في تحديدهم لهذا الاقليم ، حيث ذكروا أن حدوده من الشرق : بلاد ما وراء النهر ، ومن الغرب بلاد الترك الغزّية[٣] ، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً ، ومن الجنوب خراسان[٤] .

واعتبر الاصطخري هذا الاقليم ، من أقاليم ما وراء النهر[٥] . بينما عدّه قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٢٠هـ ، من أعمال خراسان[٦] ، معللاً ذلك بقوله

---

(١) ينظر احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . ص ٢٨٤ .

(٢) بحيرة خوارزم : وتسمى ايضا : بحيرة « آرال » او « بحر آرال » ،وهي بحيرة كبيرة في آسيا الوسطى ويصب فيها اهم نهرين في تركمنستان الروسية ، وهما نهر اموداريا او « جيحون »وسرداريا او « سيحون » . وصفها الاصطخري في كتابه : المسالك والممالك . ص ١٧٠ (القاهرة) بأنها بحيرة ملحة لا منفذ لها الا البحر ، وكذا وصفها ياقوت الحموي في كتابه : المشترك وضعاً والمفترق صقعا . ص ٣٨ . وينظر أيضاً : دائرة المعارف الاسلامية « الترجمة العربية » ٨ : ٤٧٧ .

(٣) جاء في رسالة ابن فضلان . ص ٩١ أن الغزية قبيلة من الاتراك ، لهم بيوت من الشعر ، يرتحلون من مكان الى مكان ، على عمل اهل البادية وتنقلهم . ويصفهم ابن فضلان بقوله : انهم كالحمير الضالة ، لا يدينون لله بدين ، ولا يرجعون الى عقل ، ولا يعبدون شيئا ، بل يسمون كبراءهم اربابا .

(٤) ينظر المسالك والممالك . ص ١٦٨ ، صورة الارض . ص ٣٩٥ ، تقويم البلدان . ص ١٠٥ .

(٥) ينظر كتابه : الأقاليم « مصور بالأوفست . مكتبة المثنى ــ بغداد » . ص ١٥٥ .

(٦) ينظر كتابه : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة . ص ٢٤٣ . « هذا الكتاب ضمن كتاب المسالك والممالك » .

انها : « ربّما أضيفت الى أعمالها لاتصالها لها[٧] » • وعدّه ابن عبد ربه الأندلسي، المتوفى سنة ٣٢٨هـ من مدائنها[٨] ، وكذلك فعل أبو اسحاق المنجم[٩] •

وذكره ابن حوقل ،وليس فيما ذكره اختلاف كبير عمّا جاء بهالاصطخري، وربّما هو نقل عنه[١٠] • ولم يَحِدْ أبو الفداء في وصفه للاقليم • عما جاء به سابقوه ، ولا سيّما الاصطخري وابن حوقل[١١] •

وسمّاه المقدسي « كورة »[١٢] وقال : « هي كورة على حافتي جيحون ، قصبتها العظمى بهيطل[١٣] ، ولها قصبة اخرى بخراسان[١٤] ••

أما ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، الذي زار هذا الاقليم سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، فقد وصفه بأنه : « اقليم منقطع عن خراسان » وعن ما وراء النهر[١٥] » •

---

(٧) ينظر كتابه : صنعة الكتابة « مخطوط » . ورقة ٧٤ .

(٨) ينظر كتابه : العقد الفريد ٧ : ٢٤٥ .

(٩) هو جغرافي من أهل القرن الخامس الهجري . ينظر كتابه : آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ــ ورقة ١٤. (خ) تصوير المجمع العلمي العراقي ، عن نسخة مصورة بمكتبة الفاتيكان . برقم (٢١٦) في المجمع العلمي العراقي .

(١٠) ينظر كتابه : صورة الارض . ص ٣٩٥ .

(١١) ينظر كتابه : تقويم البلدان . ص ٤٧٧ .

(١٢) الكورة : اسم فارسي بحت ، يقع على قسم من اقسام الاستان ، وقد استعارتها العرب ، وجعلتها اسما للاستان ، كما استعارت الاقليم من اليونانيين ، فجعلته اسما للكشخر . فالكورة والاستان واحد . وقيل: الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة او مدينة ، أو نهر يجمع اسمها . ينظر معجم البلدان ١ : ٣٦ (طبعة بيروت) .

(١٣) هيطل : اسم لبلاد ما وراء النهر ، وهي بخارى وسمرقند وخجند . ينظر معجم البلدان ٥ : ٤٢٢ (بيروت) .

(١٤) ينظر كتابه : احسن التقاسيم . ص ٢٨٤ .

(١٥) معجم البلدان ٤ : ٤٠٠ (طبعة لايبزك) .

ووصفه شيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٧هـ بأنه : « سقع[١٦] جليل يحيط به المفاوز[١٧] » .

ويقع اقليم خوارزم حالياً ، ضمن الإتحاد السوفيتي ، بعد أن وزع بين جمهوريتي أوزبكستان[١٨] وتركمانستان السوفيتيتين[١٩] ، بعد غزو الروس له ، وخلعهم أميره « خان خيوه » السيد عبدالله خان بهادر ، في سنة ١٩٢٤م[٢٠] .

وقد اتفقت الروايات ، على أن هذا الاقليم فتحه العرب صلحاً ، في سنة ٩٣هـ/٧١٢م[٢١] ، على يد قتيبة بن مسلم الباهلي . وقد سبق فتح قتيبة هذا،

---

(١٦) السقع : هكذا وردت بالاصل بالسين . والسقع والصقع : الناحية . « والصاد احسن » .

(١٧) ينظر كتابه : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر . ص ٢٢٣ .

(١٨) تقع جمهورية أوزبكستان الاشتراكية السوفيتية ، في أقصى جنوب الاتحاد السوفيتي ، نحو الشرق من بحر قزوين . ينظر عنها : جغرافية الاتحادالسوفيتي ـ ستروييف ـ ص٢٨٩ . مط ، دارالتقدم . موسكو . ، نظرة الى الاتحاد السوفيتي ـ نقولا ميخائيلوف . ص ١٦٨ . مط .دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية . موسكو .

(١٩) ينظر : جغرافية الاتحاد السوفيتي الاقتصادية ـ بارانسكي ـ « الترجمة العربية » . ص ٣٢٥ ، ٣٣٠ . مط . دار الطبع والنشرباللغات الاجنبية. موسكو . سنة الطبع ١٩٦٠م ، اطلس التاريخ الاسلامي ـ هازارد « الترجمة العربية » . ص ٣٩ ـ ٤٠ ، مط . النهضة المصرية ـ القاهرة. سنة الطبع : ١٩٥٤م .

(٢٠) ينظر : تقويم العالم الاسلامي ـ جمعية الدراسات الاسلامية . ص٢٦٢. القاهرة ١٩٧٠م .

(٢١) ينظر : تاريخ الرسل والملوك ٨ : ٨٣ ، تاريخ ابن خلدون ٣ : ١٣٧ ، النجوم الزاهرة ١ : ٢٢٦ ، وانفرد الذهبي في كتابه : تاريخ الاسلام ٣ : ٣٢٦ بانه فتح سنة ٩١هـ . ونود ان نشير الى ان اسم هذا الكتاب ورد في طبعة السعادة باسم : تاريخ الاسلام السياسي ، وورد في نشر مكتبة القدسي باسم : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهيروالاعلام . كما انفرد المنصوري في تاريخه . ص ٨١ بانه فتح سنة ٩٢هـ . وقد راينا ان الروايات أجمعت على انه فتح صلحا . وانفرد مؤلف كتاب : العيون والحدائق في اخبار الحقائق ٣ : ٢ بقوله : انه فتح عنوة من قبل قتيبة بن مسلم الباهلي ، مثله في ذلك مثل كش وغيرها .

عدة غزوات لهذا الاقليم ، ولكنها لم تؤد الى نتيجة ، وأشهر تلك الغزوات،غزوة سلم بن زياد(٢٢) ، سنة ٦٢هـ، في زمن يزيد بن معاوية، وغزوة يزيد بن المهلب ابن أبي صفرة ، الذي كتب اليه الحجاج بن يوسف الثقفي ، عندما كان والياً على العراق ، على ما يذكر الطبري في تأريخه ، موعزاً اليه بغزو هذا الاقليم ، ولكن يزيد رد عليه بقوله : «أيها الأمير انها قليلة السلب، شديدة الكلب(٢٣)»، وعند ذلك أمره الحجاج ان يستخلف أحداً على خراسان ، ويذهب هو اليه ، فردّ عليه يزيد بأنه يريد غزو هذا الاقليم ، وقد عزم على ذلك ، فغزاه وأصاب سبياً ، وصالحوه على مال كثير(٢٤) ، وافتتح كَنْداكين(٢٥) وبخارى(٢٦) .

وقد كان لهذا الفتح أثره في النفوس ، حيث تغنى به الشعراء ، مباركين لقتيبة بن مسلم بهذا النصر ، الذي حققه في ضم هذا الاقليم الى حظيرة الاسلام . ويقول الكميت الأسدي في ذلك ، منوّهاً بفتح قتيبة لهذه البلاد ، وبغزوته لبلاد الصغد(٢٧) .

وَبَعْدُ في غَزْوَةٍ كانتْ مباركةً
تَرْدي زَراعةَ أقْوامٍ وَتَحْتَصِدُ(٢٨)

(٢٢) كان واليا على خراسان سنة ٨٢هـ ، وعزله الحجاج بن يوسف الثقفي ، سنة ٨٥هـ ، وولى بعده قتيبة بن مسلم الباهلي . ينظر تاريخ الرسل والملوك ٨ : ١١٤٣ ، مختصر التاريخ . ص ٨٤ ، الاعلاق النفيسة ٧: ٢٢٩، الوزراء والكتاب ــ الجهشياري . ص ٢١ . تحقيق : مصطفى السقا واخرون . مط ، البابي الحلبي ــ القاهرة . ط ١ ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م . وفي العبر في خبر من غبر ١ : ٦٦ جاء اسمه : « سلم بن احور » .

(٢٣) الكلب : انف الشتاء وشدته .

(٢٤) ينظر تاريخ الرسل والملوك ٨ : ١١٤٣ . وفي كتاب البدء والتاريخ المنسوب للبلخي ٦ : ٣٨ «ان سبي خوارزم وفرغانة بلغمائة الف رجل».

(٢٥) كنداكين : من قرى الصغد . وفي معجم البلدان ٣ : ٢٢٢ أن الصحيح ان يقال : السغد « بالسين » ، وربما يقال بالصاد .
والسغد : ناحية من نواحي بخارى ، كثيرة المياه ، نضرة الاشجار .

(٢٦) ينظر البلدان ــ اليعقوبي . ص ٦٣ مط ، الحيدرية . النجف ١٩٣٩م. وفي طبعة ليدن . ص ٢٩٩ . تاريخ الاسلام للذهبي ١ : ٢٩٨ .

(٢٧) ينظر تاريخ الرسل والملوك ٨ : ١٢٨١ « حوادث سنة ٩٦هـ » .

(٢٨) الزراعة : الارض التي تزرع .

نالَتْ غَمامَتُهـا فيـــلاً بوابِلِهـــا
والسُّغْدَ حينَ دَنا شُؤْبوبُها البَرِدُ[29]

إذ لا يَـــزالُ لـــه نَهْبٌ يُنَفِّلُـــهُ
من المقاسِـــمِ لا وَخْشٌ ولا نَكَـدُ[30]

تِلْكَ الفُتوحُ التي تَدْلي بِحُجَّتِهـا
على الخَليفـةِ أنّـا مَعْشَـرٌ حُشُدُ

لم تَثْنِ وَجْهَـكَ عن قَوْمٍ غَزَوْتَهُمُ
حَتّى يُقالُ لَهُمْ بُعْـــداً وَقَدْ بَعِدوا

لم ترضَ مِنْ حِصْنِهِمْ إن كانَ مُمْتَنِعاً
حتى يُكَبِّرَ فيـهِ الواحِـدُ الأحَـدُ

ومما قاله كعب الأشقري في هذا المجال[31] :

---

(٢٩) فيل : هي مدينة الجرجانية ، كانت قديما تسمى فيل ، ثم سميت المنصورة ، ثم كركانج . ينظر عنها معجم البلدان ٤ : ٢٨٦ (بيروت) .
البَرِد ، والبَرَد من السحاب : ذو البرد ، ويقال : سحاب برِد وابرد ، لشدة برده .

(٣٠) النفل : الغنيمة والهبة . ونفلت فلانا اعطيته نفلا وغنما .
الوخش : الرذل من كل شيء . وجمعه اوخاش ووخاش : وهم رذال الناس وسقاطهم ، ووخش توخيشا بعطية : أي أقلها له .
نكد : نكده حاجته : اذا منعه اياها ، أو منعه ما سأله ، أو لم يعطه الا اقله ، ونكد نكدا عيشه : اشتد وعسر ، فهو نكد وفيه نكاد .

(٣١) ينظر : تاريخ الرسل والملوك ٨ : ١٢٣٩ ـ ١٢٤٠ . « حوادث سنة ٩٣هـ » . وفي فتوح البلدان . ص ٤١١ « البيت الاول من هذه الابيات» وفيه بعض الاختلاف .
وكعب الاشقري : هو كعب بن معدان الاشقري ، نسبة الى الاشاقر « قبيلة من الازد » وامه من عبد القيس . وهو شاعر فارس خطيب معدود في الشجعان .
تنظر ترجمته في : الاغاني ١٤ : ٢٦٦ . (طبعة بيروت ١٩٥٩م) .

رَمَتْكَ فيـــلُ بمـــا فيهـــا وما ظَلَمَتْ
وَرامَها قَبْلَكَ الفَجْفاجَةُ الصَّلِفُ(٣٢)

لا يُجْزِيءُ الثَّغْرَ خوّارُ القَنـــاةِ ولا
هَشُّ المَكاسِرِ والقَلْبُ الذي يَجِفُ(٣٣)

هَـــلْ تَذْكُرونَ ليالي التُرْكُ تَقْتُلُهُمْ
ما دون كازَةَ والفَجْفاجُ مُلْتَحِفُ(٣٤)

لمْ يَرْكبوا الخَيْلَ الاّ بَعْدَما كَبِــرُوا
فَهُمْ ثِقـــال على اكتـــافِهـا عُنُفُ

لو كُنْتَ طاوَعْتَ أهْلَ العَجْزِ ما اقْتَسَموا
سَبْعينَ ألفاً وعِزِّ السُّغدِ مُؤْتَنِفُ(٣٥)

وفي سَمَرْقَنْدَ أُخْرى أَنْتَ قاسِمُها
لَئِنْ تأَخَّرَ عن حوبائِــكَ التَلَفُ(٣٦)

ما قَــدَّمَ الناسُ من خَيْرٍ سَبَقْتَ بِــهِ
ولا يفوتُكَ ممّـــا خَلَّفوا شَـــرَفُ

ففي هذه القصيدة نرى الاشقري يمدح قتيبة بن مسلم ، لفتحـــه فيل

---

(٣٢) الفجفج والفجفاج والفجافج : الرجل الكثير الكلام ، المتشـــيع بما ليس عنده ، أو الكثير الصياح والجلبة ، أو الكثير الكلام بلا نظام .
الصلف : البين الصلف : الصَّلفَ : التمدح بما ليس عندك ، ومجاوزة قدر الظرف والبراعة والادعاء فوق ذلك تكبرا .

(٣٣) يجزيء : يكتفي ويقتنع .

(٣٤) كازة : من قرى مرو . والنسبة اليها « كازاقي » بالقاف ، وقد ينسب اليها كازي أيضاً . واليها ينسب أحمد بن عبدالرحمن بن المنذر الكازي. ينظر معجم البلدان ٤ : ٤٣٠ (بيروت) .

(٣٥) مؤتنف : المؤتنف من المراعي : الذي لم يؤكل بعد .

(٣٦) حوبائك : الحوباء والحوب : النفس ، وجمعها حوباوات .

والسُّغْد وسَمَرْقَنْد ، ولعله يعرّض في هذه الأبيات ، بيزيد بن المهلب ، لأنه غزاها قبل قتيبة ولم يفلح في فتحها .

ويقال إنّ قتيبة بن مسلم الباهلي ، استطاع أن يفتح خوارزم وكش وسمرقند وغيرها من البلاد في عام واحد ، وفي ذلك يقول كعب الأشقري أيضاً[٣٧] :

كُلَّ يومٍ يَحْوي قتيبة نَهْبا ... وَيَزيدُ الأموالَ نهباً جديدا
باهليٌّ قد أُلْبِسَ التاجَ حتى ... شابَ منه مفارقُ كُنَّ سودا
دَوَّخَ الصُّغْدَ بالكتائبِ حتى ... تَرَكَ الصُّغْدَ بالعراءِ قُعودا
فَوليدٌ يَبْكي لفقدِ أَبيهِ ... وأبٌ موجَعٌ يَبْكي الوَليدا
كلَّما حَلَّ بَلْدَةً وأتاها ... تَرَكَتْ خَيْلُهُ بها أُخْدودا

يضم اقليم خوارزم مدناً وقرى عديدة ، وجاء في كتاب نخبة الدهر[٣٨] : « ان عمل خوارزم يشتمل على ستين ألف قرية » . ومن أهم مدنها : مدينة « كُرْكانج » وهي قصبة الاقليم ومدينته العظمى ، وكركانج اسمها بلغتهم ، وقد عرّبوها فقيل لها « الجرجانية » ، وهي على ضفة جيحون الغربية،اشتهرت بعلمائها وفضلائها ، وصناعها الماهرين . وقد خربها التتر سنة ٦١٨هـ ، وقتلوا أهلها ، ولم يبق منها الا معالمها على ما تروي الأخبار . وأهل هذه المدينة ، كلّهم معتزلة على ما ذكر القزويني[٣٩] ، والغالب عليهم ممارسة علم الكلام ، حتى في الاسواق والدروب يناظرون من غير تعصب في علم الكلام ، واذا رأوا من أحد التعصب ، انكروا عليه ذلك قائلين : « إنّ الغلبة بالحجة ، وايّاك وفعل الجهّال » .

وذكر ياقوت الحموي[٤٠] ، والقلقشندي[٤١] ان هناك مدينة أخرى

---

(٣٧) ينظر العيون والحدائق في اخبار الحقائق ـ لمؤلف مجهول ٣ : ٣ .
(٣٨) ينظر ص ٢٢٣ .
(٣٩) ينظر كتابه اثار البلاد واخبار العباد . ص ٥١٩ ـ ٥٢٠ .
(٤٠) ينظر كتابه : المشترك وضعا والمفترق صقعا . ص ٣٧٠ ، معجم البلدان ٤ : ٤٥٢ .
(٤١) ينظر كتابه : صبح الاعشى ٤ : ٤٥٥ .

بنفس الاسم ، وتميز عن الأولى بتسميتها الصغرى ، وتعرف بالجرجانية أيضاً ، بينها وبين الكبرى عشرة أميال • قال ياقوت في « المشترك » : إنّها كانت حينما زارها سنة ٦١٦هـ ، عامرة آهلة ، ذات سوق مستطيل • وقد خربها التتر أيضاً سنة ٦١٨هـ • والى هذه المدينة ينسب أبو نصر محمد بن أحمد بن علي بن حامد الكركانجي[٤٢] ، المقريء المعروف ، الذي يقول ياقوت الحموي عنه : إنّه رحل الى الآفاق في علم القراءات ، وصنف تصانيف مفيدة •

وتأتي مدينة « كاث[٤٣] » بالدرجة الثانية ، بعد مدينة « كركانج » الكبرى ، وقد كانت قاعدة خوارزم في القديم ، ومن أجلّ مدنه •

وضم اقليم خوارزم الى جانب هاتين المدينتين مدناً أخرى أهمها : دَرْغان[٤٤] : على شاطيء جيحونُ ، في آخر حدود خوارزم ، الى جهة مرو[٤٥] • بينها وبين هَزاراسْب أربعة وعشرون فرسخاً • وتقع على جرف عال ، على سن جبل بناحية البر ، وبينها وبين جيحون مزارع وبساتين ، وتبعد عنه نحو ميلين[٤٦] • ويقول ياقوت الحموي إنّه رآها سنة ٦١٦هـ ، عندما زار اقليم خوارزم ، وقد كانت عامرة ، مزدحمة السكان •

ومن هذه المدينة المحدث المشهور ، أبو بكر محمد بن أبي سعيد بن محمد الدَرْغاني •

---

(٤٢) ذكر ياقوت الحموي في « المشترك » ص ٣٧١ انه ولد بمرو في حدود سنة ٣٩٠هـ ، وتوفي سنة ٤٨٤هـ .

(٤٣) و « كاث » الحائط في الصحراء ، من غير أن يحيط به شيء . وهي بلدة كبيرة من نواحي خوارزم ، الا انها من شرقي جيحون ، واكثر نواحي خوارزم من ناحية جيحون الغربية . بينها وبين كركانج عشرون فرسخا. ينظر معجم البلدان ٤ : ٤٢٧ (السعادة) .

(٤٤) هكذا ضبطها ياقوت الحموي في كتابه : معجم البلدان ٢ : ٥٦٧ (لايبزك). وضبطها القلقشندي في كتابه : صبح الاعشى ٤ : ٤٥٦ « دَرْعان » بالدال .

(٤٥) صبح الاعشى ٤ : ٤٥٦ .

(٤٦) ينظر معجم البلدان ٢ : ٥٦٧ ــ ٥٦٨ . (لايبزك) .

أما هِزاراسْب[٤٧] التي مرّ ذكرها قبل قليل ، فهي أيضاً من المدن المهمة، ويقال لها بالفارسية « هِزاراسْف » وهي قلعة حصينة ، ذكرها السمعاني في كتابه الأنساب[٤٨] .

ويحيط الماء بهذه المدينة ، وليس لها الاّ طريق واحد ، وهي بهذا تشبه الجزيرة . وبين هزاراسب وبين مدينة « كاث » ستة فراسخ[٤٩] . والى هذه المدينة تنسب رحمة بنت ابراهيم الهزاراسبية ، التي تدور حولها حكاية أشبه بالأساطير ، فهي على حدّ قول القزويني ، مشهورة بأنها ما تناولت طعاما ثلاثين سنة . ويروي القزويني أيضاً : أنه سمع من أبي العباس المروزي : أنها إذا شمّت رائحة الطعام تأذت ، وأنها ذكرت أن بطنها لاصق بظهرها . ولذا فإنها أخذت كيساً فيه حب القطن ، وشدته على بطنها ، لئلا يقصف ظهرها . وقد توفيت سنة ثمان وستين ومائتين[٥٠] . وأهل هِزاراسب أهل ثروة . وفي المدينة أسواق كثيرة وبزازون[٥١] على ما ذكر ياقوت الحموي . ثم قال : « عهدي بها كذلك في سنة ٦١٦هـ ، والله أعلم بما جرى عليها في فتنة التتر »[٥٢] .

أما « خِيْوَق » فهي بلد من نواحي خوارزم ، وحِصن من حصونها . وأهل خوارزم يقولون « خيوه[٥٣] »، وذكر صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي ، أن أهلها كلهم شافعية ، دون بلاد خوارزم كلّها ، فإنها حنفية معتزلة[٥٤] . والى هذه المدينة ينسب الشيخ الإمام قدوة المشايخ ، أبوالجنّاب أحمد بن عمر بن محمد الخِيْوَقي ، المعروف بكبرى ، وقد كان أستاذ وقته ،

---

(٤٧) معناها بالفارسية الف فرس . ينظر معجم البلدان ٥ : ٤٠٤ (طبعة بيروت) .

(٤٨) ينظر : ورقة ٥٩٠ « مخطوط مصور » .

(٤٩) ينظر تقويم البلدان . ص ٤٧٨ ، صبح الاعشى ٤ : ٤٥٥ .

(٥٠) ينظر اثار البلاد واخبار العباد . ص ٥٦٧ .

(٥١) البزاز : بياع البز . والبز : الثياب أو متاع البيت من الثياب ونحوها والسلاح .

(٥٢) ينظر معجم البلدان ٥ : ٤٠٤ .

(٥٣) ينظر : ذيل لب اللباب « مخطوط » . ورقة ٢٣ .

(٥٤) ينظر : مراصد الاطلاع . ص ٣٨٠ . (بريل ١٨٥٢) .

وشيخ الطائفة ، وفريد عصره ، على حد قول القزويني . قتله التتار عندما اجتاحوا البلاد ، وهو يدافع عن خوارزم ، سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م(٥٥) .

كما ينسب اليها الشيخ الفاضل العالم ، شهاب‌الدين الخَيْوَقي ، الذي كان نائباً للسلطان خوارزم شاه ، في جميع مملكته ، والذي يقال بأن المدرسين والقضاة والعلماء ، كانوا يحضرون درسه ، كلما دخل مدينة من المدن . وقال القزويني عنه إنّه كان : « شافعي المذهب ، متعصباً لأصحابه(٥٦) .

ومن مدن هذا الإقليم أيضاً : «بَرْقان» : وهي من قرى شرقي جيحون، على شاطئه ، بينها وبين الجرجانية يومان ، وقد خربت اثناء الغزو التتاري لها . والى هذه المدينة ينسب الإمام الحافظ ، أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب البَرْقاني « ٣٣٦ ــ ٤٢٥هـ »(٥٧) .

أما « مَنْقَشْلاغ » فهي من القلاع الحصينة ، في آخر حدود خوارزم . وهي بين خوارزم وسَقْسين ونواحي الروس ، قرب البحر الذي يصب فيه جيحون ، وهو بحر طبرستان .

وفي هذه المدينة قال أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي ، مادحاً خوارزم شاه اتسز حينما فتحها(٥٨) :

أرسلتَ في شمِ منقشلاغ صاعِقَةً   منالظّبى صَعِقَتْ مِنْها أهاليها(٥٩)

أما « كَرْدَر » فهي ناحية من نواحي هذا الاقليم ، ولأهلها لسان ليس خوارزمياً ، ولا تركياً . وصف ياقوت الحموي أهلها بأنهم أدنياء النفوس ، بالرغم من أن لهم أموالاً ومواشيَ .

---

(٥٥) ينظر عطار نامة ص ١٦٤ ، وينظر كتاب دول الاسلام للذهبي ١ : ٩٣ وفيه انه استشهد سنة ٦١٩هـ والصحيح انه استشهد سنة ٦١٨ هـ . كما ورد في اكثر المصادر .
ينظر طبقات الشافعية ــ الاسنوي ٢ : ٣٥٦ ، شذرات الذهب ٥ : ٧٩ .

(٥٦) آثار البلاد واخبار العباد . ص ٥٢٩ .

(٥٧) ينظر معجم البلدان ١ : ٣٨٧ (بيروت) ، المشترك . ص ٤٦ .

(٥٨) ينظر معجم البلدان ٤ : ٩٧٠ (لايبزك) .

(٥٩) الظبى : الظبَة : طرف السيف وحده ، وكذلك في السنان والخنجر وما اشبه ذلك ، والظبي : سمة لبعض العرب .

وفي هذه المدينة ، نبغ كثير من المحدثين منهم : عبدالغفور بن لقمان ابن محمد أبو المفاخر الكَرْدَري ، المتوفى سنة ٥٦٢هـ . وتشتمل هذه الناحية على عدة قرى[٦٠] .

أما زَمَخْشَر فهي قرية من قرى خوارزم[٦١] ، عليها حصن وخندق ومحبس ، وأبواب محددة ، وجسور ترفع كل ليلة ، وجادّة تشق البلد . وفيها جامع بطرف السوق . ينسب اليها الامام الزمخشري .

ومن قرى هذا الاقليم « تُمَرْتَاش » وفيها يقول بعض فضلائها :

حَلَلْنا تُمُرْتاشَ يوم الخميس وَبِتْنا هناكَ بدارِ الرئيس

هذه أهم المدن التي رأيت أن أشير اليها ، وهذا لا يعني أن غيرها من مدن هذا الاقليم ، يقلّ عنها أهمية ، فهناك الكثير من المدن الأخرى مثل : غزنيز وجغمين وأرذ خيوه ونوكفاغ وخاص وغيرها ، وكلّها لا تقلّ أهمية عما ذكرنا .

أما مناخ اقليم خوارزم ، فيتصف بالبرودة الشديدة ، التي جعلت ابن خلكان يبالغ في قوله : إنّ بردها يؤثر على أطراف الإنسان ، فتقع أو تسقط ، وكأنه يستدرك ما في قوله هذا من مبالغة ، فنراه يؤكد كلامه قائلا : « وإنه من الخطأ أن يستبعد الانسان مثل هذا القول ، لأنه رأى بنفسه خلقاً كثيراً ممّن سقطت أطرافهم بسبب البرد[٦٢] » .

وهذا القول وان كان مبالغاً فيه ، الاّ أنه يدل على أن تلك البلاد ، شديدة البرد الى درجة التثلج ، وقد سألت بعض من زاروا المنطقة ، فأكدوا لي أن البرد في تلك البلاد لا يطاق ، وأنهم رأوا تجمد نهر جيحون ، ومسير القوافل والناس والدواب عليه .

---

(٦٠) ينظر عنها المصدر السابق ٤ : ٤٥٠ (طبعة بيروت) ، الجواهر المضية ٢ : ٨٢ .

(٦١) في أحسن التقاسيم . ص ٢٨٩ انها قرية كبيرة من قرى خوارزم . وفي تاج العروس ٣ : ٢٤٢ انها قرية صغيرة بنواحي خوارزم ، وان الزمخشري لما سئل عن مولده ، قال : انه بقرية مجهولة من خوارزم ، يقال لها « زمخشر » .

(٦٢) ينظر وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٥ .

وهذا يؤكد قول ياقوت الحموي الذي زار المنطقة ، وذكر أنــــه رأى جيحون وقد تجمد ، وأصبح حاله حال الارض ، كما رأى مسير الناس عليه ومسير القوافل والدواب كالخيل والفيلة والأغنام[٦٣] .

ويؤيـــــد قول ياقوت ما جاء في رسالة ابن فضلان ، الذي زار كركانج عاصمة هذا الاقليم ، ومكث فيها أياماً ، ورأى تجمد نهر جيحون ، ورأى مسير الناس والحيوانات عليه . يقول : إن جيحون بقي متجمداً لا يتخلخل ثلاثة أشهر . ووصف البلد عندما دخلها بقوله : « فرأينا بلداً ما ظننا الا ّ أن باباً من الزمهرير قد فتح علينا منه[٦٤] » .

ولذلك رأينا ياقوت الحموي وابن فضلان وغيرهما من المؤرخين يقولون عن أهل ذلك الاقليم : « إذا أتحف الرجل من أهله صاحبه ، وأراد برّه قال له: تعال اليّ حتى نتحدث فإن عندي ناراً طيبة ، هذا إذا بالغ في برّه وصلته ، الا ّ أن الله قد لطف بهم في الحطب ، وأرخصه عليهم ، حملة عجلة[٦٥] مـــن حطب الطاغ[٦٦] بدرهمين ، من دراهمهم » .

وقيل أبرد البلدان ثلاثة : هَمَذان وقالِيقَلا[٦٧] وخوارزم[٦٨] . قال الثعالبي في برد هذا الاقليم[٦٩] :

---

(٦٣) ينظم معجم البلدان ٣ : ٤٧٤ . (السعادة) .
(٦٤) ينظر رسالة ابن فضلان . ص ٨٣ .
(٦٥) العجلة : خشب تؤلف فتحمل عليها الاثقال .
(٦٦) الطاغ : الغضا وهو من نباتات الرمل ، ترعاه الاغنام والمواشي ايضـــا ، والكلمة تركية معربة .
(٦٧) قاليقلا : بأرمينية العظمى . وتقع في الاقليم الرابع ، من اقاليم الارض السبعة على ما قسمها الجغرافيون . وينسب اليها الاديب العالم ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي . فتحت في زمن عبدالملك بن مروان ، فتحها ابنه عبيد الله ، سنة احدى وثمانين . وينظر معجم البلــدان ٤ : ٢٩٩ ـ ٢٣٠ . (طبعة بيروت) .
وينظر : الكامل في التاريخ ٤ : ٤٥٧ « حوادث سنة احدى وثمانين » .
(٦٨) ينظر مختصر كتاب البلدان ـ الهمذاني . ص ٢٢٩ .
(٦٩) ينظر كتابه : خاص الخاص . ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ ، لطائف المعارف ص٢٢٧،

للهِ بَــــرْدُ خُــوارَزمٍ إذا كَلِبَتْ
أنيــابُه ، وَكَسَتْ أبدانَنا الرَّعَدا [٧٠]

فالشمسُ محجوبةٌ والريحُ مُدْميَــــــةٌ
جُلودَ قَوْمٍ أضــاعوا الصَّبــر والجَلَدا

والماءُ مُسْتَحْجِرٌ ، والكَلْبُ مُنْحَجِرٌ
والزَّمْهَرِيرُ يَسوق الصَّر والصَّرَدا [٧١]

فَلَوْ تُقبِّــلُ مَعْشوقاً مُخالســــةً
رأيتَ فاكَ على فيــه وَقَــدْ جَمَــدا

وهذا معنى مبتكر .

ومثل هذا ما قيل عن همذان في قول أبي سرح [٧٢] :

النــارُ في هَمَذانَ يَبْرُدُ حَرُّهـــــا
والبَــرْدُ في هَمَــــذانَ داءٌ مُسْقِمُ

والفَقْر يُكْتَمُ في بــلادٍ غَيْرِهـــا
والفَقْرُ في هَمَــــــذانَ ما لا يُكْتَمُ

قـــد قالَ كِسْرى حينَ أبْصَرَ بَلْدَكُمْ
هَمَــــذانُ فانْصَــرِفوا فتلكَ جَهَنَّمُ

أو قول بعض الشعراء يصف بردها ، الذي لا يتخلص الإنسان منه ، مهما لبس من الملابس والفراء [٧٣] :

---

(٧٠) الكلب : انف الشتاء وشدته . وقد جاء تفسيره في ص ١٦ من هــذا الكتاب .

(٧١) الصر : البرد . ويقال : ريح صر : اي شديدة البرد او الصوت . الصرد : « بسكون الراء وفتحها » : البرد ايضا ، وقيل شدته .

(٧٢) ينظر مختصر كتاب البلدان . ص ٢٢٩ . ، معجم البلــدان ٥ : ٤١٣ (بيروت) .

(٧٣) ينظر المصدر السابق . ص ٢٣٧ .

وليسَ يَقي مِنْ بردِها جِلْدُ ثَعْلَبٍ
بخُوارَزْم مَدْبوغٌ بغَبْرِ تواني
ولا جلدُ سَمُّور ولا الفَنَكُ الذي
يُوَقى به المَقْرورُ حَرَّ عُمانِ
وليسَ يَقيهم منه لَفْحُ جَهَنَّمٍ
وما لَهُمُ بالزَّمْهَريرِ يَدانِ

وقد ذكر الشاعر في هذه الأبيات ، بعض أنواع الفراء ، التي اشتهر بها اقليم خوارزم ، كما سنرى أثناء كلامنا عن الحياة الاقتصادية .

ويرى الثعالبي ان احسن ما قيل في البرد هو قول الهمذاني(٧٤) :

يوم من الزمهرير مقرور عليه جيب الضباب مزرور
وشمسه حرة مخدّرة لم يبد لي من ضيائها نور
كأنما الجو حشوه برد والأرض من تحته قوارير

وأكثر المصادر التأريخية التي اطلعت عليها ، لم تتعرض لشيء عن مناخ هذا الاقليم عدا شدة برودته وثلوجه.وانفردت Encyclopedia Britnnica بأن وصفت مناخه بأنه : قاريّ شديد الجفاف(٧٥) .

وأكثر المصادر التأريخية التي أطلعت عليها ، لم تتعرض لشيء عن مناخ تغذي أراضيه عدة أنهار ، ذكرها المستشرق كي لسترنج "Guy-Lestrange" في كتابه : بلدان الخلافة الشرقية أهمها : نهر « كَاوْخُواره » وتفسيره : آكل البقر . عمقه نحو قامتين ، وعرضه خمس ، يأخذ من ضفة جيحون اليمنى (أي الشرقية)، ويسقي الكثير من مزارع الاقليم ، وتجري فيه السفن .

ومن غرب جيحون يأخذ جملة انهار ، يمر أحدها بمدينة « هزاراسب » ويسقي جميع رساتيقها ، وتجري فيه السفن أيضاً ، على الرغم من أنه نصف سعة نهر « كَاوْخُواره » .

---

(٧٤) احسن ما سمعت ص ٦٩ .
(٧٥) ينظر : ١٣ : ٣٣٣ .

وقد فصل المستشرق لسترنج القول في انهار هذا الاقليم ، التي تروي أراضيه وبساتينه[٧٦] .

وتحدثنا المصادر التأريخية والجغرافية[٧٧] عن خيرات هذا الاقليم ورخائه، وانتعاشه ، وازدهار التجارة فيه لازدهار زراعته . فالقزويني وصفه بأنه من : « أنزه النواحي وأخصبها وأكثرها خيراً ، وهواؤها أصح الأهوية ، ومياههـا أعذب المياه وأخفها ، وترابها أطيب الاتربة » .

ووصفه البشاري المتوفى سنة ٣٧٥هـ بأنه : « متصل البساتين ، كثـير المعاصر والمزارع ، والشجر والفواكه والخيرات » .

وجاء في وصف ياقوت له أنه : « موفور الخيرات ، كثير الثمرات ، جميل المناظر ، كثير المزارع والأشجار » . ولكنه قال عن أرضه : إنها رديئة وكثيرة السبخ والنزوز ، ومع ذلك كثيرة العمارة .

وأخيراً نقول : إنّ اقليم خوارزم لم يكن بمعزل عما يجاوره من أقـاليم وأمصار ، على الرغم من أن بعض الجغرافيين وصفوه ــ كما رأينا ــ بأنـه منعزل ، أو شبه منعزل ، ولعل نشاط الحركة التجارية ، والحركة العلميـة والثقافية ، من أهم الأسباب لاستمرار اتصاله بالاقاليم الاخرى ، فقـد وصل تجارهم ــ كما سنرى ــ الى حدود الصين ، ورحل منهم من رحل الى مصر والعراق ، والشام وخراسان وبخاري وغيرها لطلب العلم ، ووفد الى اقليمهم كثير من العلماء والفقهاء ، والأدباء والشعراء الذين استقروا به ، واتخذوه وطناً لهم ، ومن هؤلاء الشاعر رشيد الدين الوطواط ، من أهل بلخ ، والشاعر محمد ابن عبدالملك الكلثومي ، من اهل خراسان ، والشاعر القاضي ، يعقوب بن الجَنْدي ، من أهل جَنْد من بلاد تركستان وغيرهم . ولعل هذا يفسر لنـا الحياة الثقافية العالية ، التي كان عليها هذا الاقليم ، حيث أثّر وتأثر بالثقافات المحلية والوافدة .

---

(٧٦) ينظر كتابه بلدان الخلافة الشرقية . ص ٤٩٥ ــ ٢ . ٥ .

(٧٧) ينظر آثار البلاد وأخبار العباد . ص ٥٢٥ ، أحسن التقاسـيم في معرفة الاقاليم . ص ٢٨٤ . ، معجم البلدان ٣ : ٤٧٤ (السعادة) .

الحالة السياسية والادارية :

وأما الحياة السياسية فهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحياة الاجتماعية وتعدّ مدة حكم العرب إقليم خوارزم ، خير فترة مرّت به استقراراً وقوة ، فقد تسلموا مقاليد الحكم بعد الحكم الساساني ، الذي ظلم البلاد وأرهقها بالضرائب .

وقد وجدنا أكثر المصادر التأريخية والجغرافية[1] ، تتفق على أن هذا الاقليم فتح صلحاً عام ٩٣هـ ، فتحه قتيبة بن مسلم الباهلي ، حين دعاه ملك خوارزم ، الذي كان ضعيفاً مغلّباً ، فقد كان أخوه « خُرَّزاد » متغلبا عليه ، سيء الخلق ، يعيث في الأرض فساداً ، ويسلب وينهب ، حتى كان إذا بلغه أن لدى أحدهم جارية أو زوجة جميلة أو بنتاً ، أو متاعاً فاخراً ، أرسل اليه وأخذ ذلك الشيء عنوة .

خضع أقليم خوارزم للحكم العربي مدة ، وقسمت البلاد الى ولايات، يعين على كل ولاية وال أو عامل[2] ، من قبل الأمويين ، ثم العباسيين رأساً[3] ، ويذكر البلاذري في كتابه : فتوح البلدان[4] ، أن أهل خوارزم ، قد وثبوا على ملكهم خوارزم شاه ، بعد الفتح العربي فقتلوه ، لضعف شخصيته . وعند ذلك ولّى قتيبة بن مسلم أخاه عبيد الله بن مسلم على هذا الاقليم[5] .

---

(١) ينظر تاريخ الرسل والملوك ٨ : ١٢٣٦ ، فتوح البلدان . ص ٥٩١-٥٩٢ (بيروت) . ، الكامل في التاريخ ٤ : ٥٦٩ ، تاريخ ابن خلدون ٣ : ١٣٧، البداية والنهاية ٩ : ٨٤ .

(٢) كان عامل قتيبة على خوارزم اياس بن عبدالله بن عمرو وكان ضعيفاً، ولذلك نحاه قتيبة ووجه عاملا اخر هو عبدالله بن المغيرة بن عبدالله . وكان على خراجها عبيدالله بن ابي عبيدالله ، مولى بني مسلم . ينظر تاريخ الرسل والملوك ٨ : ١٢٥٢ - ١٢٥٣ .

(٣) للتفصيل ينظر تاريخ ايران - مكاريوس . ص ١٠٤ - ١٠٩ .

(٤) ينظر ص ٤١٠ (طبعة السعادة) .

(٥) ينظر المصدر السابق . ص ٤١٠ .

ثم آل الأمر فيـــــه الى ثلاث دول متتابعة ، أولاها الدولة السامانية • (٢٦١ ــ ٣٨٩هـ/٨٧٤ ــ ٩٩٩م) ، وقد نشأ هؤلاء في بلخ ، وأتخذوا بخارى عاصمة لهم • وكان أمراؤهم يحكمون ولايات من خراسان وسـجستان وبلخ، وما وراء النهر ، ولا يقرون بالسيادة للعباسيين[٦] • وكانوا في عصرهم أصحاب سلطان ونفوذ بالمشرق كله ، ثم تقلص ظلهم فشمل خراسان وما وراء النهر ، حتى قضى محمود بن سبكتكين الغزنوي على دولتهم سنة ٣٨٩هـ ، وبهذا أصبح أقليم خوارزم ، من ممالك محمود بن سبكتكين ، وابنه مسعود من بعــده ، وعيّن التونتاش حاجب محمود والياً عليه ، فوليه لهما معاً[٧] •

والدولة الثانية التي حكمت هذا الاقليم ، هي الدولة السلجوقية العظمى، (٤٢٩ــ٥٥٢هـ/١٠٣٧ــ١١٥٧م) ، وعدد ملوكهم أربعة عشــر ملكاً ، أولهم السلطان ركن الدين ميكائيــل ، وآخرهم السلطان مغيث الدين طغرلبك بن أرسلان[٨] ، الذي قتل على يد خوارزم شاه ، علاءالدين تكش[٩] • وبهذا زال حكم السلاجقة عن اقليم خوارزم •

وقد اشتهر السلاجقة بعد دخولهم بلاد الاسلام بلقب « التركمان » وقد انحازوا الى مذهب أهل السنة ، واتخذوا النظام الاقطاعي أساساً لملكيتهم •

---

(٦) ينظر تاريخ ايران ــ مكاريوس ــ ص ١٠٩ ، ١٣٠ •

(٧) تاريخ ابن خلدون م٤ • ق١ • ص ٨٢٥ • ويقول السكتواري البسنوي في كتابه : محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر • ص ١٢٠ • ان السلطـــان محمود اول من لقب بالسلطان في الاسلام ، وكان اول ملوك الغزنوية من افراد الرجال •

(٨) ينظر عنها : محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر • ص ٢٥٠ ، تاريـخ الكافي ٣ : ٤ ، والقلقشندي في كتابه مآثر الاناقة في معالم الخلافة ١ : ٣٤٨، جعل ابتداء هذه الدولة سنة ٤٣٢هـ •

(٩) هو السلطان علاءالدين تكش بن الملك ارسلان شاه بن اتسز • ونقــل الذهبي عن ابي شامة انه من ولد طاهر بن الحسين • وبلغ جيشه مائـة الف مقاتل ، وكان اديبا وله معرفة بمذهب ابي حنيفة ، وقد بنى مدرسة بخوارزم • توفي سنة ٥٩٦هـ •

ينظر عنه : تاريخ الاسلام ــ الذهبي ــ (مخطوط) • ورقة ٥٧ ، اخبار الدولة السلجوقية • ص ٩٥ ــ ٩٦ ، الوافي بالوفيات ٢ : ٢٧٥ ، البداية والنهاية ١٣/٢٢ •

وكان نظام ترقّي المماليك الى أمراء ، في عصرهم كثير الشيوع ، اذ اعتمدوا كثيراً عليهم في ادارة دولتهم ، وتكوين جيوشهم ، وكان باستطاعة أولئك المماليك أن يتحرروا بالشراء او بمنح الحرية ، أو باغتصابها ، ومن بين اولئك المماليك والمحررين من ارتقى الى طبقة الأمراء ، وأسند اليه الاشراف على بعض المناصب الادارية ، وقيادة الجيش ، وخير مثال لنا في هذا آتسز ، رأس الأسرة الخوارزمية ، وهي الدولة الثالثة التي حكمت هذا الاقليم ، والتي نشأت امارة « أتابكية »[١٠] في خوارزم ، وجعلت تقوى شيئاً فشيئاً، على حين أخذت الدولة السلجوقية تضعف وتضيق ، حتى قضي عليها ، وقد حكمت الدولة الخوارزمية، في خوارزم من سنة ٤٩٠ ــ ٦٢٨هـ / ١٠٩٧ ــ ١٢٣١م[١١] .

وهي تنتسب ، الى أنوشتكين أحد الاتراك في بلاط ملكشاه السلجوقي، ومملوك أمير من أمراء السلاجقة يدعى «بكلباك» وكان قد اشتراه من رجل من غَرْشِستان[١٢] ، ولذكائه سلّمه مولاه كل أموره . وقد أخلص أنوشتكين لمولاه فخدمه بإخلاص طول حياته[١٣] ، وحصل على منصب الطشتدار[١٤] .

(١٠) اتابك : لفظ تركي وهو مكون من مقطعين (أتا) بمعنى اب ، و « بك » بمعنى امير او شيخ . وكانوا يطلقونها على من يربى اولاد السلاجقة من الاتراك .
ينظر وفيات الاعيان ١ : ٣١٦ ، صبح الاعشى ٤ : ١٨ ، القاموس الاسلامي ١ : ١٨ .

(١١) ينظر الكامل في التاريخ ١ : ٢٦٧ « حوادث سنة ٤٩٠هـ » . ، وجاء في تاريخ مفصل ايران . ص ١١٧ بداية حكمها كان سنة ٤٩١هـ .

(١٢) غرشستان : ولاية بين غزنة وكابل وهراة وبلخ . والعوام يسمونها « غرجستان » وهي واسعة كثيرة القرى . والغالب على تسميتها على لسان أهل خراسان « الغور » .
ينظر معجم البلدان ٤ : ١٩٣ــ١٩٤ . وورد اسمها في كتاب المختصر في اخبار البشر ٤ : ١٢٣ « غرشتان » ، وفي تاريخ ابن خلدون ٥ : ٣٩ « غرشقان » . وينظر : تاريخ كزيدة . ص ٤٨٠ .

(١٣) ينظر المختصر في اخبار البشر ٤ : ١٢٣ــ١٢٤ ، تاريخ دول الاسلام ، منقبريوس ٢ : ٢٠٠ ــ ٢٠١ .

(١٤) ينظر تاريخ مفصل ايران « فارسي » . ص ٢١٣ .
الطشت دار : هو احد الموظفين الذين يعملون في « الطشت خاناه » اي المكان الذي يحوي الطشت الذي تغسل فيه الايدي والاقمشة . ينظر : صبح الاعشى ٤ : ١٠ ــ ١١ .

وكان لأنوشتكين هذا ولد اسمه محمد ، أحسن أبوه تربيته ، وعلّمه فشبّ عالماً جذب اليه الأنظار مما جعل السلطان بركياروق[١٥]، يوصي الأمير « حبشي[١٦] » والي خراسان أن يوليه خوارزم ، لما رأى من نشاطه وعلمه ، فأصبح حاكماً على خوارزم ، في سنة ٤٩١هـ ، من قبل السلطان سنجر الذي كان يحكم خراسان في ذلك العهد • وقد أطلق سنجر عليه لقب «خوارزمشاه »، فقام بمهمته على أحسن وجه ، وكان عادلا سليم الطوية ، محباً لأهل العلم ، فأحبه الجميع ، ولما توفي قام مقامه ابنه آتسز سنة ٥٢١ هـ[١٧] •

ولم تكن العلاقات بين آتسز وولي نعمته سنجر على ما يرام ، وحدثت بينهما منازعات وحروب كثيرة ، فصلها ابن الاثير في كتابه الكامل ، والنسوي في كتابه سيرة جلال‌الدين منكبرتي • وبارتولد في كتابه :

Turkestan Down to the Mongol Invasion.

وعن هؤلاء وغيرهم أخذ اكثر المؤرخين المحدثين مادتهم[١٨] •

ومما يهمنا من تلك الحروب ، أن الشعر دخل ميدان المعركة ، التي قامت بين هاتين الدولتين ، فقد كان لكل من سلطانيها شاعره الخاص ، الذي اختص بمدح صاحبه ، وهجو عدوه ، فكان الشاعر أنوري[١٩] مع السلطان سنجر ، وكان رشيد الدين الوطواط ، مع السلطان اتسز • وفي اثناء حصار سنجر

---

(١٥) بركياروق : لقب ركن الدولة . وقد خطب لهببغداد في اولسنة ٤٨٧هـ. توفي سنة ٤٩٨هـ . ينظر تاريخ الاسلام « مخطوط » ورقة ٣٣٣ ، ٣٧٥.

(١٦) حبشي : احد امراء الدولة السلجوقية . ينظر عنه : الكامل في التاريخ . ١٠ : ٢٦٧ « حوادث سنة ٤٩٠هـ » .

(١٧) الكامل في التاريخ ١٠ : ٢٦٧ ، تاريخ مفصل ايران . ص ٢١٣ ، وكتاب بارتولد .

Turkestan Down to the Mongol Invasion. P. 324.

(١٨) مثل براون في كتابه : تاريخ الادب في ايران ، والدكتور حافظ احمد حمدي في كتابيه : الدولة الخوارزمية والمغول ، الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي .

(١٩) هو اوحد الدين علي بن اسحاق . تنسب اليه اشعار تدل على تشيعه . توفي في بلخ سنة ٥٤٧هـ . ينظر عنه : الكنى والألقاب ٢ : ٥٨ .

لقلعة « هِزَاراسْب » أمر شاعره ان ينشيء أبياتاً لكي يكتبها على سهم ، ويقذف به داخل المدينة المحاصرة ، فكتب أنوري هذه الرباعية[٢٠] :

أيّها المليكُ إنّ ملك العالمين رهنُ اشارتِك
والعالمُ كسبٌ لكَ بفضل اقبال حظّكَ ودَوْلتِك
فخذ اليوم بحملة واحدة قلعةَ هزاراسب
وغدا تكون لك خوارزم ومائةُ هزاراسب[٢١]

ومما جاء في هذه الرباعية قوله أيضاً[٢٢] :

أيّها ذا المليك ذو التاجِ يا من	كل ملك بالارضِ في راحتيكا
قدّر اللهُ أن تسودَ بني الدنيا	بمجدٍ القى الزمامَ إليكا
فانتزعْ في الهجومِ حصنَ هَزارا	سْبَ بجيشٍ يموج في جانبيكا[٢٣]
مائة الالف من مهارى خوارز	م أراها الغداةَ بينَ يديكا[٢٤]

ويقال إنّ الوطواط ردّ على هذه بأبيات أغضبت السلطان سنجر ، فشدد الحصار على هزاراسب ، حتى استولى عليها بعد حصار دام شهرين[٢٥] . والابيات هي[٢٦] :

---

(٢٠) ينظر تاريخ الادب في ايران (الترجمة العربية) . ص ٣٨٧ . أما نص هذه الابيات فهي كما يلي :
شاه همه ملك زمين حسب تراست وزدولت واقبالجهان كسبتراست
امروز بيك حملههزار سف لكبير مزداخوارزم وصد هزاراسفتراست
ينظر تاريخ جهانكشاي ٢ : ٨ ، تاريخ كزيدة . ص ٤٨٣ .
(٢١) ومعنى هزاراسف بالفارسية : مائة فرس .
(٢٢) ينظر : الدولة الخوارزمية والمغول . ص ٨٧ .
(٢٣) هزاراسب : مدينة كبيرة وقلعة حصينة بارض خوارزم . ينظر : آثار البلاد واخبار العباد . ص ٥٦٧ ، تقويم البلدان . ص ٢٦٣ ، صبح الاعشى ٤ : ٤٥٥ .
(٢٤) المهارى : ابل منسوبة الى مهرة بن حيدان ابي قبيلة والمهر :ولد الفرس . وجمعه القليل امهار والكثير مهار ومهارة .
(٢٥) ينظر : Turkestan Down to the Mongol Invasion. P. 328 وتاريخ مفصل ايران . ص ٢١٣ .
(٢٦) ينظر : الدولة الخوارزمية والمغول . ص ٨٧ .

إذا كان رستم ياذا المليكُ أهاجَ لحربكَ نقعاً مُثارا
فدون هزاراسب شم الجبال وصيدُ الكواكبِ دون المهارى
أيحلم في الفلَكِ الصافنان ويعجز ، لو رام منها حمارا[٢٧] ؟

ولما توفي آتسز حل محله ابنه ايل ارسلان ، الذي كان حاكماً على مدينة « جَنْد »[٢٨] في زمن والده ، والذي توفي بعد مرضه فجأة ، في سنة ٥٦٧هـ ، بعد سلطنة دامت ١٧ سنة[٢٩] .

وولي بعده ابنه الصغير سلطان شاه ، دون أخيه الأكبر تكش[٣٠] ، في مدينة « جَنْد » ، ولذلك فقد قامت الحرب بين الأخوين ، واستمر النزاع بينهما مدة طويلة ، دامت الى أن توفي تكش ، سنة ٥٩٦هـ[٣١] . وبعد وفاته جاء الى الحكم قطب الدين ، أو علاءالدين ، محمد خوارزم شاه ، وكان من كبار الملوك . وعلى الرغم من قوته ولياقته وفتحه ممالك واسعة ، استولى عليه الجبن ، حين حمل المغول على بلاده ، فهرب ومات في جزيرة « ابسكون[٣٢] »

---

(٢٧) الصافن : الاكحل من البعير .

(٢٨) جند : مدينة عظيمة في بلاد تركستار ، بينها وبين خوارزم عشرة ايام ، تلقاء بلاد الترك ، مما وراء النهر ، قريب من نهر سيحون ، واهلها ينتحلون مذهب ابي حنيفة . ينظر معجم البلدان ٢ : ١٦٨ . (طبعة بيروت) .

(٢٩) ينظر المصدر السابق ٢ : ٢١٤ ، وفي تاريخ ابن خلدون ٥ : ١٧٧ « ان وفاته كانت سنة ٥٦٨هـ » .

(٣٠) ينظر عنه : لباب الالباب : ص ٤٣ فقد وصفه محمد عوفي باحلى الالفاظ ، واحسن الصفات ، تاريخ الضيائي . ورقة ١٤١ .

(٣١) ينظر : الكامل في التاريخ ١٢ : ١٥٦ ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان . ج٨ . ق٢ . ص ٤٧١ ، الذيل على الروضتين . ص ١٧ ، وفي تاريخ مختصر الدول . ص ١٧٨ وفاته سنة ٥٩٤هـ .

(٣٢) أبسكون : مدينة على ساحل بحر طبرستان ، بينها وبين جرجان أربعة وعشرون فرسخا ، وهي فرضة للسفن والمراكب . والفرضة من النهر: المشرع يستسقى منه ومن البحر : مرفأ السفن .
ينظر : معجم البلدان ١ : ٧٣ (بيروت) . وتنظر : ترجمة هذا السلطان في : تاريخ الغياثي ورقة ١٤١ .

على ما ذكر عبدالله رازي ، في كتابه : تاريخ مفصل ايران[٣٣] ، سنة ٦١٧هـ[٣٤] .

وأخيراً تسلم البطل الشجاع ، جلال‌الدين منكبرتي ، هذا العرش المتهاوي ، تحت ضربات التتار سنة ٦٢٨هـ[٣٥] . وعلى الرغم من شجاعته وقوته ، لم يستطع أن يحافظ على عرشه فقتل ، وانتهى حكم هذه الدولة على يد المغول ، بانتهاء بطلها جلال‌الدين منكبرتي ، آخر بطل اسلامي صمد أمام الجموع المغولية الفاتكة .

وتختلف الروايات في سبب غزو التتار لاقليم خوارزم ، فهناك رواية تقول[٣٦] : إن سببه استنجاد الخليفة العباسي الناصر بهم ، ليشغل خوارزم شاه بهم ، حتى يأمن هو شره ، ويأمن الاخطار التي تحدق ببلاده من سيطرة وقوة الدولة الخوارزمية .

وهناك رواية تقول[٣٧] : إنّ سببه قتل خوارزم شاه ، للتجار الموفدين من قبل جنكزخان الى تلك البلاد ، في سنة ٦١٢هـ . وإن جنكزخان نتيجة لتلك الفعلة ، جهز حملة مكونة من (٧٠) ألف مقاتل ، وجعل قيادتها لاثنين من أبنائه ، وحصر مدينة « أترار[٣٨] » ، وأخذها عنوة بعد أن دافعت عن

---

(٣٣) ينظر ص ٢١٦ .

(٣٤) ينظر : تاريخ الخميس ـ حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري ٢ : ٣٦٨ . مط / . سنة الطبع ١٢٨٣هـ .
وينظر : العبر في خبر من غبر ٥ : ٢٦٩، الذيل على الروضتين. ص١٢٢.

(٣٥) ينظر عنه : تاريخ الغياثي . ورقة ١٤٢ ، دول الاسلام ٢ : ١٠١ ، غرر الحسان في تواريخ حوادث الازمان ـ الامير حيدر احمد الشهابي ـ ١ : ٤١١ مط السلام بمصر ١٩٠٠م ، تاريخ كزيدة . ص ٤٩٧ .

(٣٦) ينظر : تاريخ الادب في ايران . ص ٥٥٦ ، التاريخ الاسلامي العام . ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .

(٣٧) ينظر : تاريخ دول الاسلام ـ منقبريوس ـ ٢ : ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، التاريخ الاسلامي العام . ص ٤٦٥ .

(٣٨) اترار : قلعة حصينة في خوارزم .

نفسها ، نحو خمسة أشهر[٣٩] . وبهذا قامت الحرب بينهما ، وانتهت بتدمير البلاد ، وسقوط الدولة الخوارزمية .

وسواء صحت هذه الروايات أم لا ، فإن تدخل المغول بين هاتين القوتين المتصارعتين[٤٠] ، وأقصد بهما الدولة الخوارزمية ، والدولة العباسية ، كان خطراً كبيراً على المشرق الإسلامي كله .

(٣٩) ينظر تاريخ المغول والدول الاسلامية الآسيوية . ص ٣٤ .

(٤٠) كثيرا ما هددت الدولة الخوارزمية الدولة العباسية ، وكثيرا ما هدد خوارزم شاه بغداد ، وقد قصدها ولكنه فشل وخاب ظنه ، في الاستيلاء عليها .
ينظر : العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك (خ) . جـ٢ . ورقة ١٠٤ ، تاريخ الخلفاء . ص ٤٤٩ (السعادة) .

الحالة الاقتصادية والاجتماعية :

يتصف الوضع الاقتصادي في اقليم خوارزم ، بالرخاء والازدهار ، نتيجة الاستقرار واستتباب الامن ، كما كان لموقعه الجغرافي أهمية كبرى ، في هذا الازدهار ، وذاك الرخاء ، الذي نتج عنه ازدهار الزراعة والتجارة ، وهما الدعامتان اللتان قام عليهما اقتصاد تلك البلاد .

قال ابن حوقل[١] : إنّ خوارزم « ناحية خصبة كثيرة الأطعمة والحبوب والفواكه » . وقال غيره[٢] : « إنّها جامعة لأشتات الخيرات وأنواع المسرات » . وقد ساعدت الأنهار الكثيرة التي تغذي أراضي هذا الإقليم ، وتسقي الكثير من مزارعه وبساتينه ، على وفرة الخيرات ، التي أدت بدورها الى رخص الأسعار .

وأهم غلاّت هذا الاقليم : البندق والعنب والسمسم ، والقطن والأرز[٣] . أما البطيخ فيعد من أهم محصولات هذا الاقليم ، كما يعد من عجائبه وغرائبه ، فهو على حد قول القزويني وابن بطوطة[٤] : إنه لا مثيل له في بلاد الدنيا ، الاّ ما كان من بطيخ بخارى ، ويليه بطيخ اصفهان .

ومن عجائب هذا البطيخ ما ذكره ابن بطوطة ، من أنه « يقدّد وييبّس في الشمس ، ويجعل في القَواصِر[٥] ، ويحمل من خوارزم الى أقصى بلاد الهند والصين ، وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه » . ويقال إنّه كان

(١) ينظر كتابه : صورة الارض . ص ٣٩٧ .
(٢) ينظر القزويني في كتابه : اثار البلاد واخبار العباد . ص ٥٢٥ .
(٣) ينظر : تحفة الالباب . ص ٣٩ ، بلدان الخلافة الشرقية . ص ٥٠٢ .
(٤) ينظر اثار البلاد واخبار العباد . ص ٢٥١ ، مهذب رحلة ابن بطوطة . ص ٣٠٢ .
وينظر ايضا : تحفة الالباب . ص ٣٩ــ٤٠ . وقد زار ابو حامد الاندلسي هذه البلاد ومكث بها مدة .
(٥) القواصر : جمع قوصرة : وعاء من قصب يرفع فيه التمر من البواري، وقال ابن دريد : ولا احسبه عربيا « لسان العرب مادة قصر » .

يحمل إلى الخليفة العباسي « المأمون » والى الخليفة « الواثق » في قوالب من الرصاص ، معبأة في الثلج[٦] .

وعلى الرغم مما ذكره ابن حوقل ، من أنه ليس ببلادهم معدن ولا ذهب، ولا فضة ، ولا شيء من جواهر الأرض ، الا أنهم كانوا ذوي يسار ، وكان يسارهم من متاجرة الرقيق الاتراك ، ومن اقتناء المواشي . كما كان تجارهم يصلون حتى نواحي يأجوج ومأجوج (بلاد الصين) ، لاستخراج الخزوز والأوبار[٧] .

وقد ساعدت هذه الامور ، على ازدهار التجارة ، كما ساعد موقع الجرجانية ، قصبة خوارزم ، على ذلك ، فهي أهم مركز تجاري على الطريق البري ، من شرقي أوربا ، الى شرقي آسيا[٨] ، وهي متجر الغزية[٩] أيضا ، ومنها تخرج القوافل الى جرجان والخزر وخراسان[١٠] ، وهي محملة بأنواع الأمتعة ، وخاصة الأوبار[١١] .

كما كان لقصبتها الثانية « كَاث° » أهميتها في ذلك ، ولا سيما في القرن الرابع الهجري ، فقد كانت من أفخم المدن مظهراً ، كما كانت عامرة الأسواق،

---

(٦) ينظر لطائف المعارف . ص ٢٢٦ .

(٧) ينظر كتابه : صورة الارض . ص ٣٩٨ .

(٨) ينظر دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ٩ : ٧ .

(٩) الفزية : في دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة) ٢ : ١٧٨ ان الفز سكنوا منذ القرن الرابع قرب بخاري ، ومشوا على اطراف الفولغا والدانوب وعمروا شرقي اوربا ، والسلجوقيون جاءوا من الفز . وفي رسالة ابن فضلان . ص ٩١ ان الفزية قبيلة من الاتراك ، لهم بيوت من الشعر يحلون ويرتحلون ، لا يدينون لله بدين ، ولا يعبدون شيئا ، بل يسمون كبراءهم اربابا .

(١٠) ينظر كتاب صورة الارض . ص ٣٩ .
الخزر : وهي بلاد الترك خلف باب من الأبواب المعروف « بالدَّرْبَنْد » معجم البلدان ٣٦٧/٢ . (طبعة بيروت) .

(١١) ينظر كتاب التنبيه والاشراف ــ ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي. ص ٦٢ .
تحقيق : عبدالله اسماعيل الصاوي . مط . دار الصاوي للطباعةوالنشر والتأليف ــ القاهرة . ١٣٥٧هـ ــ ١٩٣٨م .

دارة التجارة ، لتوفر الطرق التجارية الهامة فيها ، وكانت البضائع تنقل منها عبر نهر « و ِذاك » أو « و ِداك » إلى الجرجانية وغيرها من مدن وقرى هذا الاقليم[١٢] .

وهكذا ازدهرت التجارة الخارجية لهذا الاقليم ، لاتصاله مع غيره من الاقاليم المجاورة ، والبلاد البعيدة . كما ازدهرت التجارة الداخلية أيضا ، وأصبح هذا الاقليم من أعظم الأقاليم واكثرها تَجْراً وأموالا ، وأحسنها منازل وأسواقاً ويساراً ، لنشاط أهله وحبهم للأسفار ، فهم على ما ذكر الاصطخري ، أكثر أهل خراسان انتشاراً وسفرا[١٣] . وهذا ما جعل ابن حوقل وغيره من المؤرخين يقولون : إنّه ليس بخراسان مدينة كبيرة ، الا وفيها من أهل خوارزم جمع كبير[١٤] .

ومن البضائع التي يصدرونها : السجاجيد والمنسوجات الحريرية والصوفية ، والقطنية ، التي تشتغلها نساؤهم بالمغزل[١٥] . كما كان يحمل منه أصناف كثيرة من الجبن واللبن .

أما الفراء ففي أسواق الجرجانية ، أشهر الأنواع وأغلاها ، والذي يجلب اليها من بلاد البلغار على الفولجا . وذكر المقدسي وغيره اصنافاً كثيرة منها . كما ذكرها المستشرق لسترنج[١٦] .

ومن أنواع الفراء عندهم ، فراء الدَّلَق[١٧] ، وفراء السمّور[١٨]

(١٢) ينظر كتاب صورة الارض . ص ٣٩٥ .
(١٣) ينظر كتاب الاقاليم . ص ١١٧ .
(١٤) ينظر صورة الارض . ص ٣٩٨ ، المسالك والممالك . ص ١٧٠ .
(١٥) ينظر دائرة معارف القرن الرابع عشر ــ محمد فريد وجدي ٣ : ٧٩٥ مط . دائرة معارف القرن العشرين . ط ٤ ، ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٧ م .
(١٦) ينظر كتابه : بلدان الخلافة الشرقية . ص ٥٠٢ .
(١٧) الدلق : دويبة « فارسي معرب » .
(١٨) السمور : دابة تشبه السنور تتخذ من جلودها الفراء الغالية الاثمان .

والثعالب ، والقندس[١٩] ، وفراء السنجاب[٢٠] والقاقوم[٢١] والفَنَك[٢٢] ، وابن عِرس[٢٣] . وكانوا يعملون منها الحلل الطويلة والقصيرة .

ويحمل من هذا الاقليم ، الى الاقاليم الأخرى ، جلود الحمر الوحشية، وجلود الأرانب ، والمعزى المدبوغة[٢٤] .

وقال القزويني[٢٥] : « ومما اختصت به خوارزم ، الخيل الهمالج الفرّهة[٢٦] .

وذكر الثعالبي[٢٧] أن هذه البلاد : « تقارب بلاد الترك باتتسابها في الخصائص والمتاجر » وهي بلاد مصدرة للرقيق والاغنام والأوبار ، لاسيما

---

(١٩) القندس : كلب الماء ، وقيل القندز : فارسي دخيل : حيوان مائي مفلطح الذنب ، لونه احمر قاتم ، وله غشاء بين براثن رجليه ، يعينه على السباحة . يتخذ من جلده الفراء .

(٢٠) السنجاب : حيوان اكبر من الفأر ، يعيش في الشجر العالي ، وبره في غاية النعومة ، تتخذ منه الفراء النفيسة ، وبعضهم يقول : هو « القرْقذون » ومنه جنس له غشاء بين يديه ورجليه ، يطفر من شجرة الى شجرة ، وهو السنجاب الطائر .

(٢١) القاقوم : او القاقم : حيوان تركي ، على شكل الفأرة ، الا انه اطول ، ويأكل الفأرة . له شعر ابيض ناعم ، تتخذ منه الفراء ، وهو اعز قيمة من السنجاب .

(٢٢) الفنك : دابة يفترى جلدها ، وهو من احسن انواع الفراء ، وهي دويبة لطيفة ، لها وبر حسن ابيض ، يخالطه بعض الحمرة ، يتخذ من جلودها الفراء ، أو هو نوع من جراء الثعلب التركي .

(٢٣) ابن عرس : دويبة دون السنور ، لها ناب وجمعه بنات عرس .

(٢٤) ينظر بلدان الخلافة الشرقية . ص ٥٠٢ .

(٢٥) ينظر اثار البلاد واخبار العباد . ص ٥٢٦ ، ربيع الابرار (خ) جـ١ . ورقة ٩٧ .

(٢٦) الهمالج : الهملجة والهملاج : حسن سير الدابة في سرعة ، وقيل حسن السير في بخترة . والفرهة : النادرة . ودابة فارهة : اي نشيطة حادة قوية .

(٢٧) ينظر لطائف المعارف . ص ٢٢٦ .

الثعالب الحمر والسود ، والقسيّ الفاخرة ، والسُموك[٢٨] المملحة ، والرحقين[٢٩] الذي هو بها كالمُري بمرو[٣٠] » .

وذكر المستشرق لسترنج ، من خصائصها أيضاً : الكرابيس[٣١] ، التي يقال لها : الآرنج .

ومن صناعاتها التي ذكرها لسترنج أيضا : صناعة المنسوجات والشمع ، الذي يتخذ من لحاء الشجر ، والحور الابيض المسمى « التنُوز » الذي يتخذ غلافاً للدروع . وغراء السمك وأسنانها وغير ذلك[٣٢] .

وقال القزويني عن أهل جرجانية ، بأنهم أهل الصناعات الدقيقة كالحدادة والنجارة وغيرهما . وهم يبالغون في التدقيق في صناعاتهم . والسّكافون[٣٣] يعملون الآلات من العاج والأبنوس ، الذي يقال انه لايعمل في غير خوارزم ، الا بقرية يقال لها « طرْق » من أعمال أصفهان[٣٤] .

وقد كان من شأن هذه الموارد ، أن تساعد على انخفاض اسعار الأطعمة والاشربة والالبسة ، انخفاضاً كبيراً ، مما أدى إلى رخاء العيش وازدهاره .

أما عن حياتهم الاجتماعية ، فهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحياة الاقتصادية للبلاد ، كارتباطها بالحياة السياسية أيضا . وهناك عاملان كان لهما أثر هام في حياة الناس الاجتماعية ، في هذا الاقليم ، وهما طبيعة البلاد والاسلام .

---

(٢٨) السموك : جمع السمك .

(٢٩) الرحقين : هكذا وردت في لطائف المعارف . ص ٢٢٦ ، ولعلها الرحبين وقد جاء في القاموس المحيط مادة (كبح) والكبح : نوع من المصل اسود وهو الرحبين . والمصل : اللبن صار في وعاء خوص ، او خرق ليقطر ماؤه .

(٣٠) المُرّي : ما يُؤتدم به، يتخذ اما من السمك المالح واللحوم المالحة، واما من خبز الشعير ، أو خبز الحنطة المحروق .

(٣١) الكرابيس : جمع الكرباس : وهو ثوب من القطن الابيض .

(٣٢) ينظر كتابه : بلدان الخلافة الشرقية . ص ٥٠٢ .

(٣٣) اي النجارون .

(٣٤) ينظر بلدان الخلافة الشرقية . ص ٤٩٢ .

أما عن طبيعة البلاد ، فهي من أبرد البلاد ، حتى أن جيحون يجمد في الشتاء ، كما مرّ بنا ــ فيمشي عليه الناس والقوافل والعساكر . ومع هذا فاقليم خوارزم ، لا يختلف اختلافاً بيّناً ، عن الأقاليم الاخرى ، وان وصف بأنه اقليم منعزل ، أو شبه منعزل .

ومن خلال دراستنا لأحوالهم العامة ، يتبين لنا أن أهل هذا الاقليم كانوا يتصلون بعضهم ببعض ، مما قلل الفوارق بينهم ، وساعدهم على الانسجام. وربما كان لأخلاقهم الطيبة ، أكبر الأثر في ذلك . يقول ابن بطوطة[٣٥] : إنّه «لم يرَ في بلاد الدنيا أحسن أخلاقاً منهم » . ويقول القزويني عن لسان الزمخشري[٣٦] : «إنّ بخوارزم فضائل لا توجد في غيره،من سائر الأقطار».

أما الاسلام فهو دين يحارب التفرقة ، وليس فيه تمايز بين الناس الا بالتقوى ، والعمل الصالح .

هذان العاملان كان لهما أثرهما ، وقد صادفا الرخاء الاقتصادي ، والخيرات الكثيرة والأمن الدائم ، والرابطة القوية بين الناس والتعاون والمحبة بينهم .

كان المجتمع الخوارزمي يتكون من عنصرين مهمين ، ثم من أقليات اخرى . وأول هذين العنصرين : سكان البلاد الأصليون ، بعضهم تتار من قبائل مختلفة ، وبعضهم الآخر من قبائل الأوزبك والتركمان ، وبعضهم من قبائل بخارية[٣٧] .

وثانيهما : العرب الذين دخلوا الى البلاد ، بعد الفتح الاسلامي ،والذين لم تسعفنا المصادر بأي خبر عنهم ، وان كنا نرجح أنهم جاءوا اليه مع الجنود، كما هي العادة ، فقد كان كثير من الجنود يصحبون معهم عوائلهم ، أو كانوا يجلبون عوائلهم بعد أن تستقر بهم الحال ، في الاقاليم المفتوحة .

---

(٣٥) ينظر مهذب رحلة ابن بطوطة ١ : ٢٩٨ .

(٣٦) ينظر اثار البلاد واخبار العباد . ص ٥٢٥ . وفي ربيع الابرار . حـ ١ . ورقة ٩٦ ان ابن سمقة الكاتب ، عدد فضائلها ، وذكر ان لهم خصالا محمودة لا يتفق في غيرها من الامصار .

(٣٧) ينظر دائرة معارف القرن الرابع عشر ٣ : ٧٩٤ .

وبما أن هذا الاقليم فتح صلحاً ، فمن المرجح أن الانسجام كان قائماً بين العرب والسكان الأصليين ، الذين اعتنقوا الاسلام ، وصاروا ينظرون الى القادمين نظرة محبة وإخاء •

وكان فيه مع الاسلام النصارى ، الذين لم يكونوا على مذهب النساطرة، شأن معظم نصارى فارس ، وأواسط آسيا ، بل كانوا من الروم الارثودكس[٣٨] •

وبجانب هؤلاء عاش الزرادشتيون ، الذين ظلوا متمسكين بدينهم القديم ولم يسلموا[٣٩] •

أما أتباع الأديان الأخرى : كاليهود فقد ذكر أبو الفداء في كتابه تقويم البلدان[٤٠] ، انه كان في خوارزم مائة بيت من اليهود[٤١] ، ومائة بيت من النصارى ، لا يسمح بأكثر من ذلك •

وكانت القبائل التركية والتركمانية التي تسكن هذا الاقليم ، يعيشون على رعي مواشيهم ، التي تعيش على الغضا[٤٢] الذي ينبت في الرمال المحيطة بتلك البلاد[٤٣] •

ومن العناصر الفعالة في هذا المجتمع ، العبيد والجواري ، الذين يأتون عن طريق الشراء أو الغزو أو السرقة • فأولاد الأتراك يشترون أو يسرقون، من بدو تلك البراري ، وبعد أن يعلموا ويؤدبوا بالآداب الاسلامية ، يجلبون منها الى سائر بلاد الاسلام • وقد يتولون أجل مناصب الدولة ووظائفها[٤٤] •

---

(٣٨) ينظر دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ٩ : ٤ .
(٣٩) كان اهل خوارزم ابان الفتح الاسلامي ، يدين اكثرهم بالزرادشتية ، كما كان بعضهم يعتنق المسيحية ، كما جاء في القاموس الاسلامي ٢:٢٩٣.
(٤٠) ينظر ص ٢٦٣ .
(٤١) جاء في دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة . ع) ٩ : ٤ انه لا يرد اي ذكر لليهود ، ضمن هذا الاقليم .
(٤٢) الغضا : نبات طرى ترعاه الماشية ، وهو من نبات الرمل .
(٤٣) ينظر معجم البلدان ٣ : ٤٧٤ .
(٤٤) ينظر بلدان الخلافة الشرقية . ص ٥٠٢ .

ولذلك كان أهل اقليم خوارزم ، في خوف دائم من هذا الأسر ، للشبه الكبير بينهم وبين الترك • يذكر البشاري أنه ســـأل أحدهم عن اختلاف رؤوسهم ، عن رؤوس الناس ، فأجابه : بأن قدمــــاءهم كانوا يغزون الترك فيأسرونهم ، وربما وقعوا هم في الأسر ، للشبه المشترك بينهما ، فيبعوا في الرقيق ، ولذلك أمروا النساء اذا ولدن ، أن يربطن أكياس الرمل ، على رؤوس الصبيان من الجانبين ، حتى ينبسط الرأس ، وبعد ذلك لم يُسترقّوا • ورُدّ من وقع منهم الى الكورة(٤٥) •

وقد أورد ياقوت الحموي أيضاً هذه الرواية ، ولكنه علق عليها بقوله : « وهذا من أحاديث العامة ، لا أصل له ، هب أنهم فعلوا ذلك فيما مضى ، فالآن ما بالهم ، فان كانت الطبيعة ورثته وولدته على الأصل ، الذي صنعته بهم أمهاتهم ، كان يجب أن الأعور الذي قلعت عينه ، أن يلد أعور ، وكذلك الأحدب وغير ذلك ، وانما ذكرت ما ذكر الناس(٤٦) •• »

وقال أبو الحسن اللحام في اختلاف رؤوسهم(٤٧) :

مـــا أهـــلُ خوارزم ســــلالةُ آدم
ما هم ــ وحــقِّ الله ــ غَيْرُ بهــــائمِ
أرِني شَـــبيهَ رؤوســهم وجبــاههِمْ
ولُغـاتِهمْ وخِفـافِهمْ في العـــالَمِ
إنْ كـــانَ يَقْبَلُهُمْ أبونــا آدَمُ
فأنــا بَـــريٌ مِـــنْ أبينـــــا آدَمِ

هذه الافواج من العبيد والاماء ، وجدت صدراً رحباً في المجتمع الذي حلّت فيه ، فوصل كثير منهم الى المناصب العالية ، وتقلــــدوا أرفع الرتب

---

(٤٥) ينظر أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . ص ٢٨٥ .

(٤٦) ينظر معجم البلدان ٢ : ٣٩٧ . (طبعة بيروت) .

(٤٧) ينظر المصدر السابق ٢ : ٣٩٥ وفي روايته بعض الاختلاف . وفي لطائف المعارف . ص ٢٨٨ (لاهم) .
وروايته في معجم البلدان .
ابصرت مثل خفافهم ورؤوسهم وثيابهم وكلامهم في العالم

العلمية ، وكان المجتمع ينظر اليهم نظرة احترام ، فنجـــدهم لا يأنفون من التصريح بأنسابهم ، وخير مثال لذلك أنوشتكين ، مؤسس الدولة الخوارزمية، فهو عبد تركي ، اشتراه أحد امراء السلاجقة ، ثم أظهر هذا العبد من اللياقة والكفاءة ، ما فتح أمامه باب التقدم ، في عهد السلطان ملكشاه الذي عينـه والياً على خوارزم(٤٨) .

ونجد الى جانب هؤلاء الجواري ، اللواتي شاركن في الحياة اللاهية ، فكثيراً ما نرى في شعرهم ذكر مجالس الشراب ، وذكر الخمرة . فالبيهقي ينقل قولاً عن لسان البيروني(٤٩) : ان أبا العباس المـــأمون بن مأمون خوارزم شاه ، آخر امراء الاسرة المأمونية ، كان رجلاً فاضلاً شهماً ، يتحلى بالأخلاق الفاضلة ، ومع هذا كان يفرط أحياناً في شرب الخمر ، وكان يجلس للشراب ويدعو صفوة الأولياء ، والحشم والندماء ، وأبناء الامراء ، الذين كانوا في البلاط ، من السامانيين وغيرهم ، وكان يأمرهم بدعوة الرسل ، الذين جاءوا من الأطراف ، فيدعونهم بما يليق بمكانتهم ويجلسونهم ، فكان اذا أمسك بالقدح الثالث يقف ويشربه في نخب ذكرى السلطان محمود(٥٠) ، ثم يشير اليهم واحداً واحداً فيقبلون الأرض ، ويقفون حتى يشـربوا الكأس جميعاً . ثم يشير اليهم بالجلوس ، ويجيء الخادم وفي أثره ، يؤتى بصـــلات المغنين ، لكل واحد منهم حصان قيّم وكسوة وكيس به عشرة آلاف درهم على حد قول البيهقي .

ويحدثنا ابن جرير الطبري في كتابه : تاريخ الرسل والملوك(٥١) ، وابن الاثير في كتابه : الكامل في التأريخ(٥٢) عن دعوة خوارزم شاه ، لأجنـــاده ودهاقنته(٥٣) ، الى الشراب والتنعم ، عندما أراد قتيبة بن مسلم الباهلي فتح

---

(٤٨) ينظر : الكامل في التاريخ ١٠ : ٢٦٧ ، تاريخ مفصل ايران « فارسي » . ٢١٣ .

(٤٩) ينظر تاريخ البيهقي . ص ٧٣٤ .

(٥٠) هو السلطان محمود الغزنوي ، وكانت اخته متزوجة من ابي العبـــاس مأمون بن مأمون .

(٥١) ينظر ص ٨ : ١٢٣٧ .

(٥٢) ينظر : ٤ : ٥٧٠ « حوادث سنة ثلاث وتسعين » .

(٥٣) الدَّهقان والدُّهقان : التاجر . فارسي معرب . وهم الدهاقنة والدهاقين والدُّهقان : القوى على التصرف مع حدة .

بلادهم ، وتم الاتفاق بينهما على تسليمها اليه مقابل أن يسلم قتيبة لخوارزم شاه أخاه المتمرد العابث ، وكان أن أقبلوا على الشرب والتنعم ، فلم يشعروا حتى نزل قتيبة في هزاراسب(٥٤) ، وكان هـذا العمل حيلة من خوارزم شاه ، حتى يضعهم أمام الأمر الواقع .

وذكر البيهقي أيضا : أنه سمع الثعالبي يقول : إنّه كان يحضر مجلس الشراب الذي كان يرأسه خوارزم شاه ، وإنّ خوارزم شاه كثيراً ما كـان يشرب حتى الثمالة . ويدل هذا على الحياة اللاهية ، التي كان يحياها الناس في ذلك المجتمع ، وعلى تشجيع رجال الدولة للهو . ويقول ابن الطقطقا : إنّ الخذلان ما دخل على ملك ، من طريق اللهو واللعب ، كمـا دخل على جلال‌الدين بن خوارزم شاه ، فانه لما هرب من المغول ، تبعوه من مكان الى آخر ، وهو مع ذلك مواصل لشرب الخمر ، عاكف على الدف والزّمر ، لا ينام الا سكران ، ولا يصبح الاّ مخمورا نشوان(٥٥) .

وليس ببعيد ان خيرات البلاد الكثيرة ، وخلو البال ، والفراغ الكبير في حياتهم ، أدت الى هذه الحياة المترفة اللاهية .

أما طباعهم ففيها شبه من طباع البربر كما يصفهم ياقوت‌الحموي(٥٦)، وزيهم القراطق(٥٧) والقلانس(٥٨) المعوجة . ويقول ابن حوقل(٥٩) : « ولهم في تعويجها زيّ ورسم » . «ولهم بأس على الغـزّيّة ومنعه(٦٠) » .

---

(٥٤) قرية حصينة بخوارزم ، غربي جيحون ، بينها وبين مدينـة كاث ستة فراسخ . ينظر معجم البلدان ٥ : ٤٠٤ (طبعة بيروت) . ، اثار البـلاد واخبار العباد . ص ٥٦٧ ، تقويم البلدان . ص ٧٨ .

(٥٥) ينظر كتابه : الفخري في الاداب السلطانية ـ محمد بن علي بن طباطبا ، المعروف بابن الطقطقا . ص ٤٥ . مط . دار صادر . بيروت . سنة الطبع : ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .

(٥٦) ينظر كتابه : معجم البلدان ٣ : ٤٧٤ (السعادة) . ، احسن التقاسيم . ص ٢٨٦ .

(٥٧) القراطق : القرطق : ملبوس يشبه العباء من ملابس العجم . والعبـاء: ضرب من الاكسية معروف .

(٥٨) القلانس : من ملابس الراس .

(٥٩) ينظر كتابه : صورة الارض . ص ٣٩٨ .

(٦٠) ينظر مسالك الممالك . ص ١٧٠ .

ومن آثار الوضع الاقتصادي لاقليم خوارزم ، شيوع عادات اجتماعية منها : اكرامهم الضيف ، فاذا أتى احدهم ضيف ، أتاه الناس بالطعام الكثير[٦١] ، ويمثل هذا أجمل صورة للتعاون والمحبة السائدين بين طبقات المجتمع ، غنيهم وفقيرهم • ولعل هذا ما دفع ابن بطوطة الى القول : إنه لم يرَ في بلاد الدنيا ، احسن اخلاقاً من أهل خوارزم ، ولا أكرم نفوسا ، ولا أحب للغرباء ، فهم يحسنون الى الضعفاء ، ويعطفون عليهم ، وهم بهذا يختلفون عن أهل الجانبين في الخلق والطباع •

ولعل ظاهرة شرب الخمرة التي نوهنا عنها قبل قليل ، ما هي الا ّ أثر من آثار الوضع الاقتصادي لاقليم خوارزم ، بخيراته الكثيرة ، وغناه وترفه •

وقال ابن بطوطة[٦٢] : « إنّ لأهل تلك البلاد عادة جميلة في الصلاة ، لم أرها لغيرهم وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كلّ واحد منهم على دور جيران مسجده ، معلماً لهم بحضور الصلاة ، فمن لم يحضر للصلاة ضربه الإمام بمحضر الجماعة » •

كما ذكر ابن بطوطة أيضاً : أنّه كان بكل مسجد « دِرّة[٦٣] » معلقة ، يضرب بها كلّ من تخلف عن الصلاة ، ويغرّم خمسة دنانير ، تنفق في مصالح المسجد ، أو تطعم للفقراء والمساكين • وهذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان ، كما يقال •

ومن عوائدهم أيضاً : أن أميرهم يأتي القاضيَ ، في كل يوم فيجلس عنده ، بمجلس معدّ له ، ومعه الفقهاء وكتّابه ، ويجلس في مقابلته أحد الأمراء الكبراء ، ومعه ثمانية من كبراء أمراء الترك وشيوخهم ، يسمون « الأَرْغَجيّة » ويتحاكم الناس اليهم ، فما كان من القضايا الشرعية ، حكم فيها القاضي ، وما كان من سواها حكم فيها اولئك الأمراء ، وأحكامهم على ما يقول ابن بطوطة : « مضبوطة عادلة ، لأنهم لا يتهمون بميل ، ولا يقبلون رشوة[٦٤] » •

---

(٦١) ينظر رحلة ابن بطوطة . ص ٣٦١ .
(٦٢) ينظر المصدر السابق . ص ٣٥٩ — ٣٦٠ .
(٦٢) الدرة : السوط يضرب به .
(٦٤) ينظر رحلة ابن بطوطة . ص ٣٦٢ .

وذكر ياقوت الحموي : أنهم يتبرأون من أمير المؤمنين ، علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، في دُبُر(٦٥) كل صلاة . ولا ندري صحة هذه الرواية ، لأننا وجدنا في شعر بعضهم مدحاً لآل البيت وللامام علي رضي الله عنه . يقول الموفق بن احمد بن محمد ، المعروف بخطيب خوارزم(٦٦) :

هَل أبصرتْ عيناكَ في المحراب كأبي ترابٍ من فتى مِحْرابِ(٦٧)
لله دَرُّ أبي ترابٍ إنّه أسدُ الحرابِ وزينةُ المحرابِ
هو ضاربٌ وسيوفُهُ كثواقِبٍ هو مُطْعِمٌ وجفانُهُ كجَوابِ
هو قاصِمُ الأصلابِ غيرُ مدافعٍ يومَ الهياج وقاسمُ الأسلابِ

وذكر القمي أن هذه الأبيات قالها الموفق ، في آخر كتابه الذي صنفه في مناقب أهل البيت عليهم السلام .

وللشبيبي في هذا قوله(٦٨) :

واثقٌ بالله يرجو المصطفى وأخاه المرتضى والحَسَنَيْن(٦٩)

وكان لأهالي هذا الاقليم أعيادهم وأسواقهم ، التي تقام في أيام معلومة، وقد فصّل البيروني في كتابه : « الآثار الباقية(٧٠) « القول عمّا لأهل خوارزم في شهورهم من الأعياد . كما بيّن في كتابه : التفهيم لأوائل صناعة التنجيم(٧١) ، أن أهل خوارزم تبع للصغد في شهورهم ، وهم يختلفون عنهم في اللغة . وعيد النيروز المشهور الذي أولع الشعراء بذكره واعتنى الأمراء بأمره،

---

(٦٥) ينظر : معجم البلدان ٢ : ٣٩٧ (بيروت) ، رسالة ابن فضلان . ص٨٢. ودبر كل صلاة : اي عقب . والدُبر والدُبُر من كل شيء : عقبه ومؤخره واخره .

(٦٦) ينظر الكنى والالقاب ٢ : ١١-١٢ (طبعة العرفان ـ صيدا) .

(٦٧) ابو تراب : كنية الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه .

(٦٨) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٢ (طبعة السعادة) .

(٦٩) يقصد بالمرتضى الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه . والحسنين : ابنيه الحسن والحسين . وهذا من باب التغليب .

(٧٠) ينظر ص ٢٣٥ ـ ٢٣٧ ، وينظر ايضا القانون المسعودي ١ : ٢٦٩ .

(٧١) ينظر ص ١٨٤ .

هو من أهم اعيادهم ، وهم يسمونه بلغتهم « بَاوْسَـــاوْدي » • ويقول المستشرق الدنماركي آرثر كريستنسن « Arthur Christensen [٧٢] إنّ النَيْروز كان أكبر أعيادهم الشعبية ، كما هو اليوم في ايران • وأول من رسم هدايا النيروز والمهرجان في الاسلام ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، وأول من رفع ذلك عمر بن عبدالعزيز[٧٣] •

ومن أعيادهم أيضاً « أجْفار » أي اللهب ، وفيه يوقدون النيران بالليل ، وهو بهذا يشبه السَّذق[٧٤] المعروف عند الفرس •

ويقول المستشرق كريستنسن : إنّ العرب لما فتحوا هـــذا الاقليم ، والاقاليم الأخرى من بلاد فارس ، اعترف الدين الرسمي بهذه الأعياد ، وصار الاحتفال بها ذا مراسيم دينية ، واحتفالات مصحوبة بكثير من الملاهي الشعبية، وقد فصل المستشرق كريستنسن الكلام في ايامهم واعيادهم ، واكبر الظن انه اخذ معلوماته من كتاب البيروني الآثار الباقية ، وكتابه : التفهيم لأوائل صناعة التنجيم ، ففي هذين المصدرين مادة وافية عن أعياد الخوارزميين ، قبل الفتح العربي •

---

(٧٢) ينظر كتابه : ايران في عهد الساسانيين (الترجمة العربية) . ص ١٥٢.
(٧٣) بلوغ الارب ١ : ٣٥١ .
(٧٤) السذق : ليلة الوقود ، وهو فارسي معرب ، معروف عند الفرس .

الحالة العقلية :

ازدهرت الحياة العلمية العقلية في اقليم خوارزم ، بعـــد الفتح العربي ازدهاراً ملحوظاً ، وكان لها أثر واضح في عقلية الادباء ، وفي تناجهم الادبي من شعر ونثر • وظهر ذلك واضحاً في أساليبهم وصورهم الشـــعرية ، وفنونهم المختلفة ، وطابعها العلمي الذي تميزت به حياتهم العقلية • وربما كان هـــذا أثرا من آثار الثقافات التي تمازجت في أفكار أدبائهم وعلمائهم •

وهكذا كان نضج الحياة العلمية والعقلية ، وتنوع الثقافات في هـــذا الاقليم ، من الأسباب المهمة ، في وجود حياة علمية وأدبية عالية ، فقـــد ضم اقليم خوارزم ــ بحكم موقعه الجغرافي ــ أمماً شتى ، كالفرس والترك ،والروم الارثودكس ، واليهود الى جانب العنصر العربي الفاتح • وليس ببعيد أن نعزو ما تميز به هذا الاقليم من حياة عقلية ، الى هذه الأجناس المختلفة • وما لكل منها من مزايا خاصة بها ، كما يمكننا أن نعزوه الى انه كان عامراً ببنيانه •ومعلوم ان العمران له أثره في الحياة العلمية والثقافية • وقد أشار ابن خلدون ، الى أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران[١] •

كما يمكننا أن نعزوه إلى تعاقب الثقافات المختلفة عليه ، بتعاقب الدول من بويهيين ، وسامانيين وسلاجقة وخوارزميين • ومع ان هذه المنطقة كانت موحدة الحكم في عهد كل هؤلاء ، فقد كانت تياراتها الثقافية ، تجري هنا وهناك بين مجتمع من الفرس والترك والعرب ، والأقليات الاخرى ، مما جعل جغرافياً كالمقدسي يقول فيه[٢] : « إنّ اقليم خوارزم من أجلّ الأقاليم ، وأكثرها أجلّة وعلماء » • ووصفه غيره بأنه كان مزداناً بالمدارس والمكاتب ، وأهل الفضل[٣] • ويرجع الفضل في ذلك الى السلاطين الخوارزميين ، الذين شـــجعوا الأدباء

---

(١) قال ابن خلدون في مقدمته . ص ٩٩٠ « طبعة لجنة البيان العربي » : « ان تعليم العلم من جملة الصنائع ، انما تكثر في الامصار ، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة ، والحضارة والترف » .

(٢) ينظر كتابه : احسن التقاسيم . ص ٢٦٠ .

(٣) ينظر : كنز العلوم واللغة . ص ٤٤٨ .

والعلماء ، فازدانت دولتهم بكثير منهم ، وأنتج اولئك العلماء والأدباء ، آثارهم بالعربية والفارسية . وقد كان بلاط الخوارزميين ، وخاصـــة بلاط خوارزم شاه ، مأمون بن مأمون ، منتجعاً لهؤلاء العلماء والأدبـــاء ، على مختلف مستوياتهم . وكذلك كانت حالته في عهد السلطان خوارزم شاه آتسز فيما بعده وليس أدل على احترام الخوارزميين لذوي المكانة العلمية ، من رعايتهم لبعض الأسر هناك ، كأسرة الجويني[٤] التي عظم نفوذ أفرادها في عهدهم ، ووصل كثير منهم الى أرقى مناصب الدولة ، في عهد علاءالدين خوارزم شاه ، وجلال الدين منكبرتي ، آخر سلاطين الدولة الخوارزمية .

كما اهتموا كذلك بالافراد ، ونصبوهم في مراكز مهمة في الدولة ، ومثال ذلك : نصرةالدين حمزة بن محمد بن عمر ، الذي حكم مدينة « نَسا » ، وكان ممن برعوا في الانتاج بالعربية والفارسية ، ونظموا الشعر بها .

ومن خلال دراستنا لأحوال هذا الاقليم ، رأينا أنّ الخوارزميين ، عملوا على تثقيف الطبقات الفقيرة من الشعب ، فأسسوا لهم المدارس الكثيرة ، في جميع انحاء الدولة ، وقد أنشأ السلطان خوارزم شاه بخوارزم ، مدرســة للحنفية ، وأسس داراً للكتب ، لينافس بهما سلاطين السلاجقة ، وليتقرب الى العلماء والأدباء ، كما كان يفعل سلاطين السلاجقة .

وقد بنى الأمراء دوراً كثيرة للعلم ، تحتوي كل منها على مكتبة ، تفتح لطلاب العلم وأهله ، وفي بعض المدارس كانت تجري الأرزاق على المشتغلين بالعلم فيها .

وممن اشتهر بالتدريس في هذا الاقليم ، الصانعي[٥] ، الذي كان بالإضافة

---

(٤) نسبة الى « جوين » : اسم كورة جليلة نزهة ، على طريق القوافل ، من بسطام الى نيسابور . تسميها أهل خراسان « كوبان » ، فعربت فقيل: « جوين » .
ينظر : معجم البلدان ٢ : ١٩٢ (طبعة بيروت) .

(٥) هو محمد بن ابراهيم ، ابو عبدالله . جاء بغداد سنة ٣٩٠هـ ، فتفقـــه على الاسفرايني والباقي وغيرهما ، ورجع الى خوارزم ســنة ٤١٢هـ ، وتوطن « حشراخون » احدى نواحي الاقليم .
تنظر ترجمته في : طبقات الشافعية ٤ : ١١٨ .

الى تدريسه ، خطيباً وواعظاً ومفتياً • ومنهم سيف‌الدين بن عصبة ، ذكره ابن بطوطة في رحلته[٦] • وكذلك الفراوي[٧] • وقيل عن أبي موسى الخوارزمي : إنّه كان يتقن التدريس ، كما كان يتقن الفتوى ، فهو شيخ في كليهما[٨] • وعرّف أبو الحسن الخوارزمي ، علي بن عرّاق الصنّاري بهذه المهنة[٩] •

ومما لا ريب فيه ، أنّ تلك المدارس والمكتبات ، كان لها دور كبير ، في نشر التعليم بين المسلمين ، وخاصة الطبقة المتوسطة ، والفقيرة منهم • أما الأغنياء والأمراء والوزراء ، فلم يقصروا استفادتهم على ما في تلك المكاتب والمدارس ، بل عهدوا بالاضافة الى ذلك ، الى معلمين يعلمون أبناءهم ، وكانوا يحترمونهم ويعطونهم الاموال والهدايا الكثيرة • وكانت لدى بعضهم مكاتب خاصة بهم •

ولم يقتصر هذا العمل على رجال الدولة ، وانما قام به بعض الأفراد كذلك ، حيث بنوا المدارس ، على حسابهم الخاص • وكان يدرس بهذه المدارس ، كبار الفقهاء والأدباء والعلماء • هذا شهاب‌الدين أبو سعد بن عمران[١٠] ، الذي يُروى عنه أنّه درّس في خوارزم ، في خمس مدارس من

---

(٦) ينظر ص ٣٦٠ .

(٧) هو ابو عبدالله ، محمد بن الفضل بن احمد الصاعدي النيسابوري ، المعروف بالفراوي ، نسبة الى « فراوة » : بلدة في طرف خراسان، مما يلي خوارزم ، وهي تحسب من نواحي هذا الاقليم . بناها عبدالله ابن طاهر ، في خلافة المأمون ، لما كان اميرا على خراسان .

ينظر طبقات الشافعية للاسنوي ٢ : ٢٧٦ ، تكملة الاكمال (خ) ورقة ١٦٢ أ ، الجواهر المضية ١ : ٢٨٨ ، الكنى والألقاب ٣ : ١٧ (طبعة الحيدرية . النجف) .

(٨) ينظر عنه : الوافي بالوفيات ٥ : ٩٣ ، تاريخ بغداد ٣ : ٢٤٧ ، العبر في خبر من غبر ٣ : ٨٦ ، تاريخ الحكماء . ص ٢٨٦ (طبعة لايبزك) ، طبقات الفقهاء . ص ١٢٣ ، الفهرست . ص ٣٩٧ . مط : الاستقامة بالقاهرة . سنة الطبع / .

(٩) توفي سنة ٥٣٩ هـ بمذانة من قرى خوارزم . ينظر معجم الادباء ١٤ : ٦٣-٦٤ ، بغية الوعاء ٢ : ١٧٩ .

(١٠) ذكر النسوي في كتابه : سيرة جلال الدين منكبرتي . ص ١٠٩ - ١١٠ ، انه كان فقيها فاضلا مبرزا ، مفتيا في مذهب الشافعي ، عارفا باللغة

مدارسها ، وبنى جامعا للشافعية ، ودارا للكتب ذات شهرة واسعة ، كما ذكر النسوي • ومثله في ذلك نظام الدين مسعود بن علي ، الشافعي المذهب ، الذي بنى مدرسة عظيمة بخوارزم ، وجامعاً عظيماً ، وبنى جامعاً آخر في مدينة « مرو[١١] » • وذكر السبكي عن ابن السمعاني[١٢] ، ان أبا عمر النسوي[١٣] ، الذي تولى قضاء خوارزم مدة ، أطلق فيها عليه قاضي القضاة في هذا الاقليم ، وفي مدينة « نَسا » ، قد بنى أيضا مدرسة •

وأهل هذا الاقليم محبون للعلم والثقافة ، مما جعل المقدسي يصفهم بقوله[١٤] : « أهل فهم وعلم وقرائح وأدب » • ووصفهم في موضع آخر بقوله: إنّه قلما وجد هناك إماماً في الفقه والقرآن والأدب ، الا وله تلميذ خوارزمي ، قد خصّهم الله بصحة القراءة والذهن » •

وذكر المقدسي أيضاً ، أنه رأى في مدينة « كاثْ » علماء وأدباء وقراء حذاقاً ، لم يرَ مثلهم في جودة القراءة ، وحسن النظم[١٥] » •

ولا ننسى ما كان لحركة الترجمة والتأليف ، وخاصة في عهد الدولة الخوارزمية ، التي عايشت الدولة العباسية ، والتي زاد من نشاطها تقدم صناعة الورق ، فكثرت بذلك المكتبات ، وزخرت بالكتب الدينية ، والعلمية والأدبية •

ومن وسائل التعليم والبحث المناظرات ، وكانت هذه تعقد في قصور

والطب والخلاف ، وسائر العلوم ، والفصاحة واللسن ، ولذلك فقد نال رتبة عالية ، عند جلال الدين منكبرتي الذي كان يشاوره في الامور العظام، ويفاوضه في جلال الامور .

(١١) ينظر البداية والنهاية ١٣ : ٢٣ .

(١٢) ينظر طبقات الشافعية ٤ : ١٧٥ .

(١٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن احمد بن علي . تنظر ترجمته في : سيرة جلال الدين منكبرتي . ص ٢٤ ــ ٢٥ ، دمية القصر وعصرة اهل العصر (خ) ترجمة رقم ١١٩ ، طبقات المفسرين . ص ٣٦ ، هدية العارفين ٢ : ١٢١ طبقات الشافعية السبكي ٤ : ١٧٥ ــ ١٧٧ . ، تاريخ اداب اللغة العربية ٣ : ٦٧ .

(١٤) ينظر : احسن التقاسيم . ص ٢٨٤ .

(١٥) المصدر السابق . ص ٢٨٧ .

الأمراء والوزراء ، فيحضرها العلماء والأدباء ، على اختلاف طبقاتهم . وقد تقام في المساجد بعد الصلاة ، وخاصة في أيام الجمع ، وتكون هذه بمثابة حلقات يعقدها الشيوخ . ونجد في هذا المجال اسماء شيوخ اشتهروا بهذه الحلقات ، كما اشتهروا بالتأليف ، منهم الشيخ الفاضل العالم ، شهاب الدين الخِيوَقي[١٦] ، الذي كان نائباً للسلطان خوارزم شاه، في جميع مملكته[١٧] . والذي يقال عنه : إنّه كان إذا دخل مدينة حضر المدرسون والقضاة درسه . وكان شافعي المذهب ، متعصباً لاصحابه . وكان الفقهاء يذهبون اليه ، في أي بلد يحل به ، فيقرءون عليه محفوظهم . وكان الشيخ يوليهم الاشغال كل حسب صلاحيته[١٨] .

وكذلك كانت حال الشيخ الامام ، قدوة المشايخ ، أبي الجناب أحمد بن محمد الخِيوقي ، المعروف بكبرى ، فقد كان أستاذ عصره ، وشيخ طائفته[١٩] .

واشتهرت طائفة اخرى من علماء هذا الاقليم ، بعلم القراءات ، ومن مقرئيه : الكُرْكانْجي[٢٠] ، الذي اشتهر بهذا العلم ، وقرأ عليه الأئمة ، ورحل هو الى الشام ليقرأ هناك على علمائه ، كما رحل في سبيل ذلك الى العراق

---

(١٦) نسبة الى « خيوق » من قرى خوارزم . ينظر : اثار البلاد واخبارالعباد . ص ٥٢٨ ، معجم البلدان ٢ : ٤١٥ (طبعة بيروت) . ، مراصد الاطلاع ١ : ٣٨٠ (ليدن) .

(١٧) يقول القزويني في كتابه : اثار البلاد واخبار العباد . ص ٥٢٩ : « ان القضاة والمدرسين والمفتين في جميع المملكة ، كانوا نوابا له »

(١٨) ينظر : المصدر السابق . ص ٥٢٩ .

(١٩) ينظر : المشتبه في الرجال ١ : ٢٠٥ ، تكملة الاكمال (خ) . ورقة ١٨٧ أ، الوافي بالوفيات (خ) . ورقة ٢٣ ، فوائح الجمال وفوائح الجلال . ص ٧٩ ، عطار نامة . ص ١٦٤ . واجمعت أكثر المصادر على انه يلقب بالكبرى « تخفيفا من الطامة الكبرى » ، لكون الغلبة له دائما .

(٢٠) نسبة الى كركانج ، أو الجرجانية قصبة اقليم خوارزم ، تقع في غربي جيحون ، على شاطئه . وهي كثيرة الخيرات . ينظر : قانون المسعودي ٢ : ٥٧٥ ، اثار البلاد واخبار العباد . ص ٥١٩ ــ ٥٢٠ ، معجم البلدان ٤ : ٤٥٢ (بيروت) صبح الاعشى . ص ٤٥٤ ، المشترك وضعا والمفترق صقعاً . ص ٣٧٠ ــ ٣٧١ .

والحجاز . وكانت هذه حال ابنه ، أبي محمد عبدالرحمن بن محمد الكركانجي ، الذي كان اماماً فاضلاً في هذا العلم ، كما كان حسناً للاخذ والاقراء[٢١] . ومنهم يوسف بن محمد بن الفَيْدي الخوارزمي ، صدر القراء الخوارزمية ، على ما يذكر اللكنوى[٢٢] ، فقد كان عالماً فاضلاً ، وفقيهاً مفسراً أديباً ، وماهراً في القرآن الكريم .

ويحكى عن أهل هذا الاقليم ، انهم كانوا يناظرون حتى في الأسواق والدروب . يقول القزويني عن أهل جرجانية : كلهم معتزلة ، والغالب عليهم ممارسة علم الكلام ، حتى في الأسواق والدروب . يناظرون من غير تعصب بارد في علم الكلام . واذا رأوا من أحد التعصب ، أنكروا عليه كلهم وقالوا: ليس لك الا الغلبة بالحجة ، وايّاك وفعل الجهّال[٢٣] .

وكان لهذه المناظرات ، أكبر الأثر في التعليم ، وفي إذكاء القرائح .ومن هنا كانوا علاوة على ما وصفهم به المقدسي ، أهل جدل ونقاش ، لتضلعهم في علم الكلام ، لأنه جزء من مذهبهم الاعتزالي . فقد كان علماؤهم ، يحضرون المجالس ، ويتناظرون في الفقه ، والنحو والصرف واللغة ، وفي المسائل الدينية .

ومن فحول المناظرين : أبو الحسين الكاثي[٢٤] ، الذي قالوا عنه : إنّه كان من كبار الخوارزميين فضلاً ورتبة ، وبيته بيت علم وصلاح . وفيه يقول السبكي[٢٥] : « لم يكن في كاث بعد الامام اسماعيل الدَرْغاني انظر منه » . وقد تولى قضاء كاث أيضا ، بعد سعيد بن محمد الكعبي .

---

(٢١) ينظر : الانساب (خ) مصور . ورقة ٤٧٩ ب .

(٢٢) ينظر : الجواهر المضية ٢ : ٢٣٣ ، الفوائد البهية . ص ١٨٥ ، والفيدي: نسبة الى فيد : منزل بطريق الحجاز والعراق . وقيل : القندي (بالقاف والنون) : نسبة الى قند : اصل السكر .

(٢٣) ينظر : اثار البلاد واخبار العباد . ص ٥٢٠ .

(٢٤) هو محمد بن ابراهيم بن الحسين بن أحمد بن عبدالله الشنشدانقي ، ابو الحسين . توفي سنة ٤٩٨هـ . ينظر عنه : طبقات الشافعية الكبرى ٤ : ١١٤ .

(٢٥) طبقات الشافعية الكبرى ٤ : ١١٤ .

ومن مناظري مدينة « كاث » أيضاً ، العقيلي الكاثي[٢٦] ، وهو من مشاهير صدور خوارزم ، وفضلائها وفقهائها . تولى القضاء في هذه المدينة ، وكان قاضيا عادلا ، كما كان خطيبا ومناظرا فحلا .

ومنهم البقّالي[٢٧] ، وكان إماماً فاضلاً فقيهاً ، خبيراً بالمعاني والبيان ، من علوم البلاغة . وكان ممن تلمذ على الامام ، جار الله الزمخشري، والعارضي[٢٨] الذي يناظر في مسائل الخلاف . وكان الزمخشري يسميه الجاحظ الثاني، لكثرة حفظه وفصاحة لفظه . وقد أقام في خوارزم مدة ، في خدمة السلطان خوارزم شاه ، ثم ارتحل الى مرو ، وذبح بها نفسه ، على حد قول ياقوت الحموي ، في أوائل سنة ٥٢١هـ[٢٩] .

ومن المناظرين أيضاً : الخاصي[٣٠] ، الذي كان فقيهاً مناظراً ، عالماً بالأدب. وأبو الرجاء الغَزْميني[٣١] : كان من كبار الأئمة ، وأعيان الفقهاء . له اليد الطولى في الخلاف والمذهب ، والكلام والمناظرات .

---

(٢٦) هو محمد بن احمد بن سعيد بن موسى ، بن احمد بن كعب بن زهير العقيلي الكاثي ، نسبة الى كاث : قصبة اقليم خوارزم . ينظر عنه : المصدر السابق ٤ : ٩٣ ــ ٩٤ .

(٢٧) محمد بن أبي القاسم الخوارزمي النحوي المعروف بالبقالي ، وهو البقال الذي يبيع الاشياء اليابسة . والعجم يزيدون الياء ، فهي ليست زيادة نسبة . ينظر : المشتبه في الرجال ١ : ٨٧ ، معجم الادباء ١٩ : ٥ ، الوافي بالوفيات ٤ : ٣٤٠ ، طبقات النحاة واللغويين (خ) . ورقة ٥٢ ، بغية الوعاة ١ : ٢١٥ ، طبقات المفسرين . ص ٤٠ ، الاعلام ١٠ : ٢٢١ ، الفوائد البهية . ص ١٣٢ .

(٢٨) هو محمود بن عزيز العارضي ، أبو القاسم الخوارزمي ، الملقب شمس المشرق . كان من افضل الناس في عصره ، في علم اللغة والادب ، لكنه تخطاهما الى على الفلسفة ، وفتن بها .
تنظر ترجمته في : معجم الادباء ١٩ : ١٢٦ ، بغية الوعاة ٢ : ٢٧٩ .

(٢٩) ينظر : معجم الادباء ١٩ : ١٢٦ .

(٣٠) هو الموفق بن محمد بن الحسن ، ابو المؤيد صدرالدين الخاصي . نسبة الى خاص من قرى خوارزم . ينظر : ذيل لب الالباب (خ) . ورقة ٢١، تاج التراجم . ص ٧٨ ، هدية العارفين ٢ : ٤٨٣ .

(٣١) مختار بن محمود بن محمد ، ابو الرجاء نجم‌الدين الزاهدي الغزميني . نسبة الى « غزمين » : قصبة من قصبات خوارزم . ينظر عنه :الجواهر

ومن مناظري هذا الاقليم ، الوَبْري[٣٢] ، وهو من رؤساء أصحاب أبي حنيفة وأئمتهم • كان عالماً متكلماً ، أصولياً فصيحاً • واليه كانت ترجع الفتوى والتدريس في هذا الأقليم ، فقد كان أستاذا يشار اليه في الفنون الأدبية ، حافظا للفقه والأشعار • ومنهم الفَراوي الذي أشرنا اليه قبل قليل •

وشارك الوافدون بمجالس المناظرات ، ومن أشهر هؤلاء الامامفخرالدين الرازي ، أحد الفقهاء الشافعية ، وقد قالوا عنه : « أوحد زمانه في المعقول والمنقول ، وعلوم الأوائل » • وقد اشتهر بمناظرات له مع المعتزلة ، أدّت الى خروجه من خوارزم ، الى بلاد ما وراء النهر ، فجرى له هناك ما جرى له بخوارزم ، حيث تركها الى الري[٣٣] •

وكذلك كان أمر النسوي ، الوافد اليه من مدينة « نسا » ، فقد ناظر وأفتى في هذا الاقليم[٣٤] •

والى جانب هؤلاء كان هناك الوعاظ ومجالسهم ، ومن أشهرهم المشاطي، الذي كان خطيباً واعظاً مذكّراً ، وفيه يقول ابن بطوطة : « أحد الخطباء الأربع الذين لم أسمع في الدنيا أحسن منهم[٣٥] » ، ومنهم أبو عبدالله محمد بن الفضل ابن أحمد الصاعدي ، المعروف بالفَراوي ، الذي كان واعظاً ومحدثاً ومناظراً،

المضية ٢ : ١٦٦ ، الفوائد البهية . ص ١٧٠ ، تاج التراجم . ص ٧٣، مفتاح السعادة ٢ : ٢٧٩ .

(٣٢) هو عبد الخالق بن عبدالحميد ، بن عبدالله الوبري . نسبة الى الوبر . ينظر عنه : الجواهر المضية ١ : ٢٩٨ ، ٢ : ٣٥٦ .

(٣٣) ينظر : مفتاح السعادة ٢ : ١١٧ . وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاة هذا الامام .

ينظر في ذلك : العبر في خبر من غبر ٤ : ٢٨٥ ، مرآة الزمان في تاريخ الاعيان حـ ٨ . ق٢ . ص٥٤٢ ، عيون الانباء في طبقات الاطباء . ص٤٦٦، هدية العارفين ٢ : ١٠٧ ، الاعلام ٧ : ٢٠٣ ، تاريخ مختصر الدول . ص ٢٤٠ .

(٣٤) ينظر : طبقات الشافعية ٤ : ١٧٦ .

(٣٥) ينظر ص ٥٢ . ولم نتوصل الى معرفة الخطباء الثلاثة الذين قصدهم ابن بطوطة بهذا القول .

كما مرّ بنا قبل قليل . ومنهم الكَرْدَرانَخاسي ، ذكره السبكي قائلاً : إنّه أقام بقريته كردر انخاسية(٣٦) ، وكان واعظاً بها ، كما كان خطيباً وثقة صالحاً .

ومن أشهر الوعاظ الوافدين الامام فخرالدين الرازي ، الذي كان يعظ باللغتين ، العربية والفارسية ،وكان يلحقه الوجـــد في حال الوعظ ، فيكثر البكاء ، على حد قول القمي(٣٧) . وقيل إنّه عندما كان يذهب الى هراة ، كان يحضر مجلسه أرباب المذاهب والمقالات ، ويسألونه وهو يجيب كل سائل(٣٨) .

ولعل من أهم عوامل ازدهار الحياة العقلية العلمية ، وغلبة الطابع العقلي عليها ، اعتناقهم مذهب الاعتزال وشيوعه فيهم ، حتى ليندر أن نجد خوارزميا ليس معتزلياً . فإن كان كذلك وأراد أن ينفي عن نفسه الاعتزال ، اكّد نفيه ، كما روى ياقوت الحموي عن الأديب الشاعر القاسم بن الحسين ، حينما سأله عن مولده ، فقال : « حنفيّ ، ولكن لست خوارزميا ، لست خوارزميا(٣٩) » .

وقد امتازت دراساتهم ، بأنها دراسات عقلية ، يغلب عليها الطابع الكلامي وطابع الجدل والنقاش .

وقد نشطت الدراسات العقلية في هذا الاقليم ، وفي اقليم خراسان ،منذ أواسط عصر السلجوقيين ، وكان للملوك السلاجقة والخوارزميين الأتراك ،عناية كبيرة بالعلوم ، وخاصة علم الفلك والتنجيم(٤٠) ، الذي ألفت فيه كتب ، مثلما

---

(٣٦) لم نجد هذا الاسم فيما بين ايدينا من المعاجم وكتب البلدان ، وانما وجدنا كردر ، « والنسبة اليها كردري » وهي ناحية من نواحي خوارزم او ما يتاخمها من نواحي الترك ، ولاهلها لسان خاص ، ليس خوارزميا ولا تركيا . وفيها عدة قرى . ينظر : معجم البلدان ٤ : ٤٥٠ (طبعة بيروت) .

(٣٧) ينظر : الكنى والالقاب ٣ : ١٣ (طبعة الحيدرية النجف) .

(٣٨) ينظر : مفتاح السعادة ٢ : ١٢٢ .

(٣٩) ينظر : معجم الادباء ١٦ : ٢٣٨ .

(٤٠) للتفصيل في ذلك ينظر : محاضرات عن الشعر الفارسي والحضارة الاسلامية في ايران . ص ١٠٢ - ١٠٣ .

الفت في التأريخ والجغرافية ، وبرع في هـــذا العلم المنجم الشـــهير والفلكي الجَغْميني[٤١] ، الذي اشتهر بمؤلفاته الفلكية[٤٢] .

وقد ظهر من رجال المعتزلة ، من أعلام الحركة العقلية ، في هذا الاقليم ، عمر بن أحمد بن عمر بن نجم الدين الكاوخشتواني ، الذي كان من مشايخهم كما ذكر اللكنوي[٤٣] . واشتهر منهم الامام جار الله الزمخشري ، الذي كان من أئمة هذا المذهب ، ومنهم ناصرالدين المطرزي ، كان من فقهاء الحنفيـــة ، ورأساً في الاعتزال ، حتى قيل عنه : خليفة الزمخشري ، لسيره على طريقته . ويقول ياقوت الحموي فيه[٤٤] : « كان رأساً في الاعتزال داعياً اليه ، ينتحل في الفروع مذهب أبي حنيفة » . ويقول السيوطي[٤٥] : «وكان للحنفية كالأزهري للشافعية » .

ونشطت عندهم الدراسات البلاغية ، وهي دراسات متأثرة بالفلسفـــة والمنطق ، وعلم الكلام ، شأنهم في ذلك شأن المشارقة عامة ، على حين أن دراسة المغاربة وأهل العراق ، وأهل الشام ومصر والأندلس ، لهذا الفن ، كانت متأثرة بالمذهب الأدبي . ونستطيع أن نقول : إنّ مذهب المشارقة بصورة عامة ، قـــد اتضح عند الزمخشري ، وناصرالدين المطرزي ، وفخرالدين الرازي والسكاكي ، من علماء هذا الاقليم ، وقد تنبه ابن خلدون الى عناية المشارقة عامة ، بالبيان والمعاني ، نتيجة دراساتهم العقلية ، وأرجع ذلك الى أن المشرق أوفر عمرانا من المغرب[٤٦] .

---

(٤١) هو محمود بن محمد بن عمر ، ابو علي شرف الدين الجغميني . نســـبة الى « جغمين » من اعمال خوارزم . ينظر : الاعلام ٨ : ٥٩ ، القاموس الاسلامي ١ : ٦١٧ .

(٤٢) ذكر بروان في كتابه : تاريخ الادب في ايران . ص ٦١٨ ان سائر مؤلفاتـــه ضاعت باستثناء مؤلف واحد هو الملخص ، وفي هدية العارفين ٢ : ٤١٠ . ذكر هذا المؤلف . وفي الاعلام ٨ : ٥٩ــ٦٠ ذكر هذا المؤلف ، مع مؤلفات اخـرى .

(٤٣) ينظر الجواهر في طبقات الحنفية ١ : ٣٨٥ .

(٤٤) ينظر معجم الادباء ١٩ : ٢١٢ . ، وفيات الاعيان ٥ : ٦ .

(٤٥) بغية الوعاة ٢ : ٣١١ ، الفوائد البهية . ص ١٧٤ .

(٤٦) ينظر مقدمة ابن خلدون ٤ : ١٢٦٥ « القاهرة ١٩٦٠م » .

وكما نشطت الدراسات الدينية والفقهية ، نشطت رواية الشعر والأخبار، وظهر كثير من علماء هذا الاقليم ، في هذه المجالات ، وعُرِف عن الكثير منهم المقدرة والتبحر في فنون مختلفة ، وقد برز عندهم من علماء الحديث عدد كبير ، نذكر منهم : مظهرالدين الخوارزمي(٤٧) ، الذي رحل الى سمرقند وبخارى وبغداد ، في طلب الحديث . وعندما دخل بغداد على ما يقول السبكي ، وعظ بالمدرسة النظامية ، وحدث بها ، وحينما رجع الى بلاده ، أخذ ينشر العلم ويفيد الناس . ويقول السبكي أيضا انه رأى المجلد الأول من (تأريخه) وفيه دلالة واضحة على انه كان متبحرا في صناعة الحديث . أما جلال‌الدين بن شمس‌الدين الخوارزمي الكرلاني ، فقد كان عالماً فاضلا في هذا المجال ، تشد اليــه الرحال للاستفادة من علمه(٤٨) . ومنهم التمرتاشي(٤٩) ، وكان إماماً جليل القدر ، عالي الاسناد ، مطّلعاً على حقائق الشريعة. له كتاب التراويح، وشرح‌الجامع‌الصغير، ذكرهما اللكنوي . ومنهم أبو العلا الفرضي(٥٠) ، الذي طاف البلاد وسمع الحديث ، ورجع الى بلاده ، وصار شيخها وملجأ كل غريب ، وكان عظيم الجاه، لا يخاف في الله لومة لائم ، كما وصفه الصفدي . ومنهم أبو المؤيد الخوارزمي الذي قدم بغداد من أجل ذلك ، ثم ذهب الى دمشق وسمع بها وحدث ، ولمـا رجع الى بلاده ، تولى قضاء خوارزم وخطابتها ، ورجع الى بغداد بعد أخـذ التتار لبلاده ، ودرّس بها ، وصنّف مسانيد الإمام أبي حنيفة ، في مجلدين ، كما ذكر ابن قطلوبغا(٥١) . ومنهم داؤد بن رشيد الخوارزمي ، الذي سـكن بغداد ، وروى عنه ابن ماجة والنسائي وغيرهم(٥٢) . ومنهم البرقي ، الذي كان

---

(٤٧) هو محمود بن محمد بن العباس بن ارسلان ، أبو محمد العباسي . ينظر طبقات الشافعية الكبرى ٧ : ٢٨٩ .

(٤٨) ينظر : الفوائد البهية في طبقات الحنفية . ص ٤٨ .

(٤٩) هو احمد بن اسماعيل ظهيرالدين التمرتاشي الخوارزمي . والتمرتاشي : نسبة الى « تمرتاش » من قرى خوارزم . ينظر عنه : الجواهر المضيــة ٢ : ٢٩٣ ، الفوائد البهية . ص ١٢ ، معجم المؤلفين ١ : ١٦٧ .

(٥٠) من قرية خيوق من قرى خـوارزم . ينظـر عنـه : الوافي بالوفيــات « مخطوط » حـ٦ . ورقة ١٥٩ .

(٥١) ينظر : تاج التراجم في طبقات الحنفية . ص ٦٦ .

(٥٢) ينظر عنه : الانساب ٥ : ٢١٣ ، تاريخ بغداد ٨ : ٣٦٧ ، هدية العارفين ١ : ٣٥٩ ، الجواهر المضية ١ : ٢٣٧ ، الفوائد البهية . ص ٦٢ .

إماماً في الحديث على مذهب ابي حنيفة[٥٣] . والبَرْقاني الذي روى عنه الخطيب البغدادي في كتابه : (تاريخ بغداد) الشيء الكثير[٥٤] . والتاجر[٥٥] الذي يقول فيه اللكنوي[٥٦] : « من أئمتنا المسلمين من أصحاب أبي حنيفة ، والملازمين لمجالس ابي هارون الفقيه الحنفي ، الحاكم المزني ، المعروف بالتيّان[٥٧] » ، ومنهم الحارث بن سريج النقّال ، الذي حدّث عن حماد بن سلمة ، وحماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة[٥٨] . ومنهم نجم الدين الكبرى أبوالجنّاب ، المحدث والفقيه الصوفي ، الذي يقول فيه ابن نقطة انه كان شيخ خوارزم ، لأنه صاحب مذهب وسنة،وكان على مذهب الشافعي[٥٩] .

---

(٥٣) هو محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن يوسف بن اسماعيل ابن شاه الخوارزمي البرقي . والبرقي نسبة الى برق بيت كبير من بيوت خوارزم . ينظر عنه : الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الاسماء والكنى والانساب ١ : ٤٨٣ ، الانساب ٢ : ١٧٢–١٧٣ ، اللباب في تهذيب الانساب ١ : ١١٤ ، المشتبه في الرجال ١ : ٦٧ .

(٥٤) هو ابو بكر احمد بن محمد بن احمد بن غالب الخوارزمي البرقاني . والبرقاني : نسبة الى « برقان » من قرى خوارزم . ينظر عنه : طبقات الفقهاء ــ الشيرازي ــ ص ١٠٦ ، تذكرة الحفاظ ٣ : ١٠٧٤ ، النجوم الزاهرة ٤ : ٢٨ ، النكت الظراف على الاطراف ــ ابن حجر العسقلاني ٢ : ٨٩٥ . « هذا الكتاب ضمن كتاب تحفة الاشراف بمعرفة الاطراف ــ للامام جمال الدين بن يوسف المزّي » ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٢٣٠ .

(٥٥) هو محمد بن سهل بن ابراهيم بن سهل ، ابو عبدالله ، المعروف بالتاجر ، والد قاضي القضاة ابي نصر محمد بن محمد بن سهل . وهو غير عبدالعزيز أحمد بن علي ، أبي بكر التاجر ، المعروف بالادمي المحدث . ينظر عنه كتاب : ذكر اخبار اصبهان « للاصبهاني » ٢ : ١٢٧ .

(٥٦) ينظر : الجواهر المضية ٢ : ٦٠ .

(٥٧) عرف بالتيان نسبة الى بيع التين . توفي سنة ٣٤٩هـ .

(٥٨) قيل له النقال : لانه نقل رسالة الشافعي ، الى عبدالرحمن بن مهدي ، وحملها اليه ، كما يذكر السبكي في طبقات الشافعية ٢ : ١١٢ .
وينظر عنه ايضا : طبقات الشافعية للاسنوي ١ : ٢٣ .
طبقات الحنابلة . ص ١٠٥ ، تاريخ بغداد ٨ : ٢٠٩ .

(٥٩) ينظر عنه : الوافي بالوفيات « مخطوط » حـ٦ . ورقة ١٥٩ ، شذرات الذهب ٥ : ٧٩ ، العبر في خبر من غبر ٥ : ٧٣ ، تكملة الاكمال . ورقة ١٨٧ أ .

ومن المحدثين في هذا الاقليم : أبو عبدالله الخوارزمي مؤلف كتاب : مختصر الوجوه في اللغة[٦٠] ومنهم الفُراوي والنسوي ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، ومحمد بن الحسن الخوارزمي ، الذي قطن الموصل مدة ، كما يذكر الخطيب البغدادي[٦١] .

وممن حدث من الوا فدين الى هذا الاقليم ، الامام فخرالدين الرازي ، والواسطي[٦٢] ، والغرناطي[٦٣] .

ووافق نشاطهم في العلوم العقلية والدينية ، نشاطهم اللغوي ، وظهر من اللغويين والنحويين ، أعلام نضجت هذه الدراسات على أيديهم ، وشهروا بها ، ومنهم : محمود بن عزيز العارضي ، الذي وصفه ياقوت الحموي بقوله : «كان من أفضل الناس في عصره ، في علم اللغة والأدب[٦٤] » . وأبو اسحاق المؤذني الخوارزمي ، من العلماء المجيدين للغة والأدب في العربية والفارسية ، هذا الى جانب اجادته الفقه وعلم التفسير والحديث والأصل والكلام ، مع معرفة بالنجوم[٦٥] ، ومنهم شهاب‌الدين أبو سعد بن عمران ، من علماء اللغة ،

---

(٦٠) جمع هذا الكتاب اسحاق بن محمد الالوسي من كتاب « وجوه الاصمعي» وكتاب « العين » للخليل ، وكتاب : تكملة العين ، للخازنجي ، وكتاب المواقيت لابي عمر محمد بن عبدالواحد ، غلام ثعلب ، واما لي ابن دريد، وسائر كتب اللغة . والكتاب حوالي الفي ورقة ، اختصره محمد بن‌احمد ابن يوسف ، أبو عبدالله الخوارزمي ، وقد حقق هذا الكتاب مصطفى احمد الزرقا . تنظر هذه المعلومات في مقدمة المحقق للكتاب . المطبعة العلمية بحلب . سنة الطبع / .

(٦١) ينظر تاريخ بغداد ٢ : ١٨٦ .

(٦٢) هو فخرالدين ابو محمد عبدالرحمن بن يحيى بن الربيع بن سليمان الواسطي الفقيه الرسول . من بيت اشتهر بالعدالة والقضاء والفقه والرواية . ينظر عنه : تلخيص مجمع الاداب : ج٤ . ق٣ . ص٢٠٩ .

(٦٣) هو ابو حامد بن أبي الربيع سليمان بن الربيع بن عاصم الغرناطي المازني. نسبة الى غرناطة من بلاد المغرب كما في : اللباب في تهذيب الانساب ٢ : ١٦٩ . ولعل المقصود ببلاد المغرب ، بلاد الاندلس .

(٦٤) ينظر : معجم الادباء ١٩ :١٢٦ ، بغية الوعاة ٢ : ٢٧٩ .

(٦٥) هو ابراهيم بن محمد بن حيدر بن علي . ينظر عنه : معجم الادباء ٢ : ١٥ ــ ١٦ ، معجم المصنفين ٤ : ٣٤٣ ، الطبقات السنية في تراجم الحنفية ١ : ٢٦٢ .

وسائر العلوم والفصاحة . وعلي بن عراق الصنّاري ، الذي كان نحوياً لغوياً عروضياً ، بالاضافة الى كونه عالماً بالتفسير[٦٦] ، ومنهم محمود بن جرير الضبي الاصفهاني ، أستاذ الزمخشري ، وهو من الوافدين الى هذا الاقليم . كان وحيد عصره في علم اللغة والنحو . أقام بخوارزم مدة ، وانتفع الناس بعلومه ، وتخرج عليه جماعة من الأكابر في اللغة والنحو ، منهم جار الله الزمخشري[٦٧] .

ومنهم أبو يعقوب السكاكي ، الامام العالم المتبحر في النحو والتصريف ، وعلمي المعاني والبيان والعروض والشعر .

ومع أن التخصص في العلوم ، يكاد يكون معدوماً ، في هذا الأقليم ،فإننا نجد من مال الى التخصص ، مثل ابن سينا الذي غلبت عليه الفلسفة ، ومحمد ابن موسى الخوارزمي، الذي غلب عليه علم الفلك والرياضة، والجغميني الذي عُرِف بعلم الفلك والتنجيم . والبيروني في علم الهيئة والنجوم والطب والفلسفة ، وغير ذلك من العلوم ، فقد كان كما نعته الصفدي وحيد زمانه في فنون شتى .

وللاستفادة من هؤلاء الأعلام ، قصد خوارزم الطلبة من كل مكان . جاء بعضهم من العراق ، وبعضهم من الشام ، ووفد بعضهم من الأقاليم المجاورةاليها، مثل سجستان وطبرستان وبلخ وبخارى وغيرها . وفي سبيل العلم رحل علماؤهم وأدباؤهم ، وجابوا الآفاق ، رحلوا الى العراق والشام ومصر[٦٨] ، والحجاز والقدس ، وهَمذان وخوزستان ومرو ، ونيسابور ، ووصل بعضهم بلاد الروم وتوطنها ، كما فعل الغزميني[٦٩] .

ومن الجدير بالذكر ، أنه كان لكل هؤلاء أثرهم في الأدب نظمه ونثره ،

---

(٦٦) توفي سنة ٥٣٩هـ . ينظر معجم الادباء ١٤ : ٦٣ـ٦٤ ، بغية الوعاة ٢ : ١٧٩ .

(٦٧) ينظر معجم الادباء ١٩ : ١٢٣ ، بغية الوعاة ٢ : ٢٧٦ ، روضات الجنات. ص ٧٢٠ ، الاعلام ٨ : ٤٢ .

(٦٨) مثال ذلك العلامة محمد بن فضل الله بن احمد الخوارزمي : شمس الدين الكويحي ، الذي مكث في مصر مدة ، وانتفع الناس من علمه . ينظر : نظم العقيان في أعيان الاعيان ـ السيوطي ـ ص ١٥٨ .

(٦٩) ينظر : الفوائد البهية . ص ٧٠ .

منهم من نظم الشعر ، كما فعل الباقي والتاجر وغيرهما ، ومنهم من نقده وعلق عليه ، كالعمراني تلميذ الامام الزمخشري ، الذي كان كما يصفه السيوطي[٧٠] مطّلعاً على غوامض كلام العرب ، ومحيطاً بأسرار الأدب . وكذلك كان ابن بايجوك المعروف بالبقالي ، الذي وصفه كل من ياقوت الحموي ، والذهبي بأنه كان إماماً في الأدب ، وحجة في العربية ، وعلم الإعراب ، الذي أخذه عن الامام الزمخشري[٧١] .

وهكذا كان أقليم خوارزم ، غنيّا بعلمائه وأدبائه ، وكانت عاصمته الجرجانية ، من أجلّ المراكز العلمية وأرقاها ، وقد قامت بدور فعّال في نشر الثقافة الاسلامية . وبقيت الحياة العلمية والأدبية حية ، حتى بعدما اجتاح التتار هذا الاقليم ، سنة ٦١٨هـ/١٢٢٠م ، وأبادوا الكثير من نفائسه وذخائره، وأحرقوا الكتب ومزقوها .

وحسبنا أن نقول : إنّ هذا الاقليم الذي كان أعجميا ، خرّج مئات من العلماء والفقهاء ، والمحدثين والمفسرين والأدباء ، الذين كان لهم أثر كبير ، في الدراسات الاسلامية والفكر الاسلامي .

---

(٧٠) ينظر بغية الوعاة ٢ : ١٩٥ ، معجم الادباء ١٥ : ١٦ .

(٧١) ينظر : معجم الادباء ١٩ : ٥ ، المشتبه في الرجال ١ : ٨٧ ، طبقات النحاة واللغويين ـ ابن قاضي شهبة ـ « مخطوط » . ورقة ٢ ٥.

الحالة الادبية :

ما كاد هذا الاقليم يخضع للحكم العربي حتى جعل يستعرب ، وساعدت بيئته الكثيرة الخيرات ، على اجتذاب الوافدين اليها ، واقبل أهله على الاسلام بشغف ، فتعلموا اللغة العربية لغة الدين • وهذه الأسباب اعانت على ازدهار الحياة الأدبية ، ولم يقتصر الادب في هذا الاقليم ، وفي غيره من أقاليم ما وراء النهر ، على الشعب وحده ، بل شارك في ذلك الحكام والوزراء ، كالرقاشي(١) والسهيلي(٢) ، وأبي عبدالله بن ابراهيم التاجر(٣) ، والباجري(٤) •

ويقول الدكتور مجيب المصري في هذا المجال(٥) : إنّ من الظواهر المشتركة في أدب العرب والفرس والترك ، كثرة الشعراء من الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء • وإنّ رواة الأدب اجمعوا في هذه الامم الثلاث ، على نسبة بواكير الشعر الى شاعر ينتمي الى قوم ممن استحصفت لهم أسباب الملك ، وتوطد عندهم أساس السلطان • وهذا الصاحب بن عباد يقول قولته المشهورة وهي : « بديء الشعر بملك ، وختم بملك(٦) » • فعند الفرس أن الشعر ، كما

---

(١) هو ابو محمد عبدالله بن ابراهيم الرقاشي ، احد ابناء الوزراء في هذا الاقليم .
تنظر ترجمته في : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٥ ـ ٢٤٧ (طبعة السعادة) .

(٢) أبو الحسين احمد بن محمد . توفي ٤١٨هـ ـ ١٠٢٧م . كان من بيت رئاسة ووزارة . كان وزيرا لعلي بن مأمون خوارزم شاه ، واخيه ابي العباس . ينظر عنه : معجم الادباء ٤ : ٢٦١ ، الوافي بالوفيات ٨ : ١٤٧ ، تتمة اليتيمة ٢ : ٢٣ـ٢٤ وفيه وردت كنيته « ابو الفضل » بدلا من « ابي الحسين » . وفي هدية العارفين ١ : ٧٢ « ابو الحسن » .

(٣) ابو عبدالله محمد بن ابراهيم التاجر ، كان وزيرا بخوارزم . ينظر عنه : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٤ (طبعة السعادة) .

(٤) محمد بن ابراهيم ابو عبدالله الباجري . ينظر المحمدون من الشعراء واشعارهم . ص ٩٦ .

(٥) ينظر كتابه : في الادب العربي والتركي . ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

(٦) يعني امرا القيس وابا فراس . ينظر : الكشكول . ص ٣٥ .

يذكر رواة الأدب ، دار أول ما دار على لسان أمير من أمراء الساسانيين ، هو بَهْرام جور[٧] . وعند العرب دار كما نوه الصاحب بن عباد ، على لسان امريء القيس .

رأينا أن الحياة العقلية في هذا الاقليم ، وقد بلغت أوجها ، وكذلك الحياة الأدبية فيه ، وهي في كثرة أدبائها ، كالحياة العقلية في كثرة علمائها، وقد رأينا أثناء دراستنا الحياةالعقلية، ترحال علمائهم الى اقصى البلاد، من أجل الفقه والحديث وغيرهما ، وكانت هذه حال الأدباء ، فقد رحلوا الى بغداد والشام ومصر وغيرها ، ونقلوا أدب القدماء ، واطلعوا على أدب المعاصرين لهم ، فأبوا بكر الخوارزمي جاب كثيرا من الأقطار ، فطوّف بالشام ، ونزل ضيفاً على سيف الدولة الحمداني في حلب ، وعلى الصاحب بن عباد في الري ، وذهب الى نيسابور وغيرها ، وكان يحاضر في أخبار العرب وأيامها ، ودواوينها ، ويدرس كتب اللغة والنحو[٨] .

يرى المستشرق اربري ARBARY [٩] ان النشاط الأدبى الفارسي في جميع بلاد فارس ، بما فيها أقليم خوارزم ، اقتصر في القرون الاسلامية الثلاثة الاولى ، التى تلت الفتح الاسلامى ، أي من القرن السابع ، الى القرن التاسع الميلاديين ، « الأول ـ الثالث الهجريين » على تسجيل النصوص الزرادشتية المقدسة وروايتها ، ولعل هذا يفسر لنا عدم عثورنا على أدب عربي في هذه القرون التي تلت الفتح .

وبعد هذه الحقبة عرف اقليم خوارزم ، طائفة من الشعراء ، كان بعضهم قد أسهم بنشاط شعري غزير ، كما سنرى اثناء دراستنا لهم ، حيث وجدنا لديهم الشيء الكثير ، على الرغم من أن بعضهم قد ضاع أكثر شعره ، وان بعضهم قد

---

(٧) بهرام جور : هو ابن يزدجرد الخشن بن بهرام بن كرمان شاه بن سابور، ذي الاكتاف . ينظر : تاريخ الرسل والملوك حـ ٢ . ق١ . ص ٨٥٤ .

(٨) ينظر عنه مقدمة كتابه : المكارم والمفاخر ، يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٤ (طبعة السعادة) ، بغية الرعاة ١ : ١٢٥ ، وفيات الاعيان ٤ : ٣٣ .

(٩) ينظر كتابه : تراث فارس . ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
نقله الى العربية : محمد كفافي واخرون . مط . دار احياء الكتب العربية ـ البابي الحلبي . ١٩٥٩م .

فُقِد ديوان شعره بكامله ، كما حدث لديوان أبي بكر الخوارزمي ، ومع أن فترة استيلاء المغول على البلاد ، دمّرت كل شيء تقريباً ، مع ذلك استطعنا الوقوف على أشعار كثيرة لأدباء معروفين ، وغير معروفين ، مما يجعلنا لا نغالي اذا قلنا : إنّ اقليم خوارزم حريّ بأن يفخر بشعرائه وأدبائه ، كما هو حريّ بنا أيضاً أن نفخر بهم ، لأنهم تركوا لنا تراثاً حسناً في لغتنا العربية ، ووصلوا قمة المجد في الأدب العربي ، شعره ونثره •

عرف اقليم خوارزم في القرن الرابع الهجري ، عددا من الشعراء ، ساروا على النهج التقليدي • ففي عهد الدولة السامانية ٢٦١ ــ ٣٨٩هـ ، عمل هؤلاء على انعاش الأدب ، ورعوا الأدب العربي • مثلما رعوا الأدب الاسلامي الحديث[١٠] الذي يعلل محمد عوفي ظهوره برأيه فيقول[١١] : « ولما سطعت شمس الملة الحنفية على بلاد العجم ، جاور ذوو الطباع اللطيفة من الفرس ، فضلاءَ العرب ، واقتبسوا من أنوارهم ، ووقفوا على أساليبهم ، واطلعوا على دقائق البحور ، وتعلموا الوزن والقافية والروي والاسناد والأركان والفواصل، ثم نسجوا على هذا المنوال » • ثم يروي أبياتاً أربعة لشاعر اسمه عباس ، مدح بها المأمون في مرو سنة ١٩٣هـ • ونبغ في أيامهم شعراء عديدون ، كان على رأسهم أبو سعيد الشبيبي ، الذي اختص بمدح أمراء هذه الدولة ، والدولة البويهية ، ولذلك سمي بصاحب الجيشين وشيخ الدولتين[١٢] •

وعلى ذكر السامانيين ، لابد من الاشارة الى بلاط المأمونيين[١٣] ، ولا يخفى أن الأدباء كانوا كثيرين في بلاطهم ، ولا سيما بلاط أبي العباس ، مأمون ابن مأمون خوارزم شاه •

---

(١٠) هو الادب الفارسي الاسلامي ، الذي كتب بالفارسية الحديثة . ومن خصائصه اتخاذ الحروف العربية ، ودخول كثير من الكلمات العربية فيه، وهو كثير في دواوين شعراء الفرس .

(١١) ينظر كتابه : لباب الالباب . ص ٢١ . والترجمة مقاربة تماما للمعنى .

(١٢) ينظر : معجم الادباء ٤ : ٢٤٢ .

(١٣) ذكر العروضي السمرقندي في كتابه : جهار مقالة . ص ١٦٩ . ان اسمهم يرد في التاريخ منذ سنة ٣٨٠هـ ــ ٩٩٠م . وذكر اسماء حكام هذه الاسرة .

وكان من عادة الأدباء التنقل في القصور ، فهم تارة في بلاط السامانيين ، وتارة في بلاط المأمونيين ، وتارة في بلاط الغزنويين .

كان المأمونيون كما ذكر النظامي العروضي السمرقندي[14] ، قد بدأوا حياتهم ولاة تابعين للسامانيين ، وكانوا شبه مستقلين في الفترة بين سقوط الدولة السامانية ، وقيام الدولة الغزنوية ، ولكنهم عادوا حكاما تحت حماية الغزنويين .

ومن أشهر حكام هذه الأسرة : مأمون بن محمد خوارزم شاه ، وابنه علي ابن مأمون بن محمد خوارزم شاه ، وأبو العباس مأمون بن مأمون بن محمد خوارزم شاه ، وهو من أفاضل الملوك ، على حد قول العروضي السمرقندي . صادق أهل العلم والحكمة ، وكان بلاطه مجمعاً لهم[15] .

ومن أشهر الشعراء في عصر هؤلاء ، أبو الفضل الهلالي[16] ، الذي كان مختصاً بأبي العباس ، مأمون بن مأمون بن محمد خوارزم شاه ، والذي قال فيه القفطي : « أديب شاعر مفلق »[17] .

ومن شعرائهم أيضاً : أبو الحسين أحمد بن محمد السهيلي ، وزير علي بن مأمون بن محمد خوارزم شاه ، وأخيه أبي العباس ، مأمون بن مأمون خوارزم شاه[18] .

---

(١٤) ينظر المصدر السابق . ص ١٦٩ .

(١٥) ينظر : جهاز مقالة . ص ١٦٩ .

(١٦) هو محمد بن احمد ابو الفضل الهلالي . تنظر ترجمته في المحمدين من الشعراء . ص ٥٣ .

(١٧) ينظر المصدر السابق . ص ٥٣ .

(١٨) ينظر حواشي المقالة الرابعة من جهاز مقالة . ص ١٧٠ . وذكر ياقوت الحموي ، في كتابه : معجم الادباء ٥ : ٣١ . ان ابا الحسين هرب من ظلم أبي العباس : خوارزم شاه الى العراق . وتوفي في سامراء ، سنة ٤١٨هـ .

وذكر الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات ٨ : ١٤٧ . انه خرج من خوارزم سنة ٤٠٤هـ ، الى بغداد تاركا وزارة خوارزم شاه ، وأقام مدة عند عريب بن معن ، صاحب البلاد العليا ، تكريت ودجيل وما لاصقها ، وبقي عنده حتى وفاته .

ومن شعراء هذا القرن : أبو الفضل احمد بن علي الصفار الخوارزمي ، الذي قال فيه ياقوت الحموي إنه كان من : « فضلاء خوارزم وبلغائهم وكتابهم، وله أشعار مونقة لطيفة ، ورسائل لبقة خفيفة » .

وقد قضى الغزنويون على هذه الأسرة ، سنة ٤٠٨هـ/١١٠٧م[١٩] .

أما بنو بويه الذين أمتد حكمهم في فترة قصيرة ، الى هذا الاقليم ، فان لهم فضلا بيناً على الآداب العربية ، فأكثر أمرائهم كانوا شعراء بها ، ويكفي أن تتمثل بوزيريهم ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، اللذين كانا من حملة لواء الأدب العربي . كما تتمثل بالأديب الكبير أبي بكر الخوارزمي،الذي عاش في ظلهم ومدحهم وتعصب لهم .

وفي عصر السلاجقة ، نبغ شعراء كثيرون ، وكان للمنافسة الشديدة بين السلطان السلجوقي سنجر ، والسلطان الخوارزمي آتسز ، أثر كبير في ذلك .

ولم تمنع الحروب الدامية التي استغرقت الوقت الأكبر ، من حكم هؤلاء من ظهور الأدباء والشعراء والكتاب ، بفضل تشجيع سلاطين كل من الدولتين المتعاديتين ، للحركة الأدبية والعلمية ، على سبيل المنافسة وبعد الصيت ،وتكريم الأدب والأدباء ، والعلم والعلماء ، ولذلك فقد عمروا قصورهم بالشعراء والكتاب والعلماء ، من العرب والفرس ، وقربوهم اليهم ، وانتج هؤلاء الكثير باللغتين : العربية والفارسية ، ولذلك كان بلاط هاتين الدولتين ، منتجعاً للادباء والعلماء ، على مختلف مستوياتهم .

وربما كانت تلك الحروب التي وقعت بين الدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية عاملاً مساعداً في نشاط الشعراء والأدباء ، اذ يكثر الشعر في مثل هذه المناسبات ، كالشعر الحماسي ، والشعر الهجائي ، من جانب الطرفين المتحاربين ، نرى هذا في شعر رشيد الدين الوطواط ، شاعر السلطان اتسز ، وأنوري شاعر السلطان سنجر ، وما كان بينهما من معارضات شعرية ، كتلك التي جرت بينهما اثناء محاصرة السلطان سنجر لقلعة « هَزَارَاسْبْ » سنة

---

(١٩) للتفصيل في ذلك ينظر : جهار مقالة . ص ١٦٩ .

٥٤٢هـ/١١٤٧م والتي ظهرت فيها المباريات الشعرية بأوضح صورها بين شاعرين متعاديين ، لدولتين متنازعتين[٢٠] .

وفي عصر هؤلاء ، عصر السيادة التركية ، عاش الامام الأديب والمفسر الشاعر ، جارالله الزمخشري ، والأديب الشاعر ابن الاصباغي ، وزير السلطان محمد خوارزم شاه ، وكان من رجال دولتهم في الأدب والانشاء .

وممن نبغ في عصرهم من الأدباء ، محمود بن عزيز العارضي ، الملقب بشمس المشرق[٢١] . وابو الفتح ناصرالدين بن أبي المكارم الفقيه النحوي الأديب ، إمام العربية والبيان ، والأدب والعروض والشعر[٢٢] . وأبو القاسم ابن الحسين بن محمد الخوارزمي[٢٣] ، والذي قال عنه ياقوت الحموي[٢٤]، « صدر الأفاضل حقا ، وواحد الدهر في علم العربية صدقاً ، ذو الخاطر الوقاد، والطبع النقّاد ، والقريحة الحاذقة ، والنحيزة[٢٥] الصادقة ، برع في علم الأدب، وفاق في نظم الشعر ونظم الخطب ، فهو انسان عين الزمان ، وغرّة جبهة هذا الأوان » .

وبهذا نقول : إنّ عصر السلالات التركية ، كان من أعظم عصور الأدب العربي في هذا الاقليم ، على الرغم من الأصل التركي ، لحكام تلك السلالات الغزنوية والسلجوقية والخوارزمية .

ومن خلال هذا الاستعراض الموجز ، للحالة الأدبية في هــــذا الاقليم ، والسلالات الحاكمة تبين لنا أن القرون الثلاثة الأولى ، كانت مرحلة بناء هذا الأدب ، وان اللغة العربية أخذت فيه في النهوض ، واستطاعت أن تصل الى

---

(٢٠) للتفصيل ينظر : الدولة الخوارزمية والمغول . ص ٨٧ ـ ٨٩ .

(٢١) قتل نفسه سنة ٥٢١هـ . ينظر معجم الادباء ١٩ : ١٢٦ ، بغية الرعاة ٢ : ٢٧٩ .

(٢٢) ينظر : معجم الادباء ١٩ : ٢١٢ ، الفوائد البهية في طبقات الحنفية . ص ١٧٣ .

(٢٣) ذكر حاجي خليفة في كشف الظنون ٢ : ١٧٨٩ : ان القاسم بن الحسين، قتل بغدر التتار سنة ٦١٧هـ .

(٢٤) ينظر : معجم الادباء ١٦ : ٢٣٨ .

(٢٥) النحيزة : الطبيعة . وجمعها نحائز .

منزلة اللغات الأدبية ، وأخذ أصحاب اللسانين يكثرون ، وأخذت تصانيفهم في اللغتين تكثر وتزيد . وفي القرن الرابع وجدنا منهم الأدباء والشعراء الذين ألفوا ونظموا باللغتين على حد سواء ، والذين كانوا يتقنون العربية،ويجيدون الشعر والنثر الفني باللغتين .

وعلى الرغم من أن العنصر العربي قلّ في القرن السادس الهجري ، في الثقافة بصفة عامة ، ولم ينبغ منهم شعراء مشهورون ، ولا شعراء مبرزون ، لان الفرس كانوا قد بدأوا يكونون قومية فارسية ، ويعيدون أمجـــادهم القديمة ولغتهم . ويحتفظون بتقاليدهم ونشاطهم السياسي والعلمي والأدبي، طوال هذا القرن ، الا أن هذا القرن على الرغم مما ذكرنا، تميز بكثرة علمائه وأدبائه امثال جار الله الزمخشري ، وفخرالدين الرازي ، ورشـــيد الدين الوطواط ، والعمراني وابن شيرين الجندي ، تلميذ الزمخشري ، والقاسم بن الحسين ، والمطرزي .

وهناك طائفة من الشعراء المغمورين ، الذين اسهموا اسهاما فعّالا ، في ارساء قواعد الاتجاهات الشعرية المختلفة في هذا الاقليم ، كما سنرى حين كلامنا على الشعر واتجاهاته . ومن أشهر هؤلاء الهراسي والباقي ، والتـــاجر وغيرهم . هذا بالاضافة الى الشعراء الوافدين الى هذا الاقليم ، والذين أضافوا ثروتهم الشعرية والنثرية ، الى الثروة الأدبيـــة ، وعلى رأس هؤلاء الشاعر رشيدالدين الوطواط من بلخ ، والكلثومي من خراسان ، وابن عنين من الشام ، والغَرْناطي من غرناطة من بلاد الأندلس . ومنهم محمد بن احمد النسوي من مدينة « نَسا » .

وممن وفد الى هذا الاقليم ، العالم الحكيم الفيلسوف الشاعر ابن‌سينا، الذي عاش تحت رعاية خوارزم شاه ، علي بن مأمون بن محمد ، ووزيره أبي الحسن السهيلي .

وممن تقاذفته الغربة الى هذا الاقليم ، وأقام به حتى وفاته ، محمد بن الحسين ، الكاتب المعروف بالقصاب ، والملقب بصريع الكأس ، وهو من أهالي نيسابور ، له كتابة حسنة ونظم بارع على حد قول القفطي[٢٦] .

---

(٢٦) ينظر كتابه : المحمدون من الشعراء واشعارهم . ص ٢٥٢ .

والى جانب هؤلاء عرف هذا الاقليم عددا لا بأس به من الكتاب ، كان لهم أثر كبير في الكتابة الفنية ، وعلى رأس هؤلاء الكاتب الكبير ، أبو بكر الخوارزمي ٠

ومن الجدير بالذكر أن الشعراء ، أنفسهم كانوا كتاباً أيضاً ٠ وقـــد أتحفتنا كتب التراجم بأسماء غير قليلة ، من كتّاب هذا الاقليم ، منهم من غزر نثره فوجدناه ، كما هي الحال في نثر أبي بكر الخوارزمي ، ورشيدالدين الوطواط ٠ ومنهم من غزر نثره فوجدنا بعضه ، أو وجدنا أقله ٠ ومنهم من غزر نثره ولم نجد منه شيئا نتيجة الضياع ٠ ويكفي أن نذكر من كتّـــاب هذا الاقليم ، علاوة على ما ذكرنا : السهيلي ، والحسن بن المظفر النيسابوري، وأبا عبدالله بن حامد ، والرقاشي ، والزمخشري وغيرهم ٠

وبهؤلاء الشعراء والكتاب ، رفعت راية الأدب العربي في هذا الاقليم ، وازدهرت الحياة الأدبية ، وخاصة في القرن الرابـع والقرنين التاليين ، حتى فوجيء العالم الاسلامي في مطلع القرن السابع الهجري ، وفي الجانبالشرقي منه ، بظهور المغول ، الذين اصطدموا مع ملوك خوارزم ، وخرّبوا ملكهم ، وقتلوا علماءهم وأدباءهم ، وبدّدوا كتبهم ، فجمدت اللغة العربية في هذه المناطق بعد هذا ، جموداً لم تنتعش بعده ٠

الباب الأول
الشعر

الفصل الأول : الاتجاهات الشعرية .

الفصل الثاني : أبو بكر الخوارزمي .

الفصل الثالث : أبو القاسم الزمخشري .

الفصل الرابع : شعراء آخرون :

١ ــ محمد بن حامد

٢ ــ القاسم بن الحسين

٣ ــ الرقاشي

الفصل الخامس : شعراء وافدون .

الفصل السادس : رشيدالدين الوطواط .

الفصل الأول

الاتجاهات الشعرية

بعد أن عرفنا ما كانت عليه الحياة الأدبية من الرقي ، في هذا الاقليم بعد الفتح العربي ، تتساءل عن الاتجاهات الشعرية التي عرفها هذا الاقليم ؟ وقبل الجواب عن هذا التساؤل ، تتساءل أيضاً عن الأدب الذي وجده العرب الفاتحون فيه ، ثم عن قيمة هذا الأدب ؟ وجواب هذا أن نقول : إنّنا لا نعرف شيئاً عن الشعر الفارسي قبل الاسلام ، سواء في هذا الاقليم أم في غيره من الأقاليم الايرانية . ولكننا وجدنا بعض المؤرخين من الفرس[١] ، ينسبون أول شعر فارسي الى بهرام جور[٢] ، الذي بعث به أبوه الى الحيرة ، فنشأ بها وعرف العربية وشعرها .

ويقول شمس الدين الرازي[٣] : إنّ بهرام جور أول من نظم شعراً فارسياً ، وإنّه أخذ الشعر عن العرب في الحيرة ، وان علماء الفرس استهجنوا منه قرض الشعر ونهوه عنه تنزهاً عن معايبه ، وإنه انتصح ومنع أولاده وذوي قرباه عن قرضه .

ومن هذا كما يرى عوفي كانت مدائح بارْبِد[٤] وأغانيه ، عند كسرى أبرويز ، كلها منثورة خالية من النظم .

على أن أكثر نقاد الأدب الايراني ، يشيرون الى أن الشعر الفارسي ،

---

(١) منهم محمد عوفي في كتابه : لباب الالباب . ص ٢٠ . وشمس الدين محمد ابن قيس الرازي في كتابه : المعجم في معايير اشعار العجم . ص ١٨٩ — ١٩٩ .

(٢) مرت ترجمته في ص ٧٨ من هذا الكتاب .

(٣) ينظر كتابه : المعجم في معايير اشعار العجم . ص ٢٣ .

(٤) هو مطرب كسرى « ابرويز » يقال ان اصله من جهرم من توابع شيراز . وكان وحيدا في عزف العود ، واليه ينسب اختراع النشيد المسجع الذي يسمى النشيد الخسرواني او الكسرواني . ينظر : برهان قاطع « مادة باربد » . ص ١٤٨ .

شأ مع دخول الاسلام ، ومع تلاحم الأمتين : العربية والفارسية ، بلحـــام القرآن وحب العربية ، وطـُعـِّم بالأدب العربي : الجاهلي منه والاسلامي .

وقد ذكرنا في بحثنا للحياة الأدبية ، أن الشعراء الذين نظموا الشعر في هذا الاقليم ، لا يتقدمون الدولة السامانية ، وأن السامانيين حموا في قصورهم الشعراء والكتاب ، من العرب والفرس . الا أن الشعراء الايرانيين المترنمين في قصورهم ، كما يذكر بارتولد ، كانوا يذيعون آراء لا تتفق مع الاسلام ، كالشاعر الرودكي السمرقندي ، الذي قال[٥] : « لا معنى لتحويل الوجه الى القبلة ، والقلب منجذب الى القدسية المجوسية ، ويجب الايمان بحب الإله العام لجميع الأديان .. »

ويؤيد المستشرق بارتولد Barthold ذلك بقوله : إنّ الشاعر الدقيقي ، قد صرّح بالعقيدة الزرادشتية قائلاً : إنّه يفضل الخمر وشـفتي حبيبته ودين زرادشت ، على كل شيء آخر .

ونحن نخالف المستشرق بارتولد في هذا ، ونقول : إنّ هـــذا القول لا يعني التصريح بالعقيدة الزرادشتية ، ولعل هذه اقوال شعراء ، يقولونها وهم مسلمون ، على نحو ما نرى عند الشعراء المسلمين العرب الخليعين .

وروى شمس‌الدين الرازي أيضاً : أن أول من قال الشعر الفارسي هو أبو حفص السُغْدي[٦] . ولكن مؤرخي الآداب اتفقوا على أن أول شـاعر فارسي عظيم هو أبو عبدالله ، جعفر الرودكي ، شاعر نصر بن أحمد الساماني.

والى جانب هذا النوع من الشعر ، انتشر الشعر الصوفي التركي[٧] ،

---

(٥) ينظر : تاريخ الحضارة الاسلامية ـ ف بارتولد . ص ٧٠ . نقله الـى العربية : حمزة طاهر . وقدم له : د . عبدالوهاب عزام . ط ٢ . مط دار المعارف بمصر . سنة ١٩٥٢م .
والرودكي : شاعر متقدم على كل من الدقيقى والعنصري .

(٦) نسبة الى سغد سمرقند . عاش حتى سنة ٣٠٠هـ . وكان حاذقـا في الموسيقى .

(٧) هو نوع من الادب التركي الاسلامي ، ظهر في خوارزم بعد ان توطنهـا الترك ، الذين استفادوا من حضارتها الراقية ، وافادوا منها في النهوض بهذا الادب .

الذي يعدّ من أدب الترك الشعبي . وقد انتشر هذا في بلاد الترك ، من شمال نهر سيحون ، وشاع في بلاد ما وراء النهر وخوارزم[٨] .

ولسنا نريد من هذا الذي ذكرنا ، التعرض الى الأدب الفارسي ، أو الأدب التركي ، لأننا لسنا بصدد الكلام عنهما ، وإنّما ذكرناهما لنشير الى الآداب الأخرى التي سايرت أدبنا العربي في هذا الاقليم ، وبهذا عرفنا أن أدبنا قد سار جنبا الى جنب مع الآداب الأخرى في هذا الاقليم النائي ، عن مركز الدولة الاسلامية .

ومن خلال دراستنا للحياة الأدبية في هذا الاقليم ، لاحظنا ظهور جيل من الأدباء ممن نظموا أشعارهم باللغة العربية . وقد عاش كثير منهم في بلاط حكام وسلاطين الدول التي تعاقبت على حكم هذه البلاد ، وكانوا يكتبون في دواوينها ، ويمدحون وينادمون ، ويملون في مدارسها ، ومنهم من كان ينتقل من مملكة الى أخرى . لم يجاور هؤلاء شعراء الشام ومصر والجزيرة والأندلس ، لأنهم في بيئة اعجمية ومع ذلك سلكوا مسلك الشعراء المتقدمين في أغراضهم الآدبية المختلفة .

ومن النماذج الشعرية التي لدينا رأينا أن الشعر في هذا الاقليم ، هو تقليد للشعر العربي ، يسير على خطى الشعر الجاهلي ، ولا سيما شعر طرفة ابن العبد ، وشعر عنترة ، وعمرو بن كلثوم التغلبي ، والنابغة الذبياني ، وزهير ابن أبي سلمى وغيرهم ، وعلى خطى الشعر الاسلامي ولا سيما شعر جرير والفرزدق والأخطل ، في العهد الأموي ، وشعر أبي تمام ، والمتنبي ، وابن الرومي ، في العصر العباسي .

ومن هنا نستطيع القول : إنّه شعر يسير في اتجاه المدرسة المحافظة التقليدية ، ولكنه مع ذلك تميز بسمات خاصة ، شكلت أولى ملامحه ، منذ أن نشأ في بلاد المشرق ، وفي اقليم بعيد عن مركز الخلافة الاسلامية ، كغيره من أقاليم ما وراء النهر .

وأهم مظاهر الشعر في هذا الاقليم ، تتمثل في أنه كان يهتم اكثر مايهتم بالموضوعات التقليدية ، من مدح وفخر وهجاء ، وشكوى وحنين ، وغزل

---

(٨) ينظر : في الادب العربي والتركي . ص ٢٨٣ .

ونسيب وما الى ذلك ، ثم في انه كان يسير على منهج الأقدمين ، في بنـــاء القصيدة ، وفي تجميع صورها ، وتأليف أسلوبها ، من لغة تستوحي الذاكرة والتراث ، كما تستوحي عصرهم وواقعهم كما سنرى •

ومن الجدير بالذكر أن نشير الى أن سير هؤلاء الشعراء ، على النهج المحافظ ، لم يكن دائما بدافع التقليد ، كما يتراءى لنا أول وهلة ، وانما كان له ما يقتضيه من حياتهم الخاصة ، وواقعهم وظروفهم ، بالاضافة الى أن الطبيعة الانسانية ، إنّما هي طبيعة مجبولة على حب التقليد والمحاكاة •

أما عن واقعهم وظروفهم ، فقد كانت تتطلب هذه الموضوعات التقليدية، التيعرف بها الشعر المحافظ ، فالفخر والحماسة هما لازمتان من لوازم الصراع والغلبة ، وقد عرف أقليم خوارزم الكثير منهما ، لتداول الدول المختلفة عليه • وقد جاء هذا في شعرهم مضمناً في شـــعر المديح ، الذي قيل في السلاطين والوزراء والمسؤولين •

والمدح والهجاء كذلك لازمتان من لوازم البيئة العربية القديمة ، وقد كانت بيئة خوارزم ، متسمة بالطابع العربي الى حد كبير ، وخاصة حينما كان حكامها يدعمون حكمهم ، ويقوّون سلطانهم فيتخذون حينئذ من الشـــعر أداة ترويج ، ووسيلة دعاية ، كما لاحظنا ما حدث بين السلطان ســـنجر ، والسلطان اتسز ، اثناء كلامنا عن الحياة الأدبية ، فقد كانت المنافسة على أشدها ، وكان كل منهما يحاول أن يكون هو المتفوق على صاحبه في كثرة الأدباء والعلماء في بلاطه • وقد روي عن السلطان محمود الغزنوي ، أنــه أرسل في طلب بعض الأدباء ، ممن كانوا يعيشون في بلاط الخوارزميـــين ، ليعيشوا في بلاطه ، فلبى قسم منهم الدعوة ، ورفضها قسم آخر • وكان على رأس هؤلاء : الفيلسوف الشهير ابن سينا ، والبيروني ، والمسيحي(٩) ، وابن الخمار(١٠) •

---

(٩) هو عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني ، ابو سهل . ولد في جرجـان، ونشأ وتعلم ببغداد ، وسكن خراسان فتقدم عند سلطانها . توفي ســنة ٤٠١هـ . متقن للعربية فصيح العبارة . تنظر ترجمته في : تاريخالحكماء. ص ٦٠٨ (طبعة لايبزك) ، الاعلام ٥ : ٢٩٧ ــ ٢٩٨ .

(١٠) هو ابو الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام او بهنام ، المعروف بابن الخمار ←

والغزل كذلك كان من لوازم البيئة العربية القديمة،ومظهراً من مظاهرها الرئيسة ، لأن العرب عاطفيون في طبيعتهم ، كما أن من طبيعة الرجل حب المرأة والتغزل بها •

وهكذا يمكن أن يقال في بقية الأغراض التقليدية ، التي عالجها الشعر العربي المحافظ في هذا الاقليم ، فكلها يمكن عدّها من مقتضيات واقع أهل هذا الاقليم ، وظروفهم وطبيعتهم الانسانية ، المحبة للتقليد والمحاكاة •

كما لا يخفى أن العرب الفاتحين ، حينما كانوا ينتقلون الى الأقاليم الجديدة التي فتحوها ، كانوا يحملون في مخيلاتهم ، صورة لعالم مثالي عاشه آباؤهم وأجدادهم ، هو عالم الصحراء حيث الكثبان الرملية ،والطلول والدمى ، والنوق والجمال ، والجآذر والآرام ، الى آخر هذه الأمور ، التي تؤلف صورة حية للبادية ، كما أنهم كانوا يعتقدون أن خير الأدب هو ما كتبه آباؤهم ، ومن هنا رأينا المستعربين في الأقاليم الاسلامية ، يحاكون أولئك في نماذجهم التي جادت بها قرائحهم ، سواء في الشعر أو النثر •

ولنتأمل مثلاً هذه النماذج ، التي ترينا سيرهم على منهج الأقدمين في بناء القصيدة ، في قول أبي القاسم الزمخشري ، من قصيدة في مدح السلطان سنجر(١١) :

إنّ المليحةَ بَكَّرَتْ أحداجُها ... فاهتاجَ منحرقِ الهوى مهتاجُها(١٢)
فكأنَّ عيني وهي كالدمِ دَمْعُها ... كأسٌ من الصهباءِ قلَّ مِزاجُها
قامت تودّعُ والنقابُ مُضاعَفٌ ... ليغيبَ تحت نقابها أبهاجُها

النصراني ، الفيلسوف المنطقي الطبيب . ذهب الى خوارزم ، واتصل بخدمة مأمون بن محمد، خوارزم شاه ، وعاش في كنف الخوارزمشاهيين. ولد في بغداد سنة ٣٣١هـ ــ ٩٤٢م . اما وفاته ففيها اختلاف ، والواضح انه مات بعد سنة ٤٠٨هـ ــ ١٠١٧م .
تنظر ترجمته في : هدية العارفين ١ : ٢٧٧ ، جهار مقالة . ص ١٧٠ ــ ١٧١ ، تاريخ الادب في ايران . ص ٦٢٩ .

(١١) ينظر ديوان الزمخشري « مخطوط » . ورقة ٢٠ــ٢١ .

(١٢) أحداجها : الحدج : الحمل : مركب للنساء نحو الهودج والمِحَفَّة. والجمع احداج وحدوج . وجاء في الاصل « محتاجها » بدلا من مهتاجها ،واثبتنا ما رايناه مناسبا للمعنى .

وكشعلةِ المصباحِ غرّةُ وجهها ونقابُها ، مشكاتُها وزُجاجُها (١٣)
وكأنما السلطانُ سنجرُ كعبةٌ للملكِ منتخَبُ الملوكِ رِتاجُها(١٤)
شـهمٌ إذا ما ألقحتْ أفكارَهُ آراؤهُ كانَ الصوابَ نتاجُها
لكنّها تلد الصوابَ متمّـةً ولَرُبَّ آراء يسوءُ خِداجُها(١٥)
ركبَ السياسةَ وهي أصعبُ مركبٍ فتطامنتْ لركوبِهِ اثباجُها
جَهْمُ المحيا للعدى طَلْقٌ إذا ضَيْفانَهُ نزلتْ به أفواجُها(١٦)

هذه القصيدة سلك بها الزمخشري،الطريق الذي سلكته القصيدة العربية، في بنائها وفي نهج سيرها ، من البدء بمقدمة غزلية ، ثم التخلص الى المدح •

ومثل هذا قصيدته ، التي مدح بها الوزير مجير الدولة الأردستاني ، وأولها(١٧) :

أيا حبذا سُعْدى وحب مقامها ويا حبذا أين أستقلّ خيامُها
حياتي وموتي قرب سعدى وبعدها وعزّي وذلّي وصلها وانصرامها

وسنتناول الأغراض التي تضمنها الشعر في هذا الاقليم ، موضحين أهم اتجاهاتها ، ومبينين فيها محاكاتها للشعر العربي الجاهلي منه والاسلامي ، أو ميزاتها التي تعطي شعراءهم ولو مسحة من الاستقلال الذاتي • ولعل أول تلك الأغراض الجديرة بالبحث شعر المديح ،الذي يقترن بالشعر السياسي عادة، وهو ما يمكن أن نسميه المدح الخاص ، وهناك المدح العام ، وهو ما لم يكن في مدح الرؤساء والوزراء والحكام وغيرهم •

---

(١٣) مشكاتها : المشكاة : قيل انها رومية معربة وهي الزجاج . وقيل هي العمود الذي يكون المصباح على راسه ، او قصبة الزجاجة التي يستصبح بها ، وهي موضع الفتيلة منها . وكلمة « ومشكاتها » كذا وردت في الاصل ، ولا يستقيم الوزن بها .

(١٤) رتاجها : رتاج الكعبة : يكنى به عنها ، اسم من اسماء مكة المكرمة . منتجب الملوك : لقب للوزير ابي جعفر محمد ، احد كبراء دولة السلطان سنجر السلجوقي .

(١٥) خداجها : خدجت الناقة : اي الفت ولدها لغير تمام في الايام ، وان كان الولد تاما ، وهو الاصل في المعنى . وربما يكون الخدج لغير الناقة .

(١٦) ضيفانه : الضيفان : الضيف النازل في الضيافة ، ويجمع ايضا على اضياف وضيوف وضياف . (١٧) ينظر : انباه الرواة : ٣ : ٢٦٥ .

المدح والشعر السياسي :

وجدنا الكثير من هذا الشعر قد قيل ، في أصحاب السلطان من سلاطين ، وولاة ووزراء ، وحكام . ومن هذا ، قول أبي بكر الخوارزمي ، في مدح مؤيد الدولة ، (من بني بويه) ، لفتحه قلعة من أبكار القلاع ، واستنزاله صاحبها المسمى كوشيار[1] .

وكُنْتَ سماءً ، والعجاجُ سحائباً
وخَيْلُكَ أبراجاً ، وجَيْشُكَ أنْجُما
وأنزلْتَ منها كوشَيارَ ، وإنّما
تَقَنَّصْتَ مِنْ فوقِ المَجرَّةِ ضَيْغَما[2]
عرَفْتُكَ صَيَّادَ الأسودِ ، ولم أكنْ
عرَفْتُكَ صيّادَ الأسودِ من السَّما
خدَمْتُكُمُ يا آل بوَيْة مُدّةً
غدا بَيْنها فَرْخُ الوسائلِ قَشْعَما[3]

فالشاعر هنا يمدح مؤيد الدولة بالشجاعة والمنزلة الرفيعة . ويعطينا لمحة عن المعركة التي دارت بينهم ، ويحاول أن يعطينا فكرة عن قوتها ، بذكره الغبار ، وكأنه السحب من كثرته . وهذا دليل أيضاً على كثرة الخيول المشتركة في المعركة ، وعلى قوة الفريقين ، وشدة العراك . وأخيراً بيّن الشاعر، أنه خدم آل بويه ، ومنهم الممدوح ، وأنه بقي في خدمتهم منذ صغره حتى كبره .

---

(١) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٥ (طبعة السعادة) .

(٢) المجرة : البياض المعترض في السماء ، ويسمى شرج السماء ، وباب السماء ، ودرب التبّان . وهو طائفة من نجوم هذا الفضاء الفسيح، كأنها مجتمعة ، وهو شبه جزيرة من ملايين . ويقال انها تحوي ثلاثين الف شمس كشمسنا ، ولكل شمس نظام ، كما لشمسنا هذه نظامها .

(٣) القشعم والقشعوم : الحسن من الرجال والنسور ، والرخم لطول عمره. وهو صفة . وقيل : هو الفخم المُسِنُّ من كل شيء .

ومما قاله أبو الريحان في مدح آل عراق، هـــذه القصيدة التي يقول فيها[٤] :

مضى أكثرَ الأيامِ في ظلِّ نعمـــةٍ على رتبٍ فيها عَلَوْتُ كَراسـيا
فآل عراقٍ قد غَذَوْني بِدَرِّهِم ومنصورُ منهم قد تولّى غِراسيا[٥]
وشمس المعالي كان يرتاد خـدمتي على نَفْرة مني وقـد كان قاسـيا
وأولادُ مـأمونٍ ومنهم عَليُّهُمْ تبدى بصنعٍ صارَ للحـالِ آسـيا
وآخرهم مأمونُ رَفّه حـــالَتي ونوَّهَ باسمي ثم رَأَّسَ راسيا[٦]
ولم ينقبض محمود عني بنعمــــةٍ فأغنى وأقنى مُغضيا عَنْ مكاسيا[٧]
عفا عن جهـالاتي وأبدى تَكَرُّماً وطَرَّى بجاهٍ رَوْنقي ولباسيا[٨]
عَفاءٌ علي دنيـايَ بعــــد فراقهم وواحزَني إنْ لم أزُرْ قَبْلُ آسيا[٩]
ولما مَضَوْا، واعتضت عنهم عصابةٌ دَعَوْا بالتّناسي فاغْتَنَمْتُ التناسيا
وخلّفْتُ في غَزْنين لحماً كمضغةٍ على وَضَمٍ للطير للعِلْم ناسيا[١٠]

(٤) ينظر : معجم الادباء ١٧ : ١٨٦-١٨٧ . وذكر ياقوت الحموي بعضا منها في كتابه : معجم البلدان ٤ : ٢٠٢ (طبعة بيروت) . وينظر : رجال السند والهند في القرن السابع . ص ٢١١ .

(٥) غراسيا : الغراس : ما يغرس من الشجر . والمراد هنا التعهد به وحمايته. كما يتعهد الانسان الغراس حتى يكبر .
منصور : هو منصور بن علي بن العراق ، كان من كبار الرياضيين ، في القرن الرابع الهجري ، ومن معاصري البيروني ، ويقال انه كتب باسمه اثنى عشر كتابا ، في فنون الرياضة المختلفة . وآل عراق كما يبدو من تضاعيف كتاب الاثار الباقية ، كانوا من نسل ملوك خوارزم القدماء ، قبل الاسلام . ونسبهم على ما زعموا يتصل بكيسخرو ، وكان لهذه الاسرة مكانة ونفوذ ، حتى ايام الساسانيين .

(٦) رفه حالتي .. الخ اي وسعها والان عيشي .
راس راسيا : اي جعله رئيسا .

(٧) مغضيا عن مكاسيا : اي متغافلا عن ظلمي .

(٨) وطرى بجاه رونقي ولباسيا : اي جعله طريا وحسنا .

(٩) عفاء : اي هلاكا .

(١٠) غزنين : مدينة عظيمة ، وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي التي تسميها العامة غزنة . ينظر معجم البلدان ٤ : ٢٠٢ (طبعة بيروت) .

فأَبْدلتَ أقواماً ولَيْسوا كمثلهم معاذَ الهي أنْ يكونوا سِـــواسيا
بجَهْدٍ شأوْتَ الجالبين أئمـــةً فما اقتبسوا في العلم مثل اقتباسيا[11]
بما بركوا للبحثِ عنـدَ معـالمٍ ولا احتبسوا في عقدةٍ كاحتباسيا[12]
فســائلْ بمقـــدوري هنوداً بمَشْـــوقٍ
وبالغربِ مَنْ قد قاسَ قَدْرَ عَماسيا[13]
فلم يَثْنِهم عن شــكر جُهـدي تفاســـةٌ
بل اعتــرفوا طُــرّاً وعافوا انتكاسيا[14]
أبو الفتــح في دنيـــاي مـــالك رِبْقَتي
فهـــاتِ بذكراه الحميـــدة كاســـيا[15]
فلا زال للدنيـــا وللدين عامـراً ولا زال فيهـا للغواة مواســـيا

وأبو الريحان البيروني[16] ، كان مصاحباً للملوك ، وله فيهم قصائد تدل على ذلك ، كما قضى الشطر الأكبر من حياته في خدمة أمراء خوارزم ، من أسرة مأمون . ويقول ياقوت الحموي ، في حق أبي الريحان[17] : « كان حســن المحاضرة ، طيب العشرة ، خليعاً في ألفاظه ، عفيفاً في أفعاله ، لم يأتِ الزمـان

(١١) شأوت الجالبين : اي علوت .
(١٢) بركوا : اقاموا .
معالم : مظان العلم .
احتبسوا : اي حبسوا انفسهم .
(١٣) عماسيا : العماس : الحرب الشديدة .
(١٤) انتكاسيا : اي تنقيصي .
(١٥) ربقتي : الربقة : حبل فيه عدة عرى ، يشد به البهم . والمراد انه فرج كربتي ، وخلّصني من غائلتها .
(١٦) هو محمد بن احمد بن محمد ، أبو الريحان البيروني الخوارزمي . ولـد سنة ٣٦٣هـ ـ ٩٧٣م ، في بيرون من قرى خوارزم ، وكـان معاصـرا للفيلسوف ابن سينا . وتوفي في مسقط رأسه ، سنة ٤٤٠هـ ـ ١٠٤٨م .
(١٧) ينظر كتابه : معجم الادباء ١٧ : ١٨٦ .

بمثله علماً وفهماً . وكان يقول شعراً ، إن لم يكن في الطبقة العليا ، فإنّه من مثله حسن » .

ولأبي عبدالله التاجر ، قصيدة في مدح الشبيبي الوزير ، قال فيها[18] :

حُكْمُ عَيْنَيْكَ نافِذٌ فيَّ ماضي
كَيْفَما شِئْتَ فاقضِ ما أنْتَ قاضِ

وكأنَّ الصباحَ لما تَجلّى
لي سَيفٌ لـه الشْبيبيُّ ناضِ

الهِزَبْرُ الذي لـه الدِّرْعُ كاللِّبْـ
دَةِ للَّيْثِ والقَنا كالغِياضِ[19]

ففي البيت الأول من هذه الأبيات ، نرى الشاعر وكأنه يتغزل بممدوحه ، نرى ذلك في استكاانته لحكمه ، ثم نراه يمدحه بالشجاعة ، فيشبهه مع درعه ، بالأسد ولبدته ، أي أنهما لا يفترقان .

ويقول الأديبي[20] في بعض الرؤساء وقد حُجِبَ عنه :

وَمُحَجَّبٍ بحِجابِ عِزٍّ شامخٍ
وشُعاعُ نور جَبينِـهِ لا يُحْجَبُ

حاوَلتُـه فرأيْتُ بَدْراً طالعاً
والبدرُ يَبْعُدُ بالشُعاعِ وَيَقْرُبُ

---

(18) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٤ (السعادة) ، المحمدون من الشعراء . ص ٩٦ .

(19) اللِّبْدة واللِّبَدَة : « والكسر اكثر » : كل ما تلبد من شعر او صوف : واللبدة : شعر متجمع على زبرة الاسد ، متراكب بين كتفيه ، وجمعه لبد . والزبرة : هنة ناتئة من الكاهل ، او الكاهل نفسه ، الكاهل والظهر . وجمعه زبر . وجمع الجمع : ازبار .

(20) هو ابو سعيد احمد بن ابراهيم الاديبي الخوارزمي ، من مشاهير خوارزم وادبائها ، وشعرائها . ينظر عنه : معجم الادباء ٢ : ١٣١ .

قَبَّلْتُ نورَ جبينـــه مُتَعَـــزِّراً
باللَّحْظِ منهُ وقَدْ زَهــاهُ المَوْكِبُ[21]
كالشمسِ في كَبِــدِ السـماء ونورُهــا
من جانبيـــه مُشَـــرِّقٌ ومغَـــرِّبُ
إن بانَ شَـــخْصي عن مجالس غَيْرِه
فالنَّفْسُ في ألطافـــــه تَتَقَلَّبُ[22]
وإذا تقــاربتِ النفوسُ وما انتــأَتْ
أشـــخاصُها فهو الجوادُ الأقـرَبُ[23]

ولأبي القاسم أحمد بن أبي ضرغام، في الشبيبي قصيدة يقول فيها[24] :

ابنُ شـــبيبٍ أبو حــروب أخو نَـدىً للحِفاظِ خِـــلُّ
ليثُ قتــــالٍ، وأيُّ ليثٍ بالسَّيْفِ والرمـح يَسْتَقِلُّ ؟
خُذْهـا عروســاً أَتَتْكَ بكراً لغَـيرِكَ الدهـرَ لا تَحِـــلُّ
خُذْها وَسُقْ مَهْرَهـا إليها إن لم يـــكن وابلٌ فَطَــــلُّ

يمدحه بالكرم والشجاعة، في ميدان السيف والرمح . وقد علّق الثعالبي على هذه الأبيات بقوله : إنّها من محاسنه[25] .

ومما قاله الشبيبي،في الأمير أبي نصر الميكالي،أحمد بن علي الميكالي[26]:

(٢١) متعزرا : عزره : اي فخمه وعظمه .
زهاه : الزهو : الكبر والتيه والفخر والعظمة . وزها فلان : اذا اعجب بنفسه ، وزهته الريح : ساقته ، والشاعر يريد هذا المعنى الاخير . اي ان الموكب هو الذي ساقه .
(٢٢) الطافه : يقال لطف به وله : اذا رفق به . اللطف : البر والتكرمة والتحفي ، ولطف به والطفه : اي اتحفه وبره .
(٢٣) انتأت : اي بعدت .
(٢٤) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٤ ـ ٢٥٥ (طبعة السعادة) .
(٢٥) المرجع السابق ٤ : ٢٥٤ .
(٢٦) ينظر : المرجع السابق ٤ : ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

يـا آلَ ميـكالَ أنتم غـرّةُ العجـم
لـكنّ أحمـدَ فيكم دُرّةُ الـكرم
لا تحسـدوه ، فـإنّ الله فَضّلـه
منكم عليكم جميعـاً ، بل على الأُمَم
لا تَحْسِـدوا رجـلاً ما ان له شَبَه
فيمـن يَرى اللهُ من عُرْب ومن عجم[٢٧]
فمن يحاكيـه في الافضـال والـكرم
أم من ينـاويه في الآداب والقـلم[٢٨]
أم مـن يساجله في كلِّ مكرُمـة
أم من يُعـادله في الجود والهِمَم[٢٩]
يـا آل ميـكالَ إنّي قـد نَصَحْتُكُمُ
نُصْحَ أمـريءٍ في هَواكم غـيرُ مُتّهَم
فاسـتسلموا لقضـاء الله واعتـرفوا
بفضـلِ أحمـدَ طَوْعاً أو على الرَّغَمِ

ومن الملاحظ أن الشبيبي ، قد اتبع سبيل الغلو في مديحه ، ذلك الغلو الذي ربّما مرجعه عنصريته وحبه لهذا الأمير . وبجانب العنصرية يظهر في هذه القصيدة ، روح التعصب في تفضيله الممدوح ، على العرب والعجم ، في بيتـه الثالث .

وقال أبو الفضل ، أحمد بن محمد الصخري ، في مدح أبي العبـاس ، خوارزم شاه[٣٠] :

أشْبَهَ البَدْرَ في السّنا والسّناءِ وَحَوَى رِقّةَ الهَوَى والهَواءِ[٣١]

(٢٧) برى : اي خلق . والبرية اي الخلق .
(٢٨) في الأصل يناوئه ، ولا يستقيم الوزن بها .
(٢٩) يساجله : يباريه . والمساجلة : اي المفاخرة .
(٣٠) ينظر : معجم الادباء ٥ : ٢٦ ـ ٢٧ .
(٣١) السناء : الرفعة والعلو . والسنا : الضوء والشروق .

وأتى الشَّيْبُ بَعْدَها مُنْفِذاً لي عن يَدِ الدَّهْرِ بالبِلَى والبلاءِ
واذا شاءَ بالنَّدى المَلِكُ العـــا دِلُ في المَجْدِ والعُلَى والعَلاءِ
أَبْدَلَ الشَّيْنَ منه سيناً وأوطـــا ني الثُّرَيَّا من الثَّرى والثـراءِ[٣٢]

في هذه الأبيات تظهر لنا الصنعة البديعية واضحة ، ولعـل الشاعر أراد أيضاً ، التلاعب بالالفاظ ، في بيته الأخير في قوله : « أبدل الشين منه سينا » أي يصبح سَيْباً .

ومن جيد مدائحه قوله في أبي الحسين السهيلي[٣٣] :

نَفْسٌ مُصَدِّقَةٌ جَميعَ عِداتِهـــا
لَــكِنْ مُكَذِّبَةٌ ظنونَ عُداتِهـــا[٣٤]
هِمَّاتُـــه حَكَمَتْ على هاماتِهـــا
إذْ أصْبَحَتْ للوَحْشِ من أقْواتِهـــا[٣٥]
يا أحْمَدَ بنَ محمَّــدٍ يا خَيْرَ مَنْ
وَلِيَ الوزارةَ عنــدَ خَيْرِ وُلاتِهـــا
ما دامَتِ الأيـامُ في الغَفَلاتِ عَنْ
عَرَصـاتِ مَجْدِكَ فأغْتَنِمْ غَفَلاتِها[٣٦]

وقال في بعض الصدور[٣٧] :

جَمَعْتَ الى العُلَى شَـــرَفَ الأبُوَّة
وَحُــزْتَ الى النَّدَى فَضْلَ المُرُوَّه[٣٨]

---

(٣٢) الثريا : نجم في السماء . والثرى : التراب . والثراء : الغنى .
(٣٣) معجم الادباء ٥ : ٢٩ .
(٣٤) العدات : جمع عدة . والعداة : جمع عدو . يريد انجاز وعده وتكذيبه ظنون العداة ، من انه يهزمهم ، وقد ظنوا الغلب عليه .
(٣٥) هاماتها : جمع هامة وهي الراس .
(٣٦) عرصات : جمع عرصة : وهي الفناء المتسع امام المنزل .
(٣٧) ينظر : المصدر السابق ٥ : ٣٠-٣١ .
(٣٨) وحزت الى الندى : يريـد أن يقول : ان الممدوح كريم ، كثير الجود والعطـاء .

أَتَيْتُكَ خادِماً فرفَعْتَ قَدْري
الى حالِ الصَّداقَةِ والأُخُوَّه
فما شَبَّهتني إلا بموسى
رأى ناراً فَشُرِّفَ بالنُّبُوَّه

والصخري في مدحه هذا يختلف عن مدحه لمن يساويه مكانة ونسباً ، حيث يرفع القيود التي تقيده اثناء مدحه لرجال الدولة ، ويعطينا صورة منطلقة متحررة ، ويكون مديحه أكثر عاطفة وصدقا ، كما سنرى حين تتكلم عن المدح العام .

وبتفحصنا لأبياته هذه نقول : ربما كان الصخري من المتكسبين بالشعر ، وقد يكون في شعره هذا أحسن المدح ، على أننا لا نطمع بالعاطفة الصادقة فيه ، ونحن نعلم أنه اتخذ المدح ذريعة للكسب ، ووسيلة للعيش .

ومن الشعر الذي قيل في هذا المجال ، قول الشاعر الحسن بن المظفر النيسابوري ، الشاعر المصنف ، والأديب الناثر ، ومؤدب أهل خوارزم في في عصره ، ومخرجهم وشاعرهم ، ومقدمهم والمشار اليه منهم ، على حد قول ياقوت الحموي(٣٩) .

قال أبو علي ، الحسن بن المظفر النيسابوري ، في الصاحب نظام الملك(٤٠) :

الآن صَحَّ من الزمانِ ضمانُ وأتى من القَدَرِ المخوف أَمانُ
قالوا خوارزمُ انطَوَى اقبالُها وأصابها الادبارُ والخذلانُ

---

(٣٩) ينظر كتابه : معجم الادباء ٩ : ١٩١ .

(٤٠) ينظر دمية القصر وعصره اهل العصر . القسم السادس . رقم الترجمة ٣٩٩ » .

ونظام الملك : هو نظام الملك أبو الحسن الطوسي ، اشهر وزراء السلاجقة ، ظل وزيرا ثلاثين سنة للسلطانين : الب ارسلان ، وملكشاه . وهو صاحب المدرسة النظامية ببغداد .

تنظر ترجمته في الكنى والالقاب ٣ : ٢٥٧-٢٥٩ وجاءت كنيته فيه ابوعلي . وينظر ايضا : الموسوعة العربية الميسرة . ص ١٨٣٨ .

كَذَبوا وحقِّ الله فَهي بدولــةِ الملــك المُظفّر للسعود قــرانُ
جَذبَ الملوكَ من النواحي نَحوَها ملكُ الورى تاجُ العلى السلطانُ
خَفَقَ اللواءُ بها النظاميُّ الذي منـه لاحشاءِ العدا خَفَقــانُ
فَتأرجت ريحُ السعادةِ سَجْسَجاً وأقامَ فيها الرَّوحُ والرَيحانُ(٤١)
راعى رِضا خليفةِ الرحمنِ مــا أوصاه فيها ربُّنـا الرحمنُ(٤٢)
ولذاكَ ما أصفـاه بالرُتَبِ العلى شـاهنشاهُ فجلَّ منـه الشانُ
مَلِكٌ رأى بوزيرِه أضعـافَ ما بزرُجَمْهَر رأى انوشـروانُ
أَمِنَ الورى أن يَسنفُلَ الايمانُ مُذ بأَبي عليٍّ ، أُعليَ الايمــانُ
وهوتْ يدُ الحسنِ المحاسنَ فاغتذى وحليفُــه وأليفُــه الاحسانُ
ما أُثبتتْ للمكرمــات صحيفــة الا وفيهـــا ذكــرُه عنــوان
شَرَفٌ علىشَرَفِ السماءِ مَحَلّه فله على سُمْكِ السِّماك مكانُ(٤٣)
وجلالةٌ لو أن كسـرى حازهـــا لم ينكسرْ كسـرى ولا الايوانُ
تتحير الأذهـــانُ من عَجَبٍ اذا فُتِقَتْ بسحر بيانِهِ الآذانُ
ما المجـدُ الا كعبــةٌ مبنيــةٌ أخلاقُ مولانا لهـــا أركـــانُ

من الملاحظ في هذه القصيدة ، أن الشاعر يجنح الى المبالغة والغلو في مديحه ، ولا ندري ان كان هذا ناشئاً عن اخلاصه لممدوحه ، أم عن تصويره لأحوال عصره وأحداث بلاده أم عن أنّه ناتج عن غلو الفرس في تعظيم ملوكهم ، فالقصيدة حافلة بالصور التي تمثل لنا حالة البلاد المتغيرة في اقبالها وادبارها ، وعلوها وخذلانها ، وفي التأكيد على سير سلاطين البلاد على طاعة الله ، واتباع سنّة نبيه ، كما تظهر لنا مكانة الوزير نظام الملك ، في بلاط الدولة ، ومدى اعتماد سلطان خوارزم عليه ، في ادارة شؤون البلاد .

---

(٤١) السجسج : الهواء المعتدل بين الحر « والقر » يقال : هو سجسج ، وظل سجسج ويوم سجسج ، وجمعه سجاسج .
(٤٢) كذا ورد الشطر الاول وهو غير مستقيم عروضيا .
(٤٣) السماك : ما يسمك به الشيء ويرتفع حائطا كان او سقفا . وجمعه سمك . والسمكة : برج في السماء .

كما نلحظ في القصيدة التفات الشاعر الى ملوك فارس الأقدمين ووزرائهم ، فهو يذكر بزرجمهر وآنوشروان ، وكسرى والايوان .

ويقول الشاعر مأمون بن مأمون ، في مدح الامير أبي عبدالله محمد بن أحمد ، خوارزم شاه[٤٤] :

كم لـه مِنْ يَـدٍ عليَّ إذا مـا
عُـدِّدَتْ لم يَكنْ لِعِدتها كـمْ
ما لِجهْلي قُصور شـكري فمن علِمْ (م)
الضَـرورات شـكرُ مَنْ كانَ مُنْعِمْ

فالشاعر يمدح هذا الأمير ، منوهاً بفضله عليه قائلاً : إنّه إن حصل منه أي تقصير في شكره ، فليس عن جهل ، لآنه يعرف أن من واجب المنعم عليه، أن يشكر المنعم .

ثم نراه يؤكد أنه لم ينسَ برّه وفضله ما دام حيّا في قوله :

لَسْـتُ والله ناسيّ البـرَّ مـا انسـا
بَ بطَبْـعِ الحيـاةِ في جَسَدي الدَّمْ

وقال فيه أيضاً[٤٥] :

لئن طـالَ عَهْدي بوَجْهِ الأمير فَقَدْ طالَ عَهْدي بأنْ أَسْعَدا
إذا شِئْتَ رؤيةَ ما في الزمـان فَزُر شَخْصَهُ الفاضِلَ الأوحدا
تَرى اللَّيْثَ والغَيْثَ والنَّيِّرَيْن والناسَ والبحرَ والمسْنَدا[٤٦]
وبَلَّغَه اللهُ أقصى مُنـاه وأسنى لَهُ مُلْكَ ما مَهـدا[٤٧]

---

(٤٤) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٣ . (طبعة حجازي) .
(٤٥) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٣ .
(٤٦) السند : ما ارتفع من الارض في قبل الجبل او الوادي . والجمع اسناد . ويريد الشاعر ان يقول ان الممدوح عالي المنزلة .
(٤٧) أسنى : اي رفع قدره . واسناه اي رفعه . وسنا الى معالي الامور سناء: اي ارتفع .

ولا زالَ نَيْروزُه عائِـــداً بأفْضَلِ حـــالٍ كمـا عُوِّدا

فالشاعر في هذه الأبيات ، يرى أن فرحه وسروره ، يكون حينما يكون هو قريبا من الأمير ، الذي يمدحه بالشجاعة والكرم والسخاء والعلو والعلم والفهم ، ولذلك فان الله أعطاه كل ما يتمناه ، وجعل أيامه كلها أعياداً . وهذا من جميل التصوير مع مبالغته ، لأن المقام يحتمل هذه المبالغة ، فهو مدح في أمير أمراء الدولة .

ويقول الشاعر أبو الفضل الهلالي ، شاعر مأمون بن مأمون ، خوارزم شاه(٤٨) :

فَلْكُ المواهبِ تَجرى من أنامله طوعاً فللشكر مَجْراها ومَرْساهـا
لو كانَ للأرضِ جزء من سماحته لاظهرت كلَّ كنزٍ من خَبَاياهـا
لو لامسَ الصخرَ صارتْ منقساوتها الى السلاسة حتى صِرْنَ أمواها(٤٩)
ولو أشارَ الى الأفلاكِ مُعترضـاً لما استمرَّ على الدُّنيا قضاياهـا
أغرُّ ألْحَمَ أحْوالي وسَدَّاها بحسنِ غُرِّ العطايا حينَ أسداها(٥٠)

ولا يخفى علينا ما في هذه الأبيات من المبالغة المملة ، ولا سيّما في البيت الذي يقول فيه :

لو لامس الصخر صارت من قساوتها الى السلاسة حتى صِرْن أمواهـا

ومما يتصل بالمدح الخاص : الشعر السياسي الذي قيل ايماناً بعقيدة او مذهب ما ، كالشعر الذي قيل في مدح آل البيت ، أو في مـــدح العرب ، وتفضيلهم على العجم ، كردّ فعل على الحركة الشعوبية ، التي أرادت النيل من العرب والاسلام . وقصيدة الشاعر الموفق بن أحمد ، بن محمد المكي

(٤٨) ينظر : المحمدون من الشعراء واشعارهم . ص ٥٣ .

(٤٩) امواها : الماه والماء والماءة : بمعنى واحد . « وهمزة الماء منقلبة عن هاء» وجمعه أمواه ومياه .

(٥٠) الحم : الحم الناسج الثوب : نسجه ، ولحم لحما الامر : احكمه ولأمه. سداها : سده سدا : ردم ثلمته واصلح خلته . وسد الشيء : استقام، والشاعر يريد ان يقول : ان الممدوح اصلح احواله ، وحسنها.

الخوارزمي ، المعروف بخطيب خوارزم ، في مدح الامام علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، خير دليل على الايمان بفكرة التشيع • وقد استشهدنا بهذه القصيدة ، في دراستنا للحياة الاجتماعية ، وهي التي يقول فيها(٥١) :

هل أبصرتْ عيناكَ في المحرابِ كأبي تراب من فتى محرابِ

ويقول الشبيبي ، الذي كان مختصاً بالدولة البويهية ، التي كانت تميل الى التشيع وتشجعه(٥٢) :

رَبَّ إنَّ ابنَ شَبيبٍ أحمدٌ صاحبُ الجيشين شيخُ الدَوْلَتَيْنْ

واثقٌ بالله يرجو المصطفى وأخاه المرتضى والحَسَنَيْنْ

ومن هذين البيتين نستطيع القول : إنّ الشبيبي ربّما كان يميل الى التشيع في مذهبه • ولا عجب في ذلك ، فقد كان مختصاً بالدولة البويهية ، وهي على ما هي من تأييدها للمذهب الشيعي •

ونراه في البيت الثاني ، يحاول أن يظهر تدينه وحبه للرسول ، صلّى الله عليه وسلم ، وحبه لآل البيت ، وخاصة الامام علي وابنيه الحسن والحسين، رضي الله عنهم أجمعين •

وبجانب هذا النوع من المديح ، كان هناك المديح العام ، وهو المديح الذي يوجه من شاعر الى شاعر ، أو يوجه الى صديق أو الى أي أنسان آخر، وهو يقال من أجل المديح لا من أجل العطاء او التقرب من أصحاب النفوذ • وهذا النوع كثير في الشعر ، لتعلقه بالحياة الاجتماعية العامة ، والحياة الثقافية وغيرهما ، ويتصل بهذا الشعر ، الشعر الذي قيل في مدح الرسول الكريم ، صلّى الله عليه وسلم ، كقول أبي حفص ، عمر بن الحسن بن المظفر النيسابوري(٥٣) :

---

(٥١) ينظر : ص ٥٢ من هذا الكتاب . وذكر القمي في كتابه : الكنى والالقاب ٢ : ١١-١٢ (طبعة العرفان ـ صيدا) . ان الموفق قال هذه الابيات ، في اخر كتابه الذي صنفه في مناقب اهل البيت عليهم السلام .

(٥٢) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٢ (طبعة السعادة) . وقد استشهدنا بالبيت الثاني في دراستنا للحياة الاجتماعية . ص ٦٠ من هذا الكتاب .

(٥٣) ينظر معجم الادباء ٩ : ١٩٢ .

سُبْحانَ مَنْ لَيْسَ في السَّماءِ ولا
في الأرضِ نَدٌّ لَهُ وأشْباهُ
أحاطَ بالعالمين مُقْتَدِراً
أشهد أنْ لا إلَهَ الاّ هو
وخاتَمَ المُرْسَلينَ سَيِّدنا
أَحْمَدَ ربُّ السَّماءِ سَمَّاه
أَشْرَقَتِ الأرْضُ بَعْدَ بِعْثَتِهِ
وَحَصْحَصَ الحَقُّ مِنْ مُحَيَّاهُ(٥٤)

ففي هذه الأبيات نرى النزعة الدينية ، واضحة كل الوضوح ، وهي على بساطة ألفاظها حافلة بالمعاني العميقة ، والأفكار الاسلامية ، التي تملأ صدر المسلم المؤمن •

فهذا النوع من المديح ، يصدر عن عاطفة معبرة لا تسعى لنيل مأرب• ومثله المديح الذي يقال بين الأصدقاء والأشخاص العاديين • وهذا أبو الفضل الصخري الشاعر ، يمدح البستي الشاعر بقوله(٥٥) :

نَسَبٌ كريمٌ فاضلٌ أنسى بِهِ
مَنْ كانَ مُعتَمِداً على أَنسابِهِ
قَدْ كُنْتُ في نُوَبِ الزَّمانِ وصَرْفِهِ
إذْ عَضَّني صَرْفُ الزَّمانِ بنابِهِ(٥٦)
فاليَوْمَ جانَبَتِ الحوادِثُ جانِبي
إذْ قَدْ نُسِبْتُ إلى كَريمِ جَنابِهِ

(٥٤) حصحص الحق : ظهر وبان .
(٥٥) ينظر : معجم البلدان ٥ : ٢٨ .
(٥٦) صرف الزمان وصروفه : نوائبه وملماته وتقلباته . ويقال : عضني صرف الزمان : اي اصابتني نوائبه .

ونرى تحرر الشاعر في هذه الأبيات ، التي مدح بها شخصاً يساويه في المكانة ، تحرره من القيود التي رأيناها في مدحه للسهيلي وزير الخوارزميين ، ونرى هذا التحرر ، في شكواه وتعبيره عمّا تضيق به نفسه من نوب الزمان ، وصروف الدهر ، شكوى أخ يبثها لأخيه ، دون تحرج أو خوف .

وهذا أبو المظفر النيسابوري يمدح رجلاً كريماً بقوله(٥٧) :

جَبينُكَ الشَّمسُ في الأضواءِ والقَمَرُ
يَمينُكَ البَحْرُ في الإرواءِ والمَطَرُ
وظلُّكَ الحَرَمُ المحفوظُ ساكِنُهُ
وبابُكَ الرُّكنُ للقُصَّادِ والحَجَرُ(٥٨)
وسَيْبُكَ الرِّزقُ مَضْمونٌ لكلِّ فمٍ
وسَيْفُكَ الأَجَلُ الجاري بهِ القَدَرُ
أنتَ الهُمامُ بل البَدْرُ التّمامُ بَلِ السَّ(م)
يْفُ الحُسامُ بَلِ الصَّارمُ الذَّكَرُ
وأنْتَ غيث الأنامِ المُسْتغاثُ بهِ
إذا أغارَتْ على أبنائِها الغِيَرُ(٥٩)

وعلى الرغم من المبالغة في المعاني التي أضفاها الشاعر على الممدوح ، الا أنه أتانا بصور جميلة ، فالممدوح كثير العطاء كالبحر ، حتى أصبح مقصد كل طالب ، يقصده الناس من جميع أنحاء العالم ، وهو بذلك مثل بيت الله الحرام والحجر الأسود . وهذا غاية ما يقوله مسلم ، في ممدوح يمدحه .

---

(٥٧) المصدر السابق ٩ : ١٩٦ .
(٥٨) القصاد : الحجاج . والحجر : المراد به الحجر الاسود ، وهو من شعائر الحج . وهذا على التشبيه .
(٥٩) غير الزمان : احداثه المغيرة . جمع غيرة .

ومما أنشده الموفق بن أحمد المكي ، في مدح الحسن بن العطّار الهمذاني قوله[٦٠] :

حِفْظُ الإمامِ أبي العَلاءِ الحافظِ
بالرِّجْلِ يَنْكُتُ هامَ حِفْظِ الجاحِظِ[٦١]

عَمْرو بنُ بَحْرٍ بَحْرُه مِنْ جَدْوَلٍ
مُتَشَعِّبٍ مِنْ بَحَرِ بَحْرِ الحافظِ

ما إنْ رأيْنا قَبْلَ بَحْرِكَ مَنْ لَهُ
بَحْرٌ طفوحٌ كالأتيِّ اللافظِ[٦٢]

أَحْيَيْتَ ما قَدْ غاضَ من سُنَنِ العُلا
والعِلْمِ قَبْلَكَ باليَراعِ الغائِظِ[٦٣]

بَهَظَ البَرايا عِبءُ أدْنى عِلْمِهِ
أَعْظِمْ بِهِ مِنْ عِبءِ عِلْمٍ باهِظِ[٦٤]

كَمْ واعِظٍ ، لي أنْ أُجاوِزَ هَجْرَهُ
لَوْ كانَ يَنْجَعُ فيَّ وَعْظُ الواعِظِ[٦٥]

---

(٦٠) معجم الادباء ٨ : ٣٩ـ٤٠ « طبعة البابي الحلبي » . الطبعة الاخيرة .

(٦١) ينكت .. الخ يقال : نكت الارض بقضيب ، او باصبع ينكتها نكتا : ضربها به فأثر فيها ، يفعلون ذلك حال التفكر ، والهام : الراس :والمراد تفضيل علم الامام ابي العلاء ، على علم الجاحظ .

(٦٢) الطفوح : المملوء الطامي . والاتى : السيل يجرف ما أمامه . واللافظ : القاذف .

(٦٣) يعلق الرفاعي محقق معجم الادباء ، على هذا البيت بقوله : انه ركيك لا قيمة له . وجاءت لفظة « الغائظ » ولعل الصواب « القائظ » .

(٦٤) بَهَظَ البرايا .. الخ : اي غلبهم علمه ، وثقل عليهم فعجزوا عن محاكاته . وقوله : اعظم به : تعجب من وفرة علمه . والباهظ : الثقيل . يقال: أمر باهظ : أي شاق ثقيل .

(٦٥) ينجع : اي يوثر ، من نجع الدواء او الطعام او الكلام : دخل فأثر فيه .

غاظَ الأَعادي جاهُــــهُ لعُلُومِـــهِ

فَرَدَدْتُ غَيْظَهُمْ بهــذَا القــائِظِ[٦٦]

وأنشد في مدحه أيضاً[٦٧] :

وَلَيْسَ اعترافُ الحاسدينَ بفَضْلِـهِ

لشيءٍ سِوَى أنْ لَيْسَ يُمْكِنُهُمْ جَحْدُ

بَــــدا كَعمودِ الفَجْرِ ما فيـهِ شُبْهَةٌ

فَهَلْ لَهُمُ من أن يُقِرُّوا به ، بُدُّ ؟[٦٨]

---

(٦٦) القائظ : القيظ : صميم الصيف : اي حرارته . ويقال : قيظ قائظ : اي شديد . وقاظ قيظا اليوم : اشتد حره ، فهو قائظ .

(٦٧) معجم الادباء ٨ : ٤١ .

(٦٨) عمود الفجر : ضوؤه . والبد : الفرار . يقال : لابد من كذا : اي لافرار منه .

الفخـــر :

قلنا قبل قليل إنّ الفخر لازمة من لوازم الصراع والغلبة ، وقد عرف اقليم خوارزم هذا لتداول الدول عليه،ومع ذلك لم نجدهم في فخرهم يسلكون مسلك القدماء في تفاخرهم بالأنساب والقبائل • وانّما هم يفخرون بالكرم والعلم ، والقدرة على الجدل وافحام الغير ، وربما كان مرجع هذا الى نشاط الحياة العقلية ، ومجالسها وما يدور فيها من مناظرات ومناقشات • الا أننا يجب أن نشير الى أن هذه الظاهرة فردية ، وليست عامة • ومثلهـــا ظاهرة الفخر بالعروبة ، وهذا النوع من الفخر ، كان ردا على الشعوبية •

قال الامام الزمخشري ، مفتخراً بالعرب وشجاعتهم وصبرهم وبلائهم ،في الحروب(١) •

أيا عرصـــــاتِ الحيِّ أينَ الأوانسُ
رَحلنَ وحلّتك الظبـــــاءُ الكوانس(٢)

أعامرةٌ بالأمس تهتـــزّ نضـــــرةً
مغانيـك وهو اليــومُ قفـــرٌ ويابس

من العـرَب الصيد الأولى أحرزوا العــلى
وطـــابتْ لهم أعـراقُهم والمغـــارس

غـَطارفـــةٌ شُـمّ تربَّوا أعـــزة
فمــا شَـمَّ ريحَ الذلِّ منهم مُعاطس(٣)

---

(١) ينظر مخطوط ديوان الزمخشري . ورقة ٦٠-٦١ .

(٢) الكوانس : جمع كانس . والكانس : الظبي يدخل كناسه ، وهو موضع الشجر ، يكتن فيه ويستتر اذا اشتد الحر وكلمة « يابس » كذا وردت في الاصل ، ولا يستقيم الوزن بها ، ولعلها « ويابس » او لعلها «بسابس» جمع « البسبس » وهو القفر الخالي .

(٣) المعطس : الانف وجمعه معاطس .

وَلَلْعَرَبُ العرباءُ أصلبُ نبعةً
وهل يستطيع الحزّ في النبع ضارس[٤]

إباءٌ اباءَ الخيلِ وهي شوامس
وصبرٌ كصبرِ الهيمِ وهي خَوامس[٥]

وما زالَ منهم في الهزاهزِ كلّها
فوارسُ هيجا أو ليوثٌ فوارس[٦]

فكم طعنةٍ بكرٍ يطير رشاشُها
لفتيانهم والحربُ شمطاءُ عانِسُ

ويكفيك من أيامِهم وحروبِهم
بما جرَتِ الغَبراء أو جَرّ داحس[٧]

ويقول الشاعر ناصرالدين المطرزي ، مفتخراً بنفسه[٨] :

وإنّي لأستحي من المجدِ أن أرى
حليفَ غوانٍ أو أليفَ أغاني[٩]

---

(٤) النبع : شجر من أشجار الجبال ، تتخذ منه القسي .
والضارس : من الضرس : وهو خور وكلال يصيب الضرس او السن ، عند أكل الشيء الحامض .

(٥) الشمس والشموس من الدواب : الذي اذا نخس لم يستقر . وشمست الدابة والفرس فهي شموس : اي شردت وجمحت ومنعت ظهرها .
الهيم : الابل العطاش : اي التي يصيبها داء فلا تروى من الماء ، واحدها اهيم وهيماء ، او هائم وهائمة .
خوامس : الخمس : من اظماء الابل ، وهو ان ترد الابل الماء اليوم الخامس . والجمع اخماس .

(٦) الهزاهز : جمع هزهزة ، وهي تحريك البلايا والحروب للناس ، او الفتنة يهتز فيها .

(٧) يشير الشاعر في هذا البيت ، الى حرب داحس والغبراء .

(٨) ينظر : وفيات الاعيان ٥ : ٧ ، انباه الرواة على انباه النحاة ٣ : ٣٤٠.

(٩) الحليف : اي المحالف . يقال حالف فلان فلانا فهو حليفه . وبينهما

فالمطرزي في هذا البيت ، يفتخر بنفسه وذلك بنفيه الطيش والخفة أو عدم الرزانة ، لان مجده ، يمنعه فعل ذلك ، كما تمنعه هيبته وخجله .

وسنرى هذا النوع من الافتخار بالنفس، عند الامام جارالله الزمخشري، حين دراسته ، فهو يفتخر كثيراً بنفسه وبكتبه وخاصة كتابه الكشاف . ومن افتخاره بنفسه قوله[10] :

فكلُّ امرئٍ آمالُهُ عددَ الحصى وهاتِ نظيري في جميعِ المحافلِ

أو قوله :

ألَمْ ترَ أني حيثما كنتُ كعبةٌ يحفّون بي كالطائفينَ طَوائِفا

حلف لانهما تحالفا بالايمان ، ان يكون امرهما واحدا بالوفاء ، فلما لزم ذلك عندهم في الاحلاف التي في العشائر والقبائل ، صار كل شيء لزم شيئا ، فلم يفارقه فهو حليفه .

(١٠) ينظر : مخطوط ديوان الزمخشري . ورقة ٩٥ .

الهجــاء :

أما الاتجاه الآخر من الاتجاهات الشعرية ، التي طرقها الشعراء في هــذا الاقليم فهو الهجاء بصورته المعروفة ، من حيث الطعن وذكر المثالب • أوهجاء خلقي يتناول الشاعر فيه ، الصفات الحميدة ، ثم يتلاعب بالألفاظ ، فيبــدل حرفا مكان حرف ، فتصبح الكلمة الجميلة ، والصفة الحميدة ، كلمة قبيحة وصفة ذميمة ، كما في قول أبي الفضل الصخري[1] :

أيا ذا الفضائِلِ واللاّم حــــاءُ ... وَيا ذا المكارم والميــمُ هــــاءُ
ويا أَنْجَبَ النَّاسِ والباءُ سينٌ ... ويا ذا الصِّيانَةِ والصَّادُ خــاءُ
ويا أَكْتَبَ النَّاسِ والتَّاءُ ذالٌ ... ويا أعلمَ النَّاسِ والعَيْنُ ظـاءُ
تجود على الكُلِّ والدَّالُ راءٌ ... فأنْتَ السَّخيُّ وَيَتْلوهُ فــاءُ
لَقَدْ صِرْتَ عَيْباً لداءِ البغاء ... ومن قبل كان يعاب البغـــــاءُ

ونراه في أبياته هذه ، يعمد الى السباب المحض ، بطريقته الفريدة هذه في الهجاء •

وقد يتناولون في هجائهم العاهات اللسانية ، التي تكون عنــد بعض الأشخاص مثل اللثغة مثلاً ، وهي أن ينطق الشخص الحرف غير واضح ، أو أن ينطق الراء مثلاً لاماً ، وقد يصلون بهجائهم الى رمي المهجو بالكــذب والخديعة ، ومن هذا النوع ما قاله النسوي في هجاء أحدهم[2] :

لَكَ تَــدْريس ولكِنْ ... راءُ تَدْريســــــكَ لامُ
والذي تَمْلي على النَّــا ... سِ كِلام لا كَـــلامُ[3]
خَسِرَتْ بَغْــدادُ إذْ آ ... وَتْكَ فيهــا والسَّـــلامُ

(1) ينظر : معجم الادباء ٥ : ٢٧ــ٢٨ .
(2) دمية القصر ٢ : ٩١ « تحقيق الحلو » .
(3) كِلام : كلَّمه تكليماً وكِلاّما : جرحه . والكِلام والكُلوم : جمع الكَلْم وهو الجرح .

ومن طريقتهم في الهجاء ، استعمالهم الألفاظ البذيئة صراحة ، واشتهر بهذا النوع من الهجاء ، كل من أبي بكر الخوارزمي ، وأبي الريحان البيروني، الذي وصل به هجاؤه ، الى أن يهجو نفسه كما فعل الحطيئة من قبل •

يقول أبو الريحان البيروني في شاعر إجتداه[٤] :

يا شاعراً جاءَني يَخْرى على الأدب ... وافى ليمدحَني والذَمَّ من أدَبي
وجدتُه ضارطاً في لحيتي سَفَهاً ... كلاّ فلحيتُهُ عُثْنونُها ذَنَبي
وذاكراً في قوافي شعره حَسَبي ... ولستُ واللهِ حقا عارفاً نَسَبي
إذْ لستُ أعرف جَدّي حقَّ معرفةٍ ... وكيف أعرف جدّي إذ جهلتُ أَبي
إنّي أبو لهب ، شيخٌ بلا أدب ... نعم ووالدتي حمّالةُ الحطب
المدحُ والذمُ عندي يا أبا حسن ... سِيّان مثل استواء الجد واللعب
فأَعفني عنهما لا تشتغلْ بهما ... بالله لا توقعن مَفساك في تعب[٥]

ويقول أبو بكر الخوارزمي ، في هجاء الوزير البلعمي[٦] :

إنَّ ذا البلعميَّ ، والعَيْنُ غَيْنٌ ... وَهو عارٌ على الزمانِ وشَيْنٌ
إن يَكُنْ جاهلاً بخُفي حُنَيْن ... فهو الخُفُّ والزمانُ حُنينٌ

ومن هجائه قوله :

أبا نصر رويدَكَ من حجاب ... فَلَسْتَ بذلك الرجلِ الجليل
ولا تبخلْ بهذا الوجه عَنّا ... فليس بذلك الوجهِ الجميل
وللأشعار قوم لست منهم ... ولكنّي هجوتك في السبيل

---

(٤) اجتداه : اي سأله الجدوى . والجدوى : العطية . وكذلك الجداء .
(٥) تنظر الابيات في معجم الادباء ١٧ : ١٧٩ ، روضات الجنات . ص ٦٨ ، مقدمة كتاب : تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن ــ للبيروني ــ ، فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم . ص ٣٧٢ ، رجال السند والهند في القرن السابع . ص ٢١١ــ٢١٢ .
(٦) ينظر : عدد من بلغاء ايران . ص ٨٧ .

وله في هجاء آخر(٧) :

ولي والله إخـــوان" كثـــير" نصيبي من فعـــالهم ســــواءُ
ولكني رأيتــــكَ من أُناسٍ إذا لم يحسنوا فلقــد أساءوا

وقد يتجاوز أبو بكر الخوارزمي ، حدود الأدب والأخلاق في هجائه ، ويلجأ الى القذع والفحش والكلام البذيء ، وقد اورد له الثعالبي نماذج من هذا النوع(٨) .

(٧) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٤ (طبعة السعادة) .
(٨) المصدر السابق ٤ : ٢٠٧ .

الغــزل :

كان الغزل من اتجاهات الشعر في هذا الاقليم ، فقد كان هذا الفن من لوازم البيئة العربية ، ومظهراً من مظاهرها الرئيسة .

وقد قاله الشعراء من أجل الغزل ، أو في مقـــــدمات القصائد ، تقليدا للقصيدة الجاهلية ، وهذا الشاعر أبو بكر الخوارزمي ، قد أبدع حينماوصف حسن حبيبته وتزايد جمالها على مر الأيام ، التي من شأنها تغيير الصور ، وتقبيح المحاسن[1] :

وَشَمْسٍ ما بَدَتْ إلا أَرَتْنا   بأنّ الشّمْسَ مَطْلعها فُضولُ
تَزيدُ على السنين ضِياً وحُسْناً   كمارَقّتْ علىالعِتْقِ الشّمولُ[2]

فأبو بكر يغالي في وصف جمال حبيبته ، ويرى أن جمال الشمس ما هو الا زيادة وفضلة ، أمام جمال شمسه الأولى ، أي حبيبته . فحبيبته على حد قوله كالخمرة التي كلما عتقت لذ طعمهـــا ، وطاب ، وهي كذلك فان الأيام تزيدها جمالاً وبهاءً ، ولا تؤثر في شبابها .

وعلق أبو الفضل محمد بن طاهر ، المعروف بابن القيسراني[3] ، على هذين البيتين بقوله : « إنّها من جيد شعره » .

وذكر الثعالبي أن هذين البيتين ، هما مقدمة غزلية لقصيدة قيلت فيمدح، رجل شريف ، من قوم أشراف ، ولكنه أشرفهم نسباً ، وأراد الخوارزمي أن يقول فيه إنه بيت القصيدة ، وواسطة القلادة[4] .

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٩ .
(٢) العتق : القدم . والشمول : الخمر . أو الخمر الباردة الطيبة الطعم .
(٣) ينظر كتابه : الانساب المتفقة . ص ٩٥ .
(٤) ينظر كتابه : خاص الخاص . ص ١٩٠ .

ومن غزل أبي بكر أيضاً قوله[٥] :

بَسَمَتْ فأَبْدَتْ جيدَهــا فتكشفتْ
عــن نَظْــمِ دُرّ تحت نَظْــمِ لآلي

وأَرتْكَ خدّيهــا ولاح عليهمــا
صُدْغان ذو خــالٍ وآخَرُ خــالي[٦]

فكأنّ ذا ذالٌ خَلَتْ من نُقْطــة
وكــأنّ ذا دالٌ ونُقْطــة ذالِ

فأبو بكر يريد أن يقول : إنّ هذه الحسناء قد أبدت بابتسامتها أسنانها البيضاء ، المنظومة نظم اللؤلؤ فوق عقد الدر ، الذي يزيّن جيدها ، وقد لاح فوق خديها صدغان معقربان،أمام أحدهما خال فكأنه حرف الدال منقوطاً، أما الصدغ الذي خلا من الخال ، فقد أشبه حرف الذال خالياً من النقطة . ويتضح من البيت الأخير ، أن الشاعر ربما أراد التلاعب بالألفاظ .

ومن الغزل ما قاله الحسن بن المظفر النيسابوري[٧] :

أرَيّا شَمالٍ أمْ نَسيمٌ من الصَّبا أتانا طُـروقاً أمْ خَيَـالٌ لزينبـا ؟
أم الطّالعُ المَسْعودُ طالَعَ أرضَنا فأَطلعَ فيهـا للسعادةِ كَوْكبا ؟

ومن الغزل الذي سار فيه ناظمــه ، في تيار الشعر العربي القديم ، حيث استهله بالشكوى ، من بخل الحبيبة عليه بلحظات اللقاء ، وهذا سبب نفاد صبره، وكثرة دموعه وانسكابها ، ثم أخذ بعد ذلك في وصف حبيبته ، وذكر محاسنها مشبهاً وجهها بالثلج في بياضه ونصاعته ، والنار في ضوئها واحمرار شعلتها . فتأقلم الأدب في هذا الاقليم واضح جلي في تشبيه الشاعر وجه فتاته بالثلج في

(٥) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢١٠ ـ ٢١١ (طبعة حجازي) .
(٦) الصدغ : الشعر المتدلي على ما بين لحاظ العين ، الى أصل الاذن ، أي على المنطقة التي تسمى بالصدغ أيضا .
(٧) معجم الادباء ٩ : ١٩٦ .

شدة بياضه . ثم تطرق الى وصف حاله وما آلت اليه، من شوق وحرقة وآلام، في صورة جميلة، يعبر عنها الصخري بقوله(٨) :

لئِنْ بَخِلَتْ بإسْعادي سُعادُ ... فإنّي بالفُؤادِ لَها جَوادُ
وإنْ نَفِدَ اصطباري في هَواها ... فَدَمْعُ العَيْنِ لَيْسَ له نَفادُ
أَرى ثَلْجاً بوَجْنَتِها ونـاراً ... لِتَلْكَ النّار في قَلْبي اتّقادُ
فَهَبْ مِنْ نارِها كانَ احتراقي ... فَلِمْ بالثّلجِ ما بَرَدَ الفؤادُ
لأجْتَهِدَنَّ في طَلَبِ المعالي ... بسَعيٍ ما عليهِ مَسْتَزادُ
فإنْ أدركتُ آمالي والاّ ... فَليسَ عليَّ الاّ الإجتِهادُ

ومما قاله البافي في هذا المجال(٩) :

أَيا زائرَ البيتِ العتيقِ وتارِكي ... قَتيلَ الهَوى لو زُرتَني كانَ أجْدَرا
تحج احتساباً ثم تقتلُ عاشقاً ... فَديتُكَ لا تحججْ ولا تقتلِ الورى

ومن رقيق شعره في الغزل قوله(١١) :

يا عينُ منكِ شكايتي وبلائي ... أنتِ التي أسلمتِني لشقائي
لما نظرتِ الى محاسنِ وجههِ ... أشعلتِ نارَ الشوقِ في أحشائي
ثم اعتبرتِ لتخدعيني بالبكا ... فكشفتِ ذاكَ السرَّ للأعداءِ
فتأملي ماذا جنيتِ وأَمسكي ... باللهِ عنّا معشرَ الغرباءِ

وطريقة البافي هذه في التغزل، طريقة فريدة، إذ تظهر فيها ذاتية الشاعر المحب، كما يكشف لنا فيها عن مشاعره، باستخدام وسيلة تكاد تكون مبتكرة، وهي مخاطبة عينه، حيث يكمن مرأى الجمال، وتقويمه ثم تذوقه .

ومن هنا نرى أن غزلهم كان غزلاً معنوياً، اكثر منه حسياً، والغزل

---

(٨) المصدر السابق ٥ : ٢٩ــ٣٠ .
(٩) ينظر : يتيمة الدهر ٣ : ١٢٢ (طبعة حجازي) .
(١٠) المرجع السابق ٣ : ١٢٢ .

الحسي وان وجد عندهم ، الا انه قليل بالقياس الى الغزل المعنوي • وربما ترجع هذه الظاهرة الى سيطرة الاتجاه العقلي ، الذي كان يغلب على أدباء هذا الاقليم •

أما ابن عنين ، الذي مكث مدة في هذا الاقليم ، ورأى بعينيه جمال الغلمان الأتراك ، والظباء التركيات ، فقد تأثر بما رأى ، وأخرجه شعراً على لسانه فتغزل • ومن ذلك قوله[11] :

ومدامةٍ لَمْ يُبْقِ طولُ ثَوائِها في خِدْرِها الاّ وَميضَ شُعاعِ
من كفّ مصقولِ العوارض آنسٍ يَرْنو بمقلةِ جُؤْذَرٍ مُرْتاعِ[12]
وَقَفَتْ عوارضُ صُدْغه في خَدّه حيرى وباتت في القلوبِ سَواعي
راضَتْ خلائقَهُ العقارُ وبدَّلَتْ نَزِقَ الصِّبا بمُوَقّرٍ مِطْواعِ

وهذه القطعة الشعرية ، من رقيق الغزل ، ونحن بهذا نرى رأي الدكتور زكي مبارك ، في كونها قيلت في الغزل والتشبيب ، وليس في وصف الخمر ، كما يذكرها علماء الأدب •

والى جانب هذا النوع من الغزل ، الذي قيل في المرأة ، رأينا بعض أبيات من الشعر ، قيلت في الغزل بالمذكر كقول أبي بشر ، المأمون بن علي بن ابراهيم الخوارزمي[13] :

تكلفتُ كتماني هَواكَ فلم أطقْ
ولم يستقمْ للنّفسِ ما قد تكلفتْ
شَقاني أن أفْشَيْتُ سِرَّكَ في الهَوى
كذلك أسرارُ الهوى إنْ فَشَتْ شَفَتْ

---

(١١) ينظر : الموازنة بين الشعراء . ص ٦٨ .
(١٢) العوارض : الثنايا أو ما ولي الشدقين من الاسنان ، وهي اربع تلي الانياب ، وتليها الاضراس .
آنس : انس انسا : فرح واطمأنت نفسه ولم يستوحش .
والانسة : الجارية الطيبة الحديث والنفس ، التي تحب قربك وحديثك .
(١٣) ينظر دمية العصر وعصرة أهل العصر ٢ : ٢٧١ . تحقيق الحلو .

ومما قاله السهيلي في هذا المجال[١٤] :

أَوْفى على الدّيوانِ بدرُ الدُّجى فَسَلْ نُجومَ السَّعدِ ما حَظُّه ؟
أخَدُّهُ أَمْلَحُ أم خَطُّه ولَحْظُهُ أَفْتَنُ أم لَفْظُهُ ؟

أما الهراسي ، فقد وصف غلامه بأحلى الصفات ، خالعاً عليه الصفات الأنثوية ، ولعله أراد بهذا أن يقرب هذا النوع من الغزل الى الأذواق ، لأن النفس البشرية غير ميّالة الى الشذوذ ، فهو يقول[١٥] :

قل للّذي لا أرى لَهُ مثلاً
إلاّ صفاتٌ غَدَتْ لَهُ مَثَلا
في الدُرِّ والبَدرِ والغزالِ وفي الخو
ط ودِعْصِ النقا اذا مثلا[١٦]

ونرى التكلف في هذين البيتين واضحاً ، وفيهما ضعف أيضاً .

والتشوق مظهر من مظاهر الغزل ، فالشاعر يتشوق فيه الى أحبته ، ويبكي فراقهم إن رحلوا ، وهذا المطرزي يقول في ذلك[١٧] :

يا وحشةً لجيرةٍ منذ نأوْا
عُلُوُّ قَدْري في الهوى انحطّا

(١٤) ذكر ياقوت الحموي في كتابه : معجم الادباء ٤ : ٢٦٢ . ان ابا الحسين السهيلي ، قال هذه الابيات في صباه . وينظر ايضا : تتمة اليتيمة ٢ : ٢٣ . وجاء فيها اسمه هكذا : ابو الفضل احمد بن محمد العروضي، المعروف بالصفار .

(١٥) الوافي بالوفيات ٤ : ١٢٢ .

(١٦) الدعص : قور من الرمل مجتمع ، والجمع ادعاص ودعصة ، وهو اقل من الحقف . والطائفة منه دعصة .
النقا : من كثبان الرمل . وقيل من الرمل .
الخوط : الغض الناعم . والخوط : الجارية المشبهة بالخوط طولا ونعمة وغضاضة .

(١٧) معجم الادباء ١٩ : ٢١٣ .

حَكَتْ دموعي البَحْـرَ من بَعْدِهِمْ
لمّـــا رَأتْ مَنْزِلَهُمْ شَـــطَّا[18]

فالشاعر يعيش في وحشة ، منذ شطّ المنزل بأحبته ، مما جعل دموعه تحاكي البحر في كثرة مياهه . ونستطيع أن نقول : إنّ هذا المعنى قد تعاوره الشعراء ، ولا جديد فيه ، ومع ذلك أضفى الشاعر ، على أبياته صورة جميلة ، لأن المقام يحتمل المبالغة التي نراها واضحة كل الوضوح ، في البيت الثاني .

ومن التشوق هذه الأبيات ، التي بعث بها الشبيبي ، الى الشاعر أبي بكر الخوارزمي ، والتي يقول فيها[19] :

للشـــبيبي صَنيعتِـــكْ حَســرات" لفُرْقَتِــكْ
واشـتياق" إلى لِقـــــاءِ تَباشــيرِ طَلْعَتِكْ
رَبِّ سَـــهِّلْ لقـــاءَهُ يـــا إلهي برَحْمَتِـــكْ

فالشبيبي يتحســر في هذه الأبيات ، على فرقة أبي بكر الخوارزمي ، متمنياً لقاءه ، داعياً الى الله أن يسهل ذلك . ومن الواضح الجلي في هــذه الأبيات التي يتشوق فيها الشبيبي الى أبي بكر ان هذا النوع من الشعريدخل فيما يسمونه شعر « الإخوانيات »

ويرى الثعالبي[20] ان احسن ما قيل في الشوق والفراق هو قول ابن عيينة :

جسمي معي غير أن الروح عندكم فالروح في غربة والجسم في الوطن

(١٨) شطا : اي بعد . والشطاط : البعد . وفي البيت تورية .

(١٩) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٢ (طبعة السعادة) .
يقول الثعالبي : انه سمع من أبي بكر الخوارزمي ، أن الشبيبي بعث له بهذه الابيات ، بعد ان لطف طبعه ورق شعره . ومن البين الظاهر ان ابا بكر يريد ان يقول : ان له فضلا كبير على الشبيبي ، في تلك الرقة التي ظهرت على شعره ، لانه صنيعته .

(٢٠) ينظر : احسن ما سمعت ص ٣٥ .

تعجّب النـاس منّي أنّ لي بدنـاً   لا روح فيه ولا روح بلا بدن[٢١]

ومن هذا أيضا قول الشاعر كشاجم :

قلت وقـالوا بأن اخوانـه   قـد أبْدَلوه البعـد بالقرب
والله ما شطت نوى صـاحب   سـار من العين الى القلب[٢٢]

ومن احاسن أبي تمام في هذا ما قاله في فراق الشمل :

بالشام قومي وبغداد الهوى وأنا   بالرقمتـين وبالفسطاط اخواني
وما أظن النوى ترضى بما صنعت   حتى تشافه لي أقصى خراسان[٢٣]

(٢١) يتعجب الناس : لعل الصواب في هذا : « يستعجب الناس » ؛ ليستقيم الوزن .

(٢٢) تنظر الابيات في : احسن ما سمعت ص ٣٥ .

(٢٣) قوله تشافه لي : لعل الصواب فيه = تسافر لي .

الوصـــف :

طرق شعراؤهم هذا الغرض ، ووجدنا نماذج قليلة في وصف الطبيعـة الحية ، والطبيعة الصامتة .

فالسهيلي يصف النجوم بقوله[1] :

فالشُهْبُ تَلْمَعُ في الظلام كأنها شَرَرٌ تَطايرَ من دُخانِ النّار
فكأنّها فوق السماءِ بنادق الـ كافور فوقَ صلايةِ العطّارِ[2]

فأثر البيئة واضح في هذين البيتين ، في تشبيهه لمعان الشهب في الظلام، بالشرر المتطاير من دخان النار . والنار شيء عزيز على مثل من يسكن في بلاد خوارزم ، ذات البرد الشديد ، والثلج الكثير ، كما أنه أخـــذ تشبيهاته في البيت الثاني ، من بيئة خوارزم ، الغنية باشجارها المختلفة .

ويعلق الصفدي على البيت الأول بقوله :إنّهمأخوذ من قول الخوارزمي:

والشهبُ تلمعُ في الظلامِ كأنّهـا شَرَرٌ تطايرَ فيدخان العَرفَجِ[3]

ويرى الصفدي أن السهيلي أكثر اجادة في تشبيهه ، لأن دخان النـــار أحسن وأعذب من دخان العرفج .

ونرى ان كليهما قد أجاد ، لأن العرفج نبت طيب الرائحة ، بالاضافـة الى منظر لهبه الجميل ، الذي يكون شديد الحمرة كما يقال .

ومما قاله السهيلي ، في وصف شعاع القمر[4] :

---

(١) ينظر معجم الادباء ٥ : ٣٢ . وفي الوافي بالوفيات ٨ : ١٤٧ « والشهب ». جمع شهاب ، والشهاب : شعلة نار ساطعة .
(٢) صلاية العطار : يريد مدق الطيب .
(٣) العرفج : شجر سهلي ، اصلها واسع تنبت عليه اغصان دقاق ليس لهـا ورق . له بال وفي اطرافها زمع يظهر في رؤوسها شيء كالشعر اصفر . ولهب العرفج شديد الحمرة . ويقال ان العرفج نبت طيب الرائحة اغبر الخضرة ، له زهراء صفراء ولا شوك له .
(٤) معجم الادباء ٥ : ٣٣ ، الوافي بالوفيات ٨ : ١٤٨ .

كأنّما البدر فوقَ الماءِ مطّلِعَاً ونَحنُ بالشّطِّ في لَهْوٍ وفي طَرَبِ
ملكٌ رآنا فأهْوى للعبورِ فلم يَقدرْ فَمَدَّ لهجسرٌ من الذَّهَبِ

ففي هذين البيتين صدى واضحاً للبيئة الطبيعية ، المتمثلة في البدر والشط وشعاع القمر الفضيّ الذي أبدله الشاعر بلون الذهب ، ولعل القافية هي التي أرغمته على ابدال الفضة بالذهب . ويمكننا ان نبعد قليلا في تعليلنا فنقول :

ولعله كان لبيئة خوارزم المترفة ، وحياة القصور التي عاشها هذا الوزير الشاعر ، أثر في تشبيهاته ، فقد شبه شعاع القمر بالذهب في لونه ، وهو في تشبيهاته كابن المعتز ، الذي عاش حياة القصور المترفة .

ومما قاله السهيلي أيضا ، في الطبيعة الصامتة ، وفي جمع أسماء الكواكب السبعة في بيت واحد[٥] :

يا مَنْ يقدّرُ أن الدّهرَ ينصره بكوكب عاجزٍ بالله فانتصرِ
لا تشركنَّ بربٍّ العرش تجهلـه كواكباً كلّها تجري على قدرِ
عطاردٌ زهرةٌ والشمسُ مع زُحَلٍ كالمشتري الفردِ والمرّيخِ كالقمرِ

ووجدنا مثل هذا الوصف ، أي وصف الطبيعة الصامتة ، عند الشاعر أبي بكر الخوارزمي ، كما وجدنا عنده أبياتا في وصف الطبيعة الحية ، في وصف السلحفاة والطير . وسنتحدث عن هذا عند دراستنا له .

ورأينا بيتين من الشعر في الوصف ، قالهما التاجر ، ولكن في صورة اخرى من الوصف الذي رأيناه صورة تدل على الوصف الحضاري، ولا عجب في هذا ونحن نعلم ما كانت عليه حضارة هذا الاقليم من ازدهار ، فهو يصف القلم وهو أداة من ادوات الحضارة بقوله[٦] :

ناطقٌ ساكِتٌ أصَمٌّ سَميعٌ قَلِقٌ ساكِنٌ وقوفٌ ماضِ[٧]

(٥) تتمة اليتيمة ٢ : ٢٣ .
(٦) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٤ (طبعة السعادة) . ، المحمدون من الشعراء واشعارهم . ص ٩٦ .
(٧) في المحمدين من الشعراء . ص ٩٦ « صامت » بدلا من ساكت .

ناحِلُ الجِسْمِ نابِهُ الاسم مُوَقّى الوَسْــــ

مِ في كـل عانِـــدٍ ذي اعتِـــراضِ[٨]

فالتاجر يعالج في هذين البيتين ، جانباً مهما من جوانب الصورة الشعرية، هو جانب المعاني والصور ، فيجهد نفسه في تأليف صورة طريفة ، في تناوله وصف القلم ، فهو ناطق ساكت ، وهو أصم سميع ، وهو قلق ساكن ، الى آخر هذه الصفات المتناقضة ، والتي نراها حين التمعن فيهـــا ، تنطبق على الموصوف انطباقا تاماً ، على الرغم من التناقض في معانيها •

وقد تطرق الشعراء من قبل لمثل هذا الموضوع ، فقال أبو تمام في هـــذا الصدد[٩] :

فَصيحٌ إذا استَنْطَقْتَهُ وهو راكِبٌ

وأعْجَمُ إن خاطَبْتَـــــهُ وهو راجِـــلُ

إذا ما امتطى الخَمْسَ اللّطافَ وأُفْرِغَتْ

عليه شِعابُ الفِكْرِ وَهْيَ حَوافِلُ[١٠]

أطاعتـــه أطـراف القنـــا وتقوضتْ

لنجواه تقويضَ الخيـــام الجَحافلُ

والتاجر كما رأيناه يصف قلمه بالنحول ، ولكنه مع نحوله يقظ متنبه في وسمه لكل معاند ومعترض ، وأبو تمام كذلك وصف قلمه بالنحول حيثقال:

رأيت جَليـلاً شـــأنُهُ وهو مرهف

ضنى وسـميناً خطبـــه وهو ناحِـــلُ

فقلم أبي تمام أيضاً ضئيل ، ولكن أثره سمين •

---

(٨) في المصدر السابق . ص ٩٦ « مبقي » بدلا من منقى .

(٩) ينظر ديوانه بشرح التبريزي ٣ : ١٢٣ . « تحقيق محمد عبده عزام » . دار المعارف بمصر . سنة ١٩٥١م .

(١٠) امتطى : اي ركب . الخمس اللطاف : يعنى البنان .

ويقول الثعالبي[11] : ومن احسن ما قيل في القلم قول ابي الفتح البستي:

اذا افتخر الأبطـــال يوماً بسيفهم وعدوه مما يكسب المجد والـكرم
كفى قلم الكتاب فخراً ورفعـــة مدى الدهر ان الله اقســم بالقلم

ومثله قول الآخر :

واخرس ينطـــق بالمحكمـــات وجثمـــانه صـــامت اجوف
بمكـــة ينطق في خفيـــــــة وبالعـــين منطقـــه يعـــرف

(11) احسن ما سمعت ص ٤٠ .

شعر الخمر والمجون :

تناول شعراء هذا الاقليم الخمر ، كما تناولها السابقون من حيث المعاني. وشعر الخمرة قليل في شعرهم الذي وجدناه ، هـذا على الرغم من وجود البساتين والكروم الكثيرة في اقليم خوارزم . ومن ذلك ما قاله أبو القاسم أحمد بن أبي ضرغام[1] :

يا ملكا آثرَ الصَوابـا ... فباكِرَ اللَّهْوَ والشَّرابا
لا يشرَبُ الراحَ غيرُ حُـرٍ ... يَرْفَعُ عن مالِهِ الحِسابا
طابَتْ لك الراحُ فاشرَبَنْها ... صِرْفاً فَصَرْفُ الزمانِ طَابا
ستُبصرُ الأرضَ عن قريبٍ ... تلبسُ من وشيِهَا ثيابا
ما شئتَ من طائرٍ تَراهُ ... مُغَرِّداً ما خَلا الغُرابا
ولَسْتَ ليلاً ترى بَعوضاً ... ولا نهاراً ترى ذُبابا

فأبو القاسم في هذه الأبيات ، يخلط بين لهوه وشربه ، في روح متحررة واضحة ، ودعوة صريحة للشرب ، ووصف لحالة الشارب ، حينما تفعل الخمر مفعولها به ، فيرى كل شيء غير ما هو عليه .

وتدل أبياته هذه على أنه كان على شيء من الجودة،ففيها يتلاءم الأسلوب مع الموضوع ، وتنسجم التجربة مع التعبير ، بشكل حسن .

وعلى الرغم مما عرف عن أبي الفتح المطرزي،من مكارم الأخلاق والعلم، ونفيه عن نفسه فعل ما قد يسمى بالطيش ، فقد ذكر أبو الوفاء القرشي[2] ، نقلا عن ياقوت الحموي ، أبياتاً له في الخمر قال فيها[3] :

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٥ (طبعة السعادة) .

(٢) هو محي الدين ابو محمد عبدالقادر ، بن أبي الوفاء محمد بن محمد بن نصر الله ، بن سالم بن ابي الوفاء القرشي ، الحنفي المصري . ولد سنة ٦٩٦هـ . وتوفي سنة ٧٧٥هـ .

(٣) ينظر : الجواهر المضية ٢ : ١٩٠ .

يا خليليَّ أَسْقِيـاني بالزُجاج   حلبَ الكرمةِ من غيرِ مـزاج
أنا لا ألتذ سـمعاً باللجـاج   فاسـقِنيها قبلَ تغريد الدجاج[٤]
قبـل أن يوذن صبحي بانبـلاج

إن أردتَ الراحَ فاشْرَبْها صباحا   قبل أن تصحبَ أَترابا ملاحا[٥]
جمعوا حُسْناً وأُنساً ومزاحـا   وغدوا كالبحرِ علمـاً وسَماحا
فهم مفتـاحُ بابِ الابتِهـاج

ومن البين أن الشاعر في هذه الأبيات ، سـار على نهج القدامى ، في مخاطبته المثنى وذلك في قوله : « يا خليليّ أسـقياني » . كما نراه يحث المخاطب على شرب الخمرة صافية ، غير مخلوطة أو ممزوجة بالماء ، لأنه لا يجد لذة في شربها إذا مزجت . كما يحث على شربها في وقت الصبـاح ، قبل أن يصحب رفاقه الذين يتصفون بالحسن ، والأنس والظرف ، والعلم والسماحة .

ومعلوم أن هذه المعاني في الخمرة متداولة ، بين شعراء الخمرالسابقين، وليس له الا هذا التخميس اللطيف ، في نظمها أو تكرارها .

وسنرى في دراستنا لأبي بكر الخوارزمي ، نماذج من هذا الشعر ، يصف فيها ألوان الخمر ، ويصف سقاتها .

وهذا السهيلي نراه وقد حركته شهوته للشراب ، حتى جعلته يطلبـه خالصا ، ويكره أن يأخذ أي شيء بعدها ، خوفاً من أن يذهب طعمها من فمه ، حيث يقول[٦] :

---

(٤) اللجاج : لج لجا ولجاجة : ضحك . والج القوم : صاحـوا واختلطت اصواتهم . واللجاج : تماحك الخصمين والتمادي في العناد .
تغريد الدجاج ، جاءت في الاصل « تغريد الدجاج » واثبتنا ما راينـاه الصواب . ولعل الشاعر يقصد بتغريد الدجاج ، صوت الديك . وصوته علامة الصبح .

(٥) الترب : اللدة والسن : من ولد معك « خاص بالانثى » علـى الاكثر ، ويكون للذكر . وجمعه اتراب . ويقال الاتراب للاقران ، ولعل هذا مـا اراده الشاعر .
والملاح : جمع مليح ، يستوى فيه الذكر والانثى .

(٦) ينظر : معجم الادباء ٥ : ٣٢–٣٣ ، الوافي بالوفيات ٨ : ١٤٧ .

ألا سَقّنا الصهباءَ صِرْفاً فإنّها   أعزُّ علينا من عِتاق التَرحّلِ(٧)
وإنّي لأقلى النّقْلَ حُبّاً لطعمها   لئلا يزولَ الطَعْمُ عندَ التَنقّلِ(٨)

ويعلق كل من ياقوت الحموي والصفدي ، على هذين البيتين بقولهما : إنّ السهيلي لم يسبق الى هذا المعنى •

ونستشف من هذين البيتين ، أن السهيلي ربما كان فارس حلبةفي الخمر، فهو يطلبها خالصة ، ليلتذ بعدئذ بطعمها ، الذي يكره زواله من فمه •

وشعر الخمرة هذا ـ وان كان قليلا ـ الا انه يكشف لنا عن الجوانب اللاهية من حياة الشعراء ، وما ينالونه من لهو في مجالس الشراب ، وربما يصور لنا صورة عكسية لهؤلاء الشاربين ، حيث يلجأون اليه هربا من مشكلات الحياة •

أما شعر المجون فيتمثل في شعر الهجاء الفاحش ، الذي جاء بعضه على لسان أبي بكر الخوارزمي وغيره من شعراء هذا الاقليم • وانّا ليمنعنا الذوق والحياء من الاستشهاد به • كما تمثل في تصريحهم بالأفعال الجنسية ، وعدم التحرج من ذكرها ، وكأنها في نظرهم من الأمور التي ليس في ذكرها أي عيب أو شين(٩) •

(٧) الصهباء : الخمر . والصرف : الخالصة . والعتاق جمع عتيق . والعتيق: الكريم الرائع من كل شيء ، والخيار من كل شيء .
والترحل والارتحال : الانتقال . والرحول والرحولة من الابل : التي تصلح ان ترحل .
(٨) اقلي : اي ابغض واكره .
والنقل : ما يتنقل به على الشراب ، من لوازم الشراب ، من تفاح وفستق وما اليهما .
(٩) ورد مثل هذا في شعر ابي بكر الخوارزمي ، في استدراج الغلمان ، ودعوتهم الى العمل الجنسي ، مع صراحة في الالفاظ . وقد اورد ياقوت الحموي في كتابه : معجم الادباء ٢ : ٣٤٢ شيئا من شعره هذا .

شعر الشكوى :

عبّر الشعراء بهذا الغرض الشعري ، عن مشكلاتهم الخاصة ، مما يتصل بحالة ضيق ، أو تقدم عمر ، أو آمال لم تحقق . وهذا الضرب كثير في شعر الزمخشري . كما سنرى عند دراسته.هذا بالاضافة الى مشكلة الفقر الناتجة، عن عدم تقويم الشاعر ، نتيجة اهمال المسؤولين له . وهذه المشكلة أيضاً يعكسها لنا شعر الزمخشري بأجلى صورها .

وهناك بجانب هذا ، مشكلات الأسرة ، وهي من أهم المشكلات الاجتماعية ، حيث يعاني الآباء فيها ، مصاعب العيش ومتطلباته ، وخير من يمثل لنا هذا الجانب ، الشاعر أبو بكر الخوارزمي ، وذلك في قوله من قصيدة يمدح بها عضدالدولة[1] :

وَزِدْتُ مِنِ العيالِ وذاكَ أنّي   كتبتُ على لقائِكَ مَنْ أَعولُ
وَعِشْتُ وَناقصٌ رِزقيفأضحى   مُفاعلتن مُفاعلتن فَعولُ

فالشاعر يريد أن يقول : إنّه أصبح لا يخاف مجيء وليد له ، لأن الممدوح كفاه اعالته . وان حالة الشاعر كانت رديئة ، ورزقه كان قليلاً ، ولكنه أصبح وافراً بعد تعرفه على الممدوح .

وقد عبّر أبو بكر الخوارزمي عن زيادة رزقه ، في البيت الثاني وذلك باستعماله البحر الوافر من العروض ، وذلك في قوله : « مفاعلتن مفاعلتن فعول » .

أما الشكوى العامة في شعرهم ، فتتمثل في شكوى الزمن والدهر ، وتغير الأحوال وما الى ذلك . وهذا الصخري يقول[2] :

أَسَمِعْتَ يا مَوْلاي دَهْـ   ـري بَعْدَ بُعْدِكَ ما صَنَعْ؟

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٣ (طبعة السعادة) .
(٢) معجم الادباء ٥: ٣١ .

أَخْنى عليَّ بصَرْفِهِ فرأيْتُ هَوْلَ المُطَّلَعْ[٣]

فالصخري يشكو ويتذمر من الدهر وما فعله به ، في أسلوب خطابي جميل مؤثر .

ويقول مأمون بن مأمون ، من قصيدة في مدح الأمير أبي العباس مأمون بن محمد[٤] :

أعاضَني الدَّهْرُ من انصافِهِ جَنَفا
هَلْ كانَ غَيْري من الأيامِ مُنْتَصِفا[٥]

أشكو الى غير مَشْكُوٍّ ليُشْكِيَني
هَلْ يَنْفَعُ الدَّنِفَ استشفاؤه الدَّنِفا[٦]

ويشكو الشاعر في هذين البيتين من الدهر وجوره وعدم انصافه . وأثر الصنعة واضح فيهما .

ومن الشكوى والتذمر المزوجين بالفخر ، قول ناصر الدين المطرزي[٧]:

تَعامى زَماني عَنْ حقوقي وأنَّهُ
قَبيحٌ على الزَرْقاءِ تبدي تَعاميا[٨]

فإن تنكروا فَضلي فإن رُغاءَهُ
كَفَى لذوي الأسماعِ منكم مناديا[٩]

---

(٣) اخنى عليه الدهر : طال واهلكه . وقيل افسد عليه عيشه .
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٣ (طبعة السعادة) .
(٥) اعاضني من العوض . وجاءت في الاصل « اغاظني » واثبتنا ما رايناه صوابا . والجنف : الميل والجور .
(٦) الدنف : المرض اللازم المخامر . وقيل هو المرض . ورجل دنف ودنف ومدنف : براه المرض ، حتى اشفى على الموت .
(٧) ينظر : معجم الادباء ١٩ : ٢١٣ ، بغية الوعاة ٢ : ٣١١ ، انباه الرواة ٣ : ٣٤٠ ، وفيات الاعيان ٥ : ٧ .
(٨) الزرقاء : يقصد زرقاء اليمامة المشهورة بحدة البصر .
(٩) رغاءه : الرغاء : صوت الابل . والشاعر يريد ان فضله مسموع به ، لانه ظاهر للعيان .

وفي تبدل الدهر وتغير أيامه ، يقول أبو بكر الخوارزمي[10] :

خَليليَّ عَهْـدي بالليـالي صَوافِيـا
فَمـا بالها أَبْدَلْن جيمـاً بصادِهـا
خَليليَّ هَلْ أَبصـرتـما مثلَ أدمُعي
نَقَـدْنَ وَحَقِّ اللهِ قبل نفادِهـا

ففي هذين البيتين نرى الشاعر يتعجب من تبدل الأيام ، من الصفاء الى الجفاء • وقد جاء بذلك في صورة ، ربما قصد فيها التلاعب بألفاظه في البيت الأول ، وذلك في قوله : « أبدلن جيما بصادها » ، أي أن « صوافيا » تصبح جوافيا •

وقد تعكس لنا هذه النماذج القليلة في شكوى الدهر ، الأوضاع السياسية والاقتصادية في تلك البلاد ، لأن كلام الشعراء عن الدهر ، يعني يعني الفترة الزمنية التي كانوا يعيشون فيها •

ومن مظاهر الشكوى ما قيل في الشيب والشباب ، وتقدم العمر ،حيث يتذكر الشاعر أيام شبابه الزاهي وما يصيب الانسان من كدر بعد ذهاب الشباب بظهور الشيب • وهذا أبو بكر الخوارزمي يقول[11] :

خَضَبَتْني الأيـام لونَ بَيـاضٍ
وخِضـابُ الأيام ليس بنـاضِ
وتَخَطَّتْني المنـون الى شَـعْـ
ـري فأضحى مكفنـاً ببيـاضِ

أو قوله :

تمنيت خـلاّت على الدهـر أَرْبعـاً
ولم أرَ مسئولاً أشَـحَّ من الدهرِ
جماعاً بلا ضَعْفٍ ، وشُـرْباً بلا سُكرٍ ،
وعمـراً بلا شـيب ، وبـذلاً بلا فَقْر

---

(١٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢١٠ (طبعة السعادة) .
(١١) المصدر السابق ٤ : ٢٣٥ (طبعة السعادة) .

ويقول أبو بكر الخوارزمي أيضاً[13] :

وإنّي لأرجو الشّيبَ ثم أخافُهُ
كما يُرتجى شُربُ الدواءِ ويُحذَرُ

هو الضَّيفُ إنْ يَسْبِقْ فعيشٌ مكدَّرٌ
عليَّ ، وإنْ يُسْبَقْ فموتٌ مُقدَّرُ

ومنهم من اتخذ الشيب ، وسيلة للوم نفسه بطريقةِ الوعظ والحكمة والزهد ، كما فعل الفيلسوف ابن سينا في قوله[13] :

أما أصبحتَ عن ليلِ التصابي وقد أصبحتَ عن ليلِ الشَّبابِ
تنفَّس في عذارِكَ صبحُ شيبٍ وعَسْعَسَ ليلُهُ فلمَ التصابي
شَبابُكَ كانَ شَيْطاناً مَريداً فَرُجِّمَ من مشيبك بالشهابِ[14]

(١٢) المصدر السابق ٤ : ٢٤١ .
(١٣) عيون الانباء . ص ٤٣٧ .
(١٤) رجم : اي رمي .

الحنين الى الوطن :

هذا التيار كان من أوضح التيارات التي عرفها هذا الاقليم ، وشعرهم في هذا الباب تتضح العاطفة فيه حتى لتوشك أن تكون من أبرز عناصره .

إنّ نزعة الحنين الى الوطن ، نزعة انسانية عامة ، نراها عند الشعراء في كل الأمم ، وفي كل العصور ، والذي يميز أمة عن أمة ، في هذا التعبير ، هو طريقة تناول الشاعر وأسلوبه ، فهذا الامام الزمخشري يقول في حنينه الى مسقط رأسه زمخشر ، حينما كان بعيداً عنها في مكة ، من أرض الحجاز ، ذلك الحنين الذي كان يخالطه حبه ، لمجاورة بيت الله الحرام[1] :

أَفضتُ إليكَ شكاةَ الواجِد الكمدِ
فأشك يا رب صنع الواحد الصمد

أشكو اليك حزازاتٍ أحطتُ بها
فاعطفْ بسلوانِك الشافي على كبدي

حبّ الدنوِ من البيتِ الحرامِ رَمى
بالجمرِ فيها وحبّ البعدِ عن بَلدي

هَمّان ان تَكْفِني يا رَبّ خَطْبَهُما
شَكَرْتُ ما دامَ تَجْري الروحُ في جَسَدي

فالزمخشري هنا لم يتناول هذا الموضوع تقليداً،كما اعتاد بعض الشعراء، ولكنه وصف حاله في غربته ، والحّ على الجانب العاطفي ، الذي عبّر فيه عن شدة اشتياقه وحنينه وعاطفته ممزوجة بألم ، نراه يطل علينا من وراء السطور. وهو بهذا يبرز لنا الجانب العاطفي ، حتى ليكاد يخفي كل ما سواه من جوانب اخرى .

---

(١) ينظر : مخطوط ديوان الزمخشري . ورقة ٢٦ .

وفي مثل هذا قال الشاعر الكاثي[٢] ، من قصيدة بعث بها الى الفقيه الشاهي الخوارزمي[٣] :

على مَجلسِ الشيخِ الجَليلِ سلامي
فَقَدْ طالَ شَوْقي نَحْوَهُ وغَرامي

أَحِنُّ إليه كلَّ يومٍ وليلةٍ
وأَشكو فراقاً قَدْ أَذابَ عِظامي

إذا نَشأَتْ من نحوِ خوارزم مزنةٌ
تَداويتُ من وَجْدي بماءِ غَمامِ[٤]

لقد عبر الشاعر عن حنينه لبلاده ، لأنه كان بعيداً عنها ، فقد كان يقيم في بخارى ، وقد عبر عن حنينه واشتياقه بذكر الجزء ليدل به على الكل • فهو كما نظن لم يكن يقصد أن يقصر حنينه واشتياقه ، على مجلس الفقيه ، وانما قصر حنينه الى بلاده ، ويظهر ذلك في البيت الثالث من القصيدة ، وقد تمثلت العاطفة عند الكاثي ، في الغمام والمطر ، فطريقته عربية جاهلية ، ولعل مرجع ذلك كثرة مدارسته للشعر العربي والجاهلي منه خاصة •

وقال الموفق بن أحمد الملكي[٥] :

أَأَبكاكَ لمّا أَنْ بَكى في رُبى نجدِ
سَحابٌ ضحوكُ البرقِ منتحِبُ الرعدِ

---

(٢) هو أبو الفضل شاه بن ابراهيم بن نصر الكاثي . نسبة الى مدينة «كاث» من مدن اقليم خوارزم .

(٣) ينظر : دمية القصر وعصره أهل العصر ٢ : ١١٤ . تحقيق الحلو .

(٤) مزنة : المزن : السحاب عامة ، وقيل السحاب ذو الماء ، واحدته مزنة .
وقيل المزنة : السحابة البيضاء والجمع مزن .
غمام : جمع غمامة ، وهي السحابة ، وايما سمي غماما ، لانه يغم السماء ، أي يسترها . وسمي الغم غما لاشتماله على القلب .

(٥) معجم البلدان ٢ : ٣٩٧ (طبعة بيروت) .

لـــــه قطــرات" كاللآليء في الثـــــــرى
ولي عبــرات" كالعقيــقِ على خَـــــدّي
تَلَفتُّ منهــا نحو خوارزمَ والهــــاً
حزينــاً ، ولكن أينَ خوارزم من نَجْــدِ ؟

وتظهر رنة الحزن واضحة متمثلة في هذه الأبيات التي أجاد الشاعر فيها التعبير ، عن عاطفته وحنينه لخوارزم ، ذلك الحنين الذي أثارته الطبيعـــة الصامتة ، حينما هطلت بنجد ، فأنزلت مزنها قطرات مثل اللآلي ، فأضحكت بذلك الثرى ، ولكنها أبكت الشاعر ، فأنزلت دموعه مثل العقيق على خده •

ومما قاله الموفق في خوارزم ، وبعث به الى ابنه المؤيد ، الذي كان في منقشلاغ ، من حصون خوارزم[٦] :

أيا بَرْقَ نجـدٍ هِجْتَ شَوقي الى نجدِ
وَأَضْــرَمْتَ في الأَحشـــاء ثائـرة الوَجْـــدِ
خوارزم نَجْدي وهي غـير بعيـــدة
وقد حُلِّئَتْ عيسي برَغمي عن الوَخْدِ[٧]
إذا غازلتْ ريــحُ الشــمالِ رياضَهــا
عقيبَ نَداهــا خِلْتَهــا جَنَّــةَ الخلدِ

ومن هذه الأبيات نرى آثار الطبيعة واضحة في شـــعرهم •

ويقول أبو محمد البافي في بغداد ، وكان قد عاش بها مدة[٨] :

على بغداد مَعْدِنِ كلّ طيبٍ وَمَغْنى نزهـــة المتنزهينـــا

---

(٦) معجم البلدان ٤ : ٩٧٠ (لايبزك) .
(٧) النجد : البأس والنصرة . ونجد من الارض : خرج عنها . وانجد فلان: قرب من أهله .
حلئت : حلأه حلأ بالسوط : جلده . وحلأه تحليئا عن الشيء : منعـــه والشاعر يريد هذا المعنى •
الوخد والوخيد : ضرب من سير الابل .
(٨) المصدر السابق ١ : ٣٢٦ •

سلامٌ كلما جَرَحَتْ بلَحْظٍ عيونُ المشـتهين المشـتهينا
دخلنـا كارِهينَ لهـا فلمّـا أَلِفْناها خَرَجنا مُكْرَهينـا
وما حُبُّ الديارِ بها ، ولـكن أمَرُّ العيش فُرْقَةُ مَنْ هوينـا

وفي البيت الأخير من هـذه الابيـات ، يذكرنا الشاعر بشعر الشاعر العذري ، قيس ابن الملوح في قوله :

أَمـرُّ على الديارِ ديارِ ليلى أُقَبِّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حُبُّ الديارِ شغفن قلبي ولكن حبّ مَنْ سكنَ الديـارا

ويتمثل لنا هذا الغرض الشعري (الحنين الى الوطن) ، واضحاً كل الوضوح في شعر الإمام الزمخشري ، حنينه الى بلاده ، لأنه بعيد عنها ، مقيم في الحجاز ، وحنينه الى مكة وطنه الثاني ، حينما يفارقها . وسنرى كل ذلك اثناء دراستنا له .

كما تتمثل هذه النزعة الانسانية ، بأجلى معانيها ، في شعر الوافدين الى هذا الاقليم ، وخاصة شعر الكلثومي ، الذي مثلته لنـا قصيـدته التي يقول فيها[٩] :

تقولُ سـعادٌ : « ما تغرّد طائرٌ على فَنَنٍ الا وأنتَ كَئيبُ !؟»[١٠]
« أجارتَنا إنّا غَريبان هَهُنـا وكلُّ غَريبٍ للغريبِ نَسيبُ »[١١]
أجارتنا إنّ الغريبَ وإنْ غَدتْ عليه غوادي الصالحات غريبُ[١٢]

(٩) تنظر القصيدة في : معجم الادبـاء ١٧ : ٢٢٥–٢٢٦ ، بغية الوعـاة ١ : ١٦٣–١٦٤ ، الوافي بالوفيات ٤ : ٣٦ .

(١٠) ما تغرد طائر ... : اي ما رفع صوته في غنائه .
الفنن : الغصن . والجمع افنان .

(١١) وكل غريب للغريب نسيب : اي اهل . وهذا البيت ينسب الى امرىء القيس بن حجر ، قاله حال قدومه من سفره الى ملك الروم ، وقد رأى قبرا ، فسأل عنه ، فأخبر عن صاحبته ، فلما قاربته الوفاة ، عند جبل عسيب قال البيت ، وقبله :
اجارتنـا ان المـزار قريـب واني مقيم ما اقام عسيب

(١٢) غدت : انطلقت ، او بكرت . والبكرة : اول النهار .

←

يُحنُّ إلى أوطانِـــهِ وفؤادُه ۞ لهبينَ أحنـاءِ الضلوعِ وَجيبُ(١٣)
سَقَى اللهُ ربعاً بالعراق فإنّـــه ۞ اليَّ ـ وإنْ فارقْتُه ـ لحبيبُ(١٤)
أحنُّ إليــه من خراسانَ نازِعــاً ۞ وَهيْهاتَ لو أنالمزارَ قَريبُ(١٥)
وإنَّ حَنيناً من خوارزمَ يَنْتهي ۞ إلىمنتهى أرضِ العراقِ عَجيبُ(١٦)

وهذا الشعر وان نظر فيه صاحبه ، الى شعر امريء القيس ، واستعار بحره ، وغير قليل من ألفاظه ، فإننا نحس أنه تفح فيه روحاً حزينة ، لا تلبث أن تنفح على قارئه ، فتؤثر فيه • انه نابع عن وجدان عذبه البعد ، ولوّعه الفراق، وغاب عليه الأسى والحسرة ، التي تفتت الاكباد ، وتحرق القلوب • وهذه الأبيات تعطينا صورة واضحة ، عن النغمة الحزينة ، التي تعيش في نفس هذا الشاعر ، الوافد الى هذا الاقليم ، وعن حنينه الممض الى وطنه ، الذي بَعُد عنه ، كما تعطينا صورة واضحة للعاطفة الصادقة ، الحافلة بكل معـــاني الحنين ، والتجربة القاسية التي يعانيها من فارق وطنه وأهله وأحبابه •

ومن هذا يظهر لنا أن العاطفة الصادقة ، هي الغالبة على شعر الكثير ،من شعراء هذا الاقليم ، ولا سيّما حينما كانوا يفارقون أوطانهم • وفي هـــذه الحالة تعبر العاطفة عن معاناة الشاعر ، ألم الفراق والاغتراب •

غوادي : جمع غادية . وهي مونث الغادي : السحابة تنشأ غدوة . او مطرة الغداة .

(١٣) احناء جمع حنو : كل ما فيه اعوجاج من البدن كعظم الضلوع . وجيب القلوب : اضطرابها وخفقانها .

(١٤) يقصد عراق العجم .

(١٥) نازعا : مشتاقا .

(١٦) في الوافي بالوفيات ٤ : ٣٦ ، وبغية الوعاة ١ : ١٦٤ « ضلة » بدل ينتهي.

الرثـــاء :

ومن الاتجاهات الشعرية أيضاً ، ما قاله الشعراء في الرثاء ، ومعانيهم فيه لا تكاد تخرج عن معاني الرثاء المعروفة ، من تعداد مآثر الفقيد وما أحدثته وفاته من الأسى والحزن ، كقول جارالله الزمخشري في رثاء والده[1] :

فَقَدتُه فاضلاً فاضَتْ مآثِرُهُ ... العِلمُ والأدبُ المأثورُ والورعُ
أخا طباع مصفّاة مناسـبة ... ماء السحابة ما في بعضهـا طبعُ
لَوْ حَـلَّ بي من فادحٍ جللٍ ... بركنِ طودٍ لكادَ الطَودُ يتضعُ
باتَتْ على كبـدي نارٌ مضرمةٌ ... على فؤادي والأحشـاء تطلعُ
ولا مجال لداعي الصبر في جلدي ... وقد تبسطٌ في أرجائـه الجزعُ
أَبيتُ مرتفقـاً والصبرُ يشملُني ... كأنني فوقَ حدِّ السيفِ مضطجعُ
أأرتجي بعدَه بالعيشِ منتفَعـاً ... متى أُتيحَ فراقٌ ليسَ ينقطعُ[2]

ففي رثاء أبي القاسم هذا ، نرى أن معانيه لم تخرج عن معاني الرثاء ، من تعداد مآثر الفقيد ، واظهار التوجع والحسرة والحزن . هذا بالاضافة الى اهتمامه بوصف حزنه أكثر من اهتمامه بتعداد المآثر كما نرى .

كما نجد بعضهم قد خرج بالرثاء ، عن معانيه السامية ، ليتخذه مجـالاً للتفكه أو للهجاء ، وهذا النوع بعيد كل البعد عن الرثاء ، لأنه خـال من العاطفة ، ومن هذا قول أبي بكر الخوارزمي ، في رثاء أبي سهل البسـتي الكاتب[3] :

مـــاتَ أبو سـهلٍ ، فوا حَسْـرتَا
إنْ لمْ يكنْ قــد مـاتَ مـذ جُمْعَهْ

(١) مخطوط ديوان الزمخشري . ورقة ٧٢ .
(٢) في الاصل (حتى اتيح) واثبتنا ما رأيناه مناسبا للمعنى .
(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٠ (السعادة) .

مـــا حَـــــزَني إلاّ لأنْ لـــم يَمُتْ
بموتـــهِ مــن أهلِـــــهِ تِسْـــعَهْ

مُصيبـــــــةٌ لا غَفَـــــرَ اللهُ لـــي
إنْ أنا اذْرَيْتُ لَـــــه دَمْعَـــــهْ[4]

ففي هذه الأبيات ، نرى صورة مناقضة تماماً ، لما عرف في صور الرثاء ، لأن أبا بكر اتخذ الموت سبيلاً للفكاهة والعبث والهجاء ، في مثل هذا الموقف الجاد ، الذي ترق فيه حتى قلوب الاعداء .

---

(٤) آذريت : القيت . قيل : آذريت الشيء عن الشيء اذا القيته .

الشعر الفلسفي والحكمة :

ومن الاتجاهات الشعرية التي طرقوها ، وقد قلّ تناولها من قبل ، هذا الشعر الفلسفي[1] ، الذي قيل على لسان الفيلسوف ابن سينا ، والامام فخرالدين الرازي ، وهما من الوافدين الى هذا الاقليم ، وأوضح مثال على هذا الاتجاه ، تلك القطعة الشعرية التي عالج الفيلسوف ابن سينا بها النفس ، وشبهها بالحمامة ، التي هبطت من المحل الأرفع ، الذي هو عالم العقول ،الى الحضيض الأوضع الذي هو هيكل الطين ، على حد تعبير شراحه ، والتي يقول فيها[2] :

هَبطتْ إليكَ من المحلِ الأرفعِ ... ورَقاءُ ذات تعززٍ وتمنعِ

محجوبة عن كلِّ مقلة عارفٍ ... وهي التي سَفَرَتْ ولم تتبرقعِ

وصلتْ على كرهٍ إليكَ وربّما ... كَرهتْ فراقَكَ وهي ذاتُ تفجّعِ

أنِفَتْ وما ألفَتْ فلمّا واصَلَتْ ... ألفتْ مجاورةَ الخرابِ البلقع[3]

وأظنّها نسيتْ عهوداً بالحِمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنعِ

فهذا الموضوع جديد ، لم يطرقه قبل ابن سينا فيما نعلم أحد ، وقد عالج الفيلسوف ابن سينا ، هذه الناحية بطريقة توحي لنا بسمة مميزة من سمات الشعر العربي في هذا الاقليم • وقد حاول الفيلسوف ابن سينا ، في قصيدته هذه ، أن يؤديها بطريقة أحسن وأجود ، مما جاء به أو ألفه السابقون ، ولا

---

(١) هو نوع جديد من الشعر ، يشرح بعض الحقائق الفلسفية ، وحركة الاجرام السماوية .

(٢) القصيدة طويلة وقد اقتصرنا منها على بعض أبيات للتدليل . ينظر : الكشكول . ص ٢٤٠ ، الكنى والالقاب ١ : ٣٢١-٣٢٢ . (الحيدرية . النجف) . ، تاريخ الادب في ايران . ص ١٢٧-١٢٨ .

(٣) البلقع : الارض القفر ، وجمعها بلاقع . ويقال : ارض بلاقع على وصف المفرد ، وديار بلقع على وصف الجمع بالمفرد .

عجب في هذا ، فإن لشعراء المشرق عامة ، وسائل مختلفة الى هـذا التجويد ، بعضها يتعلق بالمضمون العام للقصيدة ، وبعضها يتعلق بالشكل فقط ، وهـذه السمة الفنية التي نراها في شعرهم ، كانت دائماً من أوضح خصائص الشعر العربي ، في كل أقاليم المشرق عامة ، وفي كل العصور تقريباً .

وفي مثل هذا قال فخرالدين الرازي(٤) :

نِهايةُ إقدامِ العقولِ عِقـالُ ... وأكثرُ سَعْي العالمينَ ضَلالُ
وأرواحُنافيوَحْشَةٍ من جسومِنا ... وحاصِلُ دنيانا أذىً وَوَبالُ
ولَمْ نَسْتَفِدْمن بحثِناطولَ عمرِنا ... سوى أن جَمعْنا فيه قيلَ وقالوا
وكَمْ قَدْ رَأَيْنامن رجالٍ ودَوْلَةٍ ... فَبادوا جَميعاً مُسْرِعينَ وَزالوا
وكَمْ مِنْ جبالٍ قَدْ علتشرفاتِها ... رجالٌ فَزالوا والجبالُ جبالُ

ويتصل بهذا الإتجاه الشعر الذي قيل في الحكمة والنصائح ، وهي ذات علاقة بحياتهم الاجتماعية ، ولذلك نرى الشاعر فيها يقف وقفة الناصح ،وكأنه بعمله هذا يحاول أن يرسم للناس الطريق الصحيح ، الذي يجب عليهم اتباعه ، وفي هذا يقول الشاعر أبو بكر الخوارزمي(٥) :

لا تَصْحَبِ الكسْلانَ في حـالاتِهِ
كم صـالحٍ بفَسادِ آخَرَ يَفْسُـدُ
عَـدْوى البليـدِ الى الجليـدِ سَـريعةٌ
والجَمْرُ يوضَـعُ في الرَّمادِ فَيَخْمُدُ

ومن الشعراء من تناول سلوك الإنسان ، وطريقته في الحياة ، وما يجب أن يقوم به من الأعمال أو يتجنبه ، كقول أبي الريحان البيروني(٦) :

---

(٤) ينظر : البداية والنهاية ١٣ : ٥٩ . وفيها بعض هذه الابيات ، طبقات الشافعية الكبرى ٥ : ٤٠ (الحسينية) . طبقات الشافعية ـ المصنف ـ ص٨٢ ـ ٨٣ ، مقدمة الجزء الاول من كتاب : التفسير الكبير . تحقيق : عبدالرحمن محمد . المطبعة : البهية بمصر . ط١ ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م .
(٥) التمثيل والمحاضرة . ص ١٢٥ ، يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٠ .
(٦) معجم الادباء ١٧ : ١٨٩ ، رجال السند والهند في القرن السابع . ص٢١٢ .

وَمَنْ حامَ حولَ المجدِ غيرَ مجاهدٍ
ثوى طاعماً للمكرُماتِ وكاسيا
وباتَ قريرَ العينِ في ظلِّ راحةٍ
ولكنّهُ عن حلَّةِ المجدِ عاريا

وهذا من جيد الشعر ، ومن العجب أن يصدر عن مثل البيروني ، لأنه لم يعرف على أنه شاعر .

ومن الحكم والأمثال ، ما جاء على لسان الهراسي في قوله[7] :

لا تصنعِ العُرْفَ إلى مائِقٍ فكلّ ما تصنَعُه ضائعُ[8]
ما ضاعَ معروفٌ لَدى أهلهِ ذلكَ مِسْكٌ أبداً ضائعُ

ومما قاله في هذا أيضاً[9] :

إنّ الزمانَ زمانةُ الـ رجلِ الأديبِ العاقلِ
كَمْ فائقٍ تحتَ الحضيـ ضِ ومائقٍ كالعاقلِ

وفي أبياته هذه ، تراه من العلماء ، الذين ينظمون الشعر فيه ، ولا ترى فيه روح الشعر .

ومما قاله الباقي في هذا المجال[10] :

عجبتُ من مُعجبٍ بصورتهِ وكانَ بالأمسِ نطفةً مذَرة[11]

---

(٧) بغية الوعاة ١ : ١٧٢ .
(٨) مائق : الماقة : الحقد . والمائق : الهالك حمقا وغباوة . والجمع موقى .
(٩) الوافي بالوفيات ٤ : ١٢١ .
(١٠) طبقات الشافعية الكبرى ٢ : ٢٣٤ (الحسينية) . وترجم له الثعالبي في يتيمة الدهر ٣ : ١٢٢–١٢٣ باسم « ابو محمد عبدالله بن محمد النامي الخوارزمي » (طبعة حجازي بالقاهرة) .
(١١) في اليتيمة « صورته » بدلا من « بصورته » . ومذرة : اي فاسدة كريهة الرائحة .

وفي غَدٍ بَعْدَ حسنِ هَيْئَتِهِ يَصيرُ في القبرِ جيفةٌ قَذِرَةْ[١٢]
وهو على عجبِهِ ونخوتِهِ مابَيْنَ يَوْمَيْهِ يحملُ العذِرَةْ[١٣]

وفي أبيات الباقي هذه ، نلمح بعض السمات الخاصة بشخصيته ، التي غلب عليها الفقه ، فأثر في شعره ، فجاء كما رأيناه على شكل الشعر التعليمي، الذي يغلب عادة على الشعراء الفقهاء والنحويين والفلاسفة ، فهو يتعمق الأفكار ، ويبالغ أحياناً فيها ، ولا يهمه بعد ذلك أيقبلها الذوق الأدبي أم لا يقبلها • ولعله في أبياته هذه أخذ المعنى ، من مالك بن دينار ، في قصته المشهورة ، مع والي البصرة حينما مرّ بمالك رافلاً متباهياً ، فصاح به مالك ، يطلب منه عدم التبختر في مشيته ، وحينئذ همّ به خدم الوالي ، فمنعهم الوالي من ذلك قائلاً : دعوه فلعله لا يعرفني • فقال له مالك : ومن أعرف بك مني ، أما اولك فنطفة مذرة ، وأما آخرك فجيفة قذرة ، ثم أنت مع ذلك تحمل العذرة ، فنكس الوالي رأسه ومشى •

والظاهر أن الفقيه الشاعر ، كان ممن تستهويه مثل هذه الأمور ، أي نظم الكلام المأثور ، أو الحكمة الخالدة • ومن ذلك نظمه لحديث جرى بين رجل وآخر من المنجمين ، وان المنجم سأل الرجل حينما لقيه ، كيف أصبحت ؟فقال له الرجل : أصبحت أرجو من الله وأخافه ، وأصبحت ترجو المشتري وتخاف زحل • وحينما سمع الباقي هذا القول ، نظمه شعراً فقال[١٤] :

أصبحتُ لا أرجو ولا أَخْشى سوى (م)
الجبّارِ في الدّنيا ويوم المحشرِ
وأراكَ تَخشَى ما تقدّر أنّهُ
يأتي به زُحَل وتَرجو المشتري
شتّانَ ما بيني وبينك فالتزمْ
طرقَ النجاةِ وخَلِّ طرقَ المنكرِ

---

(١٢) في اليتيمة : « الارض » بدلا من « القبر » .
(١٣) في اليتيمة « ثوبيه » بدلا من يوميه .
العذِرة : عذر واعذر : كثرت ذنوبه وعيوبه .
(١٤) طبقات الشافعية الكبرى ٢ : ٢٣٥ (طبعة الحسينية) .

ومن شعر الباقي الذي نظمه على البديهة ، قوله حينما زار صديقاً له ، فلم يجده في داره فكتب إليه[١٥] :

كَمْ حَضَرْنا فليسَ يُقْضى التلاقي
نَسأَلُ اللهَ خَيرَ هذا الفِراقِ[١٦]
إنْ أَغِبْ لم تَغبْ وإنْ لم تَغب غِبْـ
ـتَ كأنَّ افتراقَنا باتفاقِ[١٧]

وله أيضاً[١٨] :

ثَلاثةٌ ما اجتمعنَ في رَجُلٍ ... إلاّ وأسْلَمْنَهُ إلى الأجلِ[١٩]
ذلّ اغترابٍ وفاقةٍ وهوىً ... وكلّها سائقٌ على عجلِ
يا عاذِلَ العاشقينَ إنّكَ لَوْ ... أنصفتَ أعْفَيتَهم عن العذلِ[٢٠]
فإنّهم لَوْ عرفتَ صورتَهم ... عن شغلِ العاذلينَ في شُغُلِ

وحكي عن هذا الفقيه ، أنه كان مرة في مجلسه ، فجاءه غلام وبيده رقعة دفعها اليه ، فقرأها متبسما وكان فيها[٢١] :

عاشِقٌ خاطرَ حتى (م) ... استلبَ المعشوقَ قُبْلَهْ
أَفْتِنا ــ لا زِلْتَ تُفْتي ــ ... : هَلْ يَبيحُ الشَّرْعُ فِعْلَهْ؟

---

(١٥) الوافي بالوفيات (مخطوط) حـ١٥ . ورقة ١٢٢ ، انباه الرواة ٢ : ١٣٢ ، النجوم الزاهرة ٤ : ٢١٩ .

(١٦) في الوافي بالوفيات « قد حضرنا . . » .

(١٧) في هذا البيت بعض الاختلاف بين المصادر الثلاثة السابقة .

(١٨) معجم البلدان ١ : ٣٢٦ (بيروت) ، انباه الرواة ٢ : ١٣٢ ، تاريخ بغداد ١٠ : ٥١٣٩ .

(١٩) في معجم البلدان « في احد » .

(٢٠) في المرجع السابق وفي تاريخ بغداد « رفهتهم عن العذل » .

(٢١) طبقات الشافعية الكبرى ٢ : ٢٣٤ ، طبقات الشافعية ــ لابن هداية الله » . ص ٣٥ وفيها : « يسأل المعشوق بدل استلب » .

فأجاب :

أَيُّهـا السائِلُ عمّـــا لا يُبيحُ الشَّـرْعُ فِعْلَهْ
قبلةُ العاشقِ للمَعْشـو قِ لا تُوجِبُ قَتْلَـهْ

وقد أحسن الفقيه الشاعر في قوله : لا يبيح الشرع فعله ، لأنه نبه على تحريم الفعل ، خوفاً من أن يتبادر الى ذهن المستفتي اباحته ، بانتفاء القتل .

والى جانب هذه الاتجاهات عُرف اتجاه آخر من الشعر ، هو شعر الإخوانيات . ومن هذا النوع ما قاله الشاعر التاجر في صديق[٢٢] :

وَعَـدتني بالـرّجوعِ — مِنْ قبل وَقْتِ الهجـوعِ
وَقَـدْ تَغافَلْتَ حتّـى أَضْرَمْتَني بالجـوعِ !
فبالـرجوع تفضّـلْ أو لا فبالمرجـوع !

والشاعر في هذه الأبيات ناظم اكثر منه شاعرا ، وكأنه أراد بأبياته هذه المزاح والتفكه مع صديقه .

ومما جاء في هذا المجال،قول الحكيمي[٢٣] مهنئاً بعض أصدقائه بالنيروز:

قَوْلُ النبيِّ وَحَـقٌّ اللهِ قَدْ صَدَقـا
وَوافَقَ العاشـقُ المعشوقَ فاعتَنَقـا
فَعاطِني قهوةً صهبـاءَ صافيـةً
بهـا تَطـايرَ عَنْ قَلبي الجَوى شَقَقَا
مِنْ كَفِّ ساقٍ إذا ما جاءَنا فَسَقى
دَعا إلى حبِّـهِ أَهواءَ مَـنْ فَسَقا

---

(٢٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٥ (السعادة بمصر) . ، المحمدون من الشعراء واشعارهم ص ٩٧ .

(٢٣) هو علي بن أحمد البديهي الحكيمي ، الملقب بنقيب الشعراء ، خوارزمي الاصل . ينظر عنه : دمية القصر وعصرة اهل العصر ٢ : ١١٣ « تحقيق الحلو » ، بغية الوعاة . ص ٢٢٨ .

وذكر الثعالبي أن أبا علي الكندي أنشده أبياتاً للبافي ، ذاكراً أن البافي أنشده تلك الأبيات لنفسه ، وقد أهدى مهرجانية الى بعض الرؤساء ، قال فيها[٢٤] :

هَدِيةُ المهرجانِ واجِبَةٌ على السلاطينِ لا على الفُقَهَا
وإنْ جَرى عبدُكم على سنن من التَهادى فما أتى سَفَهَا
حمل على أنني لكم قلم قط برأسين يكشف الشبها

ومن غرر ما قاله الشاعر الهلالي ، في النوروز[٢٥] :

نورٌ ونَوْرٌ ونَوْروزٌ ومُنْيَتُها لُقْيا الأمير ففي لقياهُ مَهْواها
كأنما نَغَمُ الأطيار من نغم الـ ـْ أوتارِ قد اخذتْ في الطيب أشباها
حدائقٌ شاقتِ الدنيا شقائقُها وبالحُلَى خزَمَ الدُّنيا خزاماها

ومن الشعراء من اهتم بذكر الهدايا ، وهذا الصخري يستهدي ماء الورد ، في قوله[٢٦] :

يا مَنْ حَكى الوَرْدَ الطَرِيءَ بعَرْفِهِ
وبظَرْفِهِ وبلُطفِهِ وبَهائِهِ[٢٧]
إنْ شِئْتَ ـ والإفضال منك سَجِيَّةٌ ـ
أَهْدَيْتَ لي قارورةً من مائِهِ

وكان بعضهم يتخذ هدية صديقه ، سبيلاً للمزاح والفكاهة والمداعبة ، كقول ابن عنين في مداعبة من مداعباته الشعرية ، في خروف وكان مهزولاً ،

(٢٤) يتيمة الدهر ٣ : ١٢٣ (مط حجازي) .
(٢٥) المحمدون من الشعراء واشعارهم . ص ٥٣ .
(٢٦) معجم الادباء ٥ : ٢٠٨ .
(٢٧) الطرىء : أي « غض بَيِّن الطراوة . » .
عرفه : أي رائحته الطيبة .

بعث به اليه الشريف الكحال المصري[٢٨] ، وكان بينهما صحبة ومحبة ، ومزاح ومداعبة[٢٩] :

أبو الفضلِ وابنُ الفضلِ أنتَ وأهلُه
فغيرُ عجبٍ أنْ يكونَ لكَ الفضلُ
أتتْني أياديكَ التي لا أعدُّها
لكثرتِها لاكفر نعمى ولا جَهلُ
ولكنّني أُنبيكَ عنها بطرفةٍ
تَروقُكَ ما وافى لها قبلها مثلُ
أتاني خَروفٌ ما شككتُ بأنَّه
حَليفُ هَوىً قد شفَّهُ الهجرُ والعَذْلُ
إذا قامَ في شمسِ الظَهيرةِ خلتُه
خيالاً سَرى في ظلمةٍ ما لَهُ ظِلُّ
فناشدتُه ما تَشْتَهي ؟ قالَ : قَتَّةٌ
• وقاسمته ما شَفَّهُ ؟ قالَ لي الأكلُ[٣٠]
فأحضرتُها خضراءَ مجَّاجةَ الثَرى
مُسَلَّمَةً ما حَصَّ أوراقَها الفَتلُ[٣١]

(٢٨) هو سليمان بن موسى ، برهان الدين ابو الفضل بن شرف الدين المعروف بالكحال المصري ، كان اديبا فاضلا ، بارعا في العربية ، وفنون الادب ، عارفا بصناعة الكحل .

(٢٩) معجم الادباء ١١ : ٢٥٩ـ٢٦٠ ، وذكر العقاد بعضها في كتابه : عرائس وشياطين . ص ١٣٩ .

(٣٠) قَتّة : قت الشيء : جمعه قليلا قليلا . ولعل المراد هنا النبات مجموعا . وقيل القَتة : نبات بري من نبات البادية .
وقاسمته ماشفه : اي أقسمت عليه أن يخبرني عما شفه .

(٣١) مجاجة : مج العود : جرى فيه الماء . وهو يريد هنا ان يقول : ان التراب الذي كان لاصقا بجذور القَتّة كان ما زال مبلولا ، وهذا يعني ان القتة كانت خضراء طرية .
←

فَظلَّ يُراعيها بعَيْنٍ ضَعيفـــــةٍ
ويُنشـــدها والدمعُ في العـينِ مُنْهَلُّ
« أتَتْ وحيـاض الموتِ بيني وبينهـــا
وجــادَتْ بوصلٍ حينَ لا ينفعُ الوَصْلُ »

والمعنى الذي تؤكده هذه القصيــدة ، هو النحافة والهزال الشديدان ، وذلك في قوله : « خلته خيالا سرى في ظلمة الليل » ، وقد تفنن الشاعر ابن عنين في تصوير هذا الهزال بشكل يدعو الى الضحك ، وذلك في تشـبيهه الخروف بالعاشق الذي شفّه الهجر والعذل ، وغلبه الحب على أمره ، كمـا أجاد الشاعر في تصويره ذلك الخروف الهزيل الجائع ، تصويرا دقيقا ، زاده قوة وجمالا تلك المحاورة اللطيفة ، التي نسجها الشاعر بينه وبين الخروف .

وكتب القاضي الفاضل الى (أبي الفضل سليمان) ، يداعبه ، وكان قد كحّله(٣٢) :

رجـــــل توكّـــل بـــي وكحَّلني
فـــدهيتُ في عَيْنـي وفي عَيْنـي(٣٣)
وخَشيتُ تَنقُــلُ نَقْطُ كُحلتِـــهِ
عينيَّ مـــن عَيْنٍ الى غَيْــــنِ(٣٤)

وهو يريد أن يقول : إنّه أصبح يخاف أن يؤذي الكحل عينه، أو يصيبها بغشاوة تمنع عنها الإبصار ، كما تفعل السحابة التي تطبق على السماء ، فتمنع عنّا الشمس ، فكأنها بذلك تلبس السماء ثوبا فيمنع ضوءها .

ومن الجدير بالذكر ، أن نشير الى أن هناك قصائد ومقطوعات ، قيلت

حَصّ : من حص الشعر : أي حلقه . يريد أن يقول : ان اوراقهـا كانت سليمة ، وكانت منبسطة الاوراق ، اذ الفتل هو ما لم ينبسط من ورق النبات ، ولكنه يفتل .

(٣٢) معجم الادباء ١١ : ٢٦١ .
(٣٣) عيني : يريد بالاولى : الباصرة . وبالثانية : النقد اي المال .
(٣٤) غيني : غانت السماء : طبقها الغيم . واغان السحاب السماء : البسها .

في أغراض مختلفة ، واذا ما تبيناها وجدنا أن الشاعر ربما قالها من أجل ان يبرهن تمكنه من الصنعة ، واجادته في استعمال المحسنات البديعية ، في فنونها المختلفة ، ومثل هذه القصائد والمقطوعات ، تعطينا فكرة عن أهم خصائص الشعر في هذه البلاد ، لأنها تعبير عن العصر ، ومدى اهتمامهم بالصنعة ، وميلهم الى التفنن والتصنيع في الألفاظ والأساليب .

ومن شعر الحسن بن المظفر النيسابوري ، الذي تظهر فيه الصنعة البديعية قوله(٣٥) :

أَهـلاً بعَيْشٍ كانَ جِـدَّ مُواتِ
أَحْيـا مِنَ اللّذّاتِ كُلَّ مُواتِ(٣٦)

أَيّـامَ سِربُ الأُنْسِ غَيْرُ مُنَفَّرٍ
والشَّمْلُ غَيْرُ مُروَّعٍ بشَتاتِ

عَيْشٌ تَحسَّرَ ظِلُّه عنّا فَمـا
أَبْقَى لَنا شَيْئاً سِوَى الحَسَراتِ(٣٧)

وَلَقَدْ سَقاني الدَّهْرُ ماءَ حياتِهِ
والآنَ يَسْقيني دَمَ الحيّاتِ(٣٨)

لَهَفي لأحرارٍ مُنيتُ بِبُعْدِهِمْ
كانوا على غِيَرِ الزَّمانِ ثقاتي

---

(٣٥) معجم الادباء ٩ : ١٩٤-١٩٥ ، الوافي بالوفيات « مخطوط » حـ١١ . ورقة ٣٧ . وفيه الابيات الخمسة الاولى .

(٣٦) كان جو موات : أي مطاوع وموافق . وموات الثانية : الارض الجدبة ، التي لا تنبت لعدم صلاحها .

(٣٧) تحسر : من الحسر بمعنى الكشف والانقطاع . مأخوذ من حسر الشيء عن الشيء : اي كشفه . وحسر الماء : نضب وجزر . واصل الحسر : الانقطاع . ويقال : انحسرت الدابة : اذا انقطع سيرها قليلا .

(٣٨) في الوافي بالوفيات حـ ١١ . ورقة ٣٧ « حيائه » بدلا من حياته .

قَـدْ زالتِ البركاتُ عنّي كلُّهـــــا
بزِيـالِ سَـــيِّدنا أَبي البرَكاتِ[٣٩]

رُكنِ العُـلا والمَجْـدِ والكَرَمِ الّذي
قَدْ فاتَ في الحَلَبات أيَّ فَواتِ[٤٠]

فارَقْتُ طَلعتَهُ المنـيرةَ مُكْرَهـــاً
فَبقيتُ كالمَحْصـورِ في الظُّلُمــــاتِ

أُضحي وأُمْســـي صــاعِداً زَفَراتي
لِفراقِــهِ مُتَحـدِّراً عَبَــراتي

والقصيدة كما هو ظاهر ، من قصائد المدح تحمل بين أبياتها رنات ألم الشاعر وزفراته ، لمفارقته الممدوح ، الذي يظهر لنا أنه كان مصـــدر رزق الشاعر ، ولذلك كانت مفارقته للشاعر ، مصدر الآلام والدموع .

ومن الملاحظ أن الشاعر اهتم كثيرا في استعماله الصنعة البديعية ، في أبياته هذه .

وفي مثل هذا قال المطرزي[٤١] :

وَزَنْدُ نَدى فواضله وَرِيٌّ وَرَنْدُ رُبى خواضله نَضيرُ[٤٢]

---

(٣٩) زيال : مصدر زايله مزايلة وزيالا : اي فارقه .

(٤٠) الحلبات : جمع حلبة . والحلبة : الدفعة من الخيل ، تجتمع للسباق .

(٤١) تنظر الابيات في : معجم الادباء ١٩ : ٢١٢ ، انباه الرواة ٣ : ٣٣٩ ، بغية الوعاة ٢ : ٣١١ ، وفيات الاعيان ٥ : ٧ .

(٤٢) زند وري : الزند والزندة : خشبتان يستقدح بهما ، فالسفلى زنـدة ، والاعلى زند . والزند : العمود الاعلى الذي يقتدح به النار ، والجمـــع ازند وازناد وزنود وزناد . وازاند جمع الجمع .

والزناد كالزند : وانه لواري الزند ووريه . ويكون ذلك في الكرم وغيره من الخصال . والشاعر يريد هذا المعنى .

والرَند : الآس وقيل هو العود الذي يتبخر به ، وقيل هو شجر من ←

وَدُرُّ خـلالِـه أبداً ثمـينٌ ودَرُّ نوالـه أبـداً غَزيرُ[43]

ففي هذين البيتين ، يتبين لنا الصنعة الظاهرة ، التي طغت على شعر الشاعر ، والتي تظهر كأنما الشاعر أرادها ، وأرهق نفسه في تعلمها .

وقال البيروني وقد استخدم بعض المحسنات البديعية[44] :

فـلا يَغـررك َ مني لـينٌ مسٍّ تَـراهُ في دروسٍ واقتبـاسِ

فإنّي أسْرَعُ الثَّقَلَيْنِ طُـرّاً إلى خَوْضِ الردى في وَقْتِ باسِ[45]

وقال أيضاً :

تُنَغِّصُ بالتباعـدِ طيب عيشـي فلا شيءٌ أَمـرُّ من الفـراقِ

كتـابُك إذ هو الفَرَجُ المُرَجَّى أَطَبُّ لِما أَلمَّ مـن ألفِ راقِ

فقد استعمل الشاعر في أبياته التجنيس ، وهو من المحسنات البديعية . ومن التجنيس[46] قول رشيدالدين الوطواط[47] :

جِـلالُكَ يا خـير الملوكِ مساعيـا

على منبرِ المجـدِ المؤثَّـلِ خاطِبُ

اشجار البادية ، وهو طيب الرائحة يستاك به ، وليس بالكبير وله حب يسمى الغار ، واحدته رندة .
خواضله : الخضل والخاضل : كل شيء ند يترشش من نداه ، فهو خضل . وكل خضل اي رطب . والخضل : النبات الناعم . واخضالت الشجرة : إذا كثر اغصانها واوراقها . والخضلة : النعمة والري .

(٤٣) الدُر : هو ما عظم من اللؤلؤ .
والدَّر : در اللبن : أي اقبل منه على الحالب الشيء الكثير . ومن هذا قيل : لله دره : أي أعطاه ، وما يؤخذ منه ، فشبهوا عطاءه بدر الناقة، ثم كثر استعماله حتى صاروا يقولونه لكل متعجب منه .

(٤٤) معجم الادباء ١٧ : ١٨٩ــ١٩٠ ، فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم . ص ٣٧٤ ، رجال السند والهند في القرن السابع . ص ٢١٢ .

(٤٥) الثقلان : الانس والجن .

(٤٦) التجنيس : لغة المشاكلة والمشابهة ، وهو نوع من انواع علم البديع .

(٤٧) ينظر : حدائق السحر في دقائق الشعر . ص ٩٢ .

فللخطّـةِ النكـراءِ سَيْبُكَ دافِـــعٌ
وللخطّــةِ العَذْراءِ سيفُك خاطِبُ[٤٨]

ومن المقطّع قوله[٤٩] :

وإنّي يُعظمني كُلُّ حــــــرّ   وَيُلْبسُني من أياديــه بُـرْدا
وأدرك أن زرتَ دارَ ودودٍ   دَرّاً وَدُرّاً وَوِرْدا وَوَرْدا[٥٠]

ومثل هذا كثير في شعر الوطواط ، كما سنرى حين دراسته • واستعمال الشعراء لهذه المحسنات ، يعطينا فكرة واضحة عن خاصية من خصائص الشعر العربي في هذا الاقليم •

ومن الجدير بالذكر أن هذه المحسنات البديعية ، ليست خاصة بأدباء هذا الاقليم وحده ، بل هي ظاهرة عامة ، في أقاليم المسلمين كافة • ولكن الذي يميزها ، أنهم تناولوها بطريقة فنية ، مع بعض المغالاة في استعمالها ، حتى أن بعضهم شهر بها ، كما هي الحال عند رشيدالدين الوطواط •

وأخيراً نقول : إنّ شعر شعراء هذا الاقليم ، يوحي لنا بسمة مهمة ،هي ظهور الشخصية العربية الاسلامية ، في طريقة تناولهم الموضوعات ، وفي طريقة تشبيهاتهم واستعاراتهم ، حيث نرى عندهم التشبيهات والاستعارات ، التي توحي لنا بالمسحةالبدوية أحياناً ، كما سنرى حين دراستنا للقاسم بن الحسين، ولأبي القاسم الزمخشري ، ويسيطر على هذه الناحية الجانب التقليدي ، الذي

---

(٤٨) الخُطّة : الامر والحال ، والطريقة . والخِطّة : الارض أو الدار تختطها لنفسك في ارض غير مملوكة . وجمعها خِطَط .
النكراء : الدهاء والفطنة والامر الشديد . وقيل شدة الدهر ، والداهية العاقلة .

(٤٩) المقطع : وهو ان يورد الشاعر بيتا من الشعر ، لا تتصل حروف كلماته في الكتابة . ينظر البيتان في حدائق السحر في دقائق الشعر . ص١٦٥ .

(٥٠) درا : الدَّر اللبن اجتمع في الضرع من العروق ، كثر وجـرى . والدُر ما عظم من اللؤلؤ . وردا : الورد : النصيب من الماء . واورده المـــاء : جعله يرده . والورد : نور كل شجر .

جاء بدافع حبهم للتقليد والمحاكاة ، أو بدافع معيشتهم في بادية الحجاز ، كما هي الحال عند الزمخشري •

كما نجد عندهم التشبيهات والاستعارات ، ذات المسحة المدنية ، أو ذات الخط التحرري ، التي انطلقت تتيجة هذا الجانب ، الذي ربما انطلق بدوره من بيئتهم البعيدة عن الدولة الاسلامية ، ومن مجتمعهم المختلط ، واشتراك أناس من أصل غير عربي في الثقافة العامة لهذا الاقليم • كما ان بيئة خوارزم الغنية الوافرة الخيرات ، ذات الحياة المترفة اللاهية في بعض الاحيان ، ربّما أثرت في هذا الجانب الاخير ، لان الرخاء الاقتصـــادي يسهم في تكوين الشخصية ، ويزيد من الاقبال على الثقافة ، والتعلق بالادب •

وهكذا نرى أن الشعر العربي ، في هذا الاقليم رغم كون ملامحه العامة، هي ملامح الشعر العربي ، الجاهلي منه والاسلامي ، الا أنه كانت له سمات خاصة به ، صنعت الملامح الأولى للشعر العربي المتميز ، في أقليم خوارزم • ذلك أن ما ذكرنا من السمات ، لم تكن كل خصائص شعرهم ، وعندنا ـــ أن هناك سمات أخرى خفيت علينا ، وهذه وهذه مجتمعة هي التي جعلتنا نحكم باستقلاله نوعا ما • وحسبنا أن تلك السمات التي توصلنا اليها ، بالاضافةالى بعض النتائج التي استطعنا التوصل اليها في خاتمة البحث ، قد ألقت بعض الضوء ، على الغموض الذي يلف الشعر ، في هذا الاقليم النائي ، من بلاد ما وراء النهر ، والذي كانت له اهميته ، ضمن أقاليم الدولة الاسلامية •

والآن وقد فرغنا من الحديث عن الشعر بصورة عامة،نرى الأخذ بدراسة تفصيلية لشاعرين من شعراء هذا الاقليم ، هما الخوارزمي والزمخشـري • وعسانا بدراستهما نوفق لإعطاء صورة أوضح ، عن الحياة الأدبية فيه •

الفصل الثاني

أبو بكر الخوارزمي

اولا : حياته

١ ــ ولادته ونشأته في خوارزم .
٢ ــ سفره وترحاله في طلب العلم .
٣ ــ اتصاله بالملوك والوزراء والأمراء ، سعياً وراء المنصب والجاه .
٤ ــ مدحه وأيّه أصدق فيه من الآخر ، ولماذا ؟
٥ ــ الأغراض الشعرية الاخرى التي طرقها ، وتجمل في :

١ ــ المدح والهجاء .
٢ ــ الرثاء .
٣ ــ الوصف .
٤ ــ الخمرة
٥ ــ الشكوى
٦ ــ أغراض اخرى .

ثانيا : سمات شعره وتتمثل في :

١ ــ تأثره بالحياة السياسية والاجتماعية .
٢ ــ تأثره بالحياة الثقافية العالية ، التي عاشها اقليم خوارزم .
٣ ــ نضجه الثقافي ، وتأثره بالحياة اللغوية .
٤ ــ لمحاته النقدية .

ثالثا : مكانته في الشعر العربي .

أبو بكر الخوارزمي[1] :

يعرف بأبي بكر الخوارزمي ، ويلقب « بالطَّبَرْخَزِيّ »[2] ، واسمه محمد بن العباس .أما لقبه « الطَّبَرْخَزِيّ » فنسبة مركبة من طبرستان وخوارزم ، لأن أباه من خوارزم ، وأمه من طبرستان[3] .

ولد أبو بكر الخوارزمي ، سنة ٣٢٣هـ/٩٣٤م[4] في خوارزم . والمصادر تتكلم عنه في صباه ، دون أن تتعرض لطفولته ، وكل ما عرفناه عنه أنه ولد من أب خوارزمي الأصل ، وأم من طبرستان .

من هذا نقول : إنّنا لا نعرف شيئاً عن نشأة أبي بكر الخوارزمي الأولى، غير أننا عرفنا بيئة اقليم خوارزم ، بيئة ثقافية علمية ، وأن شاعرنا قد نشأ في تلك البيئة الناضجة ثقافيا ، وأنه تزود بثقافة لغوية وتأريخية ، وأقبل بكل جد على شعر الجاهليين والاسلاميين ، يدلنا على ذلك ما تناقلته المصادر عن قوة حفظه .

ذكر ابن خلكان عنه أنه قصد في احدى المرات ، حضرة الصاحب بن عباد،

---

(١) ذكر الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر ٤ : ١٩٤ ستة من شعراء هذا الاقليم، حيث خصهم بباب سماه : « في غرر فضلاء خوارزم » ، وقد لاحظنا ان منهم من كثرت اخباره كأبي بكر الخوارزمي ، ومنهم من قلت اخباره .

(٢) هكذا ورد في بعض المصادر ، كما في المصدر السابق ٤ : ٢٠٤ . وفي بغية الوعاة ١ : ١٢٥ . وورد في بعض المصادر الاخرى « بالطبرى » فقط ، كما في الانساب ٥ : ٢١٣ . ويعلق السمعاني على ذلك بقوله : ويقال له الطبري ، لانه ابن اخت محمد بن جرير الطبري . وينظر ايضا : اللباب في تهذيب الانساب ١ : ٣٩١ .
وورد لقبه كذلك « بالطبرخزمي » . ويقول ابن القيسراني في كتابه : الانساب المتفقة . ص ٩٧ : انه سمع الأديب ابا بكر النجاري الخالدي يقول : ان ابا بكر الخوارزمي ، يعرف عندهم « بالطبرخزمي » يعني طبري خوارزمي .

(٣) هي اخت المؤرخ محمد بن جرير الطبري .

(٤) ينظر سيرة جلال‌الدين منكبرتي . ص ١٨٢ .

وهو بأرّجان ، فلما وصل الى بابه ، قال لأحد حجابه : قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء ، وهو يستأذن في الدخول • فدخل الحاجب وأعلم الصاحب بذلك ، فقال له الصاحب : قل له : إنّني قد ألزمت نفسي ، ألا يدخل عليّ من الأدباء ، الاّ من يحفظ عشرين ألف بيت ، من شعر العرب • وأعلم الحاجب أبا بكر بذلك ، فقال له أبو بكر : ارجع اليه وقل له : أهذا القدر من شعر الرجال ، أم من شعر النساء ؟ ولما سمع الصاحب هذا الجواب قال : هذا يكون أبا بكر الخوارزمي • فأذن له بالدخول ، فدخل اليه فعرفه وانبسط له(٥) •

وان دلّ هذا على شيء ــ مع ما قد يكون فيه من مبالغة ــ فانه يدل على شهرة أبي بكر في الحفظ ، وكثرة ما يحفظ من شعر السابقين •

كان أبو بكر قد فارق وطنه ، ابتغاء للعلم والتماسا للرزق ، وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء ، وطوّف في الآفاق ، وارتحل الى العراق ، ثم الى سيف الدولة الحمداني في حلب • وأول ما يذكر من أخباره ذهابه الى الشام ، وصلته بسيف الدولة الحمداني ، وطيب المقام له في بلاطه ، حيث بدأ عهده بالتألق في تلك البلاد • وبعد أن آنسَ من نفسه القوة الثقافية والأدبية، توجه الى بخارى ، واتصل بالوزير البلعمي ، فلم يحمد صحبته ، وساءت العلاقة بينهما ، ففارقه وهجاه بقوله(٦) :

إنّ ذا البلعميّ والعين غَيْنٌ
وهو عارٌ على الزمان وَشَيْنٌ(٧)

إنْ يكُنْ جاهلاً بخُفَّيْ حُنَيْنٍ
فهوَ الخُفُّ والزمانُ حُنَيْنُ

وتوجه الخوارزمي الى نيسابور ، حيث اتصل هناك بجماعة من الكبراء،

---

(٥) ينظر : وفيات الاعيان ٤ : ٣٣ .
(٦) يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٤-٢٠٥ (طبعة السعادة) .
(٧) والعَين غَيْن : اي ذا البلغمي . والبلغم : خلط من اخلاط البدن ، هو احد الطبائع الاربع . ويكنى به عن الثقيل المهذار .

عرفوا فضله ، وأحسنوا معاشرته ، وارتفق هناك بأبي الحسن القزويني ، وأبي منصور البغوي ، وأبي الحسن الحكمي ، كما نادم كثير بن احمد[٨] .

وفي نيسابور اتصل بالأمير أبي نصر الميكالي ، ومدحه بقصيدته التي يقول فيها[٩] :

نَجُرُّ ذيولَ الفخرِ حتى كأنّنا
لعزّتِنا في آل ميكالَ نَنْتَمي

هُمُ شَحْمَةُ الدنيا فإن نَتَعدَّهُمْ
إلى غيرهم نَحْصَلْ على الفَرْثِ والدمِ[١٠]

سَقَى اللهُ ذاكَ الرَّوْضَ جوداً كجودِهم
وصيَّرَ آجالَ العداةِ إليهمِ

وَأبْقَى أبا نَصْرٍ ليَرْبي عليهمُ
سنينَ كما أرْبَى بنين عليهمِ[١١]

وعاشَ الى أنْ يَتْرُكَ الناسُ مَدْحَه
وَمَنْ ذا الذي يَرْجو ايابَ المثلمِ[١٢]

هو الحرّ لا يحبو بثوب مطرّز
غسيل ولا يدعو بكيس مختم

ولا يعدم الراؤون منه ثلاثة
عطاءٌ وعذراً وانبساطاً لديهمِ

---

(٨) ذكره أبو بكر الخوارزمي ، في ديوان رسائله ، ناعتا له بالشيخ في قوله: « نحن اولياء الشيخ ، ومتحملي اعباء نعمته » . ينظر : ص ٧٨ . « من كتاب بعثه اليه يعزيه عن ابنة له » .
(٩) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٠ .
(١٠) الفرث : السرجين ما دام في الكرش ، والجمع فروث . والسرجين والسرجون : الزبل ، وهو السرقين « معرب سركين » .
(١١) يربي : يزيد .
(١٢) والمثلم : ثلم ثلما ، وثلم السيف ونحوه ، والاناء وغيره : كسر حرفه . ويبدو ان هذا يضرب مثلا للذي ينكبه الدهر ، فينزله من مكانته العالية.

ويعـذب إنْ ينصف كما عذُبتْ « نَعَمْ »

ويثقـل ان يظلـم كمـا ثقلتْ « لَمِ »

صفوح عن الجهّـال ينشـد فعلـه

« ويشتم بالأفعـال لا بالتكلـمِ »[١٣]

ويظهر من قصيدة المديح هذه ، أن الشاعر يكن مشاعر الحب لهـذا الأمير ، ويبدو أنه كان يرجو بمدحه أن ينال عطاياه السخية ، التي تختلف عن عطايا غيره ، وقد أشار الى هذا بقوله :

هُمُ شَحْمَةُ الدنيـا فإن نَتَعَدَّهُمْ

الى غيرهم نَحْصَلْ عَلى الفَرْثِ والدمِ

وكان أبو بكر من شيوخ الشيعة،وهو يسميهم « رافضة » في قوله[١٤]:

بآمـلَ مولدي وبني جـرير فأخوالي ويحكي المرءُ خالَه[١٥]

فها أنا رافضيٌّ عن تـراثٍ وغيري رافضيٌّ عن كَلالَـه

وهذا البيت هو الذي حمل كثيراً من المؤلفين الى القول : إنّ أبا بكر قد ولد في طبرستان . وأما عن كونه رافضياً ، فان ياقوت الحموي ، قد كذّبه في هذا الادعاء ، وقال : إنّه لم يكن رافضياً ، وإنّما حسده الحنابلة ،فرموه بذلك .

---

(١٣) المصراع تضمين وهو جاهلي .

(١٤) تنظر الابيات في : الوافي بالوفيات ٣ : ١٩٥ ، تأسيس الشيعة لعلـوم الاسلام . ٨٨ .

(١٥) آمل : مدينة في بلاد خراسان ، على ضفة جيحون اليسـرى ، تدعـى ايضا : آمل الشط ، وآمل جيحون ، وآمل المفازة ، وآمل زم . تمييزا لها عن مدينة آمل التي تقع في شمالي ايران ، في منطقة طبرستان القديمة، جنوبي بحر قزوين . واسمها الايراني الصحيح : « آمو » او « آموي » أو « آموية » .

ينظر عنها : معجم البلدان ١ : ٢٥٥ (طبعة بيروت) ، دائرة المعـارف ـ البستاني ـ ١ : ٣٥٧ . بيروت ـ لبنان ١٩٥٦م .

أما الدكتور حسن ابراهيم حسن فيقول : إنّ أبا بكر الخوارزمي ، كان من الشيعة الغلاة[16] .

ويدلنا على تشيعه ، ما كتبه الى جماعة الشيعة بنيسابور ، لما قصدهم واليها محمد بن ابراهيم ، في رسالة طويلة ، بيّن فيها أن فاطمة الزهراء ، قد غصبت ميراث أبيها ، صلى الله عليه وسلم ، يوم السقيفة . وأنه ليس في بيضة الاسلام ، بلدة ليس فيها لقتيل طالبي تربة ، تشارك فيهم الأموي والعباسي ، وأطبق عليهم العدناني والقحطاني . وأخيرا يختم كتابه : متمثلا بهذين البيتين[17] :

وليسَ حيٌّ من الأحياء تعرفُهُ ... من ذي يَمانٍ ولا بكرٍ ولا مضر
إلا وهم شـركاء في دمائهم ... كما تشاركَ أيسارٌ على جزر[18]

وذكر الثعالبي أن أبا بكر الخوارزمي ، كان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً ، ويتعصب على آل سامان في خراسان ، ويغض من شأنهم ، ويطلق لسانه فيهم فيهجوهم، الى أن كانت أيام تاش الحاجب ، ورجع من خراسان الى نيسابور منهزماً ، فشمت به أبو بكر ، وجعل يقول : قبحاً له ، وللوزير العتبى[19] .

وعمل الوشاة عملهم ، في زيادة العداوة بينه وبين العتبي ، وأخذوا يدسون عليه الأكاذيب ، حتى أنهم أبلغوا العتبي ، أبياتاً في هجائه ، نسبوها الى أبي بكر الخوارزمي ، ولم يكن قالها على حد قول الثعالبي، ولكن الوشاية فعلت فعلها في ايقاد نيران الحقد عند العتبي ، فكتب الى تاش ، يأمره في أخذه، ومصادرة أمواله وقطع لسانه . كما كتب الى أبي المظفر الرعيني في ذلك .

---

(١٦) ينظر كتابه : تاريخ الاسلام السياسي ٣ : ٣٧٧ . مط مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة . ط٧ ١٩٦٥م .
(١٧) ينظر : ديوان رسائله . ص ١٦٢ ، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون . ص ٢١٢ . والبيتان للشاعر دعبل الخزاعي .
(١٨) ايسار : جمع ياسر . والياسر : اللاعب بالقداح ، وكل شيء فيه قمار فهو الميسر . ويقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور : ياسرون، لانهم جازرون ، اذ كانوا سببا لذلك . والجزور : الناقة المجزورة . ويقع ذلك على المذكر والمؤنث .
(١٩) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٨ .

أما البيت الذي نسب إليه فهو[٢٠] :

قل للوزير أزال الله دَولتَـــهُ جُزيتَ صَرْفاً على قول ابنِ منصور

ونحن نستبعد أن يصادر العتبي أموال الشاعر ويسجنه ، ويأمر بقطع لسانه من أجل هذا البيت ، أو من أجل كلمة شتم قالها في حقه ، وربما كان وراء هذا أمور اخرى ، كأن تكون سياسية ، أو مذهبية عقائدية . وليس ببعيد أن يكون السبب الرئيس في ذلك ، تعصبه لآل بويه ، وذمه لآل سامان، وللحاجب تاش ، الذي أوغر بدوره عليه ، صدر الوزير العتبي . أوليس هو القائل في هجائه ، وفي هجاء الدولة السامانية[٢١] :

فإن رَدَّني دَهْري عليكَ طريدة
فَلا غَروَ أن يسترجعَ القوسَ حاجِبُ
هو الوكرُ طرنا عنه والريشُ وافدٌ
وعدنا اليه الآنَ والريشُ ذاهبُ
جزى اللهُ عني أهلَ سامان ما أتوا
وفي الله للثارِ المضيَّعِ طالبُ
هم زوّجوني الهمَّ بعد طلاقه
وذلك عرسٌ للمآتمِ جالِبُ
هم أعطشوا زَرعي فَشِمتُ سحائبا
غرائبَ لما أخْلَفَتْني القرائِبُ
فأنحَوا لزرعي بالحصاد وأنضبوا
مياها لها أيدي سواهم مَذانبُ[٢٢]

---

(٢٠) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٨ . ولا ندري من هو ابن منصور الذيذكره.

(٢١) المصدر السابق : ٢٣٤-٢٣٥ .

(٢٢) مذانب : جمع مذنب : مسيل ما بين التلعتين ، او مسيل الماء الى الارض، ومن الوادي أسلفه . وقيل : المذنب : الجدول يسيل عن الروضة بمائها الى غيرها .

أَتحصدُ أيديكم ويزرع غيرُكم
فأنتم جرادٌ والملوك سحائبُ[٢٣]

وأيا كان السبب ، فقد ذاق أبو بكر مرارة السجن ، كما ذاق ألم الفراق، مما اضطره الى أن يبعث بقصيدة ، إلى الأمير أبي نصر الميكالي ، يشكو فيها حاله ، ويبين له ندمه ، لتركه حضرته في نيسابور ، وذهابه الى سجستان[٢٤] :

كتابي أبا نصرٍ اليك ـ وحالتي
كحالِ فريسٍ في مخالبِ ضيغمِ
أرقُّ من الشكوى وأَدجى من النوى
وأَضعفُ من قلبِ الحبيبِ المتيَّمِ
غدوتُ أخا جوعٍ ولستُ بصائمٍ
ورحتُ أَخا عُرْيٍ ولستُ بمُحْرِمِ
وقعت بفخِّ الخوف في يد طاهر
وقوعَ سُلَيكِ في حبائل خَثْعَمِ[٢٥]

فالشاعر في هذه الأبيات ، يشكو للأمير جوعه وعريه ، في غياهب السجن ، ثم يبين له ندمه ، لأنه تركه وذهب عند غيره فيقول[٢٦] :

وما كُنْتُ في تركيكَ الاّ كتاركٍ
يقيناً وراضٍ بعده بالتوهم
وقاطنِ أرضِ الشركِ يطلبُ توبةً
ويخرج من أرض الحطيم وزمزم

(٢٣) هذا البيت مأخوذ من قول ابن عُيَينة :
أبوك لنا غيث نعيش بظله وانت جراد لست تبقى ولا تذر
(٢٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٥ .
(٢٥) يعني سليك بن سلكة السعدي ، حين اسره انس بن مالك الخثعمي.
(٢٦) ينظر المصدر السابق ٤ : ٢٠٥ .

وذي علّـــــة يأتي عليـــلاً ليشـــتفي

بهـا وهو جـــار" للمســيح بن مــريم

وراوي كــلامٍ مُقْتَنَفٍ إثْــرَ باقــلٍ

ويتــرك قُسّاً خائبــاً وابنَ أَهْتَم(٢٧)

وبعـــد أن يلوم نفسه ، ويظهر ندمه ، في أسلوب رائع شائق ، مليء بالحسرة والألم • يفيض بالمدح لهذا الأمير ، ذلك المدح الذي يتراءى لنا ،من خلال سطور القصيدة ، حتى يصبح واضحاً جلياً في قوله :

جَنــاب" تجنبنـــاه ليس بمجــــدب

وبحــر" تخطينـــاه ليس بمـــرزمٍ(٢٨)

ومـــاء زلالٍ قـــد تركنـــا ورودَهُ

زلالاً وبِعْنـــاهُ بشـــربةِ علقـــمِ

وفي هذين البيتين ، نرى الخوارزمي ، يؤكد ندمه ويلوم نفسه ، لتركه الممدوح ، وذهابه الى غيره ، على الرغم من كرمه معه • وكأنه بعمله هذا قـد أبدل الماء الزلال ، بشربة من العلقم •

ثم نراه يصيح باكياً ، مبيّناً للأمير أنه أصبح بحالة يائسة ، بعد أن فقد صبره ، الذي كان خير معين له في محنته(٢٩) :

---

(٢٧) ابن الاهتم : هو عمرو بن سنان بن سمي التميمي المنقري ، ابو ربعي ، احد السادات الشعراء الخطباء في الجاهلية والاسلام ، من اهل نجـد. كان يدعى « المكحل » لجماله في شبابه . ووفد على النبي (ص) فأسلم ، ولقي اكراما وحفاوة . ولما تكلم بين يديه اعجبه كلامه فقال : « ان مـن البيان لسحرا » . توفي سنة ٥٧هـ ـ ٦٧٧م . تنظر ترجمته في الاعلام ٥ : ٢٤٧ .

(٢٨) الرزم : غيث لا ينقطع رعده . وعلى هذا نفسر ان رزم الماء هو انقطاعـه، وبحر غير مرزم ، أي غير مقطوع الماء . والشاعر يريد ان يقـول : ان الممدوح لم يقطع عنه العطاء .

(٢٩) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٥ ـ ٢٠٦ . والقصيدة طويلة ، اقتصرنا منها على ما رأيناه كافيا ، لتوضيح الصورة المطلوبة .

لَبِستُ ثيابَ الصبرِ حتى تمزقتْ
جوانبُها بين الجوى والتندم
أَظلُّ إذا عاتبتُ نفسيَ منشدا
« فهلاّ تلا حاميم قبلَ التقدم »[٣٠]

والظاهر أن الشاعر بقي في سجنه ، ولم يشفع له الأمير ، إلا أنه استطاع أن يغافل حراسه ، ويشغلهم بالطعام والشراب ، ثم يخرج متنكراً ، ويذهب الى الصاحب بن عبّاد في جرجان . وهناك زالت نكبته ، وانجلت عنه غمته ، وحسنت حاله ، فعاد الى سيرته الأولى ، يمدح ويحصل على الهدايا والعطايا ، التي كان ابن عباد يغدقها عليه[٣١] :

قال أبو بكر في هذا المقام ، مادحاً الصاحب بن عباد ، بالكرم والسخاء والشجاعة[٣٢] :

وما خلقت كفاك إلاّ لأربع عوائدَ لم يخلق لهن يدان
لشكركَ أفواه وتنويلِ نائل وتغليبِ هنديّ وأخذِ عِنان

ويقال إنّه لما وصل الى هذا البيت ، قال له الصاحب : إنّك قد نسيت أن تذكر القلم ، وهو آلة الكاتب ، الذي يتقدم به ويترأس . وعند ذلك مدحه أبو بكر بقصيدة منها[٣٣] :

يد تراها أبداً فوقَ يدٍ وتحت فم
ما خلّقت بنانها إلا لسيف وقلم

ويقال إنّ الصاحب عند ذلك ، خلع عليه كل ملبوسه ، كما خلع عليه جميع الحضور ملبوسهم ، موافقة للصاحب ، فحصل على مائة جبة ، فلم يرضه

---

(٣٠) المصراع الثاني قاله قاتل محمد بن طلحة يوم الجمل ، وصدره :
« يذكرني حاميم والرمح شاجر » .
(٣١) ينظر المصدر السابق ٤ : ٢٠٨ .
(٣٢) ينظر غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة . ص ٢١٦ .
(٣٣) المصدر السابق . ص ٣٦ .

ذلك ، وانصرف . وساءت العلاقة بينه وبين الصاحب بن عباد ، على حد قول أبي اسحاق الكتبي ، المعروف بالوطواط ، فهجاه بقوله[٣٤] :

لا تحمدنّ ابنَ عبّـــاد ولو مطرت كفّاه بالجود حتى جازت الديمـــا
لكنهـا خطراتٌ من وساوسِهِ يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرمـــا

ويقول الصفدي : إنّ أبا بكر كتب هذين البيتين ، وجعلهما في مكان يجلس فيه الصاحب بن عباد ، حتى يراهما[٣٥] .

وأبو بكر الخوارزمي ، ليس سبّاقا في هذا ، وانما أخـــذه من أبي القاسم الأعمى،معاوية بن أبي سفيان ، يهجو الحسن بن سهل ، مؤدب أولاده:

لاتحمدنْ حسناًفيالجود إنمطرتْ كفّاهغزْراً ولاتَذْمْمْه إنزرما[٣٦]
فليس يمنع ابقاءً على نَشَـــب ولا يجود لفضلِ الحمدِ مغتنما[٣٧]
لكنها خطراتٌ من وســـاوسه يُعطي ويمنع لا بخـلاً ولا كرما

ويقال إنّ الصاحب بن عباد ، أنكر هذا الفعل من أبي بكر ، حينما سمع بهذه الأبيات ، وهو الذي أكرمه وحماه ، ورعاه في محنته . وبلغ من تأثره أنه حينما سمع بموت أبي بكر الخوارزمي قال[٣٨] :

---

(٣٤) المصدر السابق . ص ٣٦ . وورد البيت في المصدر نفســه . ص ١٧٣ برواية اخرى « لا تمدحن » بدلا من « لا تحمدن » . وهذه الرواية تؤيد ما جاء في معجم الادباء ٢ : ٣١٣ . وفي معجم الادباء ايضا : « هطلت » بدلا من « مطرت » .

(٣٥) ينظر : كتابه : الوافي بالوفيات ٣ : ١٩٢ .

(٣٦) زرما : زرمه زرما : قطعه . والزرم : القليل المنقطع .
والزرم : البخيل المضيق عليه . ويقال هو زرم الدمع : اي منقطعــه ..

(٣٧) النشب والنشبة والمنشبة : المال الاصيل من ناطق او صامت : اي المال والعقار . واكثر استعماله في الاشياء الثابتة ، كالدور والضياع .

(٣٨) ينظر : غرر الخصائص الواضحة . ص ٣٦ ، ١٧٣ .
ووردت في معجم الادباء ٢ : ٣١٤ هكذا :
اقول لركب من خراسان رائح مامات خوارزميكم قيل لي نعم
وتنظر الابيات ايضا في : الوافي بالوفيات ٣: ١٩٢ .

سألتُ بريداً من خراسانَ مقبلاً ... أمات خوارزميّكم قال لي نعم
فقلت:اكتبوا بالجصّ منفوقِ قبرهِ ... ألا لعن الرحمن من يكفر النعم

وفي الوقت الذي ساءت فيه العلاقة ، بين أبي بكر ، وبين الصاحب بن عباد ، قتل الوزير العتبي ، وقام مقامه أبو الحسين المزني ، الذي كان يقدر أبا بكر ، ويحبه حباً جماً ، ولذلك استدعاه ، وأكرم مورده ، وكتب الى نيسابور ، في ردّ ما أخذ منه ، فزادت حاله ، وثبت قدمه ، ونظر اليه ولاة نيسابور بعين الحشمة والاحترام ، والاكرام والاعظام ، وبذلك ارتفع وعظم شأنه ، وطاب عيشه •

ومن قصائده التي قالها ، في أبي الحسين المزني قوله(٣٩) :

كَلِمٌ هي الأمثالُ إلاّ أنّها ... في الناسِ قد أضحتْ بلا أمثال
فاذا لَقِينَ فإنّهن عَوالي ... واذا شُمِمْنَ فإنّهن غَوالي

ونهض الى طبرستان ، موطن أخواله ، ومدح صاحبها ، ولكنه لم يلق منه تجاوبا ، وكانت حاله معه ، كحاله مع طاهر بن شار ، الذي قال فيه(٤٠) :

ألا أبلغ بنى شارٍ كلامي ... ومَنْ لم يَلْقَهم فهو السعيدُ
علامَ ابتعتُمُ فرساً عتيقاً ... وليس لديكمُ علفٌ عَتيدُ(٤١)؟
وفيم حبستُمُ في البيت بازاً ... يحيصُ الطيرُ عنه أو يحيدُ ؟
فلا قرّبتُموه فعلّمتُموه ... ولا خليتُمُ عنه يصيدُ

فالشاعر هنا يهجوهم ، معيّراً إيّاهم بالفقر ، ومندّداً بمعاملتهم السيئة وحبسهم له ، مشبهاً نفسه بالباز السجين •

ومن قصيدة أخرى ، قال فيهم(٤١) :

لله في كلّ ما قضاه ... لطائفٌ تحتها بدائعْ

---

(٣٩) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٥ .
(٤٠) ينظر المرجع السابق ٤ : ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٤١) عتيد : اي حاضر مهيأ . وعَتّدَ واعتد الشيء : اعده وهياه .
(٤٢) ينظر المرجع السابق ٤ : ٢٠٧ (طبعة السعادة) .

سبحان مَنْ يطعم ابن شارٍ ويترك الكلب وهو جائعْ

ونراه في هذين البيتين ، يعمد الى السباب ، ويحاول أن يربط ، بطريقة فريدة في الهجاء ، بين بني شارٍ ، وبين الكلاب ، لاظهارهم في صورة ، توحي لنا بأنهم أناس لا فائدة فيهم ، مثلهم في ذلك مثل الكلاب الضالة ، ومع ذلك فإن الله أغناهم وأفقرها .

وأخيراً استقر رأي الخوارزمي ، على البقاء في نيسابور ، التي يظهر أنها كانت أحب البلدان الى نفسه ، واقتنى بها الضياع ، واتخذ له داراً ، وظفر بكثير من الاستقرار ، وظفر بعظيم من التقدير، مما جعله يستوطن هذه المدينة، ولا يفارقها في تلك الحقبة الأخيرة من حياته ، حتى جاء بديع الزمان الهمذاني، وحصل بينهما ما حصل ، من المناظرة والمساجلة ، وحتى مات أبو بكر ، سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م(٤٣) .

وعلى الرغم مما كان بينهما من البغضاء ، فإن بديع الزمان الهمذاني ، تأثر تأثراً بليغاً حين سمع بوفاة الخوارزمي . ورثاه بهذه الأبيات(٤٤) :

حَنانيكَ من نَفَسٍ خافتٍ ولَبَّيْكَ عن كَمَدٍ ثابتِ
أبا بكر اسمعْ وقل كيفَ ذا ولَسْتَ بمسمعة الصامت
حلفْتُ لقد مُتّ من معشر غنيين عن خطر المائتِ
يقولون : أَنتَ به شامتٌ فقلت: الثرى بفم الشامتِ
وعزّت عليّ معاداتُه ولا مُتَدارَكَ للفائتِ

وقال فيه أبو الحسن ، عمر بن أبي عمر الرقّاني ، الذي كان أبو بكر،قد أساء اليه ، ولكنه قابل الاساءة بالاحسان ، على حد قول الثعالبي(٤٥) :

---

(٤٣) ينظر : الكامل في التاريخ ٩ : ١٠١ . والغريب فيه انه اورد وفاته ، مرة في وفيات سنة ٣٨٣هـ ، ومرة في وفيات سنة ٣٩٣هـ . وفي هدية العارفين ٢ : ٥٧ جاء ان وفاته سنة ٣٩٣هـ ايضا . ولكن اكثر المصادر اجمعت على ان وفاته كانت سنة ٣٨٣هـ . ينظر ايضا : سيرة جلال الدين منكبرتي . ص ١٨٢ ، اللباب في تهذيب الانساب ١ : ٣٩١ .

(٤٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٩ .

(٤٥) يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٩ .

مات أبو بكرٍ وكان أمـــرأً أدهمَ في آدابـه الغُــــرُّ
ولم يكن حُـرّاً ، ولــكنه كان أميرَ المنطق الحُـــرُّ

فالرقاني هنا لم يرضه خلق أبي بكر ، ولكنه لم يبح لنفسه ، أن يجرده من منزلته الرفيعة في الأدب ، بل اعترف له بذلك اعتراف ناقد منصف ، تغلب انصافه على حقده وضغينته .

وفي مثل هذا رأينا أبا سعيد أحمد بن شبيب الشبيبي ، المعروف بصاحب الجيشين ، يهجوه ويتهمه بقلة الوفاء ، أو بسرعة التقلب ، ولكنه لا يستطيع الا أن يعترف بمنزلته الأدبية ، ويفضله في هذا الميدان ، وذلك في قوله(٥٦) :

أبو بكر له أدبٌ وفضـــلٌ ولكن لا يدوم على البقـــاءِ
مودّتـــهُ إذا دامت لِخـــلٍّ فمن وقتِ الصباحِ الى المساءِ

وليس معنى هذا أن أبا بكر ، لم يرث بعاطفة صادقة ، فقد رثاه تلميـــذه الطبسي(٤٧) ، بقصيدة جياشة بالعاطفة قال فيها (٤٨) :

شيَّبَ فرطُ الأسى قـــذالي وكدّر الدهـــرُ صفوَ حـــالي
وارتجعَ الدهـــرُ ما حَبـــاه وحَيْعَـــلَ المجـــدُ بالـــزوالِ
وعادت النيّـــراتُ بُهْمـــاً وناحتِ العُصمُ في الجبالِ(٤٩)

(٤٦) ينظر : المرجع السابق ٤ : ٢٤٢ . والبيتين ذكرهما الثعالبي ، عن لسان محمد بن حامد ، عن أبي سعيد الشبيبي .
وفي الوافي بالوفيات ٣ : ١٩٣ ، انهما لأبي سعيد احمـــد بن شهيب الخوارزمي . والصحيح شبيب وليس شهيب ، وعنه اخذ بعض المحدثين مادتهم امثال : لويس شيخو في كتابه : مجاني الادب في حدائق العــرب ٦ : ٣١١ .

(٤٧) هو ابو ســعيد ، الحسن بن احمـد الطبسي النيسابوري . والطبَسي : نسبة الى « طبَس » وهي مدينة بين نيسابور واصبهـان . ينظر معجم البلدان ٤ : ٢٠ (بيروت) .

(٤٨) دمية القصر (مخطوط) القسم السادس ، رقم الترجمة ٥٢٢ .

(٤٩) بهما : مظلمة .
والعصم : جمع اعصم : وهو من الظباء والوعول : ما في ذراعيه او احداهما بيــاض .

فقلتُ : يا صـــاحبيّ مـاذا ... أتَتْ بـه كَرّةُ الليـــالي
أقام ربي النُشـورَ أم قَـدْ ... دعـا الى العَرْض والسؤالِ
أم الهمـامُ الإمـامُ أَوْدى ... بـه حِمـامٌ ، فبيِّنـا لي
لَهَفي على الشـعرِ والمعاني ... لهفي على ناقـدِ الرجـالِ
رَبٌّ الفيـافي أَبي القوافي ... عَمٌّ المعـاني أخي العَـوالي
حاربـه الدهـر وهو حَرْبٌ ... لمّـا رآه بـلا مثـالِ
يا أهـل خارَزْمَ مَنْ يُعَزّى ... أنتم أم المجـدُ والمَعـالي
أم القـوافي أم المـذاكي ... أو التَعاليقُ والأمـالي(٥)
مضـى الـذي لـو رآه قُسٌّ ... يومـاً لأضحى بلا مَقـالِ
وَفَلَّ منـه الردى حُسامـاً ... ما فلّـه كثـرة النِّـزالِ
وأنضبَ الدهـرُ منـه بحراً ... يمـوج بالـدُّرِّ واللآلي
يا مَنْ غـدا يدّعي المعـالي ... قد رُفِعَ الفَـخُّ لا تبـالي
صلّى على روحِـهِ إلاهي ... ما دامَ يتلو البيان تـالِ
وما سَـرى في الظـلام سارٍ ... وشَـدَّ بالـكُور والرِّحـالِ

وعلى الرغم من مبالغة الشاعر ، في هذا الرثاء وفي الأوصاف التي نعت بها المرثي ، إلا أنّ رثاءه جاء عن عاطفة صادقة .

ويتبين مما بين أيدينا من أخبار أبي بكر الخوارزمي ، أنه كان كثير الجد ، كثير التنقيب في جميع الفنون،دائم السفر غير مستقر على رأي أو أمر، متقلب الأهواء .

---

(٥٠) المذاكي : جمع المذكي : المسن من ذوات الحافر ، أو من كل شيء . والمذكي من الخيل : ما اتى على قروحه سنة أو سنتان . ويجمع ايضا على مذكيات التعاليق : العلق : النفيس من كل شيء . وعلقت الابل : اكلت من علقة الشجر ورعتها فسمنت من اعدادها . والتعليق في الركوب : ركوب أعجاز الخيل .

وربما كان جده في الحياة واحساسه المرهف ، الذي يمكننا ملاحظته من خلال نبرات الأسى التي تكمن في ثنايا قصائده ، بالاضافة الى احساسهالعميق بأسرته ، وشعوره بالمسؤولية نحوهم • كل ذلك أضفى على شخصيته نوعامن التناقض ــ ان صح هذا التعبير ــ تناقضا في عواطفه من حب الى كره ، ومن مدح الى هجاء • يضاف الى ذلك طبيعة الشاعر ، ونفسه الطامحة الى المنصب العالي ، التي تكاد تكون صدى لنفسية المتنبي •

وهذه الملامح النفسية والأخلاقية ، تدرك جميعها في شعره ، وتطــــلع بوضوح ممن يعيش ، ولو مع بضع قصائد من قصائده • وربما تكون أحوال عصره ، بما فيه من ضغائن واحقاد ومنافسات ، سبباً في تناقض أخلاقـــــه وعواطفه •

شعره :

يعدّ أبو بكر الخوارزمي ، من أغزر الشعراء الذين نشأوا في اقليم خوارزم ، شعراً ونثراً . خلّف ديوان شعر ، كما ذكر مترجموه ، ولكنه ضاع ، ولم يبق لنا من شعره ، الا نتف مبعثرة بين طيات الكتب . كما خلّف ديوان رسائل ، من أنفس الرسائل باللغة العربية ، سنوفيها حقّها حين نتكلم عنه كاتبا .

أما ديوانه الشعري[1] ، فلا ندري كيف كان ترتيبه ، أو ما هي موضوعاته . والظاهر أن موضوع المدح ، هو الموضوع الغالب عليه ـ كما رأينا ـ ولا عجب في هذا ، فقد أتصل أبو بكر ، بكثير من الرؤساء ، وان كنا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم ، وان كانت طبيعة ذلك العصر ، تشير الى أن استقامة الخلق ، كانت نادرة ، وأن الضغائن والأحقاد ، كانت من الظواهر الشائعة[2] .

وبما أن الهجاء ، يستخدمه الشعراء استخدام المديح للعطاء ، فقد طرق شاعرنا هذا الباب ، وكان له منه النصيب الأوفى . هجا الخوارزمي حتى ممدوحيه ، عندما كانوا ينقلبون عليه ، أو يتغيرون في معاملتهم له ، كما فعل مع الوزير البلعمي ، والصاحب بن عباد ، وأبي نصر الميكالي .

ومن الجدير بالذكر ، أن الخوارزمي عاش في عصر ، كان البويهيون يسيطرون فيه على الدولة العباسية ، ويتحكمون في الخلفاء أنفسهم ، مما دفع الخلفاء الى ارضائهم ، بشتى الوسائل والأساليب ومنها : الإسراف في منحهم الألقاب[3] .

---

(١) ذكره اسماعيل باشا البغدادي في كتابه : هدية العارفين ٢ : ٥٧ .

(٢) ينظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري ٢ : ٢٦٣ .

(٣) مثل : تاج الملة ، غياث الدين ، الملك العزيز ، الحضرة العالية الوزارية، رئيس الرؤساء ، شرف الوزراء ، جمال الورى .
ينظر في هذا : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ـ آدم متز ←

ولعل أبا بكر رأى في ذلك ، فرصة لكي يهجو الخلفاء العباسيين ،اشباعا لرغبة في نفسه المحبة للهجاء . يقول فيهم(٤) :

ما لي رأيتُ بني العباس قد فتحوا — من الكُنى ومن الأسماءِ أبوابا
ولقبوا رجـــــلاً لو عاش أولهم — ما كان يجعلـه للحَشِّ بوّابا(٥)
قلَّ الدراهم في كَفّي خليفتنـــا — هذا فأنفقَ في الأقوامِ ألقـــابا

ويعلق النسوي على هذه الأبيات بقوله(٦) : من المحتمـــل أن يكون الخوارزمي قد قصد بها ، أن يصور هذا المظهر ، في حياة العباسيين في ذلك الوقت .

على أن موضوع المدح ، كان هو الغالب على شعر هذا الشاعر ، كما رأينا ، لأنه عاش تحت الحاح ظروف معينة ، فقد بدأ حياته وختمها ، شاعراً متجولاً ، متصلاً بالكبراء والعظماء،يعمل أحياناً في خدمة الحكام والرؤساء، ثم هناك عامل آخر أرّق شاعرنا ، ودفعه الى مدح أصحاب النفوذ دفعاً ، وهو الذي أرّق الشاعر المتنبي أيضاً ، ألا وهو الطموح للوصول الى المكانة والمنزلة العالية ، والفة حياة القصور ، والعيش الرغيد ، والحياة الناعمة . كل ذلك مكّن في نفسه تلك الرغبة الملحة ، ولنرَه يقول(٧) :

متى أشقُّ رواقَ المُلكِ تلحظُني — عينُ امريءِ بغيوب المجدِ عـــلاّمِ
متى أرى قَمرَ الديوانِ مطّلعـــاً — في سطو بهرام بل في مُلْك بهرامِ(٨)

ADAM MEZ" ١ : ١٤٨ – ١٤٩ . نقله الى العربية عبدالهادي ابـو ريدة . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ط ٣ . سنة ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧م ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة – الدوري مطبعة السريان – بغداد . سنة ١٩٤٥م . ص ٥٨ ٢– ٢٥٩ .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٠ .
(٥) الحُشُّ والحَشُّ : النخل المجتمع : البستان . وجمعـــــه حُشّان وحِشّان . وجمع الجمع حشاشين .
(٦) سيرة جلال الدين منكبرتي . ص ١٨٢ .
(٧) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٣ .
(٨) سطو : هكذا جاءت في الاصل . وفي لسان العرب . م٢ . ص١٤٥ (طبعة بيروت) ، ان السطو : القهر بالبطش . والسطوة : المرة الواحدة ،والجمع السطوات .

متى أُقبّل فرشاً لا يقبّله عافٍ فيفرق بين الترب والسامِ[٩]
ما لي أبيتُ بشيرازٍ وأصبح في داري فدت يقظتي نومي وأحلامي
ما يطلب الحلم من قلبي يُقلّبُه عندي من السقم ما يكفيه أسقامي
أصبحتُ أشكر ليلاً أشتكي غده الليل عوني والأيام غرّامي
والأرضُ تعلم أنّي سوف أمْسَحُها حتى أرى مَنْ يَرى بالليل أوهامي

وعلي ذكر المتنبي ، فان الدكتور زكي مبارك ، يرى أن أبا بكر الخوارزمي ، كان مغرماً بالنيل منه ، والغض من شعره ، ولكن هجومه عليه ، لم يكن صادراً عن نزعة فنية ، تحدوه الى كشف معايب المتنبي ، وانما اندفع في ذلك ، ترضية للصاحب بن عباد ، حينما كانت العلاقات بينهما طيبة ، وقد كان الصاحب بن عباد ، يحقد على المتنبي ، لترفع المتنبي عن مدحه ، واشادته بابن العميد[١٠] .

وكان أبو بكر الخوارزمي ، ذا عيال ، ولعل ذلك أيضاً كان من أسباب ميله الى المدح ، حتى ينال ما يسد به حاجة عائلته . وقد صرح الشاعر نفسه، بما يؤكد هذا ، وذلك في مثل قوله ، من قصيدة يمدح بها ، عضد الدولة[١١] :

بحمدِكَ ، لا بحمدِ الناس ، أضحى
وَكيلي ليس يكفيه وكيلُ
وكانوا كلّما كالوا وزَنّا
فَصِرْنا كلّما وَزَنوا نكيلُ
وَزِدْتُ مِنْ العيال ، وذاكَ أنّي
كتبتُ على لقائِكَ مَنْ أعولُ[١٢]

(٩) عاف : اي محتاج .
والسام : جمع سامة : وهي السبيكة من الذهب والفضة ، او عروقهما في الحجر . وقيل هي نقرة ينقع فيها الماء ، او عرق في الجبل مخالف لجبلته .
(١٠) للتفصيل في هذا ينظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري ٢ : ٢٦١ .
(١١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٣ .
(١٢) عال العيال : كفاهم معاشهم ومؤونتهم .

وعشْـــــتُ ونـاقص رزقي ، فأضحى

مُفـــاعلتنُ مفـــاعلتن فَعـــولُ

وكنتُ أَبيـعُ مـــن سِـقْطِ القَوافي

وأحجـــر مـــا تَضَمَّنَتِ الحُمولُ[١٣]

وأكْتُمُ من أَبايـعَ دِقَّ بَـــــزّي

ففـاض عليه نائِلُـكَ الجزيـــــلُ[١٤]

ومن البين أن أبا بكر ، وجد الخصب في حضرة عضد الدولة ، ووجـد النصيب الوافر ، من العطاء الذي رفعه من العدم ، الى أن يكون له وكلاء ، يزنون رزقه ، وبهذا فقد أصبح يشرف على كيل أمواله ، بعدما كان يـزن أموال غيره .

ولم يقف الخوارزمي ، عند هذا الحد من المدح ، وإنّما حاول أن يعقد مقارنة ، بين حالته في السابق ، حيث كان يخـاف من ولادة طفل ، لأنه ليس باستطاعته اطعامه وكساءه . أما بعد أن تعرف على الممدوح ، فقد زاد عياله، لذهاب خوفه ، لأن عضد الدولة ، كفاه معاشهم ومؤونتهم .

وعبّر عن زيادة رزقه ووفرته ، ببيت من الشعر ، استعمل فيه العروض، فيقوله : « مفاعلتن مفاعلتن فعول » وهذا هو البحر الوافر ، وهو يريد أن يقول : إنّ رزقه بفضل عضد الدولة ، أصبح وافراً ، بعدما كان قليلاً .

ومن قصيدة أخرى ، في مدح عضد الدولة ، نرى الشاعر أيضاً يشير فيها الى فقره ، وكيف أنه تخلص منه ، بتعرفه على الممدوح[١٥] :

غَريبٌ على الأيـامِ وُجـدانُ مثلــه

وأغربُ منه بَعْدَ رؤيتــه الفقـــرُ

---

(١٣) السَّقْط : ما تطاير من شرر الزند عند القدح . والسقط : رديء المتاع. والسَّقْط من الأشياء : ما تسقطه فلا تعتد به .

(١٤) الدق والدقيق والدقاق من كل شيء ، نقيض الجل : وهو كل شيء صغير. بزي : بزو الشيء : عدله . ويقال : أخذت منه بزو كذا : اي عدل ذلك.

(١٥) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٢ .

فلا حُـرٌ إلا وهو عبــــدٌ لجـوده
ولا عبــدَ الا وهو في عدلـه حُـــرُّ

عجبتُ لــه لم يلبس الكِبْــرَ حلـــةً
وفينـا لأَنّ جُــزْنا على بابــه كِبْــرُ

ومن تشبيهاته الجميلة ، قوله من قصيدة ، في مدح أحدهم[١٦] :

أَراكَ إذا أيسرتَ خَيّمتَ عندنا مقيماً وإن أعسرتَ زُرْتَ لِمامـا
فما أنتَ إلا البدرُ إن قلَّ ضَوْؤه أغَبَّ وإن زاد الضياءُ أقامـا

ويعلق عبدالقاهر الجرجاني على هذين البيتين بقوله[١٧] : إنّهما لطيفا المعنى ، وان كانت العبارة ، لم تساعد الشاعر ، على الوجه ، الذي يجب ،لأن الإغباب أن يتخلل وقتي الحضور . وانما يريد ان القمر اذا نقص نوره ، لم يوال الطلوع ، كل ليلة ، بل يظهر في بعض الليالي ، ويمتنع في بعضها ، وليس الأمر كذلك ، لأنه على نقصانه يطلع كل ليلة .

أما الصفدي فيقول[١٨] : إنّ مؤيد الدين الطغرائي ، أخذ هذا من أبي بكر ، في قوله :

سأحجبُ عني أُسرتي عند عسرتي وأبرُزُ فيهم ان أصبتُ ثــراءَ
ولي أسوةٌ بالبدرِ يُنْفق نُورَه فيخفَى الى أن يستجدّ ضيــاءَ

ويقول الحصري[١٩] : وهذا كقول ابراهيم بن العباس الصولي ، في محمد بن عبدالملك الزيات :

أسَدٌ ضارٍ اذا ما نَعَتّـــهُ وأبٌ بــرٌّ اذا ما قـــدرا

(١٦) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٩ وفيه : « رأيتك آن الشرب خيمت عندنا » ، التمثيل والمحاضرة . ص ٢٣٢ . ، الوافي بالوفيات ٣ : ١٩٣ .
(١٧) ينظر كتابه : اسرار البلاغة . ص ١٢٤ . مط . وزارة المعارف ـ استانبول ١٩٥٤م .
(١٨) ينظر كتابه : الوافي بالوفيات ٣ : ١٩٣ .
(١٩) ينظر كتابه : زهر الاداب ١ : ٣٩٩ .

يعرف الأبعد إن أثرى ولا يعرف الأدنى اذا ما افتقرا

ويقول الأستاذ عزت العطار ، محقق كتاب « المكارم والمفاخر[٢٠] » لأبي بكر الخوارزمي : إنّ هذين البيتين ، من جيد الشعر وأعذبه .

هذه بعض أحوال أبي بكر الخاصة ، التي ربما فسّرت لنا غلبة المدح ، على ما وجدناه له من قصائد ، وأما أحوال عصره العامة ، فواضح أنها كانت أحوالاً قاسية ، بما شاع فيها من ضغائن وأحقاد ومنافسات ، كتلك التي جرت بين أبي بكر ، وبين بديع الزمان الهمذاني ، والتي فاز بها البديع ، وانخذل الخوارزمي انخذالا أدى الى تعجيل منيته .

وتلك الأحوال العامة القاسية ، ربما كانت من بين الأسباب التي دفعت الخوارزمي ، الى مدح الملوك والأمراء .

(٢٠) ينظر مقدمة هذا الكتاب .

أغراضــه :

نوهنا فيما سبق بأن أبا بكر الخوارزمي ، سار كما سار غيره من شعراء المشرق ، على الخط التقليدي في بناء القصيدة العربية ، وفي تعدد موضوعاتها، كما أنه كغيره طرق الأغراض المعروفة لدى العرب ، من مدح وهجاء وفخر ، وغزل ونسيب ووصف ، الى غير ذلك ، ولاحظنا أن فن المدح عند الشاعر ، قد تميز على غيره من الفنون والأغراض الاخرى ، الا أننا يجب أن نشير ان المدح الذي ذكرنا أنه استأثر بالقسم الأكبر ، مما لدينا من شـــعره ، إنه لم يستأثر بتلك القصائد ، التي قيلت أساساً فيه ، فأكثر القصائد التي قيلت في المدح ، لا تخلو من الأغراض الاخرى ، كما هي حالة القصيدة العربية ، وهذه الأغراض كثيرا ما نراها تزاحم غرض المديح ، أو تطغى عليه ، ومثالنا علىهذا قصيدة أبي بكر ، في رثاء مؤيد الدولة ، اذ حوت الى جانب الرثاء ، التعزيــة لفخر الدولة ، كما حوت الى جانبيهما التهنئة له بالمنصب • وقد أحسن أبو بكر وأجاد في هذا الموقف الصعب ، المتناقض الأغراض • ولذا عدّ أبو نصر العتبي ، هذه القصيدة من أحسن ما قاله أبو بكر الخوارزمي ، والقصيـــدة هي[1] :

رزئتُ أخــا لو خُيّــر المجــدُ في أخ
مــن الناس طرّاً ما عَداهُ ولا استثنى[2]

وقد جــاءت الدنيــا اليك كمــا تــرى
طفيليــةً قد جاوبت قبــلَ أن تُــدعى

صَبتْ بك عشــقاً وهي معشوقةُ الورى
فقــد أصبحت قيساً وعهــدي بهـا ليلى[3]

---

(١) ينظر تاريخ العتبي ، المعروف باليميني .هامش الجز العاشر من كتـــاب الكامل في التاريخ . ص ٨٨ ، وينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٧ ــ ٢٢٨ .

(٢) في اليتيمة « طهرا » بدلا من طرا .

(٣) في تاريخ العتبي « طبت » بدلا من « صبت » وطبت بك : أي انها سحرت ←

ولمـــا رأت خُطّـابَها تـــــركتهم
ولم ترضَ الا زوجَهـا الأولَ الأولى[٤]
ولم تتساهل في الكفيء ولم تَقُـــــلْ
رَضِيتُ اذا ما لم تكن ابـل معـــزى
على أنّهـا كانت جفتـــك تـــدللاً
فخليتهـــــا حتـى أتت تطلب الرُّجعى

وفي مثل هذا الموضوع ، قال في قصيدته ، التي يمدح بها عماد الدولة[٥]:

إنّ الأولى خلفَ الخـــدور هُمْ في الضمـــائر والصدور[٦]
وَقَـــعَ الغبـــارُ عليهم فَغَـــدا يَتيـهُ على العبـير
لمّـــا مشـــين على الثـــرى تـــاه المُعـــار على المُعـــير
فغـدوتُ في حـــال الأســـيـــر ورحتُ في حال الحسير[٧]
وكذاكَ مَنْ عشـقَ النجـــوم ورامَ صيـــداً للبـــدور
يا ســـائِلي مـا في الهـــوادج والبراقـعِ والســـتور
فيها الرضـــاعُ مـــن المنـــية والفطامُ من الســـرور
وســـألتَ مَنْ زوجُ المنـــابر حين يخطب والســـرير
فهو الأمـــيرُ ابنُ الأمـــير ابن الامير ابـــنِ الأمـــير

به واجبته وعشقته . وصبت به : عشقته ايضا ، فالكلمتان تناسبـــان المعنى . وفي المرجع السابق « لبنى » بدلا من « ليلى » واثبتنا ما رأينـــاه مناسبا .

(٤) في تاريخ العتبي « فركتهم » بدلا من « تركتهم » . والفرك : بمعنى البغض والكره ، وهو خاص بالزوجة .

(٥) ينظر المرجع السابق ـ هامش الجزء العاشر من تاريخ ابن الاثير . ص١١٥ ـ١١٦ .

(٦) الخدور : جمع خدر ، والخدر ، ستر يمد للجارية في ناحية البيت ، ثـم صار ما واراك من البيت .

(٧) الحسير : الكليل . ومنه حسر بصره : اي كل وانقطع نظره من طـــول مدى ، وما أشبه ذلك .

المشتري المدحَ القليـلَ بماله الجمِّ الغفير
والناظم المعنى الطويـلَ بلفظه النزرِ القصير
يرمي أعاديَهُ بسهـم من سعادتِهِ طَرير[8]
حتى لو افترشوا الحريـرَ لشاكهم مسُّ الحرير[9]
وسهامُهُ نُوبُ الخطوبِ وقوسُهُ عقب الدهور
ورماحه حشو العدا وعداته حشو القبور
استغفرُ الرحمنَ بل حشو الخوامعِ والنسور[10]
ويصوم صارمه فيفـطر بالجماجمِ والنحور
أمحمدُ بنُ محمدٍ هذي الثماد من البحور[11]
لو كانت العليا تدو ر على الحقائق في الأمور
ما صيغ تاجُ محمد إلا من القمرِ المنير

والمتأمل لهذه القصيدة ، وهي قصيدة مديح ، يجدها قد حوت أغراضاً أخرى ، وهي تكاد تخلو من العاطفة ، وهي لا تخلو من المبالغة المملة .

وقد أوردنا أكثر أبيات هذه القصيدة ، لأن العتبي قد انفرد بذكرها ، ولذلك رأينا أن انفراده ، يبيح لنا هذا العمل .

ومن قصيدة اخرى ، قالها في رثاء أبي الفتح بن العميد ، نرى الشاعر وقد خلط الرثاء فيها بالمديح . ولا جديد في هذا ، لأن الرثاء هو نوع من المديح ، فهو تعداد الصفات الحسنة ، والخصال الحميدة ، في المرثي ، ولنرَه يقول[12] :

---

(8) طرير : طرهم : اي ساقهم سوقا شديد . وطر السنان : احده فهو مطرور وطرير . وطر القوم بالسيف : شلهم .
(9) شاكهم : من الشوك ، وشاكته الشوكة : اي دخلت في جسمه .
والشاعر يريد ان يقول : ان اولئك الجماعة الذين يتكلم عنهم ، لو انهم ناموا على الحرير ، لاحسوا كأن الحرير تحتهم شوك .
(10) الخوامع : الضباع ، اسم لازم لها ، لانها تخمع اي تعرج في مشيتها .
(11) الثـمْد والثـمَد : الماء القليل ، الذي لا مادّ له .
(12) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٦-٢٢٧ .

يا دهرُ إنّك بالرجــــالِ بصيرُ ... فلطالمـــا تجتــاحـُهـُمْ وتـُبـيرُ
يادهرُ غَيري مَنْ خَدَعْتَ بباطلٍ ... وابن العميد مغيَّبٌ مقبــــورُ
أشـكو اليك النفسَ وهي كئيبةٌ ... وأذمّ فيك الدمـــعَ وهو غزيرُ
وأقولُ للعينِ الغزيرِ بكاؤهـــا ... خَطْبٌ لَعَمْري لَوْ عميتِ يسيرُ
أهـْوى القيامةَ لا لشيء غــير أن ... ألقاكَ فيها والأنــامُ حضورُ
وأُحب فيكَ الموتَ علمـاً أنَّنـا ... بعد المماتِ الى اللقاءِ نَصيرُ(١٣)

ومن الملاحظ أن الفاظ أبي بكر ، في هذه الأبيات ، في غاية السهولة ، أما العاطفة ، فهي تكاد تخلو من الأبيات ، على ما فيها من مبالغة مخلة مملة وإن كانت لا تخلو من معنى مبتكر ، وخاصة في بيته الذي يقول فيه :

أهـْوى القيامةَ لا لشـيءٍ غير أن ... القاكَ فيها والأنامُ حضـــــور

ومثل هذا قوله في الصاحب بن عباد(١٤) :

وَأنتَ امرؤ اعطيتَ ما لو سألتـهُ ... إلهكَ قالَ الناس أسْرَفْتَ سائِلا
وانّي والزاميكَ بالشعر بعدمـــا ... تَعَلمتنه منك الذرى والفواضِلا
كملزم ربِ الدارِ أجرةَ دارِهِ ... ومثلُكَ أعطى من طريقين نائِـلا

ففي البيت الأول ما فيه ، من المبالغة البغيضة .

أما الأغراض الاخرى، فقد طرق هذا الشاعر ، كما تبين لنا أكثر الأغراض التقليدية التي قالها سابقوه .

ومن المديح أيضا قوله في شمس المعالي قابوس(١٥) :

(١٣) (اننا) : جاءت في الاصل « انني » ولعل الصواب ما اثبتناه ، لانه اكثر ملائمة للمعنى .

(١٤) المرجع السابق ٤ : ٢٢٤ .

(١٥) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢١ ، عدد من بلغاء ايران في لغة العرب . ص ٩٣ وفيه: « معرب » بدلا من مغرب ، في البيت الاول ، والكلمة مصحفة .
وجاءت لفظة « رووا » عند الثعالبي بدلا من (رأوا) واثبتنا ما رأينـــاه اليق بالمعنى .

شُموسٌ لَهُنّ الخِدْرُ والبَدْرُ مُغْرِبُ
فطالعَهــا بالبـين والهِجْر غــاربُ[16]
ولكنما شمسُ المعــالي خلافُهــا
مشارقهُ ليســتْ لهنَّ مغــاربُ
فما لقبوه الشمسَ الا وقــد رأوا
« بأَنكَ شــمس والملــوك كواكب »

والخوارزمي ليس سبّاقا ، في هذا النوع من المديح ، وانما سبقه الى ذلك النابغة الذبياني ، في مدحه للنعمان بن المنذر في قوله :

فإنّــك شمس والملوكُ كواكبٌ إذا طلعت لم يبــدُ منهن كوكب

ومن قصائده في الرثاء ، التي يظهر لنا فيها ، صدق عاطفته ، ورقة تعبيره، ومنزلة المرثي من نفسه ، قوله في أبي سعيد الشبيبي ، وكان وادا له ، عاتبا عليه[17] :

أَيَدري السيفُ أَيّ فتى يبيــد وأيــةَ غايةٍ أضحى يريــدُ
لقــد صــادت يــد الأيام طيراً تضيق به حبالةُ من يصيــدُ
وأصبح في الصعيد أبو ســعيد ألا إنّ الصعيدَ به سـعيدُ[18]
وقد كانت تضيق الأرض عنــه فلِمّ وسـعت لجثتــه اللحودُ
بلى مس الثرى قلبــاً رحيبــاً فأعدى الترب فاتسع الصعيــدُ
فلا أدري أَأَضحــك أم أبَكّي وتهــدمني المنيــةُ أو تشــيدُ
صديق قد فقدناه قــديمٌ وثــكلٌ قــد وجــدناه جديدُ

(١٦) الهجر من الابل : الفائق والفائقة ، في الشحم وفي السير .
والغارب : الكاهل : وهو ما بين السنام والعنق . والغارب من كل شيء : أعــلاه .
(١٧) تنظر القصيدة في يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٨ ــ ٢٢٩ .وذكر العقاد بعضا منها في كتابه : عرائس وشياطين . ص ١٦ ــ ١٧ .
(١٨) الصعيد : المرتفع من الارض . وقيل الارض المرتفعة من الارض المنخفضة، وقيل : ما لا يخالطه رمل ، ولا سبخة ، وقيل : هو وجه الارض . أو كل تراب طيب .

مصاب وهو عند النـاس نعمى ... ونحس" وهو عنـد الناس عيدُ
تهنّيني الأنـامُ بـه ولـكن ... تعزّيني المواثقُ والعهـودُ
وسـيف قد ضربتُ بـه مراراً ... فمن ضرباته بي لي شـهودُ
فلما أن تفلّل ظَلْتُ أبـكي ... وعندي منه بَعْدُ دم" جسيدُ[١٩]
ومن عجب الليـالي أن خصمي ... يَبيدُ وأن حزني لا يَبيـدُ
وان النصف من عيني جَمود" ... وإنّ النصفَ من قلبي جليـدُ
إذا سَـفحتْ عليـه دموعُ عيني ... نهاها الهجرُ منـه والصـدودُ
وآثار لـه عنـدي قبـاح" ... يجمش بينها الرأسُ الحديدُ[٢٠]
فنصف من مدامعهـا سـخين ... ونصف من مدامعهـا بَـرُودُ
فمن هـذا رأى في الناس مثـلي ... أريد من المنى ما لا أريـدُ
ومن نكد المنيـة فَقْـدُ حرٌّ ... تخالف فيـه إخواني الشهودُ
فـذا هَنَّى وقال مضى عـدو ... وذا عزّى وقال مضى وَديـدُ
بكيتُ عليكَ بالعين التي لـم ... تـزل من سـوء فعلك بي تجودُ
فقـد أبكيتني حيّـا وميتـا ... فقـل لي أي فعليك الرشـيد
فها أنا ذا المُهَنَّـأُ والمعـزى ... وها أنا ذا المبـاغض والودودُ
وها أنا ذا المصـابُ بك المعـافى ... وها أنا ذا الشقيُّ بـك السعيد

وكان بودي أن استشهد بهذه القصيدة كلها ، لما فيها من المعاني الانسانية المتضاربة ، والمعاني العميقة ، ولكنها طويلة ولذلك اكتفيت منها بما رأيتـه كافياً لسد الغرض .

ورثاء أبي بكر في هذه القصيدة ، رثاء عاطفي ، عميق المعاني ، مع سهولة في الألفاظ .

---

(١٩) جسيد : جسد جسداً الدم بالشيء : لصق ويبس ، فهو جاسد وجَسَدَ وَجَسِدُ وجَسيد" وجِساد .

(٢٠) يجمش : جمش جمشا شعره : حلقة . وجمشت النـورة الشـعر : ازالتـه .

وقد أجاد الشاعر ، في التعبير عن انفعاله ودقة الموقف • كما تتجلى في هذه الأبيات ، قدرة الشاعر في تصوير مشاعره الانسانية ، وشعوره بالمأساة لفقده انساناً يكن له المودة والحب ، على ما بينهما من سوء تفاهم ، وفي هذا ما فيه من قدرة الشاعر ، على اظهار المشاعر الانسانية المتضاربة ، في مثل هذا الموقف الدقيق •

ومما قاله في مثل هذا ، قصيدته التي رثى بها ، أبا الحسن المحتسبي (٢١):

وصاحبٍ ليَ لو حلّتْ رزيّتُهُ
بالطير ما هتَفَتْ يوماً على فَنَنِ (٢٢)
عاشرتُهُ عِشرةً لو أنها وقعت
بين الضحى والدجى سارا على سنن
حتى إذا نِلتُ سؤلي من مواهبه
وصادَني بِشِباك الوصل والمِنَنِ
ثكلتُهُ بعدما سارت محاسِنُه
في العظم واللحم سيرَ الماء في الغصن
يا دهر أَثْكَلْتَني حتى أبا الحسن
لقد أمنت عليه غيرَ مؤتَمن
وصنتُ سهمَكَ مني يوم قَتْلِكَهُ
في مقتل القلبِ لا في مقتل البدن
جمعتَ ضدّين من خُرق ومن أدب
بطشِ الجهول ومَكْرِ العاقلِ الفطن
قد كنتُ أَعْجَبُ لِمْ أَخّرْتَ من أجلي
فالآنَ أدري لماذا كنتَ تَذْخَرُني
ولم يكن في الورى ذا منظر حسن
في مخبر حسن الا أبو حسن

---

(٢١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٩ — ٢٣٠ .
(٢٢) الفنن : الفرع من الشجر ، وجمعه افنان .

وهذا رثاء بعيد المعاني عميقها ، وصادق العاطفة ، تتجلى فيه قدرة الشاعر على رسم الصور الفنية البارعة ، التي تتضح في معانيه العميقة كقوله مثلا :

وصنتُ سهمَكَ مني يوم قتلكه
في مقتلِ القلبِ لا في مقتلِ البدن

ومن الوصف ما قاله أبو بكر الخوارزمي في وصف الخمرة :

وصفراءَ كالدينار بنتِ ثلاثة ... شمالٍ وأنهارٍ ودهرٍ محرم
مسرة محزون وعذر معربد ... وكبر مجوسيّ وفتنة مسلم
ممات" لأحياء ، حياة" لميّت ... وعدم" لمن أثرى ثراء" لمُعدم
يدور بها ظبي" تدور عيوننا ... على عينه من شرط يحيى بن اكثم
ينزهنا من ثغره ومدامه ... وخدّيه في شمس وبدر وانجم
نهضت اليها والظلام كأنّه ... معاشُ فقير أو فؤادُ مُعلّم

وقد اجاد أبو بكر في وصفه لتأثير الخمرة في الشارب ، كما أجاد في تصوير حالة الشارب ووصف الساقي الجميل .

ومن الوصف ما قاله في وصف الهريسة وهي نوع من الاطعمة(٢٤)

هل تنشطون لتنّورية خنقت ... من أول الليل حتى قلبها يجفُ
كأنّهاوهي فوق الجام قد غَرِقَتْ ... في دَفْنِها قمر بالشمس ملتحفُ
أو درهم" فوقه الدينار منطبق ... أو لوحُ عاج على الزدياب مكتنفُ

ومما جاء في وصف المجالس وامكنة الشرب قوله في وصف كيزان الفقاع(٢٥) :

وضيقة الفمِ دحداحة ... عليها قميصُ ندى أخضر

(٢٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٨ .
(٢٤) محاضرات الادباء ١ : ٦١٤ .
والهريسة : قيل هي طبخ اللحم بالبر . وقيل هي أوطأ فراش هيء للنبيذ .
(٢٥) المصدر السابق ١ : ٧١٤ .

وعلى أية حال ، ففي هذه الأبيات ، تأكيد على ان الشعراء ، قد وصفوا بعض مظاهر البيئة ، متمثلة في الخمرة ، المأخوذة من بساتين وكروم خوارزم، ومتمثلة في الرياح والاشجار والانهار والسماء والشمس والنجوم والقمر . ومتمثلة في وصف الرياحين والأزهار ، وهوام الأرض كالسلحفاة والحية والعقرب ، كما سنرى بعد قليل ، وهذا يبين لنا ، أن وصفهم لم يقتصر كما رأينا من قبل على الطبيعة الصامتة ، وانما تعداها الى وصف الطبيعة الحية . وهذا أبو بكر يصف السلحفاة بقوله[٢٦] :

بنتُ قَفرٍ بَدَتْ لنا من بعيدٍ
مثلَما قد طوى البخاريُّ سُفْرَه
رأسُها رأسُ حيّةٍ وقَراها
ظهرُ تُرْسٍ وجلدها جلدُ صخرَه[٢٧]
مثل فِهْرِ العطّار دُقَّ به العطـ
ـرُ فحلّت طرائف الطيب ظهرَه[٢٨]
أو كما قد قلبتَ جفنةَ شربٍ
نقشوها بحُمرةٍ وبصُفرَه
يقطع الخوفُ رأسها فإذا ما
آمِنَتْ قرّ رأسها مستقرّه

ومن الملاحظ أن وصف الخوارزمي، في هذه الأبيات ، هو وصف حسي،

---

(٢٦) الوافي بالوفيات ٣ : ١٩٤.

(٢٧) قراها : اي ظهرها .
ترس : الترس من السلاح : ما يتوقى به ، والترس والمترس : خشبة توضع خلف الباب لاحكام اغلاقه .

(٢٨) فهر : الفهر : الحجر أو قدر ما يدق به الجوز او نحوه .
طرالف : هكذا وردت ، ولعلها طرائق : جمع طريق : كل احدورة من الارض . او صنوفة من ثوب او شيء ملزق بعضه على بعض . وثوب طرائق : اي خلق .

أو وصف عيني ــ إن صح هذا التعبير ــ لأن الأبيات ترينا كأنمـا الموصوف كان أمام الواصف ، في كل حركة من حركاته ، وان الشاعر ما هو الا رسام ، أجاد في نقل صورة السلحفاة وحركاتها ، الى صورة شعرية حية ، يعبر عنها برسم الخطوط والأشكال في حالة الرسم ، ووصف المشاعر والأفكار ، في حالة الشعر .

ومن وصفه ما قاله في الريحان في أرجوزة(٢٩) :

وصفتُ ريحـاناً إذا ما وَصَفَهْ ... واصِفُه قيلَ له : زد في الصِّفَهْ
دَقَّقَهُ صانعُـهُ ولَطَّفَـهْ ... كأنه وَشْمُ يدٍ مُطَرَّفَـهْ(٣٠)
أو خَطُّ وَرّاقٍ أدقَّ أحرُفَهْ ... أو زَغَبات طائرٍ مُصَفَّفَهْ(٣١)
« أو حُلَّة بخُضْرةٍ مُفوَّفـهْ »(٣٢)

وقال في الطير(٣٣) :

عَلْـقٌ غـدا بيّاعُـه ... مبتاعَـه لهوانـه(٣٤)
كالفرْخِ لم يخطبْ فصـا ... رَ أبوه من اختـانِه(٣٥)

---

(٢٩) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٩ ــ ٢٤٠ . وفيها : « وضفث ريحان » والضفث : كل ما ملا الكف من النبات مما له ساق . والتضفيث : ما بـل الأرض والنبات من المطر . ، وينظر : دراسـات فنيـة في الادب العـربي . ص ٤٢٢ .

(٣٠) مطرفة : طرفت المراة بنانها : خضبت أطراف اصابعها .

(٣١) زغبات : الزغب : الشعيرات الصفر على ريش الفرخ ، وهي اول مايبدو من الشعر والريش . ودقاقه ، الذي يجود ولا يطول ، واحدته زغبة.

(٣٢) مفوفة : المفوف من البرود : الرقيق أو ما فيه خيوط بيض .

(٣٣) التمثيل والمحاضرة . ص ٣٦٤ .

(٣٤) علق ، في لسان العرب . م٢ . ص ٨٦٢ « مادة علق » ، علق بالشيء علقا وعلقه : نشب فيه . وقال اللحياني : العَلَق : النشوب في الشيء . واعلق الحابل : علق الصيد في حبالته اي نشب .
والعِلْق : النفيس من كل شيء . والعُلَق : الجمع الكثير .

(٣٥) اختان : خاتَنَهُ : اي تزوج اليه . والختن : زوج البنت او الاخت : كل من كان من قبل المراة كالاب والاخ . او من كان من قبل الزوج كـالاب والاخ والعم . ومن كان من جهة المراة جميعهم اختان .

وقال أبو بكر الخوارزمي في الشيب[٣٦] :

لاحت لوجهي أنجمٌ   للشيب عُدْنَ به طوالعْ
أوْدَعْتُ منهنَّ الصبا   مَنْ لا يرى رَدَّ الودائعْ
فَقَصَصْتُهُنَّ ، وانّما   دهْري بمقراضي أُخادِعْ
واذا عَدُوّكَ كانَ بعضَ   كَ في الخَطوبِ فَمَنْ تُقارِعْ

ومن البين أن أبا بكر ، يتألم لمطلع الشيب في رأسه ، ويعتبره عدوا له ، وكأنما يتدارك من نفسه هذا التجني ، على هذا الضيف ، الذي ليس من مجيئه بد ، ولذلك نراه كأنما يلوم نفسه فيقول[٣٧] :

وأراكَ تشكو الشيبَ تظلمُه   والشيبُ زَرْعٌ بزْرُه العُمْرُ
كالخمر يجلُبُها الخُمارُ ، وقد   يُهْجِي الخُمارُ وتُمدَحُ الخَمْرُ

ومن جميل الوصف ، ما قاله أبو بكر ، من قصيدة يصف فيها الحمى . ويقول الثعالبي ان أبا بكر ، بعث بهذه القصيدة من أرجان ، الى الصاحب ابن عباد[٣٨] .

ولو أَبْصَرْتَ في أَرْجانَ نَفْسي   عَلَيْها من أبي يَحْيَى ذِمامُ[٣٩]
ولي من أُمِّ مَلْدَمَ كلَّ يومٍ   ضَجيعٌ لا يَلَذُّ له مَنامُ[٤٠]
مُقَبَّلَةٌ وليس لها ثنايا   مُعانَقَةٌ وليس لها الْتِزامُ

---

(٣٦) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٥ .
(٣٧) المصدر السابق ٤ : ٢٣٥ .
(٣٨) المصدر السابق ٤ : ٢١٧ ـ ٢١٨ .
(٣٩) ابو يحيى : يقال لتابض الارواح ، كما يقال للحبشي : ابو البيضاء ، والأعمى : ابو البصير . ينظر : ثمار القلوب للثعالبي . ص ٢٤٦ . تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم . مط ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م .
(٤٠) أم ملدم : الحمى .
ضَجيع : الضجعة : المرض والرقدة . والضُجْعة والضاجع : الكثير الاضجاع ، الكسلان اللازم للبيت لا يكاد يخرج منه فهو مقيم به لعجزه.

كأنَّ لها ضَرائرَ من غِذائي فَيُغْضِبها شَرابي والطعامُ

إذا ما صافَحَتْ صَفَحاتِ وَجْهي غَدا ألفاً وأمسى وَهْوَ لامُ

إذاً لرأيتَ عَبْدَكَ والمَنايا تصيحُ به : تَنَبَّهْ ، كَمْ تَنامُ ؟

وما استَبْكاكَ منْ بَعْدي أسيرٌ يَرُضُّ عِظامَه الحق العظامِ

ولا ترجيعُ ثَكْلى خَلْفَ نَعْشٍ

« أمَحْمولٌ على النّعشِ الهُمَامُ[41] » ؟

ولا تَرْديدُ صبٍّ وَهْوَ باكٍ

« سُقيتِ الغَيْثَ أيتُّها الخِيامُ[42] »

ولولا فَقْدُ وَجْهِكَ لم أُعبِّسْ على ضَيفٍ يقال له الحِمامُ

فَما في العيش لولا أنْتَ طيبٌ ولا في الموتِ لولا أنْتَ ذامُ[43]

وكنتُ ذَخَرْتُ أفكاري لوقْتٍ فكانَ الوقْتُ وقْتَكَ ، والسَّلامُ

وكنتُ أطالب الدنيا بحُرٍّ فأنتَ الحرُّ ، وانقطعَ الكلامُ

ولما سِرتُ عنكَ رأيتُ نفسي وبينَ القلبِ والرِّجْلِ اخْتِصامُ

فَذاكَ يقولُ منكَ السير عنه وتلكَ تقول منك الاغْترامُ[44]

وَسائلَني بعلمِكَ مَنْ أراهُ وقالوا « ما وراءكَ يا عِصامُ »

فقلتُ زكاةُ يحويه عِلْم لِمَنْ لِغُلامِهِ مثلي غُلامُ

(٤١) البيت فيه تضمين للنابغة ، وصدر البيت : الم اقسم عليك لتخبرني . ينظر : ديوان النابغة الذبياني . ص ٢١٤ . تحقيق : المحامي فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت ـ لبنان ١٩٦٩م .

(٤٢) البيت فيه تضمين ، والبيت لجرير ، وصدره : متى كان الخيام بذي طلوح ينظر : ديوان جرير . ص ٤١٦ . تحقيق : اكرم البستاني . دار صادر للطباعة والنشر . بيروت ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م .

(٤٣) ذام : اي ذاماً له .

(٤٤) الاغترام : الغرم : الغرامة او الدين . والغارم : الذي لزمه دين ، او حمالة أو كفالة .

ولم يكن أبو بكر الخوارزمي ، سبّاقا في وصفه للحمى ، فقد طرقه الشعراء السابقون ، كما طرقه المتنبي ، الذي كان معاصراً لأبي بكر،ولا ندري أيّهما أسبق من صاحبه في تناول هذا الموضوع •

أما المتنبي فقد وصفها بالزائرة الحيية الخجلة،لذلك فهي تأتيه في الظلام، لتبيت في عظامه ، رافضة أي فراش غيرها :

وزائرتي كأنّ بها حَياءً فليس تزور الا في الظلامِ
بذلتُ لها المطارفَ والحشايا فعافتها وباتت في عظامي

وكنّاها أبو بكر بأم ملدم ، ووصفها بأنها عدوة للطعام والشراب ، فهي واياهما كالضرائر حينما يجتمعن • وكنىٰ قابض الأرواح بأبي يحيى • ويقول الثعالبي في هذا ان أبا بكر الخوارزمي انشده لنفسه من قصيدة قوله :

سريعة موت العاشقين كأنما يغار عليها من هواهمْ أبو يحيى

وله من قصيدة مرثية :

أعوّذه من نَفْحَةِ الرّيح خيفة عليه ، ورجْل الموت تطلبه عَجْلى
وأدعو له بالعمر في كلّ مَشْهدٍ ويضحك منّي في الكمين أبو يحيى(٤٦)

والقصيدة لم تقتصر على وصف الحمى ، وانما تعدتها الى المديح ، للصاحب بن عباد ، ذلك المديح المليء بالعاطفة الصادقة ، والألم والحسرة ، لفراقه الممدوح •

ويقول الثعالبي(٤٥) إن أحسن ما قيل في وصف الحمى هو قول أحدهم:

وزائرة بلا وعد أتتني فحلت بين جسمي والفؤاد
سنان للمنايا إن تراءت لنفسي فالمنايا في طراد

أما الغزل والنسيب ، فقد طرقه الشاعر ، في مختلف ألوانه ، من

(٤٥) ينظر كتابه : أحسن ما سمعت ص ١٤٧ ولم يشر الثعالبي الى اسم صاحب هذا الشعر .

(٤٦) ينظر : ثمار القلوب . ص٢٤٦ .

التغزل بالحبيبة ، الى الثناء على الممدوح ، والغزل بالمذكر ، والتغزل بالقينة • وفي هذا المجال يقول شاعرنا(٤٧) :

مضتِ الشبيبةُ والحبيبةُ فالتقى دمعان في الأجفانِ يَزْدحمان
ما أنصفتني الحادثاتُ رَمينني بمودّعين وليس لي قلبان(٤٨)

ومن أخرى قوله(٤٩) :

ليس على القَلْبِ للعذولِ يَدُ ولا ليومي مِن الفراقِ غَدُ
كلٌّ فؤاد مع الهوى عرضٌ وكلٌّ يوم مع النَّوى أمَدُ(٥٠)
يا أيها الطالبون بي رَشَدا متى التقَى الحبُّ قطّ والرَّشَدُ
ولي فؤاد مُذ صِرْتُ أفقِدُه لم انتفع بعدَه بما أجدُ
ولي حبيب لو كنتُ أنصِفُه وَجَدْتُ فيه أضعافَ ما أجدُ
شَهِدْتُ للقلبِ حينَ علّقه بأنّه للوجوهِ مُنْتَقِدُ(٥١)

فأبو بكر الخوارزمي كما يظهر لنا من هذه الأبيات ، رقيق حين يتغزل ، لين خاضع لحبه ، يعتبر الخضوع للقلب ، شيئا لازما في الحب ، لأن الرشد والحب ، لا يلتقيان • فهو في غزله هذا ، رقيق الألفاظ ، سلس الأسلوب ، يؤكد الناحية الحسية ، في جمال المرأة •

ومن ملحه في النسيب والغزل ، قوله(٥٢) :

وقالوا لها : هذا حَبيبُكِ معرضاً
فقالتْ : ألا إعراضُه أيسرُ الخَطبِ

---

(٤٧) خاص الخاص . ص ١٩٠ ، الاعجاز والايجاز . ص ١٩٨ .
(٤٨) انصفتني : انصف أي عدل . رمينني : نزلن بي . مودعين : يقصد الشبيبة والحبيبة .
(٤٩) يتيمة الدهر ٤ : ٢١١ — ٢١٢ .
(٥٠) النوى : البعد ، أو الفراق .
(٥١) علقه : أي احبه وشغف به . والعلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب .
(٥٢) مصارع العشاق ١ : ٢٩٢ .

فمـــا هي الا نظـــرة" بتبســـــمٍ

فتصطكُ رِجــلاه ويســـــقط للجنبِ

وفي هذين البيتين ، صورة أخرى ترينا تذلل وخضوع أبي بكر في حبه .

ومن أجمل ما قاله أبو بكر في الغزل والنسيب قوله(٥٣) :

أغرَّكِ يومَ البـين منّي تبسّـــــمي

فَشيَّعتِ سَهْماً في فؤادي بأسْـــهُمِ

رُوَيْدَكِ عَهْدُ القلب بالصبرِ بعـدكم

ـوَحَقّكِ ـعَهْدُ النار بالبَرْدِ فافْهَمي(٥٤)

عَذيريَّ مِنْ ضَحْكٍ غَــدا سَبَبَ البُكا

ومن جنّـــةٍ قـــد أوقعتْ في جهنـــمِ

زَعمتِ بأنّي قَــدْ ســـلوتُ وهـــذه

أَراجيفُ مَنْ فيعَزْمِهِ قَتْلُ مُسْلِمِ(٥٥)

على ذا فَـــــدومي أجْرِمي وتَجَرّمي

وبكّي وأَبكي وأظلمـــي وتظلّمـــي

كأنّكِ لا تَرْوينَ بيتـــاً لشـــــاعرٍ

سوى بيتِ « من لا يظلم الناس يُظْلَمِ »(٥٦)

تَعلّمْتِ فعْــلَ الدهْرِ ثم ســـبَقْتهِ

فأنســـاني التلميـــذ فعلَ المعـــــلم

---

(٥٣) ينظر شرح المضنون به على غير اهله . ص ٢٦٥ ــ ٢٦٩ .

(٥٤) البرد : يقال ماء برد : اي بارد . والبرد (بالفتح) : هو حب الغمام .

(٥٥) الاراجيف : اي الاخبار السيئة والكاذبة ، التي يضطرب لها الناس ، وهي جمع ارجاف .

(٥٦) اشارة الى بيت زهير بن ابي سلمى :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

وقد أحسن الشاعر ، في هذا العتاب الرقيق ، الذي نراه يوجهه الى حبيبته ، ليبرهن لها أن تبسمه يوم الفراق ، لم يكن عن سلوة أو فرح ، وان نظرتها العاتبة اليه ، قد فعلت في قلبه فعل السهم ، وان قلبه بعد الفراق ، لن يتلاءم مع الصبر ، لأنهما أصبحا كالنار والثلج أو كالنار والماء البارد ، فانهما لا يجتمعان ، لأن النار والماء لا يتلاءمان •

ثم نراه يتذلل اليها ، ويطلب منها أن تغفر له ، تلك البسمة التي أصبحت سبباً لبكائه ، وأوقعته في نار جهنم ، وأحرقته بنار الهوى •

وهكذا يسير الشاعر ، على هذا المنوال ، من معاتبة الحبيبة ، وتعليل سبب تبسمه وضحكه ، حتى يلجأ أخيراً الى إرضائها ، والتوسل اليها بقوله:

أَديري لَحاظَ القلبِ فيَّ لتنظري
إلى مفلس من صبرِه عنكِ معدمِ
ولا ترسلي هذي اللواحظَ كلَّها
فواحدة تكفيكِ قَتلَ المُتيَّمِ

لا ندري إن كان أبو بكر الخوارزمي ، قد جرّب لوعة الحب وألم الفراق ، فجاء غزله بهذه الصورة الصادقة المليئة بالعاطفة ، أم أنه أتى به على طريق التقليد والمحاكاة • وأيّا ما يكون الأمر ، فأنه أجاد القول في الحالتين•

ومن قوله في الصاحب بن عباد[٥٧] :

يَفُلُّ غداً جيشُ النَّوى عسكرَ اللِّقا
فرأيكَ في سَحِّ الدموعِ مُوَفَّقا
ولما رأيتُ الإلفَ يَعْزِمُ للنَّوى
عزَمتُ على الأجفانِ أن تَترَقْرَقا
وخذ حجّتي في تَرْكِ جسميَ سالماً
وقلبي ، ومن حقَّيْهما أن يُخرَّقا

(٥٧) يتيمة الدهر ٤ : ٢١٠ ، مصارع العشاق ١ : ٩٠ .

يدي ضَعُفَتْ عن أن تُخَرِّقَ جيبَهـــا
وما كان قلبي حاضراً فَيُمزَّقــا

أما عن الشعر الماجن ، فقد طرقه الشاعر ، بصورة مبتذلة ، ومن أراد الاطلاع على شيء منه ، ففي معجم الأدباء بعضه ، ولم تتمثل به ، لأن الذوق لا يقبله[٥٨] .

ويظهر تبذل الشاعر أيضا ، في هجائه ، فهو مقذع الهجاء فاحشه ، مثله في ذلك مثل المتنبي[٥٩] .

ومما لا شك فيه ، أن هذا التبذل في القول ، مبعثه ـ كما نرى ـ تردد الشاعر على مجالس الأنس ، ومجالس الخمرة ، فقد كان على حد قول الثعالبي[٦٠] : « يقسم أيامه بين مجالس الأنس ، ومجالس الدرس » ،متمثلاً في ذلك قول كشاجم :

عَجَبي ممّن تعالت حالُـــه
وكَفَاهُ اللهُ ذَلاّتِ الطَّلَبْ[٦١]
كيفَ لا يَقْسِمُ شَطْرَيْ عمرِه
بين حالَيْن : نعيمٍ وأدب ؟!

ومن أبيات أخرى في هذا المعنى قوله[٦٢] :

الملك عندي متعةُ الشباب
والعزلُ عندي فرقةُ الأحباب
والفقرُ عندي عدم الشراب
والشيبُ عندي كذبُ الخضاب

---

(٥٨) ينظر المصدر السابق ٢ : ٣٤٢ . لمن اراد الاطلاع .
(٥٩) تنظر ابياته الفاحشة في الهجاء ، في المرجع السابق .
(٦٠) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٨ .
(٦١) ورد البيت هكذا في ديوانه . ص ٦٩ . تحقيق : خيرية محمد محفوظ . مط . الجمهورية . بغداد . ١٣٩٠هـ ــ ١٩٧٠ م . وفي اليتيمة « عجباً » بدلا من عجبي . و « فكفاه » بدلا من كفاه .
(٦٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤١ .

فالشاعر هنا يدعو الى اللهو والتمتع ، ويرى أن الفقر انما هو عدم الخمرة ، كما يرى أن الخضاب يؤكد وجود الشيب ، وهو في هذين البيتين يحث على شرب الخمرة ، والتمتع باللهو والشباب ، ولذلك نراه يقول فيمن يطلب الصهباء ، وهو بخيل(٦٣) :

يا مَنْ يُحاوِلُ صِرفَ الراحِ يَشْرَبها
فلا يلف لما يهواه قرطاسا(٦٤)
الكأس والكيس لم يُقْضَ امتلاؤهما
ففرّغِ الكيسَ حتى تملأَ الكاسا

فالشاعر هنا ـ كما يبدو ـ يدعو من أراد شرب الخمر الخالصة ، أن يكون كريماً في الاتفاق عليها ، لأن البخل لا يتلاءم مع شربها ولذلك فعليه أن يصرف كل ما في كيسه من نقود ، حتى يحصل عليها معبئة في زجاجات ، ملفوفة بالورق .

كما يظهر لنا وجود إلفة ومودة ، بينه وبين الكأس ، ولذلك فهو يقول(٦٥) :

عَزِلَ الوردُ عن أنوفِ النّدامى
وأتَتْنا ولايةُ الرَّيْحانِ
فاقْضِ حَقَّ الريحانِ بالرّاحِ ، فالريـ
ـحانُ والراح في الورى أخَوانِ
وأنْدُبِ الوَرْدَ وأبْكِهِ بدُموعٍ
من دُموعِ الأقداحِ لا الأجْفانِ

وفي شعره هذا نفحة من شعر الصنوبري كما نرى .

---

(٦٣) المصدر السابق ٤ : ٢٣٩ ، الاعجاز والايجاز . ص ٢٠٠ ، وفيات الاعيان ٤ : ٣٤ ، الوافي بالوفيات ٣ : ١٩٣ ـ ١٩٤ .
(٦٤) صرف الراح : الخمر الخالصة . القرطاس . الورق .
(٦٥) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٩ .

ويظهر أن شاعرنا الخوارزمي ، كان يفرط في الشرب ، حتى يسكر ، ويظهر ذلك في قوله[٦٦] :

سقانيَ الوجْهُ الحَسَنْ كأساً فخلَّيْتُ الرَّسَنْ
وصار عندي حَسَناً قَتْلُ الحسين والحَسَنْ

ويريد الشاعر أن يقول : إنّه تخلى عن حيائه وخجله ، بعدما شرب الخمر، وقد كنّى عن ذلك بقوله : « خلّيت الرسن» وكان مبعث ذلك سكره الشديد، الذي اوصله الى درجة، صورت له ما كان منكراً حسناً ، كمقتل الحسين والحسن •

ومما قاله في مثل هذا المجال[٦٧] :

وقالوا : أفقْ من سكرةِ اللهوِ والصبا
فقد لاحَ صبح في دجاك عجيب
فقلت لهم : كفّوا الملامَ وأقصروا
فإنَّ الكَرى عند الصباح يطيب

فهو يريد أن يبين أنه كان يشربها ، حتى بعد أن لاح الشيب في رأسه ، وقد كنى عن الشيب بالصبح ، وعن سواد الشعر بالدجى •

وقد علّق أبو هلال العسكري ، على هذين البيتين بقوله : « وهذا معنى مليح ، أظنه ما سبق اليه[٦٨] » •

وأبو بكر كما رأينا ، متقلب الأهواء ، يكره بقدر ما يحب ، ويهجو بقدر ما يمدح ، وربما كانت الظروف المحيطة به ، ـ كما نوهنا ـ هي السبب الرئيس في هذا التقلب ، من تجوال في البلاد ، وعدم استقرار ، وتقلب في معيشته بين قصور الأمراء والوزراء ، الى حرمانه من تلك المعيشة ، في حالة غضب الوزير، أو الحاكم عليه • هذا الى تغير في حالته المالية ، من غنى فاحش ، في حالة رضاء حاميه ، الى فقر مدقع ، لغضب حاميه عليه ، ومصادرة أمواله ، نتيجة تقلب الأحوال السياسية ، وهذا مثل واضح على خضوعه لأحوال عصره بدليل قوله:

---

(٦٦) المرجع السابق ٤ : ٢٣٩ .
(٦٧) ينظر ديوان المعاني ـ للامام ابي هلال العسكري ٢ : ١٥٦ . نشر :مكتبة القدسي .القاهرة . سنة الطبع ١٣٥٢هـ .
(٦٨) ينظر ديوان المعاني ـ للامام ابي هلال العسكري ٢ : ١٥٦ .

لـم لا أجانس دهري في تقلبه
لم لا أبادل انساناً بإنسان

كل هذه الأمور ، كان لها الأثر الهام ، فيما وصف به أبو بكر ، من كونه ناكراً للجميل أو بخيلاً أو طويل اللسان ، كما كان لها الأثر الفعّال ، في حياته، وفي شعره ونثره ، لذلك نراه دائم الشكوى ، كثير التضجر من الدهر ، كأن يقول(٦٩) :

أيّ خير يرجو بنو الدّهر في الدهـ
ـر وما زال قاتلاً لبنيه
مَنْ يَعمّر يُفْجَعْ بموت الأخلا
ءِ ومن مات فالمصيبةُ فيه

وفي مثل هذا قال أيضا(٧٠) :

ومتى شتَمْتَ الدهرَ تشتُمْ صابراً
تبكي ويضْحكُ ذلك المَشْتومُ

أو قوله من أرجوزة(٧١) :

لا تشكرِ الدهرَ لخير سببه	فإنه لم يتعمد بالهبه
وإنّما أخطأ فيك مذهبه	كالسيل اذ يسقي مكاناً خرّبه
والسمّ يستشفي به من شربه	ما أثقل الدهرَ على مَنْ ركبه
حدثني عنه لسانُ التجربة	ما أهونَ الشوكةَ قبل الرطبة

« واسهل الكَدّ على من أكسبه »

ففي كل هذه النماذج التي مرت ، رأينا أبا بكر ساخطاً على الدهر ،عاتباً عليه ، لأنه لا خير فيه كما يراه .

(٦٩) الكشكول . ص ٢٦٤ .
(٧٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٤ .
(٧١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٠ .
والابيات موجودة ، في مصادر اخرى ، ولكن بروايات اخرى ، فيها تقديم وتأخير في الابيات ، وتقديم وتأخير في الصدر والعجز . ينظر التمثيل والمحاضرة . ص ١٢٥ ، الكشكول . ص ٢٦٤ .

ويقول الخوارزمي في أصدقائه ، ما قاله في دهره أو لياليه(٧٢) :

كَفى حزنـــاً ان لا صديق ولا أخ   يفيد غنىً الا يُداخِلُهُ كِبْـرُ
فلا تال فوقَ القوتِ مثقالَ ذرّةٍ   صديق ولا أوفى على عسرة يسر
وما ذاكَ الا رغبـــةٌ في وصاله   والا حـذار أن يلمّ به العـــذر

ويقول(٧٣) :

لِمْ لا أجانسُ دَهْري في تقلبّه   لِمْ لا أبادلُ إنساناً بإنســـانِ
لمْ لا أحاكي حبيبـاً في مقالتـه   ما اليوم أوّل توديعي ولا الثّـاني
لِمْ لا أقارض ما قد قاله حَسَنٌ   وَصْلاً بوصلٍ وهِجْراناًبهِجْران

وفي أبياته هذه نفحة من شعر أبي نواس • وفي بيته الاخير هذا محاكاة واضحة لاخلاق أهل عصره •

وأخيراً وبعد هذه اللوعة والحسرة ، اللتين نراهما واضحتين ، في هذه النماذج التي استشهدنا بها • نرى الشاعر يصيح متضجراً ، مما وصلت اليه حاله وصحته ، ولذلك نراه يقول وكأنما يرثي نفسه(٧٤) :

وما أصبحتُ الا مثل ضِـــرْسٍ   تـــآكل فهو موجودٌ فقيـــدُ
ففي تَـــرْكي لـه داءٌ دويٌّ   وفي قلعي لــــه ألمٌ شـــديدُ

وهنا يمكننا أن نستشهد على حاله هذه ، ببيتين للشاعر أبي الحسين بن لنكك البصري ، وطالما استشهد بهما أبو بكر الخوارزمي نفسه ، على حـد قول الثعالبي(٧٥) :

تولى شبابُ كنتَ فيه مُنَعّمـــاً   تروح وتغدو دائمَ الفرحـــاتِ
فلست تلافيــه وإن سرت خلفـــه   كما سار ذو القرنين في الظلمـاتِ

(٧٢) ينظر : غرر الخصائص الواضحة . ص ٢٩٥ .
(٧٣) ينظر : تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون . ص ٣١١ .
(٧٤) ينظر : شرح المضنون به على غير اهله . ص ١٢٤ .
(٧٥) ينظر كتابه غرر السير ، المعروف بكتاب « غرر اخبار ملوك الفرس وسيرهم » . ص ٤٤٠ .

سمات شعره :

أما شعر أبي بكر الخوارزمي ، فقد نوهنا سابقا ، في أثناء كلامنا عن الأدب في هذا الاقليم ، أن الشاعر اتبع في شعره الخط التقليدي ، وان كانت له طريقته الخاصة ، وسيره المتميز ، وشعره الفني،الذي بلغ به الذروة ،والذي تتضح فيه معالم هذا الخط ، بأكمل ما يكون الاتضاح ، وتبدو فيه ناضجة ، كأحسن ما يكون النضج ، حتى ليمكن أن يعدّ أبو بكر ، قمة هذا الاتجاه، في اقليم خوارزم ، في القرن الرابع الهجري •

ورغم أن أبا بكر كان يسير في هذا الاتجاه،الذي سار فيه كثيرون غيره، فقد كانت له ميزات خاصة ، جعلت لشعره شخصية ذات سمات واضحة ، بين أشعار الآخرين ، ومن اهم تلك السمات ، تأثره بالحياة السياسية والاجتماعية واللغوية ، أو بالحياة الثقافية العالية ، التي عاش فيها إقليم خوارزم ، في هذا القرن •

أما من الناحية اللغوية ، فقد كان أبو بكر الخوارزمي ، يعد من ألمع من ظهروا على مسرح هذه الحياة ، في عهد الحمدانيين في الشام • وقد كان يشاركه تلك الحياة ، في بلاط سيف الدولة ، كل من أبي الطيب اللغوي ،وعلي ابن عبدالعزيز الجرجاني ، وابن خالويه ، وأبي علي الفارسي[(١)] •

والسمة الثانية التي لاحظناها ، هي سمة النفس الطموحة الى الشهرة ، بعزّة وكرامة ، ولذلك رأيناه يهجو ممدوحيه من العظماء والكبراء ، حالما يسمع منهم كلمة جارحة ، أو حالما يرى أنه لم يحصل على ما يريد ، ومن هنا رأينا الهجاء ظاهرة من ظواهر شعره • من ذلك هجاؤه للدولة السامانية ، وللحاجب تاش ، وللوزير البلعمي ، وطاهر السجزي الذي يقول فيه[(٢)] :

---

(١) للتفصيل ينظر : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ــ د . مصطفى الشكعة . ص ١٠٥ . مكتبة الانجلو المصرية . سنة الطبع ١٣٧٨هـ ــ ١٩٥٨م .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٢٣٢ .

ألا يا سـائلي بأبي حسين   وفي التجريبِ علمٌ مستفاد
هو ابنُ سَمِيّه والطاءُ عَين   وشبهُ كَنيّه والسينُ صـاد

ولعل الشاعر في هذين البيتين ، يريد شيئاً من التلاعب في الفاظه ، فهو يريد بقوله : « والطاء عين » أي هو ابن عاهر ، وبقوله : «والسين صاد» : أي هو أبو حصين ، وهي كنية الثعلب ، وهو مضرب المثل في المكر •

وعلى الرغم من الظروف القاسية التي مرت بأبي بكر ، الا أن نفسه الحساسة الأبية ، كانت ترى أن التجلد والصبر ، على المكروه ، هو الطريق الصحيح ، وانه لمن الاستكانة والذل ، أن يظهر الانسان حزنه وكربه للناس ، لأن عزة نفسه تمنعه عن ذلك ، واسمعه يقول[٣] :

عليكَ بإظهـار التجلّـد للعـدى
ولا تُظْهِرَنْ منكَ الذّبول فتُحقرَ[٤]
ألستَ ترى الرّيحانَ يُشْتَمُ ناضـراً
ويُطْرَحُ في الميضـا اذا ما تَغَيَّـرا[٥]

والسمة الأخرى التي يمكننا ملاحظتها ، في شعر أبي بكر ، هي الميل الى المحسنات البديعية ، حتى ولو أدى ذلك الى افساد الصورة ، وأساء الى جمال القول الأدبي ، وربما كان هذا هو الذي دفع الأستاذ عمر فروخ الى القول[٦] : إنّ شعره أقرب الى شعر الكتّاب ، منه الى شعر الشعراء المطبوعين ، فهو على حد قوله : حسن المعاني ، قوي السبك ، صافي الأسلوب ، ولكنه قليل الرونق والطلاوة •

إنّ أبا بكر الخوارزمي ، كان ناثراً ، قبل أن يكون شاعراً ، وصفته

---

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٠ ، الاعجاز والايجاز . ص ١٩٩ ، التمثيل والمحاضرة . ص ١٢٥ ، خاص الخاص . ص ١٩٢ ، الوافي بالوفيات ٣ : ١٩٥ ، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون . ص ٦٥ .
(٤) ورد في الاعجاز والايجاز . ص ١٩٩ « الدبول » بدلا من الذبول . والدبل هو الثكل .
(٥) الميضا : المستراح . محل الوضوء .
(٦) ينظر كتابه : تاريخ الادب العربي . ص ٥٤٤ ــ ٥٤٥ .

النثرية غلبت على صفته الشعرية ، وهذا هو الذي دفع كل من تعرض له ، أن يهتم به ناثراً ، دون الاهتمام بشاعريته ، التي طغت عليها شخصيته الأخرى •

والذي نريده من قولنا هذا ، أن السبب في كون شعره أقرب الى شعر الكتّاب ، منه الى شعر المطبوعين ، ان صفته النثرية ، من الممكن أن تفرض نفسها على شعره ، ولكنها على الرغم من ذلك ، لم تستطع أن تجرده من رونقه أو طلاوته ، التي رأينا الكثير منها ، أثناء تمثيلنا ببعض قصائده •

اذن مال أبو بكر الى استعمال المحسنات البديعية ، كما مال غيره من الشعراء ، ولا عجب في هذا ، فقد كان عصره عصر ازدهار هذه الفنون ، التي كثرت في شعر الشعراء ، ونثر الناثرين • يقول أبو بكر الخوارزمي ، في رثائه ركن الدولة(٧) :

ألستَ ترى السيفَ كيف انثلم ... ورُكْنَ الخلافة كيف انهدمْ
طوى الحسنَ بنَ بُوَيْهٍ الردى ... أيدري الردى أيَّ جيش هزمْ
طويلُ القناة قصير العدات ... ذميم العدات حميد الشيم
فصيحُ اللسان بديع البيان ... رفيع السِنان سريعُ القلم(٨)
يكيلُ الرجالَ بأقدارها ... ويرعى البيوتاتِ رعيَ الحرَم
جواد عليهم بخيل بهم ... اذا ساء خصّ وان سرّ عم
فيا دهرُ سُحقاً ولا تحتشم ... فقد ذهب الرجل المحتشم
وخطَّ الفناءُ على قبره ... بخط البلى وبنانِ السقم

ففي هذه الأبيات ما فيها من الاستعارة والكناية •

ومن هذا ما ضمنه من كتاب كتبه الى قاضي خراسان ، حين نكبه أميرها(٩) :

---

(٧) يتيمة الدهر ٤ : ٢٢٦ ، تكملة تاريخ الطبري ـ محمد بن عبدالملك الهمذاني ـ تحقيق : البرت يوسف كنعان . بيروت لبنان . ط ١ سنة ١٩٥٩م . حـ١ . ص ٢٢٩ .

(٨) رفيع السنان ، سريع القلم : كناية عن الظفر في الحروب ، وعن نفاد أوامره .

(٩) ينظر ديوان رسائله . ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

إذا ما الدَّهـــر جرَّ على أناس   كلاكِلَــه أنـــاخَ بآخَرينا
فقـــل للشامتين بنـــا أفيقوا   سَيَلقى الشامتون كمـــا لقينا

ففي البيت الأول استعارة واضحة. وسنعرض لغرامه وكلفه ،بالمحسنات البديعية ، ولا سيّما السجع ، حين كلامنا عن نثره ، فهو أبين عنده في النثر ، منه في الشعر .

وهناك سمة أخرى ، هي سمة الوصف النفسي ، والتغلغل في تصوير خلجات النفس . وقد صور لنا أبو بكر ذلك ، في قصيدته التي بعث بها ، الى الأمير أبي نصر الميكالي ، خير تصوير ، كما مر معنا[١٠] .

وبعد هذا فالسمة الرئيسة ، التي يمكننا أن نقول : إنّها تبدو واضحة في شعره ، هي سمة النضج الثقافي ، التي تولدت عنده ، تتيجة المامه بفنون اللغة العربية ، وتتيجة كثرة حفظه ، لأقوال العرب وأخبارهم وأشـــعارهم . تلك السمة التي كثيراً ما استمد أبو بكر منها الشيء الكثير ، ليعينـــه على تمثيل صوره ، تصويراً دقيقاً ، فالسمعاني يقول عنه إنه كان : « أوحد عصـره في حفظ اللغة والشعر[١١] » . كما روى عنه أيضا حكاية تدل على هذا ، وتدل على تمكنه العجيب من العربية وفنونها ، حيث قال : « حكي عنه أنه دخل مجلس الصاحب بن عباد،وعليه ثياب خلق[١٢] ، وكان غاصاً بالفضلاءوالشعراء، من أقطار الأرض ، فصعد الصُّفة[١٣] ، فاستزراه[١٤] الحاضرون ، فقـــال واحد منهم ، ظنّاً منه أنه لا يعرف العربية ، من هذا الكلب؟ فقـال أبو بكر الخوارزمي : الكلب الذي لا يعرف عشرين لغة في الكلب. فسكتالحاضرون، وأقروا له بالفضل ، فذكر لهم أسماء الكلب[١٥] » .

---

(١٠) ينظر ص ١٥١ من هذا الكتاب .
(١١) ينظر كتابه : الانساب ٥ : ٢١٣ .
(١٢) اخلق الثوب : ابلاه ، والثوب بلي فهو مخلق .
(١٣) الصفة من البيت : الظلة : اي الموضع المظلل . ومن البنيان : الطرة او شبه البهو الواسع الطويل السمك . وجمعه صفف . وقيل : هـــو ظلة تقام على عمد امام البناء أو بجانبه .
(١٤) فاستزراه : اي عابه .
(١٥) ينظر الانساب ٥ : ٢١٣ .

ويتمثل لنا نضجه الثقافي أيضا بأجلى صوره ، في معارضاته الشعرية ، مع الوستمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، كما يتمثل في بعض لمحاته النقديـــة للشعراء وشعرهم ، سواء منهم السابقون والمعاصرون . وتظهر تلك المقدرة النقدية في قوله مثلا(١٦) : « غرر البحتري ووسائط قلائده ، وأبيات قصائده ، أكثر من أن تحصى ــ وعندي أن أفصح أبياته وأبلغها ، وأجمعها للكثير من المعاني ، بالقليل من الألفاظ هي قوله :

فمن يرض بعد السُّخط كان على هـــدًى
وليس لمن بعـد الرضى يسخط اهتـــدى
فإن الرضـا بعـد العـــدا يكشف القِلى
وإن العـــدا بعـــد الرضى يجلب الردى

وقوله(١٧) : « أمير الشعراء العصريين ، أبو الطيب ، وأمير شـــــعره قصيدته التي أولها :

مَن الجـــآذرُ في زيِّ الأعاريب   حمر الحلى والمطايا والجلابيب(١٨)

وأمير هذه القصيدة قوله :

أزورهم وســواد الليل يشفع لي   وأنثني وبياض الصبح يغري بي(١٩)

فالخوارزمي كما نراه ، ينقد القصائد فيختار أحسنها ، ثم ينقدالقصيدة المختارة ، ليستل من أبياتها أجملها .

ويظهر أن الخوارزمي ، كان معجبا بشعر المتنبي ، فقد جاء على لسانه من لمحاته النقدية هذه ، قوله : « أغزل بيت للعصريين ، قول المتنبي(٢٠) » :

قد كنتُ أشفق من دمعي على بصري   فاليوم كلُّ عزيز بعـدَكم هانا(٢١)

---

(١٦) ينظر : الاعجاز والايجاز . ص ١١٧ .
(١٧) المصدر السابق . ص ٢١٥ ، اربع رسائل « من الرسالة الثانية وهي من منتخبات كتاب المبهج للثعالبي » . ص ٧٤ .
(١٨) الجآذر : جمع جؤذر: وهو ولد البقرةالوحشية. والاعاريب: جمعاعراب.
(١٩) يشفع لي : يسترني ويخفيني . وانثني : واعود . يغري بي : يحثهم ويدل علي .
(٢٠) ينظر : الاعجاز والايجاز . ص ٢١٧ ، اربع رسائل . ص ٧٤ .
(٢١) أشفق : اخاف .

وهذا أبو منصور الثعالبي يقول [٢٢] : إنّه سمع أبا بكر الخوارزمي يقول : إنّه يحفظ في هجاء المغنين ، ما يقارب ألف بيت ، وليس فيه أبلغ وأوجز وأطرب ، من قول كشاجم :

ومغنٍ باردِ النغـ ـمةِ مختلّ اليدينِ
ما رآه أحدٌ في دارِ قومٍ مرتينِ

ومن نظراته النقدية ، ما رواه الثعالبي أيضا ، من أنه سمعه يقول عن الشبيبي : « إنّه كان في أيام شبابه بخوارزم ، يقول شعراً غليظاً جاسياً ، كأشعار المؤدبين ، فلما عاشر الناس ، ولقي الأفاضل لطف طبعه ، ورقّ شعره [٢٣] » .

ومن أجمل أقواله ، ما رواه عنه الألوسي ، من أنه كان يقول [٢٤] : «ربما أردت البكاء في بعض مواطنه فيمتنع عليّ ، فما هو الا أن أنشد أبيات أبي الطمحان القيني ، فيما بيني وبين نفسي ، حتى ينحل عقد الدمع ، والأبيات هي :

ألا علِّلاني قبلَ صَدْحِ النوائحِ
وقبلَ ارتقاءِ النفس فوقَ الجوانحِ [٢٥]

وقبل غدٍ ، يا لهف نفسي على غدٍ
إذا راحَ أصحابي ولستُ برائحِ

إذا راحَ أصحابي تفيضُ دموعُهم
وغُودِرْتُ في لَحْدٍ عليّ صَفائحي [٢٦]

يقولون : هل أصلحتم لأخيكم ؟
وما اللحد في الأرض الفضاء بصالحِ

---

(٢٢) ينظر كتابه : خاص الخاص . ص ٦٤ .
(٢٣) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٢ . وجاسيا : اي غليظا .
(٢٤) ينظر كتابه : بلوغ الارب ٣ : ١٢٨ – ١٢٩ .
(٢٥) التعليل : تطييب النفس بذكر ما تحب .
(٢٦) غودرت : تركت . والصفائح : الحجارة العريضة الرقيقة .

كما يتمثل نضجه الثقافي أيضا ، في تضمينه لأشعاره ، أبياتاً من شعر سابقيه ، كأبي تمام ، والبحتري وجرير ، والفرزدق ، وبلعام بن قيس الكناني، وأبي النجم(*) ، وزهير بن أبي سلمى ، والنابغة الذبياني ، وأبي نواس ، وزيد الخيل وغيرهم .

ومن الملاحظ أن تضمينه ، لم يقتصر على شعر عصري دون آخر ، وانما شمل شعر العصر الجاهلي ، وشعر العصر الاسلامي .

ومن معارضاته تلك القصيدة ، التي عارض بها قصيدة الرستمي ، في الوزن والقافية ، والتي يقول فيها الثعالبي : إنّها من أجود قصائده[٢٧] :

أكلُّ بناءٍ أنتَ بانيهِ مُعجِزٌ ... بنيتَ المعالي أم بنيتَ المنازلا ؟
فلا الإنسُ تبني مثلَهنّ معالماً ... ولا الجنُّ تبني مثلهن معاقلا
كنائس أضحتْ للغمام عمائماً ... علواً ، وأمست في الظلام قنادلا
رحاب كأنّ قد شاكلَتْ صدرَ ربّها ... وبيض كأنْ قد نازَعَتْه الشمائلا
وَبَهْوٌ تباهي الأرض منه سماءُها ... بأوسع منها آخراً وأوائلا
وصحن يسير الطرفُ فيه ولم يكن ... ليقطَعَه بالسير الا مراحلا
تلوح نقوشُ الجصّ في جدرانه ... كما زيَّن الوشمُ الدقيقُ الأناملا
وماء اذا أبصرت منه صفاءَها ... حسبت نجومَ الليل ذابت سوائلا
رأيتَ سيوفاً قد سُلِلنَ على الثرى ... وصارت لها أيدي الرياح صياقلا[٢٨]

ومن مناظراته مع بديع الزمان الهمذاني ، تتمثل بهذه الأبيات ، التي قالاها بين جمع غفير من الناس ، حينما دعاهما ، أبو القاسم وجمع بينهما ، وحضر تلك المناظرة ، عدد كبير من القضاة والفقهاء ، والأدباء والأشراف ، وغيرهم من سائر الناس ، وقد اقترح فيها الحاضرون ، أن يقولا على وزن قول المتنبي :

أرق على أرق ومثلي يأرق ... وجوى يزيد وعبرة تترقرق

(*) المقصود به الفضل بن قدامة ، ابو النجم العجلي ، من رجاز الاسلام .
(٢٧) يتيمة الدهر ٣ : ٢١٣ ــ ٢١٤ . اقتصرنا على هذه الابيات من القصيدة.
(٢٨) الصَيْقل : الذي يسن السيوف ويجلوها . وجمعه صياقل وصياقلة .

فابتدر أبو بكر الاجازة بقوله[٢٩] :

واذا ابتدهتَ بديهـةً يا سيدي   فأراكَ عنـد بديهتي تتقلقُ
واذا قرضت الشعرَ في ميدانه   لا شك أنك يـا أخي تتشـقُ
إنّي إذا قلتُ البديهةَ قلتُهـا   عجلاً وطبعُكَ عند طبعي يرفقُ
ما لي أراكَ ولستَ مثلي عندها   متموهاً بالترّهـات تمخـرقُ
إنّي أجيز على البديهة مثلَ مـا   تريانه واذا نطقت أصـدق

وردّ البديع على هذا بقوله :

مهلاً أبا بكر فزنـدُكَ أضيـق   فاخرسْ فإنّ أخاكَ حيٌّ يـرزق
دعني أعرْكَ إذا سكت سـلامة   فالقول ينجـد في ذويك ويعرق
ولفـاتك فتكات سـوء فيكم   فدع الستور وراءهـا لا تخرق
وانظر لأشـنع ما أقول وأدعي   اله الى أعـراضكم متسـلق
يا أحمقـا وكفاك ذلك خزيـة   جربت نار معـرتي هل تحـرق

وهنا قطع عليه أبو بكر شعره بقوله : إنّه قد أخطأ في قوله : يا أحمقا ، لأنه لا يجوز صرفه ، فقال له البديع ردا على قوله : « أما الأحمق في هـذا المقام ، فلا يزال يصفعك لتصفعه ، حتى ينصرف وتنصرف معه ، ألا تعرف أن للشاعر رد ما لا ينصرف الى الصرف،كما ان له الرأي في القصروالحذف[٣٠] » ، وكان أن أعجب الحاضرون بالبديع ، وانخذل الخوارزمي ، انخذالاً شديداً .

أما تضميناته لأشعار سابقيه ، فهي كثيرة وقد احتوى كتاب يتيمةالدهر على الكثير منها ، ولكننا سنعرض لبعض تضميناته ، كنماذج للتدليل . فمن التضمين قوله[٣١] :

أَظَـلُّ إذا عاتبتُ نفسـي منشـداً
« فهـلا تلا حاميم قبلَ التقـدم[٣٢] »

---

(٢٩) ينظر تاريخ الادب العربي ـ بيومي ٣ : ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .
(٣٠) ينظر تاريخ الادب العربي ـ بيومي ٣ : ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .
(٣١) تنظر تضميناته في يتيمة الدهر ٤ : ٢١٢ .
(٣٢) المصراع الثاني من البيت قاله قاتل محمد بن طلحة يوم الجمل .

وأنشـــدُ في ذكـري لدارك باكيـــا

« ألا انعم صباحاً ايّها الربـــع واسلم[٣٣] »

لأنكِ لا تـروينَ بيتـــاً لشـــاعرٍ

سوى بيت «مَنْ لم يظلم الناس يُظْلَمِ[٣٤] »

ومن تضميناته الرشيقة الطريفة قوله :

ولمّـا أكثر الحُسادُ فيـــــه وقالوا قد تَغَضَّنَتِ الخدودُ

أجابَ الفضلُ عنه حاســـديه «لأمرٍ ماتسوّدُ مَنْ يسودُ[٣٥]»

ومن تضميناته التي أوقعها موقعها الحسن ، والتي تـــدل على اتساع روايته ، وكثرة محفوظاته ، قوله في فرس لعضد الدولة[٣٦] :

حســـد السمـاك سـميّه لمـا بـــدا

في ســرجه شـخصُ الهمام الأبلج[٣٧]

وغـــدا فأضحى لاحقاً ضـد اسـمه

وأراكَ أعْوَجَ وهو عَيْـــنُ الأعوَجِ

فلَو أنّ شـاعرَ بُحْتُـرٍ في عصـره

ما قـــال في فـرسٍ ولا في أَعْـــوَجِ

« خَفَتْ مواقِــعُ وَطْئِــهِ ، فلَو أَتَهُ

يَجْري بِرَمْلَةِ « عالجٍ» لم يُرْهِجِ[٣٨]»

(٣٣) المصراع الثاني من البيت ، قاله زهير بن ابي سلمى .
(٣٤) في البيت تضمين من قول زهير بن ابي سلمى من معلقته .
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
وقد استشهدنا به في حاشية ص ١٩٢ من هذا الكتاب .
(٣٥) المصراع الثاني من البيت ، لبلعام بن قيس الكناني .
(٣٦) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢١٣ .
(٣٧) السماك : فرس منسوب لعضد الدولة .
(٣٨) البيت بكامله للبحتري ، ينظر ديوانه ١ : ٤٠٣ . تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣م .

ومن قوله في وصف الناقة :

بجَسْــرةٍ قائِدُهــــا بَراهــــا
في السَّــيْر ، بل ســـائقُها رجْلاهـــا
قد كُتِبَ العِتْــقُ على ذِفْراهـــا
« أي قَلوصِ راكبٍ تَراهـــا[٣٩] »

وقوله من قصيدة في مدح آل بويه :

وأنشدتُ في داري وفيمـــا أرى بهـــا
« أمِنْ أم أوفى دِمْنَــةٌ لم تَكَلَّمِ[٤٠] »

ومن قصيدته في الصاحب بن عباد قوله :

ومن تَرَكَ الأخيــارَ يُنشِــدُ أهلَـــهُ
« أجَلْ أيُّها الربع الذي خَفَّ آهِلُه[٤١] »

وقال من قصيدة أخرى :

أخو كلمـــات مـــا حلاهـــا لسانُـــه
على أحـــد إلا غـدا وهو خـــاطب
متى يَـــرْوِها أهــلُ الصنـــاعة يُنْشدوا
« عجـــائبَ حتى ليس فيهـــا عجائب[٤٢] »

وفي شعره الكثير من هذا التضمين ، الذي يتخلل قصائده .

---

(٣٩) البيت جاهلي قديم .
(٤٠) المصراع صدر مطلع لزهير بن ابي سلمى ، وعجزه : » بحومانة الدراج فالمتثلم « .
(٤١) المصراع صدر مطلع في قول ابي تمام ، وعجزه قوله :
« لقد ادركت فيك النوى ما تحاوله » .
ينظر : ديوان ابي تمام بشرح التبريزي ٣ : ٢١ .
تحقيق : محمد عبده‌عزام . مط ، دار المعارف بمصر ١٩٥٧م .
(٤٢) المصراع عجز في قول ابي تمام ، وصدره قوله :
« على انها الايام قد صرن كلها » .

مكانته في الشعر العربي :

هذا النضج الثقافي ، الذي نوهنا به ، جعل أبا بكر الخوارزمي ، متمكناً من اللغة العربية ومفرداتها ، ضليعاً في كل فن من فنونها .

وقد كان أبو بكر الخوارزمي ـ كما يتراءى لنا ـ ذا منزلة شعرية عظيمة ، بين الشعراء العرب . وهذا أبو منصور الثعالبي يقول فيه[١] :

« قوي المعرفة ، قويم الأدب ، نافذ القريحة ، حسن الشعر ، فرد الدهر في الأدب والشعر » ، وهذا أبو حيان التوحيدي ، يقول فيه أيضاً[٢] :

« كان من أفصح الناس ، ما رأينا في العجم مثله » .

ومن هذه الأقوال ،ومما سبق أن ذكرناه عن شعره،سواء في موضوعاته، أو سمات فنه ، يتضح لنا أن أبا بكر ، قد قلد سابقيه ، وأخذ الكثير من أساليبهم ومعانيهم . وليس معنى هذا أنه قلدهم وحاكاهم ، بالمفهوم العام لهذا القول ، وانما كان كغيره من شعراء المشرق ، في القرن الرابع الهجري ، يعارض كبار الشعراء ، ويستفيد من أساليبهم ومعانيهم ، دون أن يفقد شخصيته الشعرية ، التي ظهرت واضحة في خصائصه الشعرية .

وربما كان مرجع تلك المعارضات ، رغبة الشاعر في تأكيد ذاته ، واظهار فنه ، وبسبب ضياع ديوانه ، لا نستطيع أن نبيح لأنفسنا أن نقطع بحكم جازم في منزلته الشعرية ، وان كان شاعراً في منظومه ، وشاعراً حتى في منثوره ، كما سنرى ذلك حين نتناوله كاتباً ناثراً .

وليس معنى هذا أن أبا بكر الخوارزمي ، قد سلم من الطعن في شاعريته،

---

(١) ينظر كتابه : يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٤ .

(٢) ينظر كتابه : اخلاق الوزيرين ـ ابو حيان التوحيدي ـ ص ١٠٧ . مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق . سنة الطبع ١٩٦٥م .

فقد رمي بالسرقة الشعرية ، كما رمي بها غيره من الشعراء . وهذا القاضي أبو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني(٣) يقول فيه(٤) :

لَوْ نُفِضَتْ أَشْعارُهُ نَفْضَةً
لأَنْتَثَرَتْ تطلبُ أصْحابَها(٥)

فالقاضي في هذا البيت ، يجرده من شاعريته ، ويتهمه بالأخذ من غيره من الشعراء .

ومن هذا لم يكن أبو بكر الخوارزمي ، شاعراً أو ناثراً فقط ، وإنّما كان يحاضر بأخبار العرب وأيامها وأشعارها ، ويدّرس كتب اللغة والنحو والشعر، كما ذكر الثعالبي(٦) .

---

(٣) توفي سنة ٣٩٢هـ ـ ١٠٠٢م . ينظر : الاعلام ٥ : ١١٤ .
(٤) ينظر : يتيمة الدهر ١ : ١٠ .
(٥) انتشر الشيء : تفرق . ويجوز أن تكون « انتثرت » «والنثر» ما تناثر من الشيء . والنثر : المتساقط الذي لا يثبت .
(٦) ينظر المصدر السابق ٤ : ١٩٤ .

الفصل الثالث

أبو القاسم الزمخشري

الزمخشري :

أولا : حيـاته

١ ــ نشأته في خوارزم •

٢ ــ ذهابه الى بلخ لتلقي العلم •

٣ ــ حديثه عن أساتذته ، وعن أصدقائه ، وعن طلابه ، وعن مؤلفاته •

٤ ــ أثر غربته وهجرته في نفسه •

٥ ــ مدحه وأيه أصدق فيه من الآخر ، ولماذا ؟

٦ ــ شكواه وتجمل فيه :

آ ــ غربته •

ب ــ فقده لأهله •

جـ ــ عدم اصابته منزلة في التدريس ، أو حظوة عند الأمراء والوزراء•

ثانيا : شعره

١ ــ خلوه من أثر البيئة •

٢ ــ ركونه الى المعاني والتشبيهات العقلية ، وأثر ثقافته الكلامية في ذلك •

٣ ــ جزالة لفظه ، وأثر عيشه في مكة ، وكثرة مدارسته القرآن الكريم ، والشعر العربي القديم •

٤ ــ أسلوب الجدل والمناظرات في شعره •

٥ ــ ركونه ــ أحيانا ــ الى المحسنات البديعية •

ثالثا : شاعريته

الزمخشري :

هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد • يكنى « أبا القاسم » ، ويلقب بجار الله ، وقد شهر « بالزمخشري » نسبة الى بلده زَمَخْشَر •

ولد سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م(١)، في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي(٢)، ووزيره نظام الملك(٣) ، الذي كان محباً للعلم والعلماء • وقد نشطت الحركة العلمية وازدهرت في عهديهما •

وكل ما نعرفه عن نشأة أبي القاسم الزمخشري الأولى ، أنه نشأ في أسرة فقيرة ، متدينة صالحة • كان والده إماماً ورعاً تقياً ، يقضي أوقاته في تلاوة القرآن الكريم والصلاة ، والى هذا يشير الزمخشري بقوله(٤) :

لم يألُ ما عاشَ جداً في تقاه يَرى
إنَّ الحريصَ على دنياه منخدعُ

(١) اتفقت المصادر على هذه السنة ، لوفاة الزمخشري . ومن هذه المصادر :
المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٥ ، معجم الادباء ١٩ : ١٢٩ ، الانساب ٦ : ٣١٦ ، اللباب في تهذيب الانساب ١ : ٥٠٧ ، المنتظم ١ : ١١٢ ، انباه الرواة ٣ : ٢٦٨ ، الكامل في التاريخ ١١ : ٩٧ ، طبقات المفسرين. ص ٤١ (طبعة طهران) ، دول الاسلام ٢ : ٤١ ، نزهة الالباء في طبقات الادباء . ص ٢٧٦ ، النجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٤ . وانفرد ابن قاضي شهبة في كتابه : طبقات النحاة واللغويين « مخطوط » ورقة ٢٥١ ، بأن الزمخشري توفي سنة ٥٣٣هـ .

(٢) هو جلال الدنيا والدين ، أبو الفتح ملكشاه السلجوقي .

(٣) كان من أشهر وزراء السلاجقة . ظل وزيرا ثلاثين سنة متتالية ، للسلطانين ألب ارسلان وملكشاه . وكان عالما دينا ، وجوادا عادلا ،على حد قول ابن الاثير . عمر المدارس ، ودون العلم في بلاد الاسلام جميعها. وهو صاحب المدرسة النظامية المعروفة باسمه . ينظر عنه : الكامل في التأريخ ١٠ : ٨ .

(٤) ينظر ديوانه « مخطوط » . ورقة ٧٢ .

صامَ النهارَ وقامَ الليلَ وهو شَجٍ

من خشيةِ اللهِ كابي اللونَ مُمْتَقِعُ[٥]

وكان حسن الطباع والأخلاق ، حلو الكلام ، ذا مروءة وان كان فقيراً من المال ، ولكنه غني بهذه الصفات ، التي ذكرها الزمخشري في قوله[٦] :

أخا طباعٍ مصفاةٍ مناسبةٍ ماء السحابةِ ما في بعضها طبعُ

وذا حقائق لا في لحظه طلب بغير رشد ولا في لفظه قذعُ

من المروءةِ في العلياء متسع" صدراً وان لم يكن في المال متَّسعُ

أما والدته فقد شهد لها أيضاً بورعها وزهدها ، ورقة عواطفها . يشهد لها على ذلك ، ما يرويه الزمخشري في حديثه عن قطع رجله ، ويرجعه الى دعائها عليه ، لأنه تسبب في قطع رجل عصفور . ونحن نرى في روايته هذه ، الدليل على تمسك أسرته بالدين ، واشتهارها بالتقوى ، تلك التقوى التي هذبت نفوسهم وصقلتها ، الى الحدّ الذي جعلتهم به ، يعطفون على الحيوان كل هذا العطف ، الذي جعل والدة الزمخشري ــ على حد قوله ــ تغضب وتثور عليه ، حتى تبلغ بثورتها درجة الدعاء على ولدها بكسر رجله ، لكسره رجل عصفور ، ويرى الزمخشري أن الله ــ سبحانه ــ استجاب لدعائها فقطعت .

ومن الظواهر الأخرى ، التي تدل على تدين أسرة الزمخشري ، اجتنابها شرب الخمرة ، قطعة شعرية له ، يتغنى فيها بالخمرة ، ثم يؤكد أنه لم يقربها ، لا هو ولا أحد من أفراد اسرته ، حيث يقول[٧] :

هاتِ التي شُبِّهَتْ ظُلماً بشمسِ ضُحَى

لو عارَضَتْها لغطّتها بإشراقِ

ناريّةَ النَعْتِ إلا أنها عَدَلَتْ

نارَ الخليلِ فلمْ تهمم بإحراقِ

---

(٥) الشجو : الهم والحزن . وشجا به له شجاً في حلقه وغصته ، فهو شج .
(٦) ينظر : مخطوط ديوانه . ورقة ٧٢ .
(٧) ينظر المصدر السابق . ورقة ٨٥ .

ثم يستدرك الحديث ، وكأنه يفيق من غفلة فيقول :

أستغفرُ الله أنّي قد نَسِبْتُ بها
ولم أكن لحمياها بذَوّاقِ

ولم يذقْها أبي كلا ولا أحدٌ
مِنْ أُسْرَتي واتفاق الناس مِصداقي

وأسرة الزمخشري مكونة من هذا الأب الصالح التقي ، وتلك الأم التي لا تقل عن زوجها ورعاً وتقى . أما بقية أفراد الأسرة ، فلا نعرف عنها شيئا ، وان كنّا نستشف من خلال قصائده ، أن أباه كان عائلاً لأسرة ذات عدد،وأنه كان يكد ويتعب في سبيل اطعامهم ، لأنهم ضعفاء لا حول لهم ولا قوة . فهو يقول من مقطوعة يستعطف فيها مؤيد الملك ، لأنه سجن والده ، ويطلب منه اطلاق سراحه ، مستشفعاً عنده ، بما لأبيه من الفضل والعلم ، ورحمة بشبابه وأطفاله .

أما سبب سجنه ، فلم نجد في ديوان الزمخشري ، أو في أخباره ، أية اشارة تدلنا عليه ، وان كنا نرجح أنّ سببه ، اختلافهما في المذهب . يقول الزمخشري مخاطباً مؤيد الملك(٨) :

أكْفَى الكفاةِ مؤيدَ الملكِ الذي
خَضَعَ الزمانُ لعزّهِ وجَلالِهِ

إرْحَمْ أبي لِشبابهِ ولفضلِهِ
وارْحَمْهُ للضعفاءِ من أطفالِهِ

ارحَمْ أسيراً لو رآه من العِدى
أقْساهمُ قلباً لرقّ لحالِهِ

ما أطولَ الليلَ الذي يَفْنيه في
سَهَرٍ وأطْوَلُ منهلَيْلُ عِيالِهِ

الى أن نراه يتوقف عن وصف حال أبيه ، ليأخذ في مدح مؤيد الملك ، حيث يقول :

ماضَرّ مِثلِكَ لَوْ عَفا عنه فَمِنْ
دأبِ الكِرامِ العَفْوُ عن أمْثالِهِ

---

(٨) مخطوط ديوانه . ورقة ٩٧ .
توفي مؤيد الملك ، في سنة ٤٩٤هـ .

أما ما هي تلك الاساءة ، التي عملها والده ، والتي أشار اليها الزمخشري، في بيته الأخير ، فلا ندري عنها شيئا .

اذا كانت نشأة الزمخشري ، نشأة دينية أدبية علمية ، فقد عاش هـذا الامام في أعقاب عصر ، يعد من أزهى العصور العلمية والأدبية في هذا الاقليم . هذا بالاضافة الى نشأته العلمية ، التي عاشها في ظل والده العالم التقي، الذي أخذ عنه العلم في طفولته ، والذي نعته الزمخشري كما رأينا بقوله :

إرْحَمْ أبي لشبابِهِ ولفضلِهِ وارْحَمْهُ للضعفاءِ من أطفالِهِ

وما عسى أن يكون هذا الفضل ، الا فضل العلم ، الذي نوه به الزمخشري كثيراً ، فهو يقول[٩] :

أيّ امرىءٍ فوق مقرور القرى رفعوا
وأيّ حزم وحلم في الثرى وضعوا[١٠]

درس الزمخشري صبياً ــ كما تشير المصادر ــ في خوارزم ، ولما بلغ سن الطلب ، على حد قول ابن خلكان[١١] ، وابن قاضي شهبة[١٢] ، رحل الى بخارى لطلب العلم ، لأنها كانت على حد قول الثعالبي[١٣] : « مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، أو موسم فضلاء الدهر » .

والذي ينقصنا هنا معرفة عمره حينذاك ، لأن المؤرخين له لم يذكروه ، وان كنا تتصوره في سن الشباب .

ومن خلال دراستنا لأخباره ، يتراءى لنا انه وقف حياته للدرس والتأليف ، ونذر نفسه لهما ، منذ نشأته الأولى ، حتى بلغ به الأمر ألا يتزوج أو يشغل نفسه بعمل ، مخافة أن يشغله ذلك عن العلم ، أو يبتعد ــ ولو قليلاً ــ

(٩) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٧٢ .
(١٠) القرى والقراء : ضو الشمس .
(١١) ينظر كتابه : وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٥ .
(١٢) ينظر كتابه : طبقات النحاة واللغويين « خ » ورقة ٢٥٢ .
(١٣) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ١٠١ « طبعة حجازي » .

عنه . والظاهر أن والده توفي عندما كان الزمخشري في بخارى ، وهـذا ما حزّ كثيراً في نفسه وآلمه ، لأنه لم يشف غليله بالاقامة معه تحت سقف واحد، ولم يمتع نظره برؤيته ، قبيل وفاته ، فزاد هذا في حزنه ، وفي لوعة الفراق ، التي كان يعانيها فقال(١٤) :

وإنَّ مِمّا قَراني حسرةً وأسىً
وَضامَني الكَربُ مِنْ جَرّاهُ والوَجَعُ
إنْ عاقَني شَحْطُ دارٍ عَنْ تَفَقُّدِهِ
حتّى مضى وهو مِنْ ذِكْرايَ مُلْتَذِعُ
يا حَسْرةً إنَّني لم أرْوِ غلَّتَهُ
وَغِلَّتي بزَمانٍ فيهِ نَجْتَمِعُ
قَدْ كُنتُ أشْكو فراقاً قَبْلُ مُنْقَطِعاً
وكَيْفَ لي بَعْدَهُ بالعَيْشِ مُنْتَفَعُ
أأرْتَجي بَعْدَهُ بالعيشِ منتفعاً
متى أُتيحَ فِراقٌ ليسَ يَنْقَطِعُ(١٥)
قَدْ كُنْتُ أَطمحُ في أشياء أدركها
فاليوم لم يبقَ لي في بعضها طمعُ

ومن الجدير بالذكر أن تتعرف على بعض من لهم الفضل ، في تعليم الامام وفي تدريسه . وعلى من يدينون بالفضل له ، لأخذهم العلم عنه ، ومن ربطت الصداقة بينه وبينهم ، برباط الحب والاخوة .

أما أساتذته : فالظاهر أن أبا مضر محمود بن جرير الضبي الاصبهاني ، كان أحبهم الى نفسه ، وأكثرهم أثراً فيها ، كما سنرى في رثائه له . وهوالذي قال فيه ياقوت الحموي(١٦) : « كان يلقب بفريد العصر ، وكان وحيد دهره

---

(١٤) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٧٢ .
(١٥) « متى » جاءت في الاصل (حتى) ولعل الصواب ما اثبتناه .
(١٦) ينظر معجم الادباء ١٩ : ١٢٣ ــ ١٢٤ .

وأوانه ، في علم اللغة والنحو . يضرب به المثل في أنواع الفضائل .. وهو الذي ادخل على خوارزم مذهب المعتزلة ، ونشره بها ، فاجتمع عليه الخلق لجلالته وتمذهبوا بمذهبه » .

وفي بخارى أخذ الزمخشري الأدب عن أبي الحسن ، علي بن المظفر النيسابوري ، وسمع من أبي سعد الشقاني ، ومن شيخ الاسلام أبي منصور الحارثي[١٧] ، ثم تخرج بعدهما بأبي مضر ، هذا الذي أطرى ياقوت فضله ، والذي أقام مدة في خوارزم ، وتخرج به جماعة من الأكابر ، منهم الزمخشري[١٨] .

وهكذا لقي الزمخشري العلماء والأفاضل[١٩] ، وأفاد منهم الكثير ، وساعده على ذلك حفظه الكثير للأدب واللغة ، حتى صار يضرب به المثل في هذين العلمين ، وفي علم النحو كذلك[٢٠] . وهكذا صار الزمخشري ملجأ لكل ظامىء للعلم ، ولكل ظامىء للفن ، لأنه امام عصره في هذه الفنون كلها ، مما جعل القفطي يقول فيه[٢١] : « لم يتمكن أحد في دهره من جلاء رذالة[٢٢] النظم والنثر ، وصقال صوارم الأدب والشعر ، الا بالاهتداء بنجم فضله والاقتداح بزند عقله » .

ووصفه الأستاذ أمين الخولي[٢٣] ، بأنه أستاذ الدنيا ، وشيخ العرب والعجم . كما وصفه غيره[٢٤] بالعالم العربي الفارسي المولد .

---

(١٧) ينظر بغية الوعاة ٢ : ٢٧٩ .

(١٨) ينظر مقدمة اللاميتين من شروح الزمخشري والصفدي ، اعدها وعلق عليها : عبدالمعين الملوحي . مط . مديرية احياء التراث القديم ــ دمشق سنة ١٩٦٦م .

(١٩) المنتظم ١٠ : ١١٢ .

(٢٠) ينظر الانساب ٦ : ٣١٥ ، انباه الرواة ٣ : ٢٦٥ .

(٢١) ينظر كتابه : انباه الرواة ٣ : ٢٦٩ .

(٢٢) وردت في النص « رذائل » ولعل الصحيح ما اثبتناه ــ ورذال أو رذالة بمعنى : ما انتقى من جيده ، وبقي رديئه .

(٢٣) ينظر مقدمة كتاب اساس البلاغة ، طبعة دار الكتاب المصرية ، القاهرة ١٩٥٣م .

(٢٤) ينظر دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ١٠ : ٤٠٣ .

ويبدو أن الزمخشري ، قد قام بالتدريس في أماكن عديدة ، اذ كان له تلاميذ في زمخشر وطبرستان ، وأبيورد وسمرقند ، وخوارزم وحلب[٢٥] . وكان يدرسهم التفسير والحديث ، واللغة والأدب والبلاغة ، كما كان يبث فيهم ثقافته الكلامية ، ومعتقده المعتزلي ، على ما ذكره السمعاني[٢٦] . وقد روى تلاميذه عنه ، كما روى أصحابه . روى عنه أبو المحاسن اسماعيل ابن عبدالله الطويلي بطبرستان ، وروى غيره[٢٧] في زمخشر وأبيورد ، وسمرقند وخوارزم ، وكانت مجالسه مشهورة ، وكان فتيان مكة يتحلقون حوله ، كما كان يقصده الطلاب من ارجاء العالم الاسلامي ، وقد وصف مجالسه تلك ، تلميذه يعقوب بن شيرين بقوله[٢٨] :

فَتىً سار في الآفاقِ ركبانُ ذِكرِه
مغربةً طَوراً وطوراً مُشَرَّقهْ
إذا حَلَّ في أرض أتاه فحولُها
تفيد علوماً حولَه متحلقهْ
وإنْ خاض في شرح العلوم رأيتَها
لفرط احتشامٍ من معاليه مُطْرِقَهْ
فليس له في كلِّ شرق ومغرب
نظيرٌ ، بنو الدنيا على ذاك مطبقهْ

(٢٥) من تلاميذه في حلب ، عالي بن ابراهيم الغزنوي : أحد علماء حلب في التفسير والفقه ، واللغة العربية ، والاصول والجدل . لقي الزمخشري وقرا عليه ، وكتب عنه . ولما عاد الى حلب اقام بها مدرسا . توفي سنة ٥٨٢هـ . ينظر عنه : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ـ د . احمد احمد بدوي . ص ١١٤ . طبعة : نهضة مصر . وللتفصيل عن تلاميذ الزمخشري ، ينظر كتاب الدكتور الحوفي : الزمخشري . ص ٥٢ فقد عقد لهم فصلا خاصا بهم .

(٢٦) ينظر كتابه : الانساب (خ) مصور . ورقة ٢٨٨ .

(٢٧) منهم ابو المحاسن عبدالرحيم بن عبدالله البزاز بأبيورد ، وابو عمرو بن الحسن السمسار بزمخشر ، وابو سعد احمد بن محمود الشاشي بسمرقند ، وابو طاهر سامان بن عبدالملك الفقيه بخوارزم وغيرهم .

(٢٨) ينظر انباه الرواة ٣ : ٢٦٥ .

وقد تباهى الامام الزمخشري نفسه ، بمجالسه وعلمه حينما قال[29]:

ألم ترَ أنّي حيثما كنتُ كعبةٌ يحفّون بي كالطائفين طوائفـــا
فشــرقيُّهم يهوى الى النور قابساً وغربيُّهم يســعى الى البحر غارفا
ترَاني في علــم المُنزَّلِ عالمـــاً وما أنا في علمِ الأحاديثِ راسِفا[30]
فللسنة البيضــاء فيَّ منـــاجح ويبغي كتاب الله مني المعـــارفا
وما أنا في علم الديانات عاطلاً بأحسن حلي لم يزل لي شايفا[31]
فكم قَدْ وَحَتْ يمناي منه دفاترا وكم قَدْ وَعَتْ يمناي منه وطايفا[32]
وما للغـــات العرب مثلي مقوّم أبى كل نَدْبٍ متقن أن يخالفا[33]
وبي يستعيذ النحو من أن يسوسه نهى لم يجدها الذائقون حصائفا[34]
ومــا في رواة الـــكتب راوية له سوى واحد فانظر فلست مصارفا[35]
وعلما المعاني والبيـــان كلاهمــا أزف الى الخُطّاب منه وصايفا[36]
أقرّت بي الآداب أصــلاً لها ومن رأى مشرفياتٍ جحــدن المشارفا
وديوان منظومي يُريــكَ بدائعــا وديوان منثوري يُريك طرائفا[37]

وبعد أن ارتوى الزمخشري ، من العلم والأدب ، ومن فنون المعرفــة

(٢٩) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٧٩ .
(٣٠) راسفا : الرسف والرسيف والرسفان : مشي المقيد رويدا ، فهوراسف.
(٣١) شايفا : شاف شوفا الشيء : جلاه . وتشوفت المراة : تزينت .
(٣٢) وحت : وحى الكتاب : اي كتبه . وطايفا : اي شيء كثير . يقال : عـام اوطف : اي مخصب كثير الخير . وعيش اوطف : اي ناعم واسع رخي.
(٣٣) ندب : رجل ندب : اي خفيف في الحاجة ، سريع ظريف نجيب . والجمع ندوب .
(٣٤) حصائفا : الحصافة : ثخانة العقل ، وجودة الراي . والحصف مـن الرجال : المحكم العقل ، المتين الراي .
(٣٥) مصارفا : صرف : اي كسب واحتال . والشاعر هنا ينفي عن نفســه أن يكون متكسبا أو محتالا .
(٣٦) وصايفا : وصفه وصفا : نعته وذكر صفته ، فهو وصيف .
(٣٧) جاءت في الاصل ظرائفا ، واثبتنا ما رايناه الصواب ، و « بدائع » تؤكد راينا .

الأخرى ، رجع الى خوارزم ، ودفعه طموحه الى الاتصال ، برجال الدولة السلجوقية ، ولا سيّما نظام الملك ، الذي كان يرعى شؤون تلك الدولة ، ومدحه بقصيدة بَيَّنَ له فيها ، أنه على الرغم من علمه وفضله ، لم يتبوأ المكانة اللائقة به ، بينما ظفر من هم دونه بذلك . والظاهر أن نظام الملك أعرض وصدّ عنه ، ولعل مردّ هذا اختلافهما في العقيدة ، فنظام الملك سنيّ ، وقد افتتح المدارس لتعليم الشريعة ، على مذهب أهل السنة ، والزمخشري معتزليّ مجاهر باعتزاله ، ومتظاهر به[٣٨] . كما يجوز أن يكون مردّ ذلك روح الفخر بالنفس ، الذي كان يسيطر على قصائده ، التي قالها في هذه الفترة ، ولننظر اليه في هذه القصيدة ، التي بعث بها الى نظام الملك[٣٩] :

خَليليَّ هَلْ تُجْدي عليَّ فَضائِلي
إذا أنا لم أُرْفَعْ على كلِّ جاهلِ ؟
من الغبنِ ذو نَقْصٍ يُصيبُ منازلاً
أخو الفَضْلِ مَحْقوقٌ بتلكَ الفضائِلِ
كَفَى حزناً أن يَرغمَ الحلمَ والحجا
تَصَدُرُ بادٍ طَيْشُهُ غَيْرُ عاقِلِ
وَمَنْ لي بحقي بعدما وفَرَتْ على
أراذِلِها الدنيا حقوقَ الأماثِلِ
كذا الدّهرُ كمْ شَوْهاءَ في الحَلْي جيدها
وكَمْ جيدِ حسناء المقلّدِ عاطِلِ
ومما شَجاني أن غرّ مناقبي
تَغَنّى بها الركبانُ بَيْنَ القوافِلِ
وطارتْ الى أقصى البلاد قصائِدي
وسارتْ مسيرَ النيّراتِ رَسائِلي

(٣٨) ينظر : المنتظم ١٠ : ١١٢ .
(٣٩) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٩٥ .

فهذا الفخر الممزوج بالشكوى ، يوجهه شاعر الى نظام الملك ، منوهاً فيه بعلمه وفضله ، دون أن يشبع رغبة نظام الملك من المديح ، تلك الرغبة المعروفة لدى الملوك ، والأمراء في ذلك العصر •

وفي القصيدة نفسها ، نرى الشاعر يستمر بفخره بنفسه ، عن طريق فخره بمؤلفاته ، حيث يقول :

وكَمْ مِنْ امالٍ لي وكمْ مِنْ مُصنَّفٍ
أصابَ بها ذِهني مَحزَّ المفاصِلِ
ولي في دقيق النحو والنقدِ منطق
اذا قلْتُه لم أُبقِ قولاً لقائِلِ
غنيٌّ مِنَ الآداب لكنّني إذا
نَظَرْتُ فَما في الكفِّ غَيْرُ الأنامِلِ
ويا ليتني مُرْضٍ صَديقي ومُسْخِطٌ
عَدُوي وانّي في فَهاهَةِ باقلِ
فلستُ بفضلي بالغاً ولو أنني
كَقسِّ ايادٍ أو كَسُحْبانِ وائِلِ

ومع ذلك لم يشفع له أدبه ولا شعره ، لدى نظام الملك ، ولم يظفر منه بما اراد •

وفي القصيدة نفسها ، نراه وقد اتخذ علمه هذا وسيلة قربى ، تربط بينه وبين نظام الملك ، وهو ينوّه بهذا ويحث نظام الملك على أن يرعى تلك الصلة ، لا أن يقصّر في رعايتها كما فعل ، ثم يذكره بأن غيره ممن لا قرابة بينه وبينهم ، كانوا يرعون حقوقه فيقول :

وما حَقٌّ مثلي أَنْ يكونَ مضيَّعا
وَقَدْ عَظُمَتْ عِنْدَ الوزيرِ وَسائِلي
وأعظمها أني نسيبُ نِصابِه
إذا عُرِضَتْ أَنسابُ هذي القبائِلِ

وَقَـد كان يَـرْعى الناسُ حقيَّ قبلَـهُ
على عـدمِ القُرْبى وبُعـدِ الوصـائِلِ
أحظّي منقوصٌ ولسـتُ بنـاقصٍ
وكم كامـلٍ حَظّـاً وليسَ بكامِـلِ
فلا تَرْضَ يا صَدْرَ الكُفاةِ بأن تَـرى
أعـاليَ قـومٍ ألحقوا بأسـافِلِ
ولا تجعلوني مثلَ هَمْـزةِ واصـلٍ
فَيُسْقِطُني حذفٌ ولا راءَ واصِلِ[٤٠]

وأخيرا نراه يهدده بالرحيل عن خوارزم ، إذا هو لم يحقق له آمـاله فيقول :

فكل امريءآمالُهُ عَدَدَ الحَصَى — وهـات نظيري في جميع المحافِلِ
لئن كان أمري في خوارزم ما أرى — فإن رِحـالي في ظهورِ الرَواحِلِ
وكم قلتُ ألقى في وزارتِكَ المُنَى — وأدركُ وحدي ما ارتجي كل آملِ
ولم أدرِ أن الأرذَلينَ يرون مـا — تمنَّوا وأنّي لَسْتُ أحظى بطائلِ
فَوَقّعْ الى هذا الزمان فإنّـه — غـلامك يجعلني كبعض الأراذلِ

وعندما يئس الزمخشري ، من نظام الملك ، يمّم شطر الوزير مجير الدولة الأردستاني[٤١] ، ومدحه بقوله[٤٢] :

فعنـدَ مجيرُ الدولةِ المُستجارُ لي
مـداوة أدواء وأسْـوُ جـرائحِ

(٤٠) أي لا تهملني كما يهمل المتكلم همزة الوصل ، وكما اسقط واصل بن عطاء الراء ، من كلامه .
(٤١) هو أبو الفتح علي بن الحسين ، نائب تاج الدولة على ديوان الرسائل ، في عهد السلطان أبي الفتح ملكشاه السلجوقي . وكاتب الرسائل المشهور في ذلك العصر .
(٤٢) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٢٣ .

نِطاسيٌّ آمالَ مراضٍ وجابرٌ
لِكَسْرِ مَهيضاتِ الخطوبِ الفوادِحِ(٤٣)
فليتَ رحالي أُلقِيَتْ بفِنائِهِ
فأرْتَعُ في نعمائِهِ غَيْرُ نازِحِ
ويقدح زَنْداً وارِياً من مناقبي
إذا صَلَدَتْ كُلُّ الزنادِ لقادِحِ(٤٤)
وفي شرح أبياتِ الكتابِ لِبَعْضِ ما
يَرى في صِفاتي مُجْمَلاً أيُّ شارِحِ
وأنموذجاً أنفذتُ منه بضَمَّهِ
رَجائي أرَى فيه وجوهَ المناجِحِ
أراقبُ مِنْ عَيْنِ الوزيرِ اطّلاعةً
عليه وَحَسْبي منه لَمْحَةُ لامِحِ
جميعُ ثيابِ الدَّهرِ يَبْلى جَديدُها
وَيَبْقَى على الأيامِ ثَوْبُ المدائِحِ

وقد علق الدكتور الحوفي ، على هذه الأبيات بقوله(٤٥) : إنّ الشاعر قد صور نفسه فيها ، سقيماً جريحاً ، مهيض الجناح ، وان بيد مجير الدولة برؤه ، وردّ القوة اليه . وأنه يتمنى ان يلحقه بعمل عنده ، ليبلو كفايته التي لا مثيل لها . كما يقدم في قصيدته هذه ، لمجير الدولة ، كتابيه في النحو ، وهما : شرح أبيات كتاب سيبويه ، والأنموذج .

(٤٣) نطاسي : النطاسي : العالم بالامور ، والحاذق بالطب ، ولعله مأخوذ من نطاس الرومية .
(٤٤) زنداً وارياً : وري الزند : اي اخرج منه النار . واوراه : اي استخرج ناره .
(٤٥) ينظر كتابه : الزمخشري . ص ٣٨ .

ومن ملوك السلاجقة ، الذين مدحهم الزمخشري ، الملك سنجر (٥١١ـ٥٢٢هـ) وقد مدحه بقصيدة قال فيها[٤٦] :

سَمّاهُ كلُّ الناسِ كَعبَةَ سُؤْدُدٍ أهْلُ الحوائجِ منهمُ حُجّاجُها
ألِفَتْه دونهمُ فما إلجامُها إلاّ على يَدِهِ ولا إسراجَها
لَو أنه ركبَ النجومَ لما نَبَتْ أفرادُها عنه ولا أزْواجُها
يجري اليهم سَيْبُهُ بأنامِلٍ مثل البحارِ تَلاطمَتْ أمْواجُها

الى أن يقول :

تبغي الحقيقَةَ في أمورِكَ كلِّها إنَّ الحقيقةَ واضحٌ منهاجُها
لو أنَّ عَدْلَكَ شَبْتَهُ بمياهِها لأرتَدَّ كالعَذْبِ الفُراتِ أُجاجُها

فالقصيدة على الرغم من مبالغة الشاعر فيها ، خالية من العاطفة الصادقة، مثلها في ذلك مثل القصائد التي مرت معنا قبلها • وليس فيها لأبي القاسم أي لون يميزه ، عن غيره من الشعراء المادحين ، وانما هي محاكاة لهم في معانيهم •

وفي هذه الأثناء اتصل برجال الدولة الخوارزمية الناشئة ، ولا سيما خوارزم شاه ، محمد بن أنوشتكين (٤٩٠ ــ ٥٢١ هـ) ، ومدحه • كما أشار في مقدمة كتابه « مقدمة الأدب » الى رعاية ابنه اتسز له (٥٢١ ــ ٥٥١ هـ) ، ورعايته لكل العلماء والأدباء ، وأنه أي اتسز ، أمر بنسخ كتاب الزمخشري هذا لخزانته[٤٧] •

والظاهر أن حظه مع الخوارزميين ، لم يكن بأحسن منه ، مع السلاجقة، ولذلك قرر الرحيل عن خراسان ، والسفر الى مرو[٤٨] ، وكانت حاله فيها، كحاله في خراسان ، فتركها بعد فترة من الزمن • وصمم على الرحيل الى مكة المكرمة ، وفي طريقه اليها مر بالعراق ، ومكث فيها حقبة ، سمع فيها الكثيرمن

(٤٦) ينظر مخطوط ديوان الزمخشري . ورقة ٢٠ .
(٤٧) للتفصيل ينظر : الزمخشري . ص ٤١ .
(٤٨) يقول السمعاني : انه ورد مرو في زمانه ، وانه لم يتفق له رؤيته ، والاقتباس منه . ينظر الانساب ٦ : ٣١٥ .

علمائها ، وناظر بها[٤٩] ، والتقى فيها بالشريف ابن الشجري[٥٠] ، الذي جاءه مهنئا بقدومه ، ومثنيا عليه ، ولما تجالسا أنشده ابن الشجري متمثلا[٥١] :

كانَتْ مُسائَلَةُ الرُّكْبانِ تُخْبِرُني
عن أحمدَ بنِ دُوَادَ أطيبَ الخبرِ[٥٢]
حتى التقَيْنا فَلا واللهِ ما سَمِعَتْ
أُذْني بأحْسَنَ ممّا قَدْ رَأى بصري

وأنشده أيضا[٥٣] :

واستكبرُ الأخبارَ قَبْلَ لِقائِهِ
فلمّا التقيْنا صَغَّرَ الخبرَ الخُبْرُ

ويقول ابن الأنباري[٥٤] : إنّ جار الله الزمخشري ، بقي صامتاً ، حتى انتهى ابن الشجري من كلامه ، وحينذاك شكره وعظّمه ، وتصاغر له ، وقال له : إنّ زيد الخيل ، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين بصر بالنبي رفع صوته بالشهادتين ، فقال رسول الله : يا زيد الخيل ، كل رجل وصف لي ، وجدته دون الصفة الا أنت ، فإنّك فوق ما وصفت . وكذلك

---

(٤٩) ينظر تاريخ ابي الفدا ٣ : ١٦ .

(٥٠) ينظر دائرة المعارف الاسلامية « الترجمة العربية » ١٠ : ٤٠٣ ، معجم المطبوعات . ٩٧٣ .

(٥١) ينظر معجم الادباء ١٩ : ١٢٨ ، نزهة الالباء في طبقات الادباء . ص ٢٧٦ . والبيتان للمتنبي .

(٥٢) هو احمد بن ابي دواد بن جرير بن مالك الايادي ، ابو عبدالله ، احد القضاة المشهورين من المعتزلة . وراس فتنة القول بخلق القرآن . قال أبو العيناء : ما رايت رئيسا قط أضر منه ولا انطق . ولد سنة ١٦٠هـ ــ ٧٧٧م . وتوفي سنة ٢٤٠ ــ ٨٥٤م ينظر الاعلام ١ : ١٢٠ ، الكنى والالقاب ١ : ١٩٤ (طبعة الحيدرية . النجف) .

(٥٣) ينظر : معجم الادباء ١٩ : ١٢٨ ، نزهة الالباء . ص ٢٧٦ . والخبر : الاختبار بالمشاهدة وهو مصدر خبر . والخبر : العالم بالخبر .

(٥٤) ينظر كتابه : نزهة الالباء في طبقات الادباء . ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥ .

الشريف ابن الشجري . كما اجتمع في بغداد ، بالفقيه الحنفي الدامغاني(٥٥) ، والشيخ أبي منصور الجواليقي(٥٦) ، وكان قدومه اليها سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة(٥٧) .

وفي بغداد سمع من أبي الخطاب بن البطر وغيره . وحدّث وأجاز للسلفي ، وغيره ، كما ذكر السيوطي(٥٨) .

وكما رأينا كيف أن تغربه عن مسقط رأسه ، كان يحز في نفسه ويؤلمها، فإن هجرته عنها الى مكة ، زادت في تلك المرارة الكامنة في نفسه ، على الرغم من استقراره النفسي في مكة ، حيث التقى هناك بالأمير العلوي ، أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس الحسني(٥٩)،ولكنه كان دائم الحنين الى وطنه وأهله، وتتضح عاطفته في شعره ، حتى لتوشك أن تكون ابرز عناصره ، والمثال الشاهد على هذا ، قصيدته التي بعث بها من مكة ، الى الوزير منتجع الملك، وفيها يؤكد الجانب العاطفي ، في حنينه لبلاده ، ولكنه يغلف ذلك بغلاف المدح للممدوح ، وشوقه للقائه ، وأمنيته في الاجتماع ، بعد النوى والتنائي . يقول(٦٠) :

إليكَ يهزّني الحبُّ المُطاعُ ويُسكِرُني لرؤيتكَ النِّزاعُ(٦١)
فهل لكَ يا شقيقَ النفس عِلْمٌ بما أنبأتُ عَنْهُ واطّلاعُ

---

(٥٥) أحمد بن علي بن محمد ، أبو الحسين الدامغاني . توفي سنة ٥٤٠هـ . ينظر عنه : انباه الرواة ٣ : ٢٦٨ ، مقدمة كتاب الكشاف عن حقائق التنزيل .

(٥٦) ينظر انباه الرواة ٣ : ٢٧٠ .

(٥٧) المرجع السابق ٣ : ٢٧٠ .

(٥٨) ينظر كتابه : طبقات المفسرين . ص ١٤ (طبعة طهران) .

(٥٩) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس ، أبو الطيب الشريف السليماني الحسني . من اهل مكة وشرفائها وامرائها . توفي سنة ٥٠٦هـ . ومن أجله صنف الزمخشري كتابه « الكشاف » . ينظر عنه: خريدة القصر . « قسم شعراء الشام » تحقيق د . شكري فيصل ٣ : ٣٢ ، تاج العروس ٣ : ٢٤٢ ، مادة زَمَخْشَر) مط . الخيرية المنشأة بجمالية مصر ـ المحمية ط ١ : ١٣٠٦هـ .

(٦٠) ينظر : انباه الرواة ٣ : ٢٧٢ .

ولو أنّي قَدِرْتُ لطِرْتُ شوقاً بِحَرْفٍ خَطْوُها خَطو"زماع"[٦٢]
وكنتُ بحيث يوصِلُني إليكمْ غُـدُوّي أو رَواحي لا أُراعُ
وفي عَدْواءِ دارِكَ عَنْ دِياري أراقِبُ زَوْرَةً لا تُستَطاعُ[٦٣]
وأنتَ لكلِّ مَنْقَبَةٍ مُعـانٍ ومَنْ دَرِّ العلوم لَكَ ارتضاعُ
تُضيءُ بعلمِكَ الدُّنيا فَيُضحي لَـهُ في كلِّ ناحيةٍ شُعاعُ

كما تظهر لنا عاطفته **القوية ، في** حبه لبلده ، عندما قرر الرحيل عنها ، لأن أهلها لم ينصفوه ، كما تصور **لنا صراعه** النفسي المرير خير تصوير ، حيث نراه في صراع بين حب لبلده ، **ورغبته في عدم** مفارقتها ، وبين عزمه على الرحيل عنها ، واضطراره الى مفارقتها[٦٤] :

أحَبُّ بلاد اللهِ شَرْقاً ومَغْرِباً اليَّ التي فيها غُذيتُ وَليدا
ولكنْ تواسى بالكرامةِ غيرُها وَهَذي أرى فيها الهوانَ عَتيدا
وما مَنْزِلُ الإذلالِ للحرِّ منزلاً وإن كانَ عَيْشُ الحرِّ فيه رَغيدا
سأرحلُ عنها ثمَّ لَسْتُ براجعٍ وأضْرِبُ مَرْمىً في البلادِ بَعيدا
فلاكنتُ إن خَيَّمْتُ فيهاابنَ حرَّةٍ ولاعِشْتُ بَيْنَ الصالحينَ حَميدا

وقد بقي الزمخشري ، مجاوراً لبيت الله الحرام ، زمنا طويلاً ، حتى لقب بجار الله ، وعلى الرغم من حبه لمكة ، وهدوء نفسه بتلك المجاورة ، لم يستطع البقاء هناك ، لأنه اشتاق الى موطنه وأهله ، فترك مكة وسافر الى بلاده . ولكنه ما أن وصلها حتى حنّت نفسه الى مكة ثانية ، وندم على تركه اياها . وأخذ ينظم القصائد المليئة بالحنين والشوق ، والحزن والبكاء . ومما قاله في هذا[٦٥] :

---

(٦١) النزاع : الحنين والاشتياق الشديد .
(٦٢) الحرف : الناقة العظيمة . الزماع : سرعة المشي .
(٦٣) العدواء : البعد .
(٦٤) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٣٧ .
(٦٥) ينظر المصدر السابق . ورقة ٤١ .

بُكــاءٌ على أيــامِ مكــةَ إنَّ بي
اليها حنينَ النَيِّبِ فاقِـدَةُ البِكْرِ [٦٦]

تذكــرتُ أيـامي بهـــا فكأنني
قد اختَلَفَتْ زُرْقُ الآسِنَّةِ فيصَدْري [٦٧]

أبيتُ على الصخــرِ المباركِ باكيــاً
كما أنَّتِ الخَنْساءُ تبكي على صخـــر

وَحينَ تَخَطَّيْنـــا المنـاقِبَ وارتَمتْ
بنــا العيسُ تَهْوى في مسالِكها القَفْــر

وَشَطَّ بأصحابي عن الأبطحِ السَـرَى
ولطَّ الجبــــال المشمخرات بالستر [٦٨]

وقلتُ ألا أيـــنَ الحطيــم وزمــــزم
وما لي محجوزاً عن الركن والحجـــر

صفرتُ وراءَ الغــور صَفْرَةَ مفلـــسٍ
رَأى يَــدَهُ صِفراً من البيضِ والصّفر [٦٩]

وقلت لِقَلْبي قــد ملــكتُكَ مَــرَّةً
فمــا أنْتَ الا طــائرٌ طــارَ من وَكْرِ

ففي هذه الأبيات ، نرى الشاعر يتألم على تركه مكة ، ويتحســر على فعلته . ويظهر لنا أسلوب الزمخشري وطريقته ، في هذه الأبيات ، عربيـــة جاهلية ، تتمثل في حنين الابل ، وسير القوافل في الصحــارى ، وفي قولــه : « زرق الأسنة » .

---

(٦٦) النيب : الناقة المسنة ، يطول نابها ويعظم .
(٦٧) اختلفت ، كــذا في الأصل ، ولعلها « اختلجت » لان قولــه : اختلف في معناه تناقض .
(٦٨) اللطاط : طريق في عرض الجبل وجمعه الِطَة . واللطاط كذلك : شــفير الوادي . والملطاط : حرف الجبل وجانبه .
(٦٩) الصفر : ويثلث : الشيء الخالي وربما جمع على اصفار .

ومما قاله أيضا[٧٠] :

أأبتاعُ بالفوزِ الشقاوَةَ خاسراً ... وأسْتَبْدِلُ الدُّنيا الدنيَّة بالأخرى
إذا خَطَرَتْ بالبالِ ذكرى إناختي ... على حرم اللهِ استفزتني الذكرى
أكابدُ ليلاً كالليالي وحسرةً ... ودَمعاً غَزِيرَ المستقى غائرَ المَجْرى
وأدعو الى السلوانِ قلباً جوابه ... لداعيه مهراقٌ من المقلةِ العَبْرى
وما عذرُ مطروحٍ بمكةَ رَحْلُهُ ... وربّكَ لا عذرا وربّكَ لا عذرا

ثم عاد مرة ثانية الى مكة ، فارتاحت نفسه وهدأت ، فقال في ذلك شعرا[٧١] :

أنا الجارُ جارُ الله مكةَ مركزي ... ومضرب أوتادي وَمَعْقِدَ أطنابي
وما كانَ إلا زورةٌ نهضتي الى ... بلاد بها أوطان رَهْطي وَأحبابي
فلمّا قَضَتْ نَفسي ـ ولله دَرّها ... لبانةَ دارِ زندها غير خيّابِ
كررْتُ الى بطحاءِ مكةَ راجعاً ... كأنّي أبوالشبلين كَرَّالىالغابِ[٧٢]

وتؤكد لنا هذه الأبيات ، أن الشاعر قد قرّ عينا برجوعه الى مكة ، بعد أن رأى وطنه وأهله ، وكان في رجوعه كالأسد الراجع الى غابته •

ويروي القفطي أن الزمخشري ، لما سئل عن سبب رجوعه ، وحنينه الى مكة ، ومكثه هناك زمنا طويلا أجاب : « القلب الذي لا أجده ، ثم أجده ها هنا »[٧٣] •

ولكن بعد مدة عاوده الحنين الى بلاده مرة أخرى ، وألحت عليه نفسه القلقة ، التي لا تعرف الاستقرار ، على السفر الى وطنه ، فرجع ثانية وهناك وافاه أجله ، في مدينة كركانج « الجرجانية » ، قصبة خوارزم ، في ليلة عرفه سنة ٥٣٨هـ/١١٤٤ م • وقد رثاه أحد فتيان مكة بقوله[٧٤] :

فأرْضُ مكّةَ تَذْرِي الدَّمْعَ مقلتُها ... حزناً لفرقةِ جارِ اللهِ مَحّمودُ

(٧٠) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٤١ .
(٧١) ينظر المصدر السابق . ورقة ٦ .
(٧٢) ابو الشبلين : كنية الاسد .
(٧٣) ينظر : انباه الرواة ٣ : ٢٦٦ .
(٧٤) ينظر وفيات الاعيان ٢ : ١٢٣ .

شعره :

خلف الزمخشري ديوان شعر[١] . وبهذا نستطيع أن نعده من الشعراء المكثرين ، في اقليم خوارزم . ومما أعانه على النظم ، تمكنه من العربية ، فقال الشعر في أكثر أغراضه المعروفة . وقد تعرضنا لبعض قصائده ، التي قالها في المدح ، وهي كما رأيناها ، فيها نضوب عاطفي ، لأن عاطفته فيها ليست صادقة . وليس معنى هذا ، ان الامام في كل مدحه هكذا ، وانما وجدنا عنده المديح الصادق ، الذي قيل عن عاطفة صادقة ، كالذي قاله في الأمير ابن وهاس[٢] :

خَليليَّ من عليا تهامة أنجدا ... أخاً كانَ غوريَّ الهَوى ثم انْجَدا
ولا كابن وهّاسٍ فتى ضَمَّ بُرْدُهُ ... حُساماً وضرغاماً وأخضرَ مربدا
فَتىً هو حال بالمعالي بأسرها ... وَقَدْ حليتْ منه المعالي بأوْحَدا
نَجيبٌ نَمَتْهُ من ذؤابة هاشمٍ ... نِصاباً كفاه بالنبوةِ محتدا
ونقرأُ من سيماهُ في قَسماته ... شهادةَ حَقٍّ أنَّهُ سَبطُ أحمدَ
وممّا أجلَّ الصنع فيه إناختي ... بمكةَ مرضياً مراداً ومَوْرِدا
ولولا ابن وهاس وسابغُ فضله ... رَعيتُ هشيماً واستقيتُ مصَّرَدا[٣]

فهذه القصيدة ترينا صورة أخرى ، من صور المدح الذي مرّ معنا ، فيها العاطفة الصادقة ، التي تكاد تنطق بحب الامام الشاعر ، لهذا الممدوح . ولعل مبعث هذا التغير في مديح الشاعر ، هو تغير نفس الشاعر ، من السعي وراء

(١) ما زال مخطوطا . وقد علمنا من الدكتورة بهيجة الحسني ، انها قامت بتحقيقه ، وستنشره قريبا .
(٢) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٢٨ .
(٣) مصّردا : الصَّرْد والصَّرَد : البرد ، وقيل شدته . ويوم صَرد : شديد البرد . وشراب صرد : اي صرف . وماء صرد : اي صرف غير منقى . والشاعر اراد هذا المعنى .

المال والمنصب ، الى الزهد في الحياة ومباهجها ، بعدما ذهب الى مكة ، وبهذا جاء مدحه صادقاً ، لأنه قاله من أجل المدح ، وليس من أجل الحصول على مال أو جاه .

وقد كان ابن وهاس أيضا ، يحترم الزمخشري ويحبه ، وقد مدحه بقوله[٤] :

وكم للامام الفَرْدِ عندي من يدٍ
وهاتيكَ ممّا قَدْ أطابَ وأكثرا
أخي العَزْمَةِ البيضاءَ والهمَّةِ التي
أنافَتْ بها ، علامة العصرِ والورى
جَميعُ قرى الدنيا سوى القريةِ التي
تَبوّأها داراً فِداءُ زَمَخْشَرا
وأحرِ بأنْ تَزْهى زَمَخْشَرُ بامرئٍ
إذا عُدَّ في أُسْد الشرى زَمَخَ الشرى[٥]
فلولاه ما طَنَّ البلاد بذكرها
ولا طارَ فيها مُنْجِداً ومُغَوِّرا
فليس ثناه بالعراق وأهله
بأعْرَفَ منه بالحجازِ وأشْهَرا

ومن قصائده في مدح هذا الأمير ، تلك القصيدة التي بعث بها الى منتجع الملك ، والتي بيّن له فيها ، أنه تعرف في مكة على ابن وهاس ، الشريف الحسيني ، تلك العائلة التي تستحق أن يقول فيها[٦] :

---

(٤) تنظر الابيات في معجم البلدان ٣ : ١٤٧ ، انباه الرواة ٣ : ٢٦٨ . وذكر السمعاني في كتابه الانساب ٦ : ٣١٥ ، البيتين الاخيرين من هذه الابيات .

(٥) زمخ زمخا بأنفه : شمخ وتكبر فهو زامخ . والشرى : المأسدة . والمأسدة : جمع اسد . والمأسدة : محلة الاسود . وقيل انها في جبل سلمى .

(٦) ينظر : انباه الرواة ٣ : ٢٧٢ .

أولئكَ أعضادُ النبوّة رُشِّحوا

لقمعِ عتاةِ الشِّرْكِ بالذُّبَّلِ السُّمْرِ (٧)

إذا صَفَّنَتْ في المأزقِ الضَّنْك خَيْلُهُمْ

رأيتَ المنايا يَزْدحِمن على البُتْرِ (٨)

هم ملجأ للخائفين وعدَّةٌ

لثأرِ مُنيمٍ أو مَخوفٍ من الثَّغْرِ

مفاتيحُ أسدادِ الخطوبِ إذا عَرَتْ

مَساميحُ بالمعروفِ في اليُسْر والعُسْرِ

من النَّفَرِ البيضِ الذينَ نَوالهمْ

يفيضُ بلا مَنٍّ ويأتي مع العُذْرِ

ويلقاكَ بالبشرى ويأتيك بالمُنى

تحايا وجوهٍ مشرقاتٍ من البَشْرِ

ومن الملاحظ أن معانيه في مدحه دينية ، حيث يمدحهم بنسبهم للرسول الكريم ، ومساندتهم للدين الاسلامي • كما يمدحهم بالشجاعة والكرم والحلم • وتظهر لنا صورة المدح الصادقة عنده لهذا الأمير في أبياته هذه ،التي ترينا مقدار حبه وتقديره له ، كما ترينا فضل هذا الأمير عليه ، وشكر أبي القاسم له على فضله في قوله(٩) :

بمكةَ آخيتُ الشريفَ وفتيةً

حَواليه من آلِ النبيِّ غَطارِفا(١٠)

---

(٧) السمر الذوابل : اي الرماح ، جمع ذابل . والذابل من القنا : الرقيق اللاصق بالقشر .

(٨) البتر : بتره بترا : قطعه مستأصلا او مطلقا فهو باتر . والباتر والبَتّار والبُتّار : السيف القاطع .

(٩) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٧٩ .

(١٠) غطارفا : جمع غطريف : وهو السيد الشريف .

يُتابعُ إنْ نوظِرْتُ رِدْءاً لشاغِبٍ

وينهضُ إن ذوكِرْتُ دَرْءاً مكاتفا[١١]

متى أقبلَ العلامةُ انتفضوا لـه

وَحَيَّوه ، حَيَّا الله تلكَ المعارِفا

وكان ابنُ وهّاسٍ لجنْبي فارِشاً

كما تفعلُ الأمُ الحفيّةُ لاحفا[١٢]

ونرى الفخر بالنفس عنده ، حتى في مدحه الصادق العاطفة ، وذلك في قوله : « متى أقبل العلاّمة انتفضوا له » وهو يقصد بذلك نفسه .

وجاء المدح الصادق على لسان الزمخشري ، في مدحه العرب واللغة العربية ، التي كان مغرماً بها ، فهو يفضلها على سائر اللغات . كما كان معارضاً للشعوبية[١٣] ، ولذلك فقد سخر منهم ، وتفاخر بالعرب ولسانهم ، وقد جهر بتفضيله للعرب في قوله [١٤] : «العَرَبُ نَبْعٌ صَلْبُ المعاجم، والغَرَبُ مثل الأعاجم[١٥] » ، وفي قوله[١٦] :

« فَرْقُكَ بين الرطب والعجم ، هو الفرق بين العرب والعجم[١٧] » .

ولذلك فإنه حينما يمدح العرب والعربية ويفخر بهما ، فانه يأتي بذلك عن ايمان قوي ، يتمثل فيه صدق عاطفته كأن يقول[١٨] :

وَقُلْ هَلْ فَشَا في الأرضِ غيرُ لسانِهم

لسانٌ فَشُوَّ الضوءِ واليوم شامِس ؟

---

(١١) الرِّدْءُ : المعين والناصر ، وجمعه ارداء ، والدَّرْء : الدفع والاتقاء . يقال دراه درا ودراة : اي دفعا أو اتقاء .

(١٢) الحفية : التي تبالغ بالاكرام .

(١٣) ينظر : تاريخ الادب في ايران « الترجمة العربية » . ص ٤٥٩ .

(١٤) ينظر كتابه : نوابغ الكلم . ص ٧ .

(١٥) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسي . الغرب : شجر ضعيف رخو .

(١٦) ينظر : المصدر السابق . ص ٣٨ .

(١٧) العجم الاولى : نواة التمر .

(١٨) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٦١ .

به عَجٌ في أمصارِها كلُّ مِنْبَرٍ
وَطَنَّتْ به في الخافِقَيْنِ المَدارِس[19]
على ظهرِها لم يخلقِ اللهُ أمةً
تُناسبهم في خصلة أو تلابس
أجلُّ رسولٍ منهمُ وبلِسْنهم
أجلُّ كتابٍ فاعتبرْ يا مُنافِس
وَقُلْ للشعوبيينَ إنَّ حديثَكم
أضاليلُ من شيطانِكم وَوَساوِس
لكمْ مذهبٌ فَسْلٌ يَغُرُّ بمثلِه
أشايبُ حَمْقَى لا الرجالُ الأكايِس[20]

ومما مدح به العرب مفتخراً بهم ، ومشيداً بانتصاراتهم على الفرس ، وانتزاعهم التيجان من رؤوس ملوكهم قوله[21] :

وَهُمْ فَرَسُوا أبناءَ فارسِ كلَّهم
بأنيابِهم وهي الرِّماح المَداعِس[22]
وَمُصْلَتَةٍ ما زالَ يُطْلى بَياضُها
بماءِ الطَّلى ما فارقَتْها المَداوِس[23]

(١٩) الخافقين : المشرق والمغرب .
(٢٠) الفسل : الرديء الرذل من كل شيء . الاكايس : الكيس : العاقل وهو خلاف الاحمق .
(٢١) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٦٠ .
(٢٢) فرسوا : الاصل في الفرس : دق العنق ، ثم كثر حتى جعل كل قتل . المداعس : الصم من الرماح . والدعس : اي الطعن والمداعِس : المطاعن.
(٢٣) مصلتة : الصلت : السكين المصلتة أو الكبيرة . وجمعها أصلات . الطلى : قشرة الدم . والطلاء : قشرة الدم ، أو شيء يخرج بعد شؤبوب الدم ، يخالف لونه الدم ، وذلك عند خروج النفس من الذبيح . والطلى: الاعناق أو اصولها او صفحاتها . وجمعها : طلاة أو طلية وطلوة . المداوس : المدوس : خشبة يشد عليها مسن يصقل ويجلى بها السيف .

وَهُمْ سَلَبوا التيجانَ هامَ ملوكِهم
ولمْ يقطعوا عنهم نَوادِسَ فارسِ[٢٤]

ومما يتصل بالمدح الرثاء ، وهو كثير في ديوان الزمخشري ، كثرة نكباته ومصائبه . فقد رثى والده ، وأفراد أسرته ، ورثى أستاذه أبا مضر بن جرير الضبي بقوله[٢٥] :

أيا طالبَ الدّنيا ويا تاركَ الأخرى
ستعلمُ بعد الموت أيّهما أحرى
ألم يَقْرعوا بالحق سمعك ؟ قل : بلى
وذُكِّرْتَ بالآيات لو تَنْفَعُ الذِّكرى
أما وَقَرَ الطَّيْشَ الذي فيكَ واعظٌ
كأنك في أذنيك وَقْرٌ ولا وَقْرا[٢٦]
أمِنْ حجر صَلْدٍ فؤادكَ قَسْوَةً
أم الله لم يودعْكَ لُبّاً ولا حِجْرا
وما زال موتُ المرءِ يخربُ دارَه
وموت فريدِ العصر قد خَرَّبَ العَصْرا
وصَكَّ بمثل الصخرِ سَمْعي نعيُّه
فَشُبِّهْتُ بالخَنْساءِ إذ فَقَدتْ صَخْرا

وعلى الرغم مما في أبياته هذه من مبالغة ، إلا أنها قيلت عن عاطفة صادقة ، ولا عجب في ذلك ، فقد كان الزمخشري يحب أستاذه الضبي ويجلّه ، ولذلك فهو قد جعل من موته عظة وآية ، لطالب الدنيا ، كما ذكر أن في موته

---

(٢٤) جاءت في الاصل «وفادس» ولم نجد لها معنى ،ولعل الصواب ما اثبتناه. والنوادس : اي الرماح نوادس . وندسه ندسا : اي طعنه طعنا خفيفا .
(٢٥) ينظر : انباه الرواة ٣ : ٢٦٧ .
(٢٦) وقر يقر وقرا : صمت اذنه . والوقر : ثقل في الاذن ، او ذهاب السمع كلــه .

خرابا للعصر كله ، وهو بهذا ليس كغيره من الناس ، حيث يكون موتهم خراباً لبيوتهم فقط ، ولهذا فمصابه به كبير ، وثكله وحزنه عليه ، كثكل الخنساء وحزنها على أخيها صخر •

ومما رثاه به أيضا قوله[٢٧] :

وقائلةٍ ما هذه الدرر التي
تساقطها عيناك سِمْطَيْنِ سِمْطَيْنِ

فقلت هو الدرُّ الذي قد حشا به
أبو مضر أذني تساقطَ من عَيْني

وقد علق القفطي على هذه الأبيات بقوله[٢٨] : « كان له ــ رحمه الله ــ شعر كشعر النحاة » • وهذا يعني أنه لم يستجد شعره •

أما ابن خلكان ، فقد علق عليهما بعد أن أوردهما بقوله[٢٩] : « وهذا مثل قول القاضي أبي بكر الأرجاني ، ولا أعلم أيهما أخذ من الآخر ، لأنهما كانا متعاصرين » • وهو يريد أن يقول : لعل أبا القاسم غير سبّاق ، الىهذا النوع من الرثاء •

أما أبيات أبي بكر الأرجاني فهي :

لم يُبكني إلاّ حديث فراقكم   لمّا أسرَّ به إليَّ مُوَدِّعي
هو ذلك الدرُّ الذي أودعْتُمُ   في مَسمعي أجريتهُ من مَدْمعي

(٢٧) ينظر البيتان في : انباه الرواة ٣ : ٢٦٧ ، مفتاح السعادة ٢ : ١٠٠ ، الايضاح ص ٢٨٩ ، وقد ورد البيتان بروايات اخرى ، ففي المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٥ ، وفي النجوم الزاهرة ٢ : ٢٧٢ ، والكشكول . ص ٣٣٨ وردا هكذا :

وقائلة ما هذه الدرر التي   تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت هوالدر الذيكان قدحشا   ابو مضر اذني تساقط من عيني

أما في نزهة الالباء في طبقات الادباء . ص ٢٧٤ فقد ورد صدر البيت الثاني هكذا : « فقلت لها الدر الذي كان قد ملأ .

(٢٨) ينظر كتابه : انباه الرواة ٣ : ٢٦٧ .

(٢٩) ينظر كتابه : وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٧ .

ومما ينسب الى القاضي الأرجاني في هذا المعنى أيضا قوله(٣٠) :

لا تَـــزدني نظرةً ثانيـــــة كَفَتِ الأولى وَوَفَّتْ ثَمَني
لكَ في قلبي حـــديثٌ مودَعٌ لا جَحَدْتُ الحبَّ ما أوْدَعَني
خُذْهُ من جَفْني عقوداً إنّـــه بعضُ ما أودعتَـــــهُ في أذني

ومن رثائه الذي يصور لنا العاطفة الصادقة بكل معانيها ، رثاؤه لوالده وخاله ، حيث يتجلى فيه حزنه وحسرته لفقدهما .

ويصور لنا الزمخشري نفسه مقهوراً محطماً ، بعدما فقد خاله الثاني الذي يرثيه بقوله(٣١) :

يا خيرَ خالينِ إنّي بعدَ فَقدِكما من لوعة وأسىً في شَرِّ حالَيْنِ
وانَّ فرقة خال واحـد حَطَمت ظهري فكيفَ إذا فارقتُ خالَيْن

ومن الأغراض الأخرى التي طرقها الزمخشري ، الشكوى ، وهي كثيرة في شعره ، لأن شكواه شملت أكثر من ناحية ، وتمثلت في غربته ، وفي فقده لأهله ، وعدم اصابته منزلة في التدريس ، أو حظوة عند الأمراء والوزراء ، على الرغم من منزلته العلمية والأدبية .

أما غربته وهجرته من وطنه ، فقد رأينا اثرهما في نفسه ، فقد عاش جار الله الزمخشري يشكو الحنينين ، حنينه الى وطنه وأهله ، وهو بعيد عنهم في مكة ، وحنينه وشوقه الى مكة ، بلده الثاني ، حينما يبتعد عنها ، يقول من أرجوزة(٣٢) :

عليك يا مكةُ طـالَ وَجــدي لو أنَّ طولَ الوجدِ ممّا يُجدي
يوم دفعنـــا العيسَ صوبَ نجدٍ هدمتُ ركني شـرفي ومجـدي

وتتمثل شكواه بأجلى صورها ، في قصيدته التي قالها ، اثناء طريقه الى مكة ، عندما هاجر اليها ، مفارقاً وطنه الذي شهد مدارج طفولته ، وملاعب

---

(٣٠) ينظر : وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٧ .
(٣١) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ١١٤ .
(٣٢) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٣٧ .

صباه ، وملاهي شبابه ، بعد أن وجد البقاء في هذا الوطن شقاء لا يطيقه ، فالقصيدة مليئة بنبرات الحزن والأسى ، وحث النفس وتعليلها بالذهاب الى مكة المكرمة • يقول[٣٣] :

سيري تُماضِـرُ حَيْثُ شِئْتِ وَحَدِّثي
أنّي الى بَطْحـاءِ مكّةَ سـائِرُ
مُتَعَوِّدٌ بالرُّكنِ يَـدْعو ربَّـه
يَشْكو جَرائِرَ بَعْدَهُنَّ جرائِـرُ
يشـكو جَـرائر لا يكاثِرُهـا الحَصَى
لكنهـا مِثْـلُ الجبـال كبائِـرُ

ثم تستكين نفسه لما هو فيه ، ويلجأ الى الواحد الأحد ، وهو خير من يلجأ اليه الانسان في حالة يأسه ، حيث نراه يقول :

واللهُ أكبـرُ رَحْمَـةً والله اكـ
ـبر نِعْمةً وَهْوَ الـكريمُ القـادِرُ
وأحـقُّ ما يشـكو ابن آدَمَ ذَنْبَـهُ
وأحَـقُّ من يُشْكى اليـه الغـافِرُ
فَمَسَى المَليـكُ بفَضْلِهِ وبِطَوْلِهِ
يَكْسو لباسَ البِرِّ مَنْ هُوَ فـاجِرُ

ثم نرى الشاعر يستمر في قصيدته معزياً نفسه ، بأنه سيحل ضيفاً على بيت الله الحرام ، ورب هذا البيت لا يخل بضيفه ، كما هي حال أهله وقومه• وبعد ذلك يأخذ في ذكر بعض الأماكن الموجودة ، في تلك البلاد المقدسة ، وفي ذكر بعض مشاعر الحج ، ذاكراً أن تلك البلاد ، ملتقى كل الأقطار ، حيث يقول :

---

(٣٣) المصدر السابق . ورقة ٤٢ ، السمو الروحي في الادب الصوفي ـ احمد عبدالمنعم الحلواني ـ . ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ . طبعة : البابي ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م .

ضَيْفاً لِمَوْلى لا يُخِلُّ بضَيْفِهِ وَيُريه أقْصَى ما تَمَنَّى الزائِرُ
حَسْبي جَوارُ اللهِ حَسْبي وَحْدَهُ عَنْ كُلِّ مَفْخَرَةٍ يَعُدُّ الفاخِرُ
سأُقيمُ ثَمَّ وثَمَّ تُدْفَنُ أعْظُمي ولَسَوْفَ يَبْعَثُني هناكَ الحاشِرُ
والعَبْدُ يَحرِصُ أن ينفِّذَ عَزْمَهُ ووراءُ عَزْمِ العَبْدِ حُكْمٌ قاهِرُ
هَلْ في قَضاءِ اللهِ أنّي قادِمٌ أُمَّ القُرى والى البَنِيَّةِ ناظِرُ
فمُقَبِّلُ الحَجَرَ المُمَسَّحَ مُلصِقاً خَدّي به وعَلَيْه دَمْعي قاطِرُ
فَبِذلكَ البَيْتِ المُستَّرِ طائِفٌ في ثَوْبي الاحرام أشْعَثُ حاسِرُ
فَمُبادِرٌ للسَّعْي ما بَيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ العَبْدُ المُجِدُّ مُبادِرُ
فَمُراقِبٌ نَفْرَ الحَجيجِ إلى مِنىً فإلى مِنىً قَبْلَ المُعَرَّف نافِرُ(٣٤)
فإلى المُعَرَّفِ نافِرٌ حَيْثُ التقتْ مِنْ كُلِّ أقْطارِ البلادِ جَماهِرُ

ويظهر لنا فيما بعد أن الزمخشري، كان راضياً عن نفسه بذلك الإرتحال، الذي نأى به، عن الضيم الذي رآه في بلاده، في عدم تقويمه ووضعه في المكان اللائق به، أضف الى ذلك أنه سيكون قريباً، من بيت الله الحرام، وقريباً من رسول الله، صلّى الله عليه وسلم، فهو يقول(٣٥) :

يا مَنْ يُسافِرُ في البلادِ مُنقِّباً إنّي إلى البَلَدِ الحَرامِ مُسافِرُ
إنْ هاجَرَ الإنْسانُ عَنْ أوْطانِهِ فاللهُ أوْلَى مَنْ إليه يُهاجَرُ
وتِجارَةُ الأبرارِ تلك وَمَنْ يَبِعْ بالدِّينِ دُنياه فَنِعْمَ التاجِرُ
تالله ما البَيْعُ الرَّبيحُ سِوَى الذي عَقَدَ التَقِيُّ وكُلُّ بَيْعٍ خاسِرُ
خَرَّبْتُ هذا العُمْرَ غيرَ بقِيَّةٍ فَلَعَلَّني لَكَ يا بَقيَّةُ عامِرُ
وَعَهِدْتُني في كُلِّ شَرٍّ أوَّلاً فَلَعَلَّني في بَعْضِ خَيْرٍ آخِرُ
في طاعةِ الجَبّار أبذُلُ طاقَتي فَلَعَلَّني فيها لِكَسْري جابِرُ
سأروحُ بَيْنَ وُفودِ مَكَّةَ وافِداً حتى إذا صَدَرُوا فَما أنا صادِرُ(٣٦)

---

(٣٤) المعرف : موقف الحاج بعرفات .
(٣٥) ينظر ديوانه . ورقة ٤٢ .
(٣٦) صادر : اي منصرف عن ورده .

وكوّنت نكباته حرمانه من نصيبه في الدنيا ، وبعثت الشكوى على لسانه ، واتخذ من موت الأهل والأقارب سبباً لإظهار هـذه الشكوى ، فقد ثقلت عليه الحياة بتلك المصائب ، التي قصمت ظهره ، وسوّدت أيامه ، فقد بدأ الموت بوالده ، ثم ثنى بجده وأخيه ، وأتبعهما بعمه وخاليه ، فكان لذلك عظيم الأثر في نفسه ، التي ناءت بآلامها، فأخرجتها شعراً على لسانه، فهو يقول(٣٧) :

ما للنوائب لا ينفكُّ دَيْدَنُهـا عني وهجّيرهـا قهري واذلالي
أودت بجدي وما أبقت أخي وطوت عميّ وصادت بأسباب الردى خالي

ولعل عدم حصوله على مطالبه ، من الوصول الى المنصب اللائق به ، وعدم اصابته منزلة في التدريس ، أو حظوة عند الأمراء والوزراء ، كان له دور مهم في شكواه ، ولذلك نراه يصرخ متألما ، من تلك الحال التي وصل اليها ، ومن سوء حظه على الرغم من نشاطه وعلمه ، وقد وصل به تألمه ، الى درجة أن يتخذ المدح وسيلة للاستهزاء ، كأن يمدح الخمول ، فهو أجـدى وأنفع ، وهو بعمله هذا انما يريد أن ينتقد من بيدهم الأمر في البلاد ، حيث يشير الى أنهم يشملون بعطفهم الرجال الخاملين ، وينسون ذوي الفضل ،ممن هم على شاكلته ، وسنرى بعد ايرادنا الأبيات ، المرارة التي يعانيها الزمخشري من ذلك حيث يخاطب نفسه بقوله(٣٨) :

أطلب أبا القاسـم الخمولَ ودع غَيْرَكَ يطلبْ أَسـامياً وكنى
شبِّهْ بعض الأمواتِ نفسك لا تبـرزه إن كنت عاقلا فطنـا
ادفنه في البيت قبل ميتتـه واجعل لـه من خموله كفنـا
عَلَّكَ تطفي ما أنت موقـده إذ أنت في الجهل تخلع الرسـنا

والزمخشـري ينوه صراحة في شعره ، بأمله في الحصول على منصب ،

---

(٣٧) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ١٠٠ .

(٣٨) تنظر الابيات في : الكنى والالقاب ٢ : ٢٦٨ ـ ٢٦٩ طبعة العرفـان ـ صيدا .

يلائم مكانته وكفايته . ولنره وهو يقول من قصيدة بعث بها ، الى مؤيد الملك عبيد الله ، بن نظام الملك(٣٩) :

اليكَ عبيد الله أُنْهي شـــكايتي ... نكاية دهر ينتحي بصياله(٤٠)
بحقــك فازجره ومُرْه لينتهي ... فأمركَ أمضى من مواضي نبـاله
فأنتَ الذي الديوانُ طوع لحكمه ... وذلك طوقٌ في رقــاب رجـاله
وأنت الذي إن قالَ شيئاً يريـــده ... فما فيهمُ من ينثني عن مقــــاله

ونستطيع كذلك أن نعتبر الفقر ، سبباً من شكواه ، فقد عضّه بنابه ، في أكثر أوقات حياته ، حتى يمكننا القول : إنّه والفقر توأمان . ولكن ماكان يؤلمه ، ويحزّ في نفسه ، أن عسرته تلك ناتجة عن اهمال ذوي الشأن أمره ، ورعايتهم لغيره ، ممن هم دونه ، حتى جنبوهم حيـــاة الفقر المدقع ، التي يعيشها . يقول :

من الغبن ذو نقص يصيب منازلاً ... أخوالفضل محقوقٌ بتلك الفضائـلِ
غنيٌ من الآداب لـــكنّني إذا ... نَظرتُ فما في الكفِّ غيرُ الأناملِ

كل هذه الأمور التي ذكرناها ، كان لها أثر كبير ، على نفسية شاعرنا ، هذا بالاضافة الى عاهته المستديمة،إذ كان يخجل منها، فيخفيها بلباسه الطويل، وبرجل خشبية(٤١) ، حتى يظن من يراه أنه اعرج فقط . ومن البيّن الواضح أن عاهته تلك ، قد خلّفت له ألمــاً دفينا ، وان لم يشر اليه في شعره . ولكننا نستطيع أن نستشفه في تلك المرارة ، ومسحة الحزن المسيطرة على نفسه ، وتلك الشكوى الدائمة ، الناتجة عن ألم دفين ، ألم أكبر من كونه ناتجـا عن فقر ، أو فقدان منصب ، أو فقدان لعزيز بالموت ، وانما هو شعور بالنقص الجسدي .

---

(٣٩) ينظر : مخطوط ديوانه . ورقة ٩٧ .
(٤٠) النكاية : العدو . ونكي الرجل : أي غلب وقهر وانهزم .
ينتحي : نحا : اي قصد قصده .
صياله : الصيال والصيالة والمصاولة : المواثبة .
(٤١) ينظر : وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٥ . وعبارة ابن خلكان فيه : « كان يمشي في جارن من الخشب » . وينظر ايضا : العبر في خبر من غبر ٤ : ١٠٦.

وعلى أية حال ، فقد تضافرت على الزمخشري ، ظروفه الخاصة ، وظروف بيئته العامة ، واصطدمت مع حسه المرهف ، فحوّلته الى رجل كسير الفؤاد ، كثير الشكوى .

وقد وضع الزمخشري ، كثيراً من المؤلفات ، في فنون مختلفة ، منها : « الكشاف » و « أطواق الذهب » و « نوابغ الكلم » و « مقاماته » و « معجمه العربي الفارسي » و « أساس البلاغة » و « الفائق في غريب الحديث » و « المستقصى من أمثال العرب » و « الجبال والأمكنة »وغيرها.

ومن مؤلفاته في الأدب : «ربيع الأبرار »[٤٢] و « أعجب العجب في شرح لامية العرب » و « ديوان شعره » وغيرها[٤٣] . وقد ذكر له المؤرخون ما يربي على الخمسين مؤلفاً ، تعد بمجموعها دائرة معارف مهمة[٤٤] .

وقد تقلب الشاعر كما رأينا ، في كثير من البلاد ، ولم يشغله عن طلب العلم والبحث ، اللذين لقي في سبيلهما التعب أي شاغل ، فقد عاش عازباً ، وكان يعتز بمؤلفاته ، اعتزاز المرء ببنيه فهو يقول[٤٥] :

بنيَّ فاعلم بناتُ فكري ... حَصانهم أمَّة الدراسة[٤٦]
أبناء صدقٍ لهم نفوسٌ ... وُصِفْنَ بالفضل والنّفاسهْ
حُماةُ عرضي محصِّنوه ... في كَنَف الصونِ والحراسهْ
برٌّ صريحٌ بلا عقوق ... خلقٌ صحيح بلا شكاسهْ

---

(٤٢) ما يزال مخطوطا ، ويقع في اربعة اجزاء .
(٤٣) تنظر مؤلفاته في هذا المجال في : « الزمخشري » . ص ٥٦ ، فقد عقد لها الدكتور محمد الحوفي فصلا خاصا .
(٤٤) ذكر ياقوت الحموي في معجم الادباء ١٩ : ١٣٣ ـ ١٣٤ ، قسما من مؤلفاته ، وذكرحاجي خليفة بعضا منها في كتابه :كشف الظنون ١ :٨٥. وينظر أيضا : الاعلام ٨ : ٥٥ : وتنظر : « مقدمة » رسالتان للزمخشري. ص ٥، معجم المطبوعات . ص ٩٧٣ ـ ٩٧٦ ، تاريخ اداب اللغة العربية ٣ : ٤٧ ـ ٤٩ ، المعاجم العربية . ص ١٢٦ .
(٤٥) مخطوط ديوانه . ورقة ٢٦ .
(٤٦) حَصُنَت وحَصِنَت حصنا : عفت عن الريبة . والشاعر : يريد ان أمهم العفيفة هي الدراسة .

ما نَسْلُ قلبي كنسل صلبي   من قاسَ رُدَّ له قياسه

كم بين ذي مسلك طهورٍ   ومسالكٍ مسلكٌ الخساسه

مَنْ ساسَ أبناءَه فإنّا   لهؤلاء البنين ساسه

وكان الزمخشري يفخر بمؤلفاته دائماً ، كقوله في الكشاف(٤٧) :

وناهيكَ بالكشاف كنزاً نضارُه   يعلّم تمييز الجياد الصيارفا

وتَخفِقُ أوراقُ المصاحف هزة   لهزِّ معانٍ يزدهين المصاحفا(٤٨)

فَما في بلادِ الشرقِ والغربِ ناقدٌ   يقلبهما دهراً فيخرج زائِفا(٤٩)

ويستمر في فخره هذا ، الى أن يقول مبيناً أنه أتم تأليف هذا الكتاب في مكة المكرمة :

وتمَّ لي الكشاف ثَمَّ ببلدة   بها هبط التنزيلُ للحقّ كاشِفا

على بابِ أجْيادٍ بنى لي منزلاً   كركن شَمامٍ بالصّفامُتواصفا(٥٠)

وأنفق في اتمامه من تلاوة   ثقيلات وَزْنٍ في البلاد خَفائِفا

فهو في هذه الأبيات ، ينوه أيضاً بمساعدة الأمير ابن وهاس له .

وفيه قال أيضا(٥١) :

ثم استوى الكشاف ثم على يدي   متفحص عن سدّه كشّاف(٥٢)

حسنُ الإبانة عن حقائق نظمِهِ   بفصوصه وعيونه عرّاف

من كلِّ غمر من غمار علومه   حاسٍ بأوسع جفنة غرّاف(٥٣)

---

(٤٧) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٧٩ .
(٤٨) يزدهين : ازدهى الشيء : تهاون واستخف به . والمصحف : « بتثليث الميم » من اصحف : اذا جمع فيه الصحف المكتوبة بين الدفتين .
(٤٩) قلب الامور : بحثها ونظر في عواقبها ، واحتال لها .
(٥٠) شمام : جبل .
(٥١) ينظر مخطوط ديوانه . ورقة ٧٦ .
(٥٢) سده : السد : الكلام السديد المستقيم الصحيح .
(٥٣) الجفنة : القصعة العظيمة ، أو شبه القصعة . وجمعها جفن وجفان وجفنات .

علما المعـــاني والبيـــان كلاهما طامي العباب كلجّة الرّجاف[٥٤]
هو صيرفي القول فيصل حكمــه ميّاز بين الجزل والسفساف[٥٥]

ونرى ان مدحه لنفسه على هذه الصورة ، هو مدح من باب التعويض « تعويض النقص » الناتج عن عاهته .

وعلى الرغم من تأكيد أبي القاسم وتقيه ، أن يكون كتابه هذا مجالاً لأي نقد يوجه اليه ، ومن أي ناقد كان ، أو مِنْ أي بلاد كانت ، شرقية أم غربية ، أن يجدوا به أي زيف ، مهما حاولوا ، ولو قلّبوه دهراً ، فإن أبـــا حيّان الأندلسي ، تخطى هذه التأكيدات ، وكسر الحدود ، وانتقـــده بقوله[٥٦] :

ولكنه فيه مجـال لنـــاقدٍ وزَلاتُ سوءٍ قدأَخَذْنَ المخانِقا
فيُثبت موضوعَ الأحاديث جاهلاً ويعزو الى المعصوم ما ليس لائقـا
ويشـــتم أعلامَ الأئمة ضلـــةً ولا سيما أن أولجوه المضايقـــا
ويُسْهب في المعنى الوجيز دلالـة بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا[٥٧]
يقوِّل فيها الله ما ليس قائـــلاً وكان محبّاً في الخطابة وامقا[٥٨]

ويقول أبو القاسم الزمخشري[٥٩] :

تزوجتُ لم أعلم وأخطأتُ لم أصب فيـــا ليتني قَدْ متُّ قبل التزوج

---

(٥٤) اللجة من الماء : معظمه وهو خاص بالبحر . والرجاف : اسم للبحر .
(٥٥) الفيصل : القضاء بين الحق والباطل . السفساف : الرديء من كـل شيء ، والامر الحقير . واصله من سفساف التراب ، وهو ما يطـير ويرتفع مع الريح ومن سفساف الدقيق : وهو ما يطير من غباره ،عندما ينخل .
(٥٦) ينظر : من شعر أبي حيان الاندلسي . ص ١٠٤ ـ ١٠٥ . جمعه وحققه: د . احمد مطلوب و د . خديجة الحديثي . مطبعة العاني ببغداد . ط١ ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .
(٥٧) شقشق : هدر . ويقال : شقشق الفحــل : اذا هـدر . وشـقشق العصفور : اذا صوت . والشقشقة : شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه، اذا هاج ، وجمعه شقاشق . ومنه يقال للخطيب الجهر بالخطابة : هو اهزت الشقشقة .
(٥٨) ومقه : احبه ، فهو وامق ومميق . ولا يقال ومق .
(٥٩) ينظر : الكنى والالقاب ٢ : ٢٦٨ .

فوالله لا أبكي على ساكني الثرى ولكنني أبكي على المتـــزوج

وعلى الرغم من تأكيد المؤرخين ، على أن الزمخشري مات عازباً ، ولم يتزوج ، فقد نسبت اليه هذه الأبيات ، التي يدعو فيها على نفسه ، لأنه تزوج، وأنه لم يكن سعيداً في زواجه ، حتى يتمنى لو أنه مات قبل زواجه . على أننا لا نجد في شعره حديثاً عن حاله متزوجاً ، أو مساهماً في حياة زوجية عائلية ، ولا سيّما حين يسافر ، من مكان الى مكان ، لأنه لا يذكر حنينه لأسرته ،على نحو ما يذكر حنينه لوطنه ، أو لمكة وطنه الثاني . هذا بالاضافة الى وجود اشارات كثيرة في شعره ، توحي لنا بأنه لم يتزوج في حياته ، ولم ينجب أولادا، وانه حكم على نفسه بالرهبنة ، متشبهاً بالمسيحيين . يقول(٦٠) :

تصفحتُ أولادَ الرجال فلم أكَـدْ أصادفُ من لا يفضح الأمّ والأبـــا
رأيتُ أبـاً يشقى لتربية ابنـــــه ويسعى لكي يُدعى مكيسا ومنجبا(٦١)
أراد به النشـــيء الأعز فما درى أيوليه حجـراً أم يعلّيه منكبـــا
أخو شـــقوة ما زال مركب طفلـــه فأصبح ذاك الطفل للنـاس مركبـــا
لذاكَ تركتُ النسلَ واخترت سيرة مسيحية أحسنْ بذلك مذهبـــا

وفي موقع آخر ، يذكر الزمخشري أن قومه ، لاموه لأنـــه لم يتزوج ، وبذلك يكون قد قسا على نفسه فيقول(٦٢) :

يُموِّه قومي بالتنصـــح لومهم وان عنــاءً لومُهم والتنصح
يلومونني أنّي نأيت بجـانبي عن النسل ألوي عنه رأسي وأجنح

ومن أبرز النماذج الشعرية ، التي تمثل لنا هذا الجانب الجاد،في عكوفه على مؤلفاته ، واهتمامه بها دون سواها قوله(٦٣) :

---

(٦٠) مخطوط ديوان الزمخشري . ورقة ٨ ، نقلا عن كتاب : تأثير البلاغـــة في تفسير الكشاف . ص ٥٠ .

(٦١) المكيس : الكيس : الظريف . والكيس : ذو العقل والفطنة ، وجـودة القريحة . والكيس : الجماع لطلب الولد . ولعل هذا ما اراد الشاعر.

(٦٢) اثر البلاغة في تفسير الكشاف . ص ٥٠ نقلا عن ديوان الزمخشري . ورقة ٢٦ .

(٦٣) ينظر مقدمة الجزء الاول من كتابه الكشاف .

سُهَري لتنقيـــح العلوم ألذُّ لي ... من وصل غانيةٍ وطيب عنـــاقِ
وتمايلي طَرَباً لحـلّ عويصـــة ... أشهى وأحلى من مدامة ســـاقي
وصرير أقلامي على أوراقهـــا ... أحلى من الدَوْكاهِ والعشاق[٦٤]
والذّ من نَقْرِ الفتـــاة لدفّهـــا ... نَقْرى لأنفي الرملَ عن أوراقي
أأَبيتُ سهران الدجى وتبيتـــه ... نوماً وتبغي بعـد ذاك لِحاقي ؟

كان الزمخشري حنفي المذهب ، معتزلي العقيدة[٦٥] ، مجاهراً باعتزاله، منتظاهراً به[٦٦] ، داعياً إليه[٦٧] ، حتى نقل عنه أنه كان اذا قصد صاحباً له ، واستأذن عليه في الدخول ، يقول لمن يستأذن له : « قل له : أبوالقاسمالمعتزلي بالباب »[٦٨] .

وقد كان مذهب الاعتزال مزدهراً ، في زمن الزمخشري ، ولذلك رأيناه يتخذه معتقدا ، ويجهر به في كتابه الكشاف ، الذي افتتحه على حد قول أبي الفداء بقوله[٦٩] : « الحمد لله الذي خلق القرآن منجما » .ثم أصلحه أصحابه فكتبوا : « الحمد لله الذي انزل القرآن منجماً » .

ويقول ذبيح الله صفا[٧٠] : إنّ الزمخشري كان من مشاهير أئمة المعتزلة، في القرن السادس الهجري .

ويرى المستشرق كراتشكوفسكي[٧١] : ان مكانة الزمخشـــري ، في الثقافة الاسلامية ، اعتمدت على شهرته كمفسر ممتاز ، على مذهب المعتزلة ،

---

(٦٤) الدوكاه والعشق : نغمتان في الموسيقى . جـاءت في الاصل (الدوكاه) ولعل الصحيح ما أثبتناه .
(٦٥) ينظر الفوائد البهية . ص ١٦٧ .
(٦٦) ينظر المختصر في اخبار البشر ٢ : ٢٥ ، المنتظم ١٠ : ١١٢ ، البدايـــة والنهاية ١٢ : ٢١٩ .
(٦٧) ينظر العبر في خبر من غبر ٤ : ١٠٦ .
(٦٨) وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٦ ، طبقات ابن قاضي شهبة (مخطوط) . ورقـة ٣٥ .
(٦٩) ينظر كتابه : المختصر في اخبار البشر ٢ : ٢٥ .
(٧٠) ينظر كتاب : تاريخ أدبيات ايران « فارسي » . ص ٥٩ .
(٧١) ينظر كتابه : تاريخ الادب الجغرافي العربي (القسم الاول) . ص ٣١٧ .

ذلك المذهب الذي طاف البلاد لأجل نشره ، ونشر علمه ، وكان الناس يجتمعون عليه أينما حلّ ، فيتمذهبون بمذهبه الذي قضى حياته ، يدافع وينافح عنه .

ويرى الدكتور أحمد أمين[٧٢] ان الزمخشري وعبدالجبار ، هما خلاصة مجهود المعتزلة وأبحاثهم ، في خلال أربعة قرون :

وللزمخشري قصيدة ، يتكلم فيها عن مذهبه ، وكيف أنه لا يستطيع أن يبوح به ، لأن الناس لا يرضيها شيء ، فهو يقول[٧٣] :

إذا سألوا عن مَذهبي لم أبحْ به وأكتمه كتمانهُ لي أسلم
فإن حنفياً قلتُ قالوا بأنني أبيحُ الطِّلى وهوالشرابالمحرم[٧٤]
وإن مالكياً قلتُ قالوا بأنني أبيحُ لهم أكلَ الكلاب وهم هم
وإن شافعياً قلتُ قالوا بأنني أبيحُ نكاحَ البنتِ والبنتُ تحرم
وان حنبلياً قلتُ قالوا بأنني ثقيل حلولي" بغيض مُجسّم
وان قلتُ من أهل الحديث وحزبِه يقولونَ تيس ليسَ يدري ويفهم
تعجبتُ من هذا الزمانِ وأهلِه فما أحد" من ألسن الناس يسلم
وأخّرني دهري وَقَدَّمَ معشراً على أنهم لا يعلمون وأعلم

وهو هنا أيضاً ينوه بالغبن الذي لحقه ، من جراء أصحاب الشأن ،الذين رفعوا من شأن من هم دونه منزلة وعلما وثقافة .

وحقيقة أن أبا القاسم الزمخشري ، لم يكن عالماً مبرزاً فحسب ، وانما كان كاتباً مجيداً ، وشاعرا متمكناً ، ولسنا في هذه الدراسة ، نريد التحدث عنه في نواحيه العلمية المستفيضة الجوانب ، وانما نكتفي بالحديث عنه كاتباً وشاعراً .

---

(٧٢) ينظر كتابه : ظهر الاسلام ١ : ٥١ . طبعة : مكتبة النهضة المصرية . سنة ١٩٦٦م .

(٧٣) ينظر الكنى والالقاب ٢ : ٢٦٨ . وقد أورد القمي منها ٦ أبيات الاولى . وفيه : « يبيح » بدل أبيح . و « لحم » بدل « أكل » .
وينظر مقدمة الجزء الاول من كتاب الكشاف .

(٧٤) الطلى : اللذة . والطلة : اللذة أيضاً ، او الخمر السلسة . والشاعر اراد هذا المعنى . وفي مقدمة الكشاف جاءت هكذا : « الطلا » .

سمات شعره :

وشعر الزمخشري كما رأيناه ، كان يسير في الخط المحافظ ، لما يغلب على شخصية صاحبه من الجد والمحافظة والوقار .

أما عن ناحية محافظته على الخط التقليدي ، فيتبين لنا ذلك في قصائده، التي تحمل بين أبياتها أكثر من غرض واحد ـ كمارأيناـ فهي تتضمن المدح، الى جانب الفخر ، كما تتضمن الشكوى ، وعلى هذا فإن الأغراض ، تتعدد في القصيدة الواحدة ، بينما الهدف الذي قيلت فيه واحد ، هو المدح مثلا .

كما نلمس تلك المحافظة في السير على النهج التقليدي ، في بداية بعض قصائده ، التي قالها في المدح ، بمقدمة غزلية ، كقصيدته التي قالها في مدح الوزير مجير الدولة الاردستاني[١] .

ونحن نلمس في شعره الجلال والوقار ، فلا هزل فيه ، ولا مزاح ، ولعل مردّ ذلك نشأته الدينية ، ومكانته العلمية فيما بعد ، ثم حالته النفسية ، التي طبعت على الحزن والكآبة ، نتيجة الظروف والأحداث ، التي ألمت به ، والتي وجدت صداها في نفسه ، وصورها لنا شعره ، تصويراً قوياً معبراً .

وقد استعمل الزمخشري ، تشبيهات الأقدمين وأساليبهم ، من حيث المديح والرثاء ، والشكوى والعتاب ، الا أن عتابه فيـــه رقة ، ورفق بالغ ، واستعطاف جدير بأن يستل الضغائن من القلوب ، لأننا نشعر فيه بحرارةعاطفة الشاعر وصدقها .

ومن الجدير بالذكر أن نشير ، الى خلو شعر الزمخشري ، من أثر البيئة الطبيعية ، مثله في ذلك مثل الشعراء الآخرين ، من أهل هذا الاقليم .

ومن الملاحظ عليه في شعره ، ركونه الى المعاني والتشبيهات العقلية ولعل مردّ ذلك ثقافته الكلامية والعلمية .

---

(١) ينظر ص ٩٢ من هذا الكتاب .

كما يلاحظ على شعره ، جزالة اللفظ ، ورصانة الأسلوب ، وأثر عيشه في مكة ، وكثرة مدارسته القرآن الكريم ، والشعر العربي القديم •

وأسلوب الجدل والمناظرات ، ميزة ظاهرة في شعره من نحو قال وقلت، وسأل وأجبت ، وما الى هذا ، كما جاء في أبياته الغزلية هذه(٢) :

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من وطر ... وما تَطلبين النجلَ من أعين البقر(٣)
فإنّا اقتصرنا بالذين تَضايَقَتْ ... عيونُهمُ والله يجزي من اقتصر(٤)
مليحٌ ولكن عنده كلُّ جفوةٍ ... ولم أرَ في الدنيا صفاءً بلا كَدَرْ
ولم أنسَ اذ غازلته قرب روضة ... الى جَنْب حوض فيه للماء منحدر
فقلت له : جئني بورد ، وإنما ... أردت به ورد الخدود وما شعر
فقال : انتظرني رَجْعَ طرفٍ أجيءبه ... فقلت له : هيهات ما ليَ منتظر
فقال : ولا ورد سوى الخد حاضر ... فقلت له : إنّي قنعت بما حضر

كما يركن أحياناً الى المحسنات البديعية ، ويعنى بها ، كالتشبيه والجناس والطباق • ومن التشبيه قوله في الغزل ، من أبيات أوردها القفطي ، ذاكراً أن أفضل الدين أميرك الزبيانيّ أنشده اياها(٥) :

يَفوحُ كَفَوْح المِسْكِ فاغِمُ نَشْرِها
إذا التَحَبَتْ فيها ذلاذِلُ ريحِ(٦)
يقول لَها الطشُّ السماويّ والصَّبا
مقيما على تلك الصبابة فوحي(٧)

---

(٢) ينظر وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٧ ، مقدمة الجزء الاول من كتاب الكشاف .
(٣) النجل : اتساع في شقة العين ، وهو من جمال العيون .
(٤) الشاعر يتغزل هنا بالظباء التركية ، وبضيق أعينها ، ولعل ضيق الاعين كان يعد من جمال العيون .
(٥) ينظر انباه الرواة ٣ : ٢٦٩ .
(٦) فاغم : فغمة الطيب : اي رائحته . التَحَبَت : اي مرت .
ذلاذل : في الاصل اطراف القميص .
(٧) الطش : المطر فوق الرذاذ .

مضاجعُ سَعْدانٍ مغـارسُ حَنْوَةٍ
مناجمُ قَيْصومٍ منابتُ شيحٍ(٨)

إذا ملّحَ المُكّاءَ رَجْعُ صفيرِه
يُجاوبُه قُمْرِيُّها بمليحِ(٩)

كأنّ بُدَيْحاً والغريضَ تطارَحا
على وَتَرٍ للموصليّ فَصيحِ(١٠)

ومن الطباق قوله(١١) :

---

(٨) السعدان : نبت لا ساق له ، كثير الشوك : متفرش على وجه الارض ، وهو رطب ، ومن خير المراعي . تسمن عليه الابل ، وتطيب الألبان ، ولذا قيل في المثل : مرعى ولا كالسعدان .
القيصوم : نبت من نبات البادية ، نوره اصفر ، وورقه هدب ، وهو ينهض على ساق تطول .
الحنوة : نبت سهلي طيب الريح ، او هو الريحان او الرند ، ويسمى الغار ، أو هو آذريون البر ، نبته شديد الخضرة ، طيب الريح ، زهرته صفراء ليست بضخمة .
شيح : الشيح : نبت سهلي ، له رائحة طيبة ، وهو مر الطعم ، جمعه شيحان .

(٩) المكاء : الصفير من الفم .
القمري : ضرب من الحمام ، وجمعه قمارى وقمر ، والانثى قمرية .

(١٠) البديح والغريض : البديح هو مولى عبدالله بن جعفر . والغريض : هو عبدالملك ، ويكنى ابا يزيد ، من أعلام الغناء العربي ، في عصر الدولة الاموية . وقد لقب بالغريض لنضارة وجهه ، وحسن مظهره . اخذالغناء عن ابن سريج المكي (واظن ان سريج هذا هو البديح ، مولى عبدالله بن جعفر) . وكان الغريض مطبوعا شجي الصوت ، فبرع بالغناء . وقد نافس ابن سريج وعارضه في أصواته . توفي في اخر خلافة سليمان بن عبدالملك سنة ٧١٧م) .
ينظر الموسوعة العربية الميسرة . ص ١٢٥٤ .

(١١) انباه الرواة ٣ : ٢٦٧ . والطباق في الابيات بين : « حياتي وموتي »وبين: « قرب وبعد » وبين : « عز وذل » وبين : « وصل وانصرام » . وبين : « سلام عليها » و « ان كان لا يقرأ علي سلامها » وبين : « امست واصبحت » .

حيـاتي وموتي قربُ سـعدى وبَعْدُها
وعـزّي وذلي وصلُهـا وانصـرامها

سـلام عليهـا أين أمسـت وأصبحت
وان كان لا يقْـرا عليّ سـلامها

ومن الجناس قوله من نفس القصيدة :

رَعَى الله سَـرْحاً قد رعى فيه سـرحها
ورَوَّضَ أرْضـاً سـامَ فيها سوامها(١٢)

إذا سَـحَبَتْ سـعدى بأرضٍ ذيولهـا
فقد أرغمَ المسـكَ الذكيَّ رْغامُهـا(١٣)

فالشاعر في البيت الأول ، يدعو الله بحفظ المكان الذي تَرعى فيه ابلها وأنعامها . أما البيت الثاني فلعله يريد أن يقول : إنّ التراب الذي تلمسه ثيابها تنبعث منه رائحة طيبة ، تطغي على رائحة المسك الذكي .

ومن حسن التعليل قوله(١٤) :

وان غادر الغـدرانُ في صحـن وجنتي
فلا غرو منـه لم يـزل وابـلاً يهمي

وقد علق رشيد الدين الوطواط ، على هذا البيت بقوله :

« فقد أثبت الغدران صحن وجنته ، بعلة ان الممـدوح وابل يهمي ، والوابل الهامي ، علة كذلك في الغدران(١٥) » .

---

(١٢) سرحها : ابلها وانعامها . سام فيها سوامها : رعت فيها ابلها .
(١٣) الرغام : التراب . والجناس في الابيات بين : « رعى الله » اي حفظ . و « رعى فيه سرحها » اي أكل . وبين « سرحا » و « سرحها » وبين « روض » و « أرضا » و « سام » و « سوام » .
(١٤) حسن التعليل : تكون هذه الصنعة بأن يذكر الشاعر ، في بيت من أبياته، صفتين من الصفات ، ويجعل الواحدة منهما علة للاخرى ، وغرضه من ذلك مجرد ذكر هاتين الصفتين .
(١٥) ينظر كتابه : حدائق السحر في دقائق الشعر . ص ١٨٩ .

شاعريته :

الزمخشري ليس بشاعر ذائع الصيت ، وان كان ديوانه سائراًفي البلدان، على حد قول السمعاني[(١)] . وشهرته مفسراً ، طغت على شهرته شاعراً . كما أن شهرته وذيوع صيته في البلاد العربية ، يفضل نصيبه في بلاد المشرق ، ويفضله حتى في اقليم خوارزم ، موطنه الأصلي ، ولا ننسى معاناة هذا الاقليم، هجر ونسيان المؤرخين والمؤلفين له ، ويكفي تدليلاً على ذلك ، أن تتصفح كتب التأريخ ، لنرى أنه يذكر ذكراً عابراً ، باعتباره جزءاً من خراسان ، أو من بلاد ما وراء النهر . ونسوا أو تناسوا أن له مكانته واستقلاله ، مثله في ذلك، مثل بقية الأقاليم المستقلة .

ومما تقدم من دراستنا لشعره ، يتبين لنا أن الزمخشري ، ليس بشاعر من الشعراء المطبوعين أمثال : أبي نواس ، أو البحتري ، أو العباس بن الأحنف او غيرهم . وان شعره شعر العلماء في جملته ، لاهتمامه بالحقائق العلمية وقضاياها ، وواقعيته وجده في الحياة . وشعر النحاة كما نعته القفطي[(٢)] ، ولعل ذلك ما يجعلنا لا نحس فيه بأي ضعف ، في أي قصيدة من قصائده . وعلى الرغم من القوة التي نلاحظها في شعره ، الا أننا نستطيع أن نقول : إنّه كان ناظماً أكثر منه شاعراً ، يجيد النظم ويأتي فيه بالمعاني والتشبيهات العقلية . وتلك القوة في شعره ، مبعثها اطلاع الامام الواسع ، ومعرفته أصول النحو والعروض ، وثقافته الكلامية والعلمية ، وربما كان لمعيشته في بلاد الحجاز ، وبيئتها البدوية أثر في هذه القوة ، وتلك المسحة القريبة من شعر القدماء .

وهذا لا يقلل من قيمة الزمخشري ، ومنزلته الأدبية ، فقد كان « مضرب

---

(١) ينظر كتابه : الانساب ٦: ٣١٥ .

(٢) ينظر ص ٢٣٧ من هذا الكتاب .

المثل في علم الأدب والنحو[٣] » ، كما كان « إمام عصره بلا مدافعة » على حد قول ابن قطلوبغا[٤] .

وفيه قال طاش كبرى زاده[٥] : « إمام الدنيا في علم الإعراب واللغة ، والمعاني والبيان والزهد ، وحسن السيرة ، في السـر والاعلان ، كما كان واسع العلم ، كثير الفضل ، غاية في الذكاء ، وجودة القريحة ، متفنناً في كل علم » .

وهذا الأمير شبل الدولة ، أبو الهيجاء ، مقبل بن عطية البكري ، ختن نظام الملك يقول فيه[٦] :

هــــذا أديبٌ فاضـــلٌ مثـــل الدراري دُرَرُهُ[٧]
زَمخشــــريٌّ فاضـــلٌ أنْجَبَـــهُ زَمَخْشَـــرُهُ
كالبحـــر إن لـــم أرَهُ فقـــد أتـــاني خَبَـــرُهُ

وكان لهذه الأبيات أثرها الحسن ، في نفس الزمخشري ، الذي رد عليها بقوله :

شعرُهُ أمطر شِعْبي شـــرفا فاعتلى فيـه نبـاتُ الجسدِ[٨]

---

(٣) ينظر الانساب ٦ : ٣١٥ ، الجواهر المضية ٢ : ١٦٠ .
(٤) ينظر كتابه : تاج التراجم في طبقات الحنفية . ص ٧١ .
(٥) ينظر كتابه : مفتاح السعادة ٢ : ٩٧ .
(٦) ينظر انباه الرواة ٣ : ٢٧١ .
(٧) الدراري : الدري من الكواكب : المضيء . والدرر : جمع درة : ما عظم من اللؤلؤ ، وهو يقصد بالدر أدبه وعلمه .
(٨) شعبي : الشعب : الطريق في الجبل ، أو مسيل الماء في بطن ارض لـه حرفان مشرفان . فاعتلى فيه : جاءت في الاصل « فاعتلى منـه » والكلمتان صحيحتان ، ولكننا أثبتنا ما رأيناه أكثر مناسبة للمعنى . فاذا كانت (منه) فان الضمير فيها يعود الى الشعر ، واذا كانت فيـه فانه يعود الى الشعب .
الجسد والجساد : الزعفران أو نحوه ، من الصبغ الاحمر او العصفـر أو الاصفر .

كيف لا يستأسد النبتُ إذا بات مسقياً بنوءِ الأسد[٩]

وأخيراً فإن الزمخشري في أسلوبه ، يميل الى الأسلوب التقليدي ، في الشكل والمضمون جميعاً ، وميله الى هذا الاتجاه ، له ما يفسره من نشأته وطبيعته ، وسائر ظروفه . فالزمخشري ـ كما عرفنا ـ نشأ على التعصب للعروبة ، وعاش عالماً من علمائها ، وكان من أبرز المنافحين عن أمجادها ، وكل هذا يربطه بالمحافظة على القديم ، ويشده الى ماضي العرب في كل شيء . ومن هنا جاء ميله الى الخط التقليدي المحافظ .

وذكر ابن بطوطة في رحلته ، أنه شاهد بنفسه قبر الزمخشري ، خارج مدينة خوارزم وعليه قبة[١٠] .

ويقول ابن خلكان إنّ بعض الفضلاء ، بمدينة حلب أنشده أبياتاً قائلا : إنّ الزمخشري أوصى أن تكتب على قبره[١١] :

يا من يرى مَدّ البعوض جناحَها في ظلمة الليل البهيم الأَليَلِ
ويرى مناطَ عروقها في نحرها والمُخّ في تلك العظام النحّلِ[١٢]
اغفر لعبد تاب عن فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

وقيل إنّ الزمخشري أوصى أن تكتب على لوح قبره ، أبيات غير هذه التي ذكرنا ، وهي[١٣] :

(٩) نوء : النوء : سقوط النجم في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقيبه ، وهو نجم آخر يقابله من ساعته في المشرق . ويعتقد العرب بأنه اذا سقط نجم وطلع رقيبه كان ذلك مطر او رياح ، فينسبون كل غيث يكون الى ذلك النجم . ويقول ابن الاعرابي : لا يكون نوء حتى يكون معه مطر . والنوء : العطاء . والنوء كذلك البقل ، لانه من النوء يكون .

(١٠) ينظر ص ٣٦٠ .

(١١) ينظر كتابه : وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٧ . ، الكنى والالقاب ٢ : ٢٦٩ .

(١٢) مناط : اتصال . وناط بالشيء وصله .

(١٣) ينظر مقدمة الجزء الاول من كتابه الكشاف .

زمـــان كـــل حب فيه خِـبٌّ   وطعمُ الخل خَلٌّ لو يذاق(١٤)

لهم سـوقٌ بضاعتـه نفـــاق   فنافق فالنفـــاق لـــه نفاق

والأبيات الأولى أقرب الى الصواب من هذه ، لأنه من غير المعقول أن يوصي الزمخشري بكتابة مثل هذه الأبيات ، التي تحث على النفاق ، بعد أن عرفنا ما كان من أمر زهده في الدنيا ، وتوبته عن طلب الزائل .

(١٤) الخب : الخداع والخبث والغش . ورجل خَبٌّ وخِبٌّ : خدّاع ، خبيث منكـر .

الفصل الرابع

شعراء آخرون

١ ــ محمد بن حامد « دراسة تحليلية نقدية » .

٢ ــ القاسم بن الحسين « دراسة تحليلية نقدية » .

٣ ــ الرقاشي ، ابو محمد عبدالله بن ابراهيم « دراسة تحليلية نقدية » .

محمد بن حامد :

هو أبو عبدالله ، محمد بن حامد ، ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر[١] ، والقفطي في المحمدين من الشعراء[٢] . ولم نجد من ترجم له غيرهما ، ولذلك رأينا أن ندرسه من خلال شعره ، لأننا لا نستطيع اهماله ، فهو : « حسنة من حسنات اقليم خوارزم ، وغرة شادخة في جبينــه » على حــــد قول الثعالبي[٣] ، واليه : « يرجع كل فضل ، فهو يجمع بين قول فَصْل ، وأدب جزل » .

وما نعرفه عن حياة أبي عبدالله بن حامد ، قليل لا غناء فيه ، ولكننـــا نستطيع القول إنّه من أدباء أواخر القرن الرابـــع الهجري ، وأوائل القرن الخامس ، فقد ذكر الثعالبي ، في أثناء كلامه عنه ، أنه رزق ابناً في سنة اثنتي واربعمائة ، ولعلّه رأى بولادة ابنه هذا مناسبة تقوي صلته بالوزير السهيلي، وزير علي بن مأمون ، خوارزم شاه ، وأخيه أبي العباس ، مأمون بن مأمون خوارزم شاه ، ورأى فيها تجديداً لولائه له بأن يذكّره ، بأن الولد سـيكون خادماً له خدمة أبيه ، وما أحسن تلطفه في هذا بأن طلب من الوزير ، أن يسمّيه له ، ليكون أقرب الى نفسه وقلبه ، وقد كتب أبو عبدالله بهذا، الى الشيخ الوزير ، أبي الحسين ، احمد بن محمد السهيلي قائلا[٤] :

عَوائِـدُ صُنْـعِ الله تكنفني تَتْـرَى
فَتُورِثُني ذكْراً وتُلْزِمُني شُكْرا[٥]

فمنها نَجيبٌ جاءَ كالبَدْرِ طالعـــاً
سَوِيّاً سَنِيّاً شَــدَّ لي نورُهُ أَزْرا

---

(١) ينظر : ٤ : ٢٤٨ (طبعة السعادة) .
(٢) ينظر . ص ٢٣١ .
(٣) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٨ .
(٤) المصدر السابق ٤ : ٢٥٤ .
(٥) تترى : اي واحدة بعد واحدة .

وما هوَ إلا خادمٌ وابن خادم
لسيّدنا مَدَّ الإلهُ لَه العمرا
فَما رأيه في الاسمِ لا زالَ مُسْمِياً
مَوالِيَهُ كي يَقْتَنوا الفَخْرَ والذُخْرا

فالشاعر في هذه الأبيات ، يخبر الوزير بمجيء طفل له ، وأنه ملزم بشكر الله على هذه النعمة ، فهو كالبدر في جماله ، وقد أفرحه أنه سيكون سنداً له في المستقبل • وقد رد الوزير أبو الحسين السهيلي ، على هذه الأبيات بأبيات بمثل أبيات أبي عبدالله بحراً وقافية ، قال(٦) :

سَكَنْتُ الى ما قُلْتَه أولاً نثراً
نَعَمْ ، والى ما صُغْتَه آخراً شِعْرا
فَهنّاكَ اللهُ النجيبَ ، فإنّه
من اللهِ فَضْلٌ يوجبُ الحمدَ والشكرا
وما جاءَ إلا أنْ يكونَ لِصِنْوِه
ظَهيراً ، فَقَوّى اللهُ بينهما ظهْرا
وأوثر أنْ يُكَنّى بكُنيةِ جَدّه
أبي أَحْمَدٍ والإسمُ اختارَهُ نَصْرا
ليَحْمَدَ منه اللهُ تَقْواه والهُدَى
ويَنْصُرَه في عِلْمِه والنُّهى نَصْرا

وكان أبو عبدالله في شبابه ، كاتباً لأبي سعيد الشبيبي ، وكان منه بمنزلة الولد • ثم أصبح كاتب ديوان رسائل ، حسام الدولة أبي العباس تاش الحاجب ، ورفض أن يقلد وظيفة هذا الديوان ، على الرغم من الحاح أبي المظفر محمد بن ابراهيم البرغشي ، وزير تاش ، لأن نفسه كانت تميل الى الاتصال بالصاحب بن عباد ، لسابق المعرفة بينهما ، كما ذكر القفطي في كتابه :المحمدون من الشعراء(٧) • ولما توفي الشبيبي اختص بالصاحب بن عباد ، وقيل إنّه

(٦) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٤ (السعادة) .
(٧) ينظر ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .

تغلّب عليه ببراعته وحذقه في صناعته ، حتى استطاع أن يحل محله ، ويتقلد بريد قـم°(٨) .

وبقي أبو عبدالله ، في وظيفته هذه فترة من الزمن ، فحسنت حاله وطاب عيشه ، ولكن حنينه الى بلاده ، اضطره الى الرجوع ، وحينمـا علم سلطان خوارزم ، خوارزم شاه برجوعه أكرم مورده ، وعرف فضله ، وجعله سفيرا له ، يعتمده في المهمات السلطانية ، والسفارات الكبيرة . وبقيت هذه حاله مع خوارزم شاه ، ومن قام مقامه من أبنائه ، على حد قول الثعالبي ، ولكن المصادر لم تسعفنا في ايجاد نص أو شعر للشاعر ، يثبت ذلك .

ويحكي الثعالبي أيضاً ، أن خوارزم شاه ، أرسله مرة الى السلطان يمين الدولة ، ببلخ « فاستولى على الأمد ، في القيام بشروط السّفارة ، وملك القلوب ، وسحر العقول بحسن العبارة(٩) » .

ويروي الثعالبي أيضاً : أن أبا عبدالله ، لما ورد رسولاً على شمس المعالي قابوس ، أمير طبرستان ، أعجب به شمس المعالي ، اعجاباً شديداً ، وأنعم عليه كثيرا ، ورغب في جذبه الى حضرته ، واستخلاصه لنفسه .

ونرى الثعالبي يؤكد روايته هذه بقوله : إنّ شمس المعالي أوعز اليه أن يقنعه بكل حيلة ، وتمنية جميلة ، ولكن أبا عبدالله بن حامد ، على حد قول الثعالبي ، رفض كل عروض الاغراء التي قدمت له قائلا : « معاذ الله من لبس ثوب الغدر والانحراف ، عن طريق حسن العهد(١٠) » .

ولا ندري مدى صحة هذا القول ، لعدم وجود نص يؤيد وجود تلك العروض .

ورجع أبو عبدالله الى وطنه ، ليكون تحت امرة ولي نعمته خوارزم شاه ، ويكون في بلده بين أهله وأحبابه .

---

(٨) قم : مدينة تذكر مع قاشان ، وهي مدينة اسلامية مستحدثة ، لا اثـر للاعاجم فيها ، وأول من مصرها طلحة بن الاحوص الاشعري ، وبها آبار ليس في الارض ، عذوبة وبردا . ينظر معجم البلدان ٤ : ١٧٥ (طبعـة لايبزك) .

(٩) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٨ (السعادة) .

(١٠) ينظر المصدر السابق ٤ : ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

وقيل إنّه اجتمع مرة ، مع أبي الفتح البستي الكاتب الشاعر ، في مناسبة من مناسبات الأدب ، فحصل بينهما بعد تلك المناسبة ـ كما ذكر الثعالبي ـ نوع من الألفة « فتجاورا بعد ذلك وتزاورا ، وتصادقا وتعاشرا ، وتجاريا في حلبة المذاكرة ، وتجاذبا أطراف المحاضرة » فكان أن انفسح المجال أمام أبي عبدالله ، ليدير فكره في ميدانه ، فيحسن القول ، ويصيب شاكلة الصواب ، مما جعل البستي يقول فيه(١١) :

محمدُ بنُ حامِدٍ إذا ارتَجَلْ
وَمَرَّ في كلامه على عَجَلْ

نَقَّبَ خَدَّ كلِّ نَدْبٍ سابقٍ
بنَثْرِهِ ونَظْمِهِ ثَوْبَ الخَجَلْ(١٢)

أقْلامُه يَسْقِينَ كلَ ناصحٍ
وكاشِحٍ كأسَيْ حياةٍ وأجَلْ(١٣)

فناصحوه مُشْرِقون بالأمل
وكاشِحُوه مُشْرَقونَ بالوَجَلْ(١٤)

أبقاه للدين وللدنيا مَعاً
ولِلمَعالي رَبُّنا عَزَّ وَجَلْ(١٥)

(١١) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٨ ـ ٢٤٩ (طبعة السعادة) ، المحمدون من الشعراء واشعارهم . ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ .
(١٢) النقب : النقب في كل شيء . الندب : يقال رجل ندب : اي خفيف الحاجة ، سريع ظريف نجيب . والندب : جمع الندبة : أثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد . وجمعه ندوب وانداب .
(١٣) الكاشح : المتولي عنك بوده ، والكاشح : الذي يضمر العداوة والمعرض بوجهه عنك .
(١٤) مشرِقون : من اشراق الشمس وضيائها . وهذا كناية عن الفرح ومشرَقون : الشرق : الشجا والغصة . والشرق بالماء والريق ونحوهما كالغصص بالطعام . وهذا كناية عن الحسرة والخوف .
(١٥) كذا ورد الشطر الاول وهو غير مستقيم عروضيا ، الا اذا غيرنا لفظة « والدنيا » الى « وللدنيا » .

ففي هذه الأبيات ، نرى البستي يمدح أبا عبدالله ، بسرعة البديهة ، في منظومه ومنثوره ، ثم نراه يشبه قلمه بينبوع الحياة ، وينبوع الموت ،الذي ينهل منه صديقه وعدوه ، الا أن ناصحيه يكونون في حالة اشـراق وفرح ، وكاشحيه يغصون به حسرة وخوفاً .

ومما قاله فيه أيضا[١٦] :

بنفسي أخٌ نفسُه أمَّةٌ ... وتَدْبيره في الوَرَى فَيْلَقُ[١٧]
أخٌ بابُ احسانِه مُطْلَقٌ ... وبابُ إساءته مُغْلَقُ
كريمُ السجايا ، فلا رأيُه ... بَهيمٌ ، ولا خُلْقُه أَبْلَقُ[١٨]
محمد أنْتَ قِرَى ناظِري ـ ... فَكَيْفَ إذا غِبْتَ لا أقْلَقُ
رَهَنْتُكَ قَلْبِي،وحُكْمُ القلوبِ ... إذا رُهِنَتْ أنها تَغْلَقُ

وفي هذه الأبيات نراه يمدحه ، بأنه مقصد لسائر الناس ، وأنه علم في تدبيره وفضله ، كثير الاحسان مطلقه ، لا يعرف الاساءة ، ولا تعرف هي طريقها اليه . فهو كريم في كل صفاته ، واضح في رأيه ، حكيم في خلقه .

وكأنه في أبياته هذه ، قد جعل الأبيات الأولى مقدمة للبيتين الأخيرين ، اللذين ينوه البستي فيهما ، بمنزلة أبي عبدالله في نفسه ، وعن مقدار حبه ، الذي جعل فيه قلبه رهينة عنده .

والقاريء لأبياته هذه ، يحس العاطفة المنسابة في بيتيه الأخيرين خاصة، مما يدل على منزلة أبي عبدالله ، في نفس صاحبه البستي .

---

(١٦) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٩ (حجازي) .

(١٧) الام : القصد . ومعنى الامة في الدين : ان مقصدهم مقصد واحد ومعناها في النعمة : انما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه ومعناها في الرجل المنفرد : اي الذي لا نظير له ، وان قصده منفرد ، من قَصْد سائر الناس .

(١٨) بهيم : مفرد بهم : وهو المجهول الذي لا يعرف .
والبلق : الحمق الذي ليس بمحكم بعد . والابلق : الذي يطلب ما لا يمكن .

ويظهر لنا هذا الحب الذي يكنه البستي لأبي عبدالله في قوله[١٩] :

يا مَــنْ أَراه للزمــانِ حَسَـــنَهْ
ومَنْ حَوَى مِنْ كلٍّ شيء أَحْسَنَهْ
إنْ غِبْتَ عني سِــــنَةً فهي سَــنَهْ
وَسَنَةٌ تحضُـــرُ فيها وسِـــــنَهْ[٢٠]

وتظهر لنا في هذين البيتين ، الصنعة البديعية ، في تلاعبه في الألفاظ ، التي يريد أن يعبر بها ، عن مقدار حبه لصديقه ، حتى يرى اللحظة القصيرة التي يغيبها عنه سنة كاملة ، ويرى السنة التي يكون معه فيها ، لحظة قصيرة • وهذا المعنى وان كان قد تداوله وتعاوره الشعراء كثيراً ، ولكننا لا نخطىء العاطفة الصادقة التي تنفح على القاريء منه •

وعلى ذكر منزلة أبي عبدالله ، في نفوس مصاحبيه وعارفيه ، فإن لبعضهم من أهل نيسابور فيه[٢١] :

إذا قيلَ مَنْ فَرْدُ العلى والمَحامِـــدِ
أجابَ لســانُ الدهرِ ذاكَ ابن حــامد
هُمــامٌ له في مُرْتَقَى المجدِ مَصْعَدٌ
يَلوحُ له العَيّوق في ثوبِ حاسِــدِ[٢٢]
كَرَيمٌ حَبـــاه المُشْتَري بسُعودِه
وأصبــح في الآدابِ بكرَ عُطــارِدِ

(١٩) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٩ (حجازي) .

(٢٠) سِنة : اي لحظة قصيرة . سَنة : اي حول .

(٢١) يرى الثعالبي في كتابه اليتيمة ٤ : ٢٤٩ ، أن هذه الابيات قيلت في أبي الفتح البستي ، ولكننا نرى انها قيلت في أبي عبدالله محمد بن حامد ، والابيات نفسها تشهد على هذا .

(٢٢) العيوق : كوكب أحمر مضيء ، بحيال الثريا ، في ناحيــة الشــــمال ، لا يتقدمها ويطلع قبل الجوزاء .

به سَحَبَتْ خوارزم ذَيْلَ مفــاخرٍ
على خُطَّـةِ الشّـعْرى وربْع الفَراقِدِ
فَلا زالَ في ظـلٍّ السعادةِ ناعمــاً
يَحوزُ جميـعَ الفضلِ في شخص واحدِ

وقد غالى المادح في مدحه ، حتى جعل العيوق ، وهو الكوكب المضيء ، يحسد الممدوح على منزلته •

وبعد أن رأينا منزلة أبي عبدالله ، عند البستي خاصة ، وأشعاره التي قالها في مدحه ، الا أننا لم نجد في شعر أبي عبدالله ، مثل ذلك في مدح البستي•

ومما بقي من شعر أبي عبدالله ، بضع قصائد تدور أغلبها حول المدح ، الذي خصّ به الصاحب بن عباد ، وهي من شعره الجيد الذي وصل الينا ، لانها تصور لنا نفسية شعراء هذا الغرض ، من الشعر العربي خير تصوير ، تصور الاسراف والغلو اللذين طغيا على شعر الشعراء المدّاحين ، ولا سيما شعر من أتصل منهم ببلاطات الدولة ، سـعياً وراء الرفـد • يقول أبو عبدالله(٢٣) :

ما أنْسَى لا أنْسَى أياماً نَعِمْتُ بها
وَهَـذَّبتْني بتَطْوافي وَتَـرْدادي
أيّـامَ أركَبُ مَتْنَ الريحِ تَحملُني
والطِّرْسُ والنِّقْسُ والأقلامُ أذْوادي(٢٤)
كافي الكُفـاة ادامَ اللهُ نُصْـرَتَه
نَجْلُ الأمين الـكريم الشيخ عَبَّـادِ(٢٥)
غَمْـرُ الـرِّداءِ لرُوّادٍ وَوُرّادِ
سَـهْلُ الحِجـاب لزوّار ووفّـادِ

---

(٢٣) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٠ ــ ٢٥١ (حجازي) .
(٢٤) الطرس : الصحيفة . ويقال هي التي محيت ثم كتبت . وقيل الطرس: الكتاب الذي محي ثم كتب .
النقس : المداد الذي يكتب به ، وجمعه انقاس وانقس .
(٢٥) كافي الكفاة : لقب الصاحب بن عباد .

لا زالت الدولةُ العليــاء تلزمـــه

ما قالتِ العــرب حَيّوا الحيَّ بالوادي

ونراه في تعابيره يتعلق بالتعابير العربية القديمة ، وعبارة « غمر الرداء » من العبارات التي تدور في كتب البلاغة عندهم ، وهي عبارة الشاعر كثير عزة في قوله(٢٦) :

غَمْرُ الـرّداءِ إذا تَبَسَّمَ ضاحِكــاً

غَلِقَتْ لضَحْكَتِهِ رِقـابُ المــالِ

فانه استعار الرداء للمعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه ، كما يصون الرداء ما يلقى عليه . ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف لا الرداء .

ولفظة « الوقاد » تعيدنا الى شعر حاتم الطائي ، اذ يقول لغلامه(٢٧) :

أَوْقِدْ ، فإنَّ الليــلَ لَيْلٌ قَــرُّ

والرّيحَ ، يا موقِدُ ريحٌ صِــرُّ

عَسَى يَرَى نارَكَ مَنْ يَمُــرُّ

وكذلك عبارة « حَيّوا الحيَّ بالوادي » .

ومن شعره الذي قاله في الصاحب بن عباد أيضاً قوله(٢٨) :

ليَهْنِكَ الأهنيــانِ الملــك والعُمُــرُ

ما سـايَرَ الأسْيَرانِ الشّعْرُ والسَّمَرُ

---

(٢٦) ينظر البيت في ديوانه . ص ٢٨٨ .جمعه وشرحه : الدكتور احسان عباس . نشر دار الثقافة ببيروت ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١م . وينظر شرح البيت في : الايضاح . ص ٢١٦ .

(٢٧) ينظر ديوان حاتم الطائي ، مع دراسة مفصلة عن الجود والاجواد ــ الدكتور فوزي عطوي ــ ص ٢٦٣ . مط ، الشركة اللبنانية للكتاب ــ بيروت ــ لبنان ١٩٦٩م .

(٢٨) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٥١ (طبعة السعادة) . ويقول الثعالبي : ان هذه القصيدة : تربي على ثلاثين بيتا ، ولكنه لم يذكر منها ، الا ما استشهدنا به .

وَطالَ عُمْرُ سَناكَ المُسْتَضاء بــه
ما عُمِّرَ الأبْقيانِ الكُتْبُ والسِّيَرُ
يَفْدي الورى كلّهم كافي الكفاةِ فقـد
صفا به الأفضَلانِ العَـدْلُ والنَّظَرُ
بـه مكارمُ لا تُحْصى محاسـنُها
أو يُحْسَبُ الأكثَرانِ الرَمْلُ والشَّجَرُ
لكَيْدِه النَصْـرُ من دونِ الحُسام ، وإن
تَمَرَّدَ الأشجَعان التُرْكُ والخَزَرُ
ما سـارَ موْكِبه الا وَيَخْدُمـه
في ظِلّه الأسنَيانِ الفَتْحُ والظَّفَـرُ[٢٩]
وإن أَمَـرَّ على طِرْس أناملَـه
أغضى له الأبهَجـانِ الوَشْيُ والزَّهَرُ
دامَتْ تقبلُها صيـدُ الملوكِ كَمـا
يُقَبّلُ الأكرَمانِ الرُكْنُ والحَجَـرُ

ونراه في هذه القصيدة ، يتعلق فيما يسميه البلاغيون التفسير بعد الابهام، فهو يورد اللفظة مثناة في كل بيت ، ثم يأخذ في تفسيرها وايضاحها . وفي هذه الحالة يجعل السامع يتعلق بما سيقوله في هذا التفسير ، وقد أتى الشاعر بألفاظه التي أضفاها على الممدوح ، متوخياً فيها اسمى آيات المديح .

ومن قصيدة اخرى ، كتب بها إليه من الري الى الأهواز، يهنئه بدخولها قوله[٣٠] :

بَريقُ الرَأي يَعْبُـدُه الحُسامُ وَبَرْقُ السعدِ يخدمُه الأنـامُ

---

(٢٩) الاسنيان : السنا : الارتفاع ، وسنى الى معالي الامور : اي ارتفـع، والسناء : من الرفعة .
(٣٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥١ (حجازي)

وما اتَّفَقا كما اتفَقا لقَرْمٍ هوالصَّمْصامُ والملكُ الهُمَامُ(٣١)
همام لا يؤُمُّ الخَطْبَ إلاّ «ونَصْرُ الله عَزَّ له إمامُ»(٣٢)
« وما من بلدة في الأرض إلا إليه بها نِزاعٌ أو هُيامُ »(٣٣)
فلو أن البلاد أطَقْنَ سَعْياً لسارعَ نحوه البلَدُ الحَرامُ
أدامَ اللهُ أيامَ المعالي وذلكَ أن يَدومَ له الدَوامُ
وما لي غير ما هُوَ جَهْدُ مِثْلي دُعاء أو ثَناء لا يُرامُ

وفي هذه الأبيات نرى الشاعر ، وقد خرج بمدحه الى المغالاة ، في قوله : « لسارع نحوه البلد الحرام » على أنها مبالغة محمودة ، وغير ممجوجة أيضاً. وفيها ما يعطف الصاحب عليه ، إذ نراه يشير الى أنه لا حول له ولا قوة ،وليس له ما يقرّب به نفسه الى الصاحب ، غير الدعاء والثناء.

ومثل هذا قوله في الممدوح نفسه(٣٤) :

سلامٌ على نفسٍ هي الأمَّةُ الكبرى
وشخصٍ هو المَجْدُ المُنيفُ على الشِّعرى
هو الدين والدنيا فَزُرْهُ ترى المُنى
وتَحصُلْ لكَ الأولى وتَحْصلْ لكالأُخرى

وقد يحق لنا ان نتهم الشاعر ، بالإسراف والغلو ، في مديحه للصاحب،

---

(٣١) القرم : الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ، ويودع للفحلة ، والجمع قروم . وقيل : هو الذي لم يمسه الحبل . والشاعر يريد هنا : انه سيد القوم .
الصمصام : رجل صمصام : اي مصمم ، وقيل : هو الشديد الصلب . وقيل للسيف الصمصام : اي صارم لا ينثني .
(٣٢) يؤم الخطب : اي يقصده . والخطب : الشيء العظيم .
(٣٣) نزاع : النزاع : الشوق الشديد . والنزاع : الغلبة . يقال : نازعتني نفسي الى هواها : اي غالبتني .
والهيام : كالجنون من العشق .
(٣٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥١ (حجازي) . والأُمة : اهل الملة الواحدة . والأَمة الحال والشأن ، والشرعة والدين . والإمة : النعمة وغضارة العيش .

ولكننا نعذره بعض العذر ، حين نعرف أن هذه هي سنة المادحين ، أو المدّاحين في عصره ، وإلا فكيف يحصّل من يزوره ، على الحياتين ! فإن كانت الحياة الأولى بنظر الشاعر هي المادة ، فمن السهل أن يحقق الزائر هذا ، ولكن أنّى له من الحصول على الحياة الأخرى بزيارته له ! إلا إذا كان يقصد بها ،حصوله على معرفة بعض الأمور الدينية ، في مجلس الصاحب بن عباد .

ومن قوله فيه أيضاً(٣٥) :

رأيتُكَ مرّةً فَسَعِدْتُ حتى رأيتُ سعودَ عيشي طالعاتِ

فلو أني نَظَرْتُ اليك أُخرى لأضحَتْ لي الليالي خادِماتِ

والظاهر أن أبا عبدالله ، قد فارق الصاحب بن عباد ، وان بقيت علاقتهما متصلة بالرسائل،التي أصبحت بالنسبة له كالطعام والشراب ، فهو يقول(٣٦):

غَدا دَفْتَري أُنْساً ، وحَظّي روضةً
وَحِبْري مُداماً ، وارتجاليَّ ساقيا
ولا شَدْوَ لي إلاّ التَحفّظُ قارئاً
ولا سُكرَ إلاّ حين أنشِدُ واعيا
تَجَشَّمَ أوصافاً حساناً لعَبْده
فَطَوّقَه عِقْداً من العزّ حاليا
فلولا امتثالُ الأمر لا زال عاليا
لطارَ مكان النَّظْمِ رَجْلانَ حافيا(٣٧)
على أَنني إنْ سِرْتُ أو كنتُ قاطناً
فغايةُ جَهْدي أن أَطوّلَ داعيا

---

(٣٥) المصدر السابق ٤ : ٥٢ ٢ .
(٣٦) المصدر السابق ٤ : ٢٥٠ ، المحمدون من الشعراء وأشعارهم . ص٢٣٣ .
ذكر القفطي منها اربعة ابيات فقط .
(٣٧) أي ماشيا على رجله .

رســـائلُه لي كالطَّعام ، وَشِــعْرُه

كمـاءٍ زُلال حين أُصْبِـحُ صاديـــا

فإن ظَلَّتِ الآمـــالُ تشكرُ ظِلَّـــهُ

فإنَّ لسان المـــال قــد ظَلَّ شــاكيا

كأنَّ إلـهَ الخلـــق قـــال لجوده :

أفِض كلَّ ما تَحْويه وارزقْ عِباديـــا

وفي قصيدة أبي عبـــدالله هذه ، نفحة من قصيدة أبي الطيب المتنبي في كافور ، حين قصده ، بعد هجره لسيف الدولة ، وهي القصيدة التي مطلعها :

كَفَى بكَ داءً أن تَرى الموتَ شــافيا

وَحَسْبُ المنايا أن يكنَّ أمانيـــا[٣٨]

ونرى في قصيدة أبي عبدالله ، الروح العاطفية الجياشة ، التي تدل على منزلة الصاحب في نفسه ، بعد أن رحل عنه .

ولأبي عبدالله محمد بن حامد ، على ما يروي الثعالبي ، قصيدة في أبي سعيد الشبيبي ، يوم برز الأخير من جرجان بالمضارب ، ليعسكر بظاهرها ، متوجها الى الأمير أبي علي ، واتفق تعرض أرنبين في تلك الصحراء ، فتبادر الغلمان اليهما فصادوهما ، فتفاءل الشبيبي أنه يغلب العـــدو ، كما أصطاد الغلمان الأرنبين ، فقال أبو عبدالله في ذلك[٣٩] :

أتاكَ بمــا تَهْوَى وَتَرْضى المحــرَّمُ

وجــاءك بالنَّصْــــر العزيز يُتَرْجِمُ

ولا غَرْوَ أنْ تَلْقى الذي تَبتغي ومـــا

تحاولُ والأفلاكُ بالســعدِ تَخْـدُمُ

---

(٣٨) ينظر ديوان المتنبي . ص ٤٣٩ . تحقيق د . عبدالوهاب عـزام . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . سنة ١٣٦٣هـ ــ ١٩٤٤م.

(٣٩) يتيمة الدهر ٤: ٥٢ ٢.

وَبَخْتُكَ مرفوعٌ ، وَجَدُّكَ مُقْبِلٌ
وأمرُكَ مَتْبوعٌ ، وَقَدْرُكَ مُعْظَمُ
وَرأيُكَ في قَمعِ المُناوينَ رايةٌ
وهَيْبَتُكَ الشَّمَّاء جَيْشٌ عَرَمْرَمُ
وَحَسْبُكَ صَيْدُ الأرنَبَيْن مبشِّراً
بصيدكَ أعداء على الغَدْرِ أقْدَموا

ونرى في هذه القصيدة ، أبا عبدالله يمدح متفائلاً بالنصر ، على الأعداء ، وفي قصيدته هذه ، نفحة من قصائد أبي الطيب المتنبي ، في مدحه لسيف الدولة في حروبه ، إلا أنها خالية من المدح « الضمني » والفخر بالنفس ، الذي نراه يتخلل مدح المتنبي ، لسيف الدولة أو لغيره .

ومن شعره أيضاً ما قاله في أبي العباس الضبي(٤٠) :

زَمانٌ جَديدٌ ، وَعيدٌ سَعيدٌ وَوَقْتٌ حميدٌ ، فماذا تُريدُ؟
وأحْسَنُ من ذاكَ وَجْهِ الرئيسِ وقد طَلَعَتْ من سَناه السُّعودُ
وكم حُلَّة خَطُّها قد غَدَتْ على بُرْدِ آل يَزيدَ تَزيدُ(٤١)

وله في أبي العلاء السري ، بن الشيخ أبي سعد الإسماعيلي قوله(٤٢) :

قَرأتُ لمن له يصفو وِدادي نَظيماً كالشباب المُسْتَعادِ
سرِيّاً كاسم صاحِبِه ، ولكن به عادَ الحنينُ الى ازديادِ
فكانَ اللَّفْظُ في مَعْنىً بَديعٍ أَلذَّ لَدَيَّ من نَيْلِ المرادِ

وكان بين الشاعر وبين والد هذا الممدوح مراسلات ، ويذكر الثعالبي أن الشيخ أبا سعد الاسماعيلي ، كتب اليه قصيدة منها(٤٣) :

---

(٤٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٣ .
(٤١) البرد : ثوب مخطط ، او يخص بالقصب والوشي ، وجمعه ابراد وبرود أبرد وبراد .
(٤٢) المصدر السابق ٤ : ٢٥٣ – ٢٥٤ .
(٤٣) يتيمة الدهر ٤ ٢٥٣ .

سـلام على شـيخ المحامـدِ والذي

له الذِّرْوة العَلْياء والشَرفُ العِـدُّ

ومَنْ صَـحَّ منـه وُدُّهُ ووفاؤه

على حين لم يَحْمَدْ لِذي خُلَّة عَهْدُ

فأجابه أبو عبدالله ردّاً على هذه بأبيات على نفس قافيته(٤٤) :

أفَخْرٌ وذُخْرٌ أم خِطـابٌ له مَجْـدُ ؟

أسِحْرٌ أتى أمْ نَظْمُ مَنْ لا له نِدُّ(٤٥)

شَممتُ من العُنْوان عنـد طلوعـه

رَوائحَ فضلٍ دونَهـا المِسْكُ والنَّدُّ

وساعة فكيٌّ الخَتْمَ أبْصَرْتُ جَنَّـةً

سَقَتْها غَوادي الفكر فهي لها خُلْدُ(٤٦)

فأشـجارُها عَلَمٌ ، وأغصانهـا تُقىً

وأثمارُها فَهْمٌ ، وَغُدْرانها رُشْـدُ

تَجَشَّمها الشيخ الإمـام الذي بـه

ومنـه وفيه يُعْرَفُ الـكرم العِـدُّ

ومَنْ بحُلَى أخلاقِهِ تَشْـرُفُ العُلى

ويَلْمَعُ في الدنيـا بكُنْيَتِـهِ السَّعْدُ

وفي هذه الأبيات يمدح أبو عبدالله ، الإسماعيليّ من خلال مدحه لشعره، ولعله نظر في هذا الى أبيات ابن الرومي الشهيرة ، التي مدح بها محمـد بن

---

(٤٤) ينظر المصدر السابق .

(٤٥) النّد المثيل . والنّد : ضرب من الطيب يدخن به ، وقيل هو العنبر .

(٤٦) غوادي : جمع غادية . والغادية : السحابة التي تنشأ غدوة . وقيـل : هي السحابة تنشأ فتمطر غدوة ، وجمعها غواد . وقيل : هي سحابـة تنشأ صباحا .

عبدالله بن طاهر ، ولكن محمداً أنقلب عليه ناقداً ومنافساً له ، فهجا شعره ، ولم يجزه بشيء ، وفي ذلك يقول ابن الرومي(٤٧) :

مَدَحْتُ أبا العباسِ أطلبُ رِفْدَهُ
فَخَيَّبَنِّي مِنْ رِفْدِهِ وَهَجا شِعْري

فَهَبْنيَ قد أعفيتُهُ من مثوبتي
أيُغضي له شعري على مضض الوَتَرِ

سَيُريهِ شِعْري مثل ما كان راشَهُ
ولا خير في شعر يَريشُ ولا يَبْري(٤٨)

وفي أبيات ابن الرومي هذه نراه يتأثر لهجاء شعره ، أكثر من حرمانه من مثوبة الممدوح ، فكأن أبا عبدالله نظر في هذا ، واتخذ منه سبيلا الى مدح صاحبه ، بمديحه لشعره ، ولا عجب فهو شاعر، يحسّ بما يحسّ به الشاعر حين يمدح او يُهْجى شعره .

كما نرى أبا عبدالله ، في هذا المديح قد أضفى على شعره ، التشابيه الجميلة ، والتعابير الرقيقة التي استعملها ، كغوادي الفكر ، وغدران الرشد ، وأثمار الفهم ، الى غير ذلك .

ولم يكتف الشاعر بكل ما أضفاه على الممدوح ، من الصفات الجميلة ، وانما نراه يستمر في مديحه ، من خلال مدح نظمه حيث يقول :

وكَيفَ يُؤدي حَقَّ شعرٍ شعاره الـ
ـعلاء وراويه ومُنْشِدُه المَجْدُ

---

(٤٧) ينظر ابن الرومي حياته من شعره ـ العقاد . ص ١٨١ . نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت . ط ٦ سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م .

(٤٨) راشه : الروش : خفة العقل . ورجل راش : ضعيف الصلب . وكذا رمح راش ورائش . يبرى : البري من السهام : الذي اتم بريه ولم ينصل : الكامل البري . والبراية : القوة . ومن أمثالهم : لا يريش ولا يبرى : أي لا ينفع ولا يضر . ويقال : لا ترش على كلامي : أي لا تقطعه باعتراضك عليه .

وبي حُرْقةٌ مذ غِبْتُ عن حُرٍّ وجهه
حرارة نار العشقِ في جَنْبها بَرْدُ

أما غزله فالظاهر أنه قد سار فيه ، في تيار الشعر العربي القديم ،حيث جاء به مستهلاً ، في قصيدة قالها في مدح الشبيبي ، وهي من مهرجانية ، على وزن مصراع ، أنشده في المنام ، على حد قول الثعالبي ، وذلك أنه رأى شخصا مثل بين يديه وقال له : « قد نلت ما لم تنله قبلك الأمم » • وحينئذ قال أبو عبدالله محمد بن حامد(٤٩) :

البَيْن خَمْرٌ ولكن سُكْرُها سَقَمُ
والحبُّ نُعْمىَ ولكن في غدٍ نِقَمُ
إنَّ المحبِّينَ أحرارٌ وأنفسهم
لمن يُحبّونَ في حكم الهوى خَدَمُ
يا أيُّها الظاعنونَ ، القلب عندكمُ
إن لم يكن عندكم فالقلبُ عَبْدُكُمُ
لي بينكم قمر في ثغره بَرَدٌ
في قدِّه غُصُنٌ في وجهه صَنَمُ(٥٠)
كأنَّما ابن شبيب سَلَّ في يَدِهِ
من مُقْلَتَيْه حُساماً حَدُّه خَذِمُ(٥١)
القائل القَوْلَ لم تَنطقْ به عَرَبٌ
والفاعلُ الفعلَ لَمْ تفطن به العجم
على الكنوزِ أمينٌ غيرُ مُتَّهَم
وسَيْفُهُ في رقابِ الناس مُتَّهمُ

(٤٩) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .
(٥٠) برد : بياض في الاسنان .
(٥١) خذم : الخذم : سرعة القطع ، وسمي السيف مخذم لذلك .

وقد غـدا وهو شَـيْخُ الدَوْلتين كمـا
للحضـرتين بـه عِـزٌ وَمُنْتَظَمُ
لذاك في النوم شَخْصُ الصِّدْقِ قال له :
قد نِلْتَ ما لم تَنَلْـهُ قَبْلَكَ الأمَمُ

ففي هذه الأبيات ، يرى الشاعر أن الفراق مسكر كالخمر ، ولكن سكره يختلف عن سكر الخمر ، بكونه سقماً ، وكذلك الحب فانه نعمة للمحبين ، وهو كذلك نقمة لهم . وهكذا يأخذ الشاعر في وصف حال المحبين ، حيث يرى أنهم خدم لمن أحبوهم . ثم نراه يصرخ منادياً من فارقوه ، لأن بينهم حبيبه ، حيث يأخـذ في وصفـه ، وذكر محاسـنه ، في ألفاظ حلوة رقيقـة ، وأوصاف جميلة ، حتى نراه يتخلص من هذا ، الى الغرض الأصلي في القصيدة ، ألا وهو مدح الشبيبي ، الفارس الشجاع،صاحب السيف الذي لايرحم رقاب الأعداء.

ومن خلال هذه الدراسة ، نرى أن الشاعر كان متأثراً ببعض الشعراء أمثال : أبي الطيب المتنبي ، والسري الرفاء ، وابن الرومي ، فهو يأخذ من أسلوبهم ومعانيهم . والظاهر أنه كان ذا منزلة رفيعة في الأدب في عصره ، كما اشتهر كذلك بخطه الحسن ، وفي هذا يقول بعض أهل عصره(٥٢) :

وَراحٍ كشعرِ البُحتري مَزَجْتُها بماءٍ كأخلاق الكرام الأجـاودِ
فلمّا علا وجْهُ الحبيب شـربتُها وجدتُ بها عَيْشٍ كخطِّ ابن حامِدِ

(٥٢) ينظر المحمدون من الشعراء واشعارهم . ص ٢٣١ .

القاسم بن الحسين :

هو أبو محمد ، القاسم بن الحسين بن أحمد الخوارزمي ، مجدالدين الملقب بصدر الأفاضل[١] .

ولد القاسم بن الحسين سنة ٥٥٥هـ[٢] ، في اقليم خوارزم ، ولسنا نعرف عن نشأته الأولى شيئاً ، ولكنا نعرف أنه درس الفقه ، على أبي الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزي ، وأخذ عنه العربية[٣] ، وكان المطرزي له معرفة تامة ، بالنحو واللغة والشعر وأنواع الأدب ، على حد قول عبدالحي اللكنوي[٤] .

أخذ القاسم بن الحسين علمه عن خيرة علماء عصره ، وفي مختلف الفنون ، حتى أصبح عالماً بالعربية وفقيهاً من فقهاء الحنفية ، فقد كان حنفياً سنيّاً على حد قول السيوطي[٥] .

ورحل الفقيه الشاعر ، القاسم بن الحسين ، الى بخارى لطلب العلم ، وكانت بخارى في تلك الحقبة : « مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، أو موسم فضلاء الدهر » على ما يقول الثعالبي[٦] .

---

(١) ينظر هدية العارفين ١ : ٨٢٨ ، الفوائد البهية . ص ١٢٦ ، الاعلام ٦ : ٨ معجم المطبوعات العربية والمعربة . ص ٨٤٠ . وجاء في ترجمة ياقوت الحموي له ، في كتابه معجم الادباء ١٦ : ٢٣٨ « ابن محمد بدلا من ابن أحمد » وورد مثل ذلك في بغية الوعاة ٢ : ٢٥٢ . وصدرالافاضل : أي رئيسهم ومقدمهم .

(٢) ينظر معجم الادباء ١٦ : ٢٣٨ ، الفوائد البهية . ص ١٢٦ ، تاج التراجم في طبقات الحنفية . ص ٥٠ ، هدية العارفين ١ : ٨٢٨ ، بغية الوعاة ٢ : ٢٥٢ .

(٣) ينظر الجواهر المضية ١ : ٤١٠ ، تاج التراجم . ص ٥٠ .

(٤) ينظر الفوائد البهية . ص ١٧٤ .

(٥) ينظر كتابه : بغية الوعاة ٢ : ٢٥٢ .

(٦) ينظر كتابه اليتيمة ٤ : ١٠١ (طبعة حجازي) .

إذاً عاش القاسم بن الحسين ، في اقليم خوارزم ، وفي ظل نهضته العلمية والأدبية ، في تلك الفترة المزدهرة ، فنهل من تلك المعـــارف والعلوم ، ولم يكتف بذلك ، بل رحل الى بخارى ، ليستقي من منابعها ، ويستفيد من علمائها وادبائها •

اتجه القاسم بن الحسين ، الى قرض الشعر ، وكتابة النثر ، وما زال ينبغ فيهما ، حتى صار من ألمع أدباء عصره ، ومن آشهر شعرائه ، كما ظهر لنا من أخبـــاره •

قال ياقوت الحموي فيه[٧] : « واحد الدهر في علم العربية صدقاً ، ذو الخاطر الوقّاد[٨] والطبع النقّاد[٩] ، والقريحة الحـــاذقة ، والنحيزة الصادقة[١٠] ، برع في علم الأدب ، وفاق في نظم الشعر ، ونثر الخطب ، فهو إنسان عين الزمان[١١] ، وغرّة جبهة هذا الأوان[١٢] » •

ولسنا نعرف للشاعر ديوان شــعر ، وربما كان له ولــكنه اندثــر مع ما اندثر ، عندما خرب التتار خوارزم •

وعلى أية حال فما تبقى لدينا من شعره قليل جداً ، ولولا ترجمة ياقوت الحموي له ، لما بقي لنا من شعره ، شيء يذكر • على أن شعره ـ وان قلّ ـ يكفينا في الدلالة على مكانته الشعرية ، هذا بالاضافة الى ما روي عنــه من أخبار •

ودراستنا لهذه النماذج من شعره ، ترينا أنه كان يجول في المــــدح ، والفخر والغزل ، وهي من أغراض الشعر العربي المعروفة ، المتداولة عنـــد الشعراء عامة •

كذلك يدل هذا القليل الباقي من شعره ، على أنه كان غالباً ذا سمات

---

(٧) ينظر كتابه : معجم الادباء ١٦ : ٢٣٨ .
(٨) أي صاحب القلب السريع التوقد في النشاط ، والمضاء الحاد .
(٩) اي صاحب الطبيعة والسجية السريعة النقد .
(١٠) أي الطبيعة الصادقة .
(١١) اي رئيس أهل زمانه .
(١٢) الغرة : بياض في جبهة الفرس . وهو يريد أن يقول : ان القاسم بـن الحسين ، كان ذائع الصيت والشهرة في اوانه .

بدوية واضحة ، ولست أدري من أين جاءه هذا التأثير ! إذ أن مترجميه ، لم يشيروا الى أنه سافر الى البادية ، أو عاش مع العرب العاربة ، شأن الامام الزمخشري ، وعلى هذا نقول : ربما كانت تلك السمة الغالبة على شعره ، تنيجة المحاكاة والتقليد المتقن ، الناتج عن دراسته الشعر العربي القديم ، دراسة عميقة متأثرة ، والا فما سبب هذه الوعورة ، التي تحوجنا الى المعاجم، في قصائده ؟!

ويرجع هذا التصور في بداوة شعر القاسم بن الحسين ، الى ما حكاه ياقوت الحموي عنه ، حينما زار اقليم خوارزم ، في سنة ٦١٦هـ ، وزار الشاعر في بيته ، فأسمعه قصيدة له مطلعها(١٣) :

أَتحمِلُ مني نَحوَ ذَيّالكَ الرَّشا سلاماً كصدغَيْه وحالي مشوشا(١٤)

وإنّي لوجدي استضيء لذي الحمى بشعلة أنفاسي إذا الليل أَغطشا(١٥)

ويرحَمُني العَذّالُ حتى يقولَ لي أموقد نارٍ بينَ جَنْبَيْكَ أم حَشا(١٦)

وهل تَرِدُ الجَرْعاء مني بحنّةٍ على طرفيْها رَوْنقُ العهد قد مشى(١٧)

وانّي قد كتَّمت سرّي وإنّما برغمي صَوْبُ المدمعين به فَشا(١٨)

كما أن صَدْرَ الشرقِ أخفى سخاءَه ولكنه بِشْرُ الجبين به وشى(١٩)

---

(١٣) ينظر معجم الادباء ١٦ : ٢٤٣ ــ ٢٤٤ .

(١٤) ذيالك : تصغير ذلك . الرشا : ولد الظبية اذا تحرك ومشى . والمراد به : الحبيب المشبه به في الرشاقة ، وخفة الحركة . وحالي مشوشا: اي مضطرب من الوجد والشوق .

(١٥) اغطش الليل : اظلم .

(١٦) العذال : الكثير العذل ، والمتشدد في عذله . ويرحمني العذال : اي يرق لي اللوم . الحشا : مافي البطن من الامعاء وغيرها .

(١٧) الجَرْعاء : الرملة الطيبة النبت ، لا وعوثة فيها . أو الارض ذات الحزونة تشاكل الرمل : الحنة : المرة من الحنين ، وهم الترحم والشفقة .
رونق العهد : حسنه . يقول : هل تمر بالجرعاء ترحما وشفقة ، وتتذكر العهد الذي بيننا ؟ .

(١٨) فَشا به : اظهره ونشره واذاعه .

(١٩) وَشَى به : نم عليه .

وإن هزّه الإطراءُ ثم تبجّست أياديه لم يسكر له فقد انتشا[٢٠]
أيلحقه الوهمُ القطوفُ إذا سعى لإدراك غايات العلا متكمّشا؟[٢١]
لك المنهل المِسكيُّ ما زال نقعه يُعلّل صلاًّ في يمينك أرقشا[٢٢]
فيلفظ في منسابه من لعابه حتوفاً وأرزاقاً على حسْب ماتشا[٢٣]

ومع ذلك نستطيع القول ، إنّ الشاعر ، كان يسير في موضوعاته على ما هو معروف من الفخر والمديح ، والغزل ، وهو في أسلوبه ، يميل الى الأسلوب التقليدي ، في الشكل والمضمون جميعاً ، ومع ذلك حينما نقرأ شعره ، تتضح لنا سمات خاصة لفنه ، وتظهر لنا فيه شخصيته ، فهو يميل أحياناً الى المبالغة ، في صوره ، حينما يفخر بأهله وأجداده ، أو حينما يتكلم عن كرم أسرته ، وسخائهم في عطاياهم ، ولننظر اليه وهو يقول[٢٤] :

قدْ صحّ لي باتفاق الناس كلهم
رواية العدل والإنصاف عن سلفي
إنّي لمِنْ معشرٍ كانت معايشهم
بالقصد أما عطاياهم فبالسّرَف[٢٥]
قوم متى طلعتْ ليلاً مآثرهم
رأيتَ بدْرَ الدجى في زِيٍّ منْخسِف[٢٦]

---

(٢٠) تبجست أياديه : تفجرت من تبجس الماء : اذا تفجر . والمراد به :العطاء الكثير . انتشى : عاوده مرة بعد اخرى .
(٢١) القطوف : البطيء . متكمشا :المتكمش من الرجال: السريع .والاستفهام هنا للانكار ، اي لا يلحقه ولا يدركه .
(٢٢) المنهل المسكي : المورد الطيب الرائحة كالمسك . النقع : الماء المجتمع . الصل : الثعبان . والارقش : المنقط من الحيات وهو اخبثها .
(٢٣) حتوفا : جمع حتف : اي منايا للاعداء ، وأرزاقا للاصحاب على وفق ارادتك ومشيئتك .
(٢٤) معجم الادباء ١٦ : ٢٣٩ .
(٢٥) القصد : التوسط بين الافراط والتقتير ، والسرف : الاسراف والافراط
(٢٦) قوم متى طلعت .. الخ : اي افعالهم الحميدة ومكارمهم المتوارثة . والشاعر يريد ان يقول : ان مكارم أهله اذا انتشرت ، اضاءت الكون ←

بدولـــة المَلِكِ الميمون طـــــائـرُه

أنّى توجَّهْتُ فالاقبـالُ مُـكْـتَـنَفي(٢٧)

وحينما يتغزل نراه رقيقاً ، في تغزله بحبيبه الذي ينعته بولد الظبية ،كما رأينا قبل قليل •

وفي وصفه لحسن ورشاقة حبيبته ، وتشبيهه لهـــا بقضيب من الآس قوله(٢٨) :

سَـرى ناشــداً أُنسي قضيب من الآس

فناوَلني الصَّهْباءَ والشَّهْدَ في كاسِ(٢٩)

وأرشَدَني وَهْنـــاً لتقبيل خـــاله

وَميض ثَنـايـاه وشُـعلةُ أَنفاســـي

وَلَوْ لم يكنْ يُلقي على جَمْــر خَــدِّه

من الطُّــرة السوداء ظُلَّةَ أنقـاس(٣٠)

إذاً لاضـــاءَ الليـل حتى انجلتْ لنـــا

هَواجسُ تُخفيهنّ أفئـــدةُ الناس(٣١)

وعمته ، حتى ترى القمر مظلما لا ضوء له لطغيانها عليه ، وفي هـــذا مبالغة ظاهرة .

(٢٧) الميمون طائره : المبارك الطلعة . وانى توجهت : ظرف مكان ، أي الى اي مكان قصدت . مكتنفي : أي محيط بي .

(٢٨) معجم الادباء ١٦ : ٢٤٥ .

(٢٩) ناشدا : طالبا . أنسي : أي ايناسي وعدم وحشتي .
قضيب من الآس : يريد حبيبته على التشبيه في الرشاقة ، والحســن والطول .
الصهباء : الخمر . والشهد : العسل ما دام لم يعصر من شمعه .

(٣٠) الطرة : طرة الشعر : قطعة منه . سميت طرة ، لانها مقطوعة من جملة.
أنقاس : النقس : مداد الدواة ، جمعها أنقس وانقاس .

(٣١) هواجس : الهجس : ما وقع في الخلد : وهي النبأة الخفية . والهجس: الخاطر .

ووراء هذا الغزل الرقيق ، الذي ربما صدر عن شخص قد جرّب الحب، وجرّب لوعة العشق ، تكمن نفس أخرى ، هي غير هذه النفس العاشقة ، بل هي نفس حكيمة ، لشاعر حكيم عاقل متزن ، يسدي النصح لأقرانه من الشعراء فيقول :

يا زمرةَ الشعراء دعوةَ ناصح ... لا تأملوا عند الكرام سماحا
إنّ الكرامَ بأسرهم قد أغلقوا ... بابَ السماحِ وضيّعوا المفتاحا[٣٢]

كان الشاعر القاسم بن الحسين ، ذا أخلاق طيبة ، ولسان ذلق ، ومحيا طلق ، وقد وصفه ياقوت فقال[٣٣] : « وحضرت في منزله بخوارزم ، فرأيت منه صدراً[٣٤] ، يملأ الصدر ، ذا بهجة سنية ، وأخلاق هنية ، وبشر طلق[٣٥] ، ولسان ذلق[٣٦] فملأ قلبي وصدري ، وأعجز وصفه نظمي ونثري » .

وقد مُدح القاسم بن الحسين ، من قبل الأدباء والشعراء ، فقال فيه بعض الفضلاء الخراسانية مادحاً[٣٧] :

إنّ للعالمين فخراً وزَيْناً ... وجمالاً يجلُّ عن كلِّ شين
بفتىً وافرِ العلوم نِقاب ... مثله ما رأيتُ قطُّ بعيني[٣٨]

وقال فيه بعض الفضلاء ، وكان صاحباً له[٣٩] :

يقولونَ إنّ الأصمعيَّ لبارعْ ... وبالنحو والآداب والشعر عالمُ

(٣٢) البيتان في معجم الادباء ١٦ : ٢٣٩ ، بغية الوعاة ٢ : ٢٥٣ ، معجم المطبوعات العربية والمعربة . ص ٨٤٠ .
يا زمرة : الزمرة : الفوج والجماعة . السماح : العطاء .

(٣٣) معجم الادباء ١٦ : ٢٣٨ .

(٣٤) صَدْراً : أي تقدما ورئاسة تملأ القلب .

(٣٥) بشر طلق : أي ضاحكة مشرق .

(٣٦) ذلق اللسان : أي بليغ .

(٣٧) معجم الادباء ١٦ : ٢٤٢ .

(٣٨) نقاب : أي عالم بالامور ، كثير البحث عنها ، والتنقيب عليها .

(٣٩) المصدر السابق ٦ : ٢٤٢ .

كذا ابن دريدٍ والخليلُ وجاحظٌ وكلٌّ لِدُرِّ العلم والفضل نـاظمُ
فقلت أجل ، قد جلَّ في الناس شأنُهُمْ وأفضلُ منهم صدرُ خورزمَ قاسمُ

كان القاسم بن الحسين ــ على حد قوله ــ يقول الشعر تطرباً لا تكسباً، ولذلك فإن مدحه كان مدحا لشخصيات خيالية ، غير موجودة ، مع وجود مسمياتها ، وحتى في حالة وجود الممدوح ، فانه لم يكن يبغي من وراء مدحه مكسباً أو ربحاً .

ويقول ياقوت الحموي : إنّ القاسم بن الحسين ، حلف له حينما زاره في منزله ، أنه لم يتعرض لمدح أحد قط ، وان ما جاء في شعره من المديح إنّما هو لغير موجود ، فهو يقول(٤٠) :

سَنَا جبينـكَ مَهْمـا لاحَ في الظُّلَمِ
بتْنـا نُطـالعُ مِنْـه نُسْخَةَ الكَرَمِ
إنْ يزرع النَّاس في أخـلاقِهم كَرَمـاً
فالبـذر من جودك الطنان بالدِّيَمِ(٤١)
تَبْـدو على أشْقَرَ خُضْرٍ حَوافِـرُهُ
بَحراً يُلاطِمُ أمْواجاً على ضَـرَمِ(٤٢)
تَشَمُّ عِنْدَكَ صيدُ العَجْمِ لَخْلَخَةً
من الرَّغـامِ بآنافٍ مـن القِمَـمِ(٤٣)

(٤٠) معجم الادباء ١٦ : ٢٥٠ .
(٤١) الطنان : ذو الطنين وهو الصوت الذي له طنين يسمع .
الديم : جمع ديمة وهي مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق .
(٤٢) خضر : جمع خضرة . والخضرة من الالوان بين السواد والبياض .
يلاطم امواجا : يضاربها . ضرم : اشتعال النار .
(٤٣) صيد العجم : ملوكهم جمع أصيد . واللخلخة : الرائحة الطيبة .
الرغام : الرغام : رمل يغشى البصر . والرغام : مخاط الغنم والظباء خاصة . آناف : الانف من كل شيء طرفه . والانف من الارض : ما استقبل الشمس من الضواحي والجلد . والجلد : الارض الصلبة الغليظة المستوية المتن ، وجمعها أجلاد . والقمم : جمع قمة : وهي أعلى الراس ، واعلى كل شيء .

كادَتْ لحُبِّكَ تأتي وَهْيَ ساعِيَةٌ
على الرُّؤوسِ بدونِ الساقِ كالقَلَمِ
مَنْ ظَنَّ غَيْرَ نِظامِ المُلْكِ ذا كَرَمٍ
نادى به لُؤْمُه اسْتَسْمَنْتَ ذا وَرَمٍ (٤٤)

ويقول ياقوت الحموي : إنّ أبا الحسين حينما أنشده هذه الأبيات ، توقف عند البيت الأخير منها قائلاً : أتعرف من هو نظام الملك؟ ولما أجبته بالنفي ، وطلبت منه أن يعرفني به ، أجابني بأنه هو نفسه لا يعرفه ، فهو اسم لغير مسمى .

والشاعر قد أخذ معناه ، في بيته الأخير ، من بيت المتنبي الذي يقول فيه:

أُعيذُها نظراتٍ مِنْكَ صادِقَةً
أن تَحْسِبَ الشَحْمَ فيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ(٤٥)

ويذكر ياقوت الحموي ، أن أبا القاسم قال له من جملة ما قال : إنّه لم يعرف أحداً أفضل عليه في حياته ، إلاّ مرة واحدة ، حينما كان ببخارى ، فإنّ الغربة أحوجته لذلك . وكان قد ذهب اليها طالباً للعلم ، وقاصداً للقراءة على أحد الاشخاص الذي كنى عنه بالرضيّ ، واجتمع هناك بصدر جيهان ، أبي عبدالله ، محمد بن أحمد الجيهاني(٤٦) ، وزير السامانيين ببخارى ، كما اجتمع بالعظماء والأدباء . ولما حذق الأدب برّه هذا الوزير ، بسبعين دينارا ركنية(٤٧) ووعده بوعود جميلة . ويقول أبو القاسم : ولولا الحاجة والغربة ما قبلتهما منه . ثم نراه يؤكد كلامه هذا بقوله : إنّ الشهاب الحوفي ، وهو أحد صدور خوارزم ، المتقربين من السلطان ، عرض عليه أن ينصب له منصباً

(٤٤) استسمنت ذا ورم : مثل يضرب لمن يغتر بالظاهر المخالف حقيقة الواقع.

(٤٥) ينظر ديوان المتنبي ، بشرح ابي الحسن علي بن احمد الواحدي النيسابوري ، المتوفى سنة ٤٦٨هـ . ص ٤٨٣ . طبع في مدينة برلين. سنة ١٨٦١م .

(٤٦) نسبة الى جيهان ، مدينة بخراسان .

(٤٧) اي من ركن الدولة ، من بني بويه .

ومجلساً ، بطرّاحة(٤٨) سوداء الى جانبه ، ويعطيه كل شهر عشرة دنانير ، ليقرأ له الأدب فلم يقبل(٤٩) .

ويقول ياقوت الحموي : ولما سألته عن كيفية معيشته في الحياة ، ومن أين يحصل على المال ، الذي يعيش منه ؟ أجابني بأن والده قد خلف له قدراً يسيراً منه ، وانه ينفق مما تركه له أبوه ، بالقدر الذي يستره بين الناس ، ويجعله غنياً عن حاجته اليهم .

ومن مدحه الذي يستعير فيه اسماً لممدوحيه، دون أن يعرفهم قوله(٥٠):

أَفديك ذا منظر بالبشر مُلْتَحِفٍ
عن اليمين وللإقبال مُبتسمِ

يَدُ الجلال وَشَتْ في لوح جبهته :
الناسُ مِنْ خَوَلي والدهرُ من خَدَمي(٥١)

ولو انافَ على هام السُّها وطني
لما لوتْ نحوَه أجيادَها هممي(٥٢)

على الندى وُقفَتْ أيّامُه وعلى
نشر المحامد منه أَلْسُنُ الأممِ

ما جئت أخدُمُهُ الا وقد سحقتْ
يداً تلطفه عطراً من الشيَمِ(٥٣)

---

(٤٨) طراحة : فراش مربع يجلس عليه .

(٤٩) ينظر : معجم الادباء ١٦ : ٢٥٠ ــ ٢٥١ .

(٥٠) معجم الادباء ١٦ : ٢٥١ ــ ٢٥٢ .

(٥١) وشت : من الوشي أو النقش . يريد انها نقشت الشطر الثاني من البيت

(٥٢) أناف : اي ارتفع . والسها : كوكب خفي من بنات نعش الصغرى . ويريد الشاعر أن يقول : لو ارتفع فوق هذا النجم ، لما ادارت هِمَمي أجيادها نحوه ، وهذا منتهى الفخر بالنفس .

(٥٣) سحقت : أي دقت .

زَفَّ النَدى نحوَه بكراً مُخَدَّرةً
لولاه زُفَّتْ إلى كَفْنٍ مِنَ العدمِ(٥٤)

يريه شعري نجومَ الليلِ طالعةً
والنَيِّرين معاً من مشرق الكَلِمِ

لا زالَ مثلَ هلال العيد حَضْرتُه
في الحسن واليُمْن والاقبالِ والشَمَمِ

وعاشَ للملك يحميه وينصرُه
فالملك من دونه لحمٌ على وَضَمِ(٥٥)

ودامَ كاليَمِّ للعافينَ مُلْتَطِماً
بَنانُه وهو مَرْشوف بكلِّ فَمِ(٥٦)

وقد أخذ معانيه في بيته التاسع ، من قول المتنبي(٥٧) :

أيملك الملك ، والأسيافُ ظامئةٌ
والطيرُ جائعة ، لَحْمٌ على وَضَمِ

ومن مدحه الذي لا يأمل من ورائه مكسباً أو مطلباً ، قوله في شيخ الاسلام الرستاني(٥٨) :

---

(٥٤) مخدرة : اي لازمة للخدر . اي مستترة من الرجال .
الكفن : ما يكفن فيه الميت من الثياب . وسكنت عينه لضرورة الشعر .

(٥٥) الوضم : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم . يريد الشاعر أن يقول : أن الملك بدونه ضائع .

(٥٦) العافين : المحتاجين . مرشوف : من الرشف وهو المص .

(٥٧) ينظر : ديوان المتنبي ــ تحقيق الدكتور عبدالوهاب عزام ــ القاهرة ١٣٦٣هـ ــ ١٩٤٤م . لجنة التأليف والترجمة والنشر . ص ٣٣ .

(٥٨) ينظر : معجم الادباء ١٦ : ٢٤١ .
والرستاني : نسبة الى « رستان او رشتان » : من قرى مرغينان . ومرغينان من بلاد فرغانة ، بما وراء النهر . ينظر معجم البلدان ٣:٤٥ (طبعة بيروت) .

فُـــديتَ إمامـــاً صيغَ من عـزّةِ النّفْسِ
أَنامِلُهُ والسُّحْبُ نوعانِ مِنْ جِنْسِ(٥٩)

أَشَـــدُّ ارتياحـــاً نَحْوَ طَلْعَـــةِ مُعْتَفٍ
مِنْ المُفْلِسِ الخاوي اليدَيْن الى الفَلْسِ(٦٠)

وأَفْقَـــه في تَدْريســـهِ من محمـــدٍ
وأجْودَ مـــن كعب وأَخْطَبَ من قُسٍّ(٦١)

منـــاقبُ لو أن الحَـرابيَّ مَـــرَّةً
بَصُـرْنَ بهـا استنكفن عن خدمةِ الشمس(٦٢)

ويغـدو على طِـرْفٍ من الشُّقْرِ كلمـــا
رَأَتْه إمـاء الحيِّ وافتْـــه للقَبْس(٦٣)

---

(٥٩) فديت : اي حماك الله . وصيغ : اي اخذ وانشيء .
انامله والسحب من جنس : كناية عن كثرة الكرم .

(٦٠) معتف : طالب المعروف ، أو المحتاج . خاوى اليدين : اي خالي اليدين، وهذا كناية عن الافلاس والامحال .

(٦١) محمد : هو الامام محمد صاحب ابي حنيفة النعمان .
أجود من كعب : هو كعب بن مامة ، وهو ايادي . يضرب به المثل بالجود، لانه فضل أصحابه على نفسه ، فسقاهم ماءه ، وآثر النمري صاحبه، بنصيبه من الماء أيضا ، فمات عطشا . ينظر : مجمع الامثال ١ : ٢٥٤.
وقس : هو قس بن ساعدة الايادي . كان من حكماء العرب ، وأعقـل من سمع منهم . عمر « مائة وثمانين سنة ، كما جاء في مجمـع الامثال ١ : ١٥٢ » منشورات دار مكتبة الحياة ــ بيروت . سنة ١٩٦١م .

(٦٢) الحرابي : جمع حرباء : ذكر أم حبين . وقيل : هو دويبة نحو العظاءة، أو أكبر يستقبل الشمس براسه ، ويكون معها كيف دارت . ويقـــال: انه انما يفعل ذلك ليقي جسده براسه ويتلون الوانا بحـر الشمس ، والشاعر يريد ان يقول : اذا ابصرت الحرابي مناقبه وعرفتها، استكبرت عن خدمة الشمس ، مع انها تدور معها ، وتستقبلها لتقي جسدهـــا، وهذا منتهى المدح .

(٦٣) الطرف : الكريم من الخيل . والشقر : جمع اشقر : وهو الاحمر حمرة صافية ، يحمر حولها العرف والذنب . القبس : الاخذ والاقتباس .

على سابحٍ مِنْ خَلْقةِ الوَهْمِ طالعٍ
وأهْوَنُ شيءٍ عندَه دَرْكُ الأمسِ(٦٤)

فَتىً ساوَمَتْهُ خَلْقَه وهو فاغِمٌ
ـ ولا فَغْمةَ المِسْكِ ـ الخرائِدُ للعُرْسِ(٦٥)

له الصَّفْوُ مِنْ وُدِّي وإخوتُه الأُلى
غَدَوْا من سِهام الزَّيْغِ للدِّينِ كالتُّرْسِ(٦٦)

لِفِتْيانَ صِدْقٍ ما اقْتَنَوا طولَ عُمرهِمْ
سِوَى البَحْثِ والإفْتاءِ والوَعْظِ والدَّرْسِ(٦٧)

لأربَعَةٍ شادوا الهُدَى بَعْدَ شَيْخِهِمُ
فقد بُنيَ الاسلامُ مِنْهُمْ على خَمْسِ(٦٨)

بنورِ الهيِّ عَلَيْهِم وَزُهْدِهِمُ
وعِلمِهِمُ اضْحَوْا ملائِكةَ الإنْسِ(٦٩)

فعاشوا لترشيحِ الهدى ويَراعُهُمْ
بصائبةِ الأحكامِ يَقْطُرُ في الطِّرْسِ(٧٠)

---

(٦٤) على سابح : اي فرس سريع . خلقه الوهم : اي فطرته وتركيبه .
طالع : الطالع عند أصحاب الفال : ما يتفاءل به من السعد والنحس ، بطلوع الكواكب . وأهون شيء عنده .. الخ : اي أسهل شيء لديه معرفة حوادث اليوم الماضي .

(٦٥) ساومته : طلبت منه . الفاغم : المتطيب بالطيب ذي الرائحة الطيبة .
والفغمة : العبقة ، اي رائحة الطيب .
الخرائد : جمع خريدة : وهي البكر التي لم تمس .

(٦٦) سهام الزَّيغ : نبال الشك والجور عن الحق .
الترس : الوقاية ، وما يتوقى به .

(٦٧) اقتنوا : ادخروا .

(٦٨) شادوا الهدى : رفعوا اعلام الدين والهداية .

(٦٩) ملائكة الانس : رسلهم والمصطفون منهم .

(٧٠) ترشيح الهدى : تقويته ورعايته . واليراع : القلم . وصائبة الاحكام : الصواب منها . والطرس : الورق .

ومن الملاحظ أن مدح الشاعر ، انصب على الصفات المعنوية ، من كرم ونبل ، وعزة نفس ، وعلم وفقه وحكمة ، وزهد وشجاعة ، وغير ذلك . كما يلاحظ على مدحه مسحة دينية في قوله : « شادوا الهدى » و « بني الاسلام على خمس » و « نور الهدى » و « ملائكة الانس ».وهو في مدحه لايتعدى الصفات التي رأيناها عند الشعراء المدّاحين ، في هذا الاقليم ، في وصفهم المعنوي والحسي للممدوح .

وعندما زاره ياقوت الحموي في منزله ، في سنة ٦١٦ هـ ، كان ــ على حد قول ياقوت ، شيخاً بهيّ المنظر ، حسن الشيبة كبيرها ، سميناً عاجزاً عن الحركة ، وكان له في حلقه حوصلة كبيرة(٧١) . وذكر ياقوت الحموي ، أنه سأله عن مذهبه فقال : حنفيّ ولكن لست خوارزميا ، لست خوارزميا .وانما اشتغلت في بخارى ، فأرى رأي أهلها .

ومن هذا يتبين لنا ، أن القاسم بن الحسين ، نفى عن نفسه أن يكون معتزليا ، وهذا دلالة واضحة ، على تمكن ورسوخ هذا المعتقد ، في ذلك الوقت في اقليم خوارزم .

وقد انتهت حياة هذا الأديب الشاعر ، نهاية محزنة ، حيث قتل على يد التتار ، حينما اجتاحوا اقليم خوارزم ، في سنة ٦١٧هـ(٧٢) .

هذا وقـــد كان القاسم بن الحسين ، ضليعاً في علم العربية ، وكان ذا منزلة عظيمة ، بين شعراء العربية ، في اقليم خوارزم ، وكان حسن الشعر،على الرغم من صعوبته ، ومع ذلك نرى الفاظه سلسة ، غير مجافية للذوق الادبي العام . تلك السلاسة المحببة الى النفس ، التي أوجدتها السمات الخاصة لهذا الشاعر ، تلك السمات التي لاحظناها في المبالغة المستحيلة عنده ، تلك المبالغة التي كان مبعثها عاطفته القوية ، وفخره بنفسه وبآبائه وأجداده ، حينما يتكلم عن كرمهم :

---

(٧١) ينظر : معجم الادباء ١٦ : ٢٥٢ . والحوصلة من الطير ، كالمعدة من الانسان . وياقوت يريد أن يقول : ان ما كان في حلقه ، يشبه حويصلة الطائر .

(٧٢) اتفق مؤرخوه على سنة وفاته مقتولا . ينظر :كشف الظنون ٢ : ١٧٨٩، هدية العارفين ١ : ٣٢٨، الجواهر المضية في طبقات الحنفية. ص ١ : ٤١٠. الفوائد البهية . ص١٢٦ ، تاج التراجم في طبقات الحنفية . ص ٥٠ . الاعلام ٦ : ٨ ، الكنى والالقاب ٢ : ٣٧٢ (طبعة العرفان ــ صيدا) .

قوم متى طلعتْ ليـلاً مآثرُهم   رأيتَ بدرَ الدجى في زيٍّ منخسف

ومن السمات الأخرى ، التي لاحظناها في شعره ، سمة العفة التي تتمثل واضحة جلية ، في مدحه وعفة نفسه عن اذلالها لطلب العطاء ، أو المدح من أجل التكسب .

اما السمة الظاهرة ، والغالبة على شعره ، فهي سمة تأثره بالشعر العربي القديم في انتقاء الكلمات الصعبة ، التي تحتاج في فهمها الى استعمال القواميس والشروح .

والسمة الأخرى التي تبدو لنا ، في شعره ، هي سمة نضجه الثقافي ، المتمثل في قدرته على تمثيل صوره ، ولا عجب في هذا ، فقد كان ذا ثقافة واسعة ، في الأدب واللغة ، والنحو والفقه . تلك الثقافة التي جعلت، صوفياً فاضلاً ، مثل الصوّاف يسأله عن وجوه الاعراب ، في بيت حسان بن ثابت ، كما ذكر ياقوت ، وقولهم بأن فيه ثلاثة عشر مرفوعا .

فمن يهجو رســول الله منكمْ   ويمدحُه وينصُـرُه ســـواءُ

وقد أجابه القاسم بن الحسين على هذا بقوله[٧٣] :

أَفْـدي إماماً ومَيضُ البَرْقِ مُنْصَرِعُ

مِنْ خَلْفِ خاطِرِه الوَقّادِ حينَ خَطا[٧٤]

يَبْغي الصَّوابَ لَدَيْنا مِنْ مَباحِثِـهِ

أما دَرَى أنَّ ما يَعْدو الصَّوابَ خَطا[٧٥]

وقد استطاع الشاعر ، القاسم بن الحسين ، أن يجيب سائله ، عن اثني عشر مرفوعا ، من ضمن ثلاثة عشر مرفوعا[٧٦] .

---

(٧٣) معجم الادباء ١٦ : ٢٤٥ .
(٧٤) وميض البرق : لمعانه . منصرع : مصروع ومهزوم .
حين خطا : مشى من الخطو .
(٧٥) يبغي الصواب لدينا : يطلب منا الصواب في هـذا السؤال ، والجواب عنه . ما يعدو : ما يجاوز .
خطا : اي خطأ وحذفت همزته للضرورة الشعرية .
(٧٦) ينظر جوابه عن المرفوعات في البيت ، في معجم الادباء ١٦ : ٢٤٥ــ٢٤٦ .

وقال القاسم بن الحسين ان قاضي القضاة بخوارزم ، طلب منه أن ينشيء له أبياتاً ، ليكتبها على دار ، استحدث بناءها ، فكتب له القاسم بن الحسين قائلا(٧٧) :

مَنْ كانَ يَفْخَرُ بالبُنْيانِ والشُّرَفِ
فَلَيْسَ فَخْري بِغَيْرِ المَجْدِ والشَّرَفِ(٧٨)
ما قيمةُ الدّارِ لَوْلا فَضْلُ ساكِنِها
وأيُّ وَزْنٍ بدونِ الدُّرِّ لِلصَّدَفِ(٧٩)
إنْ كانَ يُعْجِبُني خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ
فَلَسْتُ أَكْرَمَ نَجْلٍ مِنْ بَني خَلَفِ
قَدْ صَحَّ لي باتِّفاقِ النّاسِ كلِّهِمِ
رِوايةُ العَدْلِ والإنْصافِ عَنْ سَلَفي
إنّي لَمِنْ مَعْشَرٍ كانَتْ معايِشُهُمْ
بالقَصْدِ أمّا عطاياهُمْ فبالسَّرَفِ
قَوْمٌ متَى طَلَعَتْ لَيْلاً مآثِرُهُمْ
رَأَيْتَ بَدْرَ الدُّجَى في زِيٍّ مُنْخَسِفِ
بدَوْلةِ المَلِكِ المَيْمونِ طائِرُهُ
أَنّى تَوَجَّهْتُ فالإقْبالُ مُكْتَنِفي

فالشاعر في هذه الأبيات ، يفخر بالنسب والشرف ، والعدل والانصاف ، كما يفخر بآبائه الذين كانوا يقتصدون في معيشتهم ، ويسرفون في عطاياهم، وهذا نهاية الكرم .

---

(٧٧) تنظر القصيدة في معجم الادباء ١٦ : ٢٣٩ ــ ٢٤٠ . وقد استشهدنا قبل قليل ببعض أبياتها .
(٧٨) الشُّرَف : جمع شرفة : ما اشرف من البناء . والشَّرَف: المجدوالحسب.
(٧٩) واي وزن : اي واي قيمة .

وفي قصيدة القاسم بن الحسين هذه ، نفحة من قصيدة الأخطل ، التي مدح بها عبدالملك بن مروان ، وأشاد بها بأعوانه ، وهجا خصومه فهو يقول:

إلى إمام تـُغاذينـا فواضلـُـهُ أَظْفَرَهُ الله فليَهْنأْ له الظفر[٨٠]

الخائِضُ الغمرَ والميمون طائِرُه خليفةُ الله يستسقي به المطر[٨١]

أما القاسم بن الحسين فقد قال :

قوم متى طلعت ليلاً مـآثرهم رأيت بـدر الدجى في زي منخسف

بدولة الملـك الميمون طـائره أَنَّى توجَّهت فالإقبـال مكتنفي

ومما انشده ياقوت قوله[٨٢] :

أيا سائلي عَنْ كُنْهِ عَلْياهُ إنَّهُ لأُعْطيَ ما لَمْ يُعْطَهُ الثَّقَلان

فَمَنْ يَرَهُ في مَنْزِلٍ فكأنَّمـا رأى كُلَّ إنْسانٍ وكُلَّ مكـانِ

وكتب القاسم بن الحسين ، الى بعض أصدقائه ذاكراً فضله وأفضاله ، ومتحسراً على الليالي التي قضوها معاً ، لأنها ذهبت بذهاب الشباب ، وولت بتولي الصبا فهو يقول[٨٣] :

إذا ذَكَرَتْها النَّفْسُ باتَتْ كأنَّهـا

علىحَدِّ سَيْفٍ بَيْن جَنْبيَّ يُنْتَضَى[٨٤]

تَوَلَّى الصِّبا والمالكيَّـةُ أَعْرَضَتْ

وَزالَ التَّصابي والشَّـبابُ قَدِ انقضى[٨٥]

---

(٨٠) تغاذينا فواضله : تأتينا عطاياه مبكرة .

(٨١) الغمر ، الماء الكثير ، او معظم البحر . الميمون طائره : المبارك ، او السعيد .

(٨٢) ينظر معجم الادباء ١٦ : ٢٤٠ .

(٨٣) المصدر السابق ١٦ : ٢٤٧ ــ ٢٤٨ .

(٨٤) ينتضى : يستل من غمده .

(٨٥) التصابي : الميل الى الصبوة واللهو واللعب .

ولفظة المالكية في بيته ،تذكرنا بالمالكية في شعر طرفة بن العبد في قوله :

كأنّ حدوجَ المالكيةِ غُدْوَةً
خلايا سفينٍ بالنواصفِ من دَدِ[٨٦]

هذا ولم يكن القاسم بن الحسين ، شاعراً فقط ، وانما كان ناثراً أيضاً ، وقد ذكر مترجموه من تصانيفه : « شرح المفصل للزمخشري» ، سماهالتَجْمير و « شرح سقط الزند » ، و « التوضيح في شرح المقامات »[٨٧] ، وله كتاب « الزوايا والخبايا » في النحو ، وكتاب « بدائع الملح »[٨٨] ، و « خلوة الرياحين في المحاضرات »[٨٩] ، و « السر في الاعراب »[٩٠] ، و « شرح الأبنية في النحو »[٩١] . ولسنا نعرف شيئاً عن هذه الكتب .

وأخيراً نقول إنّ القاسم بن الحسين ، كان ذا مكانة مرموقة ، في عصره، وبين أقرانه من الادباء والشعراء ، ومما يدل على مكانته ومنزلته ، وتقدير معاصريه له ، زيارة ياقوت الحموي له في بيته ، ووصفه له بأنه واحد الدهر في علم العربية[٩٢] ، كما وصف بأنه أفضل الأنام ، وأنه عمدة الاسلام ، وصاحب علمي المعاني والبيان ، وفخر الشرق والغرب[٩٣] .

(٨٦) الحدوج : جمع حدج : وهو مركب من مراكب النساء . والمالكية منسوبة الى مالك بن سعد بن ضبيعة . والخلايا : جمع خلية : وهي السفينة العظيمة .
والنواصف :جمع ناصفة : وهي الرحبة الواسعة ، تكون في الوادي .
ودَدِ : اسم موضع .

(٨٧) الفوائد البهية . ص ١٢٦ . وذكر ابن قطلوبغا في تاج التراجم ص ٥٠ انه سمى شرح المفصل للزمخشري « التحرير » وهو في ثلاثة مجلدات. أما شرح المقامات فسماه التوضيح .

(٨٨) تاج التراجم في طبقات الحنفية . ص ٥٠ ، الجواهر المضية ١ : ٤١٠ .

(٨٩) هدية العارفين ١ : ٨٢٨ .

(٩٠) الاعلام ٦ : ٨ .

(٩١) بغية الوعاة ٢ : ٢٥٣ .

(٩٢) معجم الادباء ١٦ : ٢٣٨ ، الكنى والالقاب ٢ : ٣٧٢ (طبعة العرفان ـ صيدا) .

(٩٣) شروح سقط الزند ـ السفر الثاني ، القسم الاول . ص ١٨ منالمقدمة. للتبريزي ، البطليوسي الخوارزمي . دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧م .

والحقيقة انا لقاسم بن الحسين، شاعر متمكن بخلاف الزمخشري مثلاً، فهو شاعر معان ، نَحى مَنْحى أبي تمام ، ومنحى المتنبي ، في استغلاق معانيه وعمقها .

وتأثره بالمعري ظاهر ، في تتبعه القوافي الصعبة ، التي تبنى على حرف الشين أو السين ، او الفاء .

ومعاني هذا الشاعر عقلية ، تنتزع تشبيهها من العلم وأدواته ، فهو يقول مثلا :

سـنا جبينك مهما لاح في الظلم ... بتنـا نطالعُ منه نسخةَ الكرَم

وبعض معانيه قرآنية مثل قوله :

إن كـان يعجبني خُشْبٌ مسنّدةٌ ... فلستُ أكْرَمَ نَجْلٍ من بني خلف

فهذا مأخوذ من قوله تعالى ، في وصف المنـافقين : « كأَنّهم خُشُبٌ مُسَنَّدة ، يحسبون كلَّ صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنَّى يؤفكون »(٩٤) .

(٩٤) سورة المنافقين . آية ٤ .

الرقاشي :

هو أبو محمد عبدالله بن ابراهيم الرقاشي ، من أبناء الوزراء ، في اقليم خوارزم ، ومن الذين تفوقوا في الانتاج بالعربية[١] .

كل ما صل الينا من أخبار هذا الشاعر ، ترجمة الثعالبي له ، تلك الترجمة التي لم تبين لنا سنة ولادته ، أو نشأته أو وفاته . وكل ما عرفناه منها ، أنه كان كاتباً شاعرا منجما ، مثله في ذلك مثل كشاجم[٢] .

وعلى الرغم من هذا النقص ، رأينا أن ندرسه منفرداً ، من خلال شعره، المتبقي لدينا ، لأنه شعر يجمع بين شعر النابغة الجعدي ، وشعر عنترة بن شداد العبسي كما سنرى . وقد اورد الثعالبي من أشعاره ، تنفا قليلة ،نوردها مع شيء من الدراسة والتحليل ، لنلقي بعض الضوء على شعر هذا الشاعر، الذي لم نجد له تراجم أخرى ، على الرغم من الجهد الذي بذلناه في سبيل ذلك ، ومثله في هذا مثل غيره ، من شعراء هذا الاقليم ، ممن انفرد ياقوت الحموي والثعالبي ، بالترجمة لهم .

ومن شعره الذي أورده الثعالبي ، قصيدته التي قالها في الشيبيبي[٣] :

إنَّ الهوى سَبَبٌ لكلِّ هَوانِ	وَفِراقُ مَنْ تَهْواهُ مَوْتٌ ثاني
سَقْياً لدهرٍ كُنْتُ حِلْفَ أَغاني	فيه وَخِدْنَ الراح والرَّيْحانِ
لم تبق لي همي وحسن شمائلي	منها سوى ذكرى على الأزمان
ولقد رَضيتُ بأن أرَى مُتَفَرِّداً	دون القَرين مُقارعا أَقْراني
أَرْمي إذا حَملوا وأطعَنُ إنْ رَمَوْا	وأَقَدُّ منهم مَنْ أراد طِعاني
تَنْفي الخناجِرُ في الحَناجِرِ غصّتي	والبيض في بيض العدا أحزاني

(١) تنظر ترجمته في : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٥ (طبعة السعادة) .
(٢) المصدر السابق ٤ : ٢٤٥ .
(٣) المصدر السابق ٤ : ٢٤٦ .

وأُعَدُّ عند مَواردي ومصادري حُكم الكهول وَصَوْلَةَ الشبانِ
مستبدلاضَرْبَ الطُلابمصارع الشَّكوى وَضَرْب الدفّ والعيدانِ (٤)
مُسْتَغْنِياً بالرمح أخضب صدره عن كل مخضوبِ البَنانِ حَصانِ
متسربلا زَرَدَ الدموع كأنهـا شَعْرٌ تَفَلْفَلَ في لِحى الحبْشانِ (٥)
مستشعراً باسمِ الشَّبيبيِّ الذي عَمَّ الورى بالبِرِّ والإحسانِ
يَفْدي الكُماةُ أبا سعيد، إنّه حامي الحُماة وفارسُ الفرسانِ
يا أَحمدَ بنَ شبيب المُفدّى على جَوْرِ الزمانِ وَسَطْوَةِ الحدثانِ
أنت القَرينُ لكل جدّ مقبل أنت البشير بكل فتح داني
لك عَزْمَةٌ بَهْرامُ من اتباعها لك هِمَّةٌ تَسْمو إلى كيوانِ
فإذا رَكِبْتَ ضَمِنْتَ كل أمان للخائفين ونَيْلَ كل أَماني
وإذا أقَمْتَ فإنَّ ذكرَكَ طاعِنٌ تَسْري به الرُكْبان في البُلْدانِ
فُقْتَ الأنامَ حِجىً وَفُقْتَ شجاعةً
وَرَجَحْتَ عند الجودِ في الميزان (٦)
إنَّ الفتوحَ على يَدَيْكَ تتابَعَتْ كتتابع الأنواء في نَيْسانْ
حَفَروا الخَنادقَ حَوْلهم فكأنما حَفَروا مقابرَهم لدى الخِذْلانِ
وتعزَّزوا بالماءِ ثم سقوا به كسقاوة المَمْطور بالطوفانِ (٥)

(٤) الطلى : الاعناق . وقيل هي أصول الاعناق وهي جمع الطلاة ، اي العنق . ويقال تطلى فلان اذا لزم اللهو والطرب . والطلى : اللذة . ويقال قضى فلان طلاه من حاجته ، أي هواه . (لسان العرب ٢ : ٦١١ « مادة طلي ») .
العيدان : جمع العود . والعود آلة من المعازف ذات الاوتار .

(٥) الحبشان : جنس من السودان ، وهم الاحبش . والحبشان : الجراد الذي صار كأنه النمل سوادا .

(٦) الحجا : العقل والفطنة .

(٧) المطور : الذي اصابه المطر .

غَدَرُوا فَغُودِرَ منهمُ أرواحهم في النار ، والأشباح في الغُدْرانِ
خَفَقَتْ بُنودُكَ حولهم فكأنما طارَتْ قلوبهمُ من الخَفَقانِ
وسَرَتْ طوارق لطف كَيْدِكَ فيهمُ كَلَطافَةِ الأرواح في الأبدان
ولئن حُسِدْتَ فَلَسْتَ أولَ سابقٍ يَرْميه بالبَغْضاء ألأم وانِي
انّ الكريم محسّد في قومه وترى الحسود مطيّة الأشجان

وقد علق الثعالبي على هذه القصيدة بقوله : « انها من غرر قصائده » .

فالشاعر في هذه القصيدة ، يتألم لفراق من أحبهم ، ويتحسر على شبابه الذي ولى ، ويترحم على تلك الأيام ، التي مضت ، لأنها أيام لهوه المتمثل في عكوفه ، على معاقرة الخمر ، وارتياد أماكن الغناء والطرب .

ثم نراه يلفّ هذه الحسرة بغلاف الفخر بالنفس ، ذاكراً أن حسن شمائله وهِممِه ، لم تبق له من تلك الأيام الخوالي ، الا الذكريات .

ثم يأخذ في وصف حاله ، وكيف أصبح وحيدا دون قرين ، وهذا مايحز في نفسه ويحزنه .

ثم نراه يلجأ الى الفخر بنفسه مرة أخرى ، ذلك الفخر الذي يحاول أن يخفيه ، وراء شكواه وغصته ، فيبين لنا أنه يحاول أن يدفن آلامه ، وأحزانه في الحروب ، ومطاعنة من أراد النيل منه ، ولذلك فانه قد استَبْدلَ لهوه ولذاته ، بضرب الأعناق ، ومصاحبة الاخدان ، بمصاحبة الرماح ورؤية الدماء، الأمر الذي يؤدي به الى البكاء وسكب الدموع .

ثم نراه يصف نفسه ، بأن له حكمة الكهول ، وصولة الشبان ، الى أن يتخلص من الشكوى والتذمر والفخر ، الى المدح الممزوج بالمبالغة ، شأنه في ذلك شأن غيره من شعراء هذا الاقليم ، ومع ذلك نراه في مدحه حكيماً عاقلا ، مجيدا في وصفه حال الانسان الكريم ، وكثرة حساده ، وحال الحسود وكثرة أشجانه ، وذلك في قوله :

إنّ الكريمَ مُحَسَّدٌ في قومه وَتَرى الحسودَ مطيةَ الأشجانِ

وله فيه من أخرى(٨) :

(٨) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٦ ــ ٢٤٧ (السعادة) .

أمِنَ المَلالِ أمِ الخَفَرْ ... هذا التَّشاجي والضَّرَرْ ؟[٩]

أم غَرَّكَ الصبحُ الذي ... أطلَعْتَ من ليلِ الشَّعَرْ

أم عَرَّضَتْ أيدي الخُطوبِ ... صفاءَ وُدِّكَ للكَدَرْ

وأرى المُقامَ ببَلْدَةٍ ... لا تشْتَهي إحْدَى الكُبَرْ

وأعُدُّ نفسي في الحَضَرْ ... لكنَّ هَمِّي في السَّفَرْ

ومن شعره أيضا قوله[١٠] :

كَفَى بنُحولي عن هَوايَ مُتَرْجِما

وبالدَّمْعِ هَمَّاماً عليَّ إذا هَمَى

تألَّمتُ من ثقْلِ الهَوى متشبِّهاً

بخَصْرَيهِ من أردافِهِ إذ تألَّما

ووكَّلَ طَرْفي بالنُّجومِ كأنني

لرَعْيِ نجوم الليل صِرْتُ منجِّما[١١]

هذه الأبيات من قصيدة ، في مدح الشبيبي أيضا ، ونرى الرقاشي فيها يسير على نهج القصيدة العربية ، حيث يفتتح قصيدته بالغزل ، ثم يتخلص منه الى المدح ، حيث يقول :

خَرَجْنا نهاراً خَلْفَهُ نَطْلُبُ العِدا

فألْبَسَنا ليلاً من النَّقْعِ مظلما[١٢]

أثَرْنا سَحابَ النَّقْعِ لما تجاوبت

رعود صَهيل الخيل تستمطر الدما

---

(٩) الخفر : شدة الحياء . التشاجي : الشجو : الهم والحزن .

(١٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٧ .

(١١) وكل طرفي : وكل اليه الامر : سلمه ، ووكله الى رايه : تركه . والوكل: الذي يكل امره الى غيره .

(١٢) النقع : قيل هي الارض الحرة الطين ، ليس فيها ارتفاع ولا انخفاض ولا انهباط وقيل : هي التي يستنقع فيها الماء . والشاعر يريد : الغبار الذي يعلوهم من الارض ، والذي تثيره حَوافِر الخيول ، بحيث يصبح الجو كأنه ليل لكثرة الغبار .

فكم مِنْ جَوادٍ قد حسبناه بعدما

أثَرْناهُمُ من كثْرة النَّبْلِ شَبْهَما[13]

وأَشْهَبَ قَدْ خضنا به الحربَ فاكتسى

دَماً وقَتاماً عادَ أشْقَرَ أدْهَما[14]

فنحن نلاحظ في هذه الأبيات ، مسحة من الشعر الجاهلي ، المتمثل في شعر النابغة الجعدي ، وشعر عنترة بن شداد ، وعمرو بن كلثوم التغلبي ، في طريقتهم في سَرْد حوادث الحرب ، ووصف المعارك ، وما تركته من آثار ،هذا بالاضافة الى الألفاظ الجاهلية التي استعملها الشاعر الرقاشي ، مثل القتام والنقع • كما نرى المبالغة المفرطة التي أضفاها على صوره ، ولا سيما في وصفه للحصان الذي أصبح كالقنفذ من كثرة رميه بالنبال • وعلى الرغم من تلك المبالغة ، الا أنه أجاد في رسم صورته ، وفي تشبيهاته كما أجاد في بيته الذي يقول فيه :

وَأشْهَبَ قد خضنا به الحربَ فاكتسى

دماً وقَتاماً عادَ أشْقَر أدْهَما

ففي هذا البيت نرى مسحة واضحة من الشعر الجاهلي ، في فخره بالشجاعة ، وفي تهويله في رسم الصورة • وهذا المعنى مأخوذ من قول النابغة الجعدي :

ونُنْكِرُ يومَ الرّوعِ ألوانَ خَيلنا

من الطّعن حتى تحسبَ الجَوْنَ أشقَرا[15]

---

(13) الشَّبْهم : الدلول ، وهو ذكر القنافذ ، أو نوع آخر غير القنفذ ، او ما عظم شوكه من ذكرانها .

(14) الشهب والشهبة : لون بياض يصدعه سواد في خلاله . أو البياض الذي غلب عليه السواد . والشهبة في الوان الخيل : ان تشق معظم لونه شعرة ، أو شعرات بيض ، كميتا كان او ادهم او اشقر . والادهم : البين الدهمة . والدهمة : في الخيل : السواد الذي لا شية فيه ، واصلها من سواد الليل . والشية : العلامة . والشقر والشقرة من الالوان. وهي في الخيل حمرة صافية ، يحمر معها العرف والذنب ، فاذا اسودا فهو الكميت والقتم والقتام : الغبار .

(15) يوم الحرب : الحرب . والجون : الاسود . والجون من الخيل : الحصان . الادهم الشديد السواد .

وله من قصيدة أخرى يقول فيها[١٦] :

لا الراحُ راحي ولا الرَّيْحــانُ ريحــاني
ما لم تَزُرْني ، ولا النَّدْمان نَدْمــاني
ومــا التعلـــل ـ والأيام حائلـــة
بيني وبينك ـ بالآمــالِ من شــاني
وما جَزِعْتُ على شيء سوى جَزَعي
أن لم أَمُتْ كَمَــداً من فَقْدِ خِلاّني
وقــد ذَكَرْتُك والأبطـــالُ عابِسَة
والمَوْتُ يَبْسِمُ عن أنيــابِ شَيْطانِ
والنبل كالشُّهبِ في لَيْل العجــاج وبــا
ب الأمْن نــاءٍ كصبــري والرَّدى داني
والسُّمْر تَبكي دمــاً والبيضُ ضاحكــة
والجوُّ داجٍ ولَوْنُ الملتقى قــاني[١٧]

وتبين لنا هذه القصيدة تأثر الشاعر بالشعر الجاهلي تأثراً ملموساً ، حيث نرى الشاعر يتذكر خلانه وأحبابه ، وهو بين الحياة والموت ، وسط الحرب الدامية . وقد سبقه الشاعر عنترة الى هذا المعنى ، حيث كان يتذكر عبلة وهو وسط المعركة اذ يقول :

ولقد ذَكَرْتُكِ والرمــاحُ نَواهِــــلُ
مني ، وبيضُ الهنـــدِ تقطرُ مِنْ دَمي
فوددت تقبيــل الســيوف لأنَّهـــا
لمعت كبــارقِ ثَغْــرِكِ المتَبَّسِمِ

(١٦) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٧ ـ ٢٤٨ (السعادة) .
(١٧) السمر : يريد الرماح السمر .

أما البيت الثاني من هذه الأبيات ، فقد أخذه الشاعر من شعر المتنبي في قوله[١٨] :

لَيْسَ التَّعَلّلُ بالآمالِ مِنْ أرَبي
ولا القَنَاعَةُ بالإقلالِ مِنْ شيَمي[١٩]

ومن شعره أيضاً قوله[٢٠] :

وَقَيْنَةٍ تَنطفُ يُمْناها وَتَلْقُطُ العُنَّاب يُسْراها[٢١]
إذا سَرَتْ نمَّ عليها الحلَى وضَوْء خَدَّيْها ورَيَّاها[٢٢]
لو أن ابليس رأى وجهها صلّى لها طوعا وما تاها
تَظْلمِني في هَجْرِها مثلما أسْفَلُها يَظلمُ أعلاها
ما تفعلُ الخَمرَ بِشُرَّابِها ما فَعلتْه فيَّ عَيْناها

في هذه الأبيات نرى الشاعر يتغزل بقينة ، ويصفها بالجمال الذي لو رآه ابليس صلى طوعاً له . ولذلك فقد سكر الشاعر من فعل عينيها ، ففعلهما فيه كان أقوى من فعل الخمر بشرابها . وغزله في هذه الأبيات ، ليس فيه الحرارة التي تشعرنا بقلب وله الحب ، وأضنته لوعة الغرام . ولا نكاد تتبين له احساسا تفرد به ، أو لمحات امتاز بها ، وليس معنى ذلك أنه لم يجرّب الحب، ولم يشغل قلبه ، وربما حصل له ذلك ، فنحن لا نستطيع أن نصدر عليه حكما، من خلال هذه الأبيات القليلة ، التي استطعنا الحصول عليها .

(١٨) ينظر : شرح ديوان المتنبي . وضعه : عبدالرحمن البرقوقي . ج٤ . ص ١٥٥ . نشر : دار الكتاب العربي . بيروت ــ لبنان .
(١٩) التعلل : تزجية الوقت بالشيء اليسير بعد الشيء . والتزجية : يقال زجيت الشيء تزجية اذا دفعته برفق .
(٢٠) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٧ « طبعة حجازي » .
(٢١) تَنطفُ : النطف : اللؤلؤ الصافي اللون ، أو الصغار منه ، أو القرطة . والمنطف من الغلمان : المقرط بتومتي قرط . والجارية منطفة ومتنطفة. ووردت هذه الكلمة في الاصل « تنطق » ولعل الصواب ما اثبتناه .
والعناب : نوع من الثمر معروف ، واحدته عنابة . ويقال له السنجلان بلسان الفرس . وربما سمي ثمر الاراك عنابا . والعناب : النبكة الطويلة في السماء ، يكون أسود وأحمر ، وعلى كلّ لون يكون . والغالب عليه السمرة .
(٢٢) رياها : الري : المنظر الحسن ، وهو خلاف الذبول .

الفصل الخامس

الشعراء الوافدون

هـذا الفصل استعراض عام لأهم الشعراء الوافدين الى اقليم خوارزم وهم :

١ ـ أبو حامد بن الربيع بن عاصم الغرناطي المازني .

٢ ـ ابن عنين .

٣ ـ يعقوب بن الجندي .

٤ ـ محمد بن أحمد بن علي بن أحمد النسوي .

٥ ـ ابن سينا .

٦ ـ محمـد بن الحسين الكاتب المعروف بالقصاب والملقب بصريع الكأس .

الشعراء الوافـدون

وفد كثير من الأدباء الى اقليم خوارزم ، وكان قدومهم لضيق العيش في مواطنهم ، أو لظلم يلحقهم من حكامهم • وزادَ في الرغبة في الهجرة الى هذا الاقليم ، ما عرف عنه من خيرات كثيرة •

وكان كثير من هؤلاء الوافدين ، على حظ كبير من الثقافة والمعرفـة ، فعاونت حياتهم في هذا الاقليم ، على اشاعة الثقافة والمعرفة فيه •

وكان لامتزاج ثقافة هؤلاء الوافدين ، بثقافة أدباء الاقليم ، أثر جليٌّ واضح ، لا سيّما أن عدداً من أدباء الاقليم ، قد طوفوا في البلدان ، ثم عادوا الى بلادهم ، وقد نهلوا من منابع ثقافات البلاد التي طوّفوا في أرجائها • ومن أمثلة هؤلاء الشاعر أبو بكر الخوارزمي ، الذي طوّف الآفاق ، واستفاد الكثير من بلاط سيف الدولة الحمداني • والإمام جار الله الزمخشري ، الذي جاور سنين كثيرة في مكة ، واستفاد من علم وأدب الأمير ابن وهاس وغيره[١] •

ومن الوافدين إليه أيضاً ، أبو حامد بن الربيـع ، بن عاصم الغَرْناطي المازني ، الذي كان عالماً فاضلاً ، بالاضافة الى شاعريته • وذكر ابن الأثير عنه، أنه حدَث في هذا الاقليم ، ثم انتقل الى سَقْسين من بلاد الترك[٢] • ومن شعره قوله :

يهنّيك عيدُ الفطرِ جاءَ مهنئـاً ... لكَ بالقبولِ وتلكَ مِنْ حَسناتِـه

---

(١) هو علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس ، ابو الطيب ، من ولد سليمان ابن حسن بن علي بن ابي طالب عليه السلام . توفي بمكة في سنة نيف وخمسمائة . ينظر عنه : معجم الادباء ١٤ : ٨٥ .

(٢) ينظر : اللباب في تهذيب الانساب ٢ : ١٦٩ . وفيه ان الشاعر كان بخوارزم سنة سبع وخمسمائة ، وانصرف الى سَقْسين .

ومن الوافدين أيضاً : شاعر الشام المشهور : ابن عنين[٣] ، الذي طاف الآفاق ، ومدح الرؤساء والأمراء ، الذين كان يلقاهم ولسان حاله يقول[٤] :

غَرِيبٌ إذا ما حَلَّ مصراً أبى لــه   وَشيكُ النَّوى الا ارتحالاً إلى مصرِ
فَحتَّام لا أنفكُّ في ظهر سَبْسَبٍ   أُهَجِّرُ أو في دَوِيّةٍ قَفْرِ[٥]

دخل ابن عنين الجزيرة والعراق ، ثم انتقل منها الى خراسان وأذربيجان ، وأحب لقاء الإمام فخرالدين الرازي ، فبعث اليه قصيدة قال فيها[٦] :

ريحَ الشَّمال عَساكِ أن تَتَحمَّلي   شوقي إلى صدرِ الإمام الأفضلِ
وقفي بواديــهِ المقدس وانظري   نورَ الهُــدى متألّقاً لا يأتَلي[٧]
من دوحــةٍ فَخْرِيَّةٍ عُمريَّــةٍ   طابت مغــارس مجدها المتأثّلِ

وكان ابن عنين في نيسابور ، حينما وجه هذه الأبيات الى الامــام فخرالدين الرازي ، الذي كان في خوارزم ، وحين وصل ابن عنين الى خوارزم ، هرع اليه وذهب الى مجلسه • قالوا : وكان يدرس فسقطت حمــامة بقربه ، خوفا من جارح يلاحقها في الجو ، فأمسك بها الامام الرازي ، وربّت عليها بعطف وحنان ، فتأثر ابن عنين لهذا المنظر ، وأنشد قائلا[٨] :

مَنْ نَبــأَ الورقاءَ أنّ محلكمْ حَرَمٌ   وأَنَّكَ ملجأٌ للخــائفِ
وَفَدَتْ عليكَ وقد تَدانَى حتفُها   فَحَبَوْتَها ببقائِها المستأنَفِ

---

(٣) هو شرف الدين محمد بن نصر ، المعروف بابن عنين . ولد سنة ٥٤٩هـ ــ ١١٤٤م . وتوفي سنة ٦٣٠هـ ــ ١٢٣٢م . ينظر عنه : معجم الادباء ١١ : ٢٥٩ ــ ٢٦١ ، ادب الدول المتتابعة . ص ٣٤٤ .

(٤) الفلاكة والمفلوكون ــ احمد بن علي الدلجي ــ ص ٢٩ . مط . الاداب ــ النجف سنة ١٣٨٥هـ .

(٥) السبسب : القفر والمفازة ، أو الارض المستوية البعيدة ، وجمعها سباسب . والدوية : الفلاة الواسعة الاطراف ، أو الفلاة المستوية .

(٦) ينظر معجم الادباء ٧ : ٢٢٤ « طبعة هندية » ، ادب الدول المتتابعة . ص ٣٤٩ وفيه خدمي بدلا من « شوقي » .

(٧) لا يأتلي : اي لا يزال ، ولا يقصر .

(٨) ينظر : ديوان ابن عنين . ص ٩٥ .

جاءت سليمان الزمان بشكوهـــا   والموتُ يلمعُ من جنــاحي خاطف
قَرِمٍ[9] لواه القــوت حتى ظلــهُ   بإزائــه يَجري بقلبٍ واجفِ[9]

فالشاعر قد أجاد وأحسن ، في وصفه لهذه الحمامة الأليفة الخائفة ، كما أجاد في وصفه للطائر الجارح الذي يلاحقها ، وقد أتعبته تلك الملاحقة .

وقد تأثر ابن عنين ببيئة خوارزم المحيطة به ، كما تأثر بنماذج مختلفة من الجمال الذي لم يعهده في بلاده ، تأثر بجمال الفتيــات التركيــات ، وبضيق عينيها ، فتغزل بالمقل وبضيق العينين ، كما في قوله[20] :

لا تَعرضَــنَّ لضيِّــقِ المقل   فَتَبيتَ مِنْ أمــنٍ على وَجَلِ
واتركْ ظبــاء التُّركِ ســانِحةً   لا تَعترضْ لحبــائل الأجــلِ
من كلِّ مائســةٍ منعمــــــةٍ   غَرْثَى الأياطلِ فَعْمَةِ الكَفَلِ[11]

فالشاعر يتغزل كما نرى ، بجمال الفتيات التركيات ، حيث يتغزل بذوات العيون الضيقة والمقل ، وهي غالباً ما تكون من ظباء الترك . والتغزل بضيق العيون دليل على تكيف الشاعر للبيئة . كما نرى الشاعر يلجأ في غزلــه الى الغزل الحسي ، فيصف سيقانها وعجزها ، ودقة خصرها .

كما تأثر ابن عنين بالجمال المرئي ، فراقته صباحة الوجوه في خوارزم ، ولـكن أقلقه مؤذنوها[12] .

---

(9) قرم مأخوذة من قرم الى اللحم : اذا اشتدت شهوته اليه .
(10) ديوان ابن عنين . ص ٤٠ ــ ٤١ .
(11) مائسة : ماس اي تهادى وتبختر فهو مائس وهي مائسة .
غرثى : يقال هي غرثى الوشاح ووشاحها غرثان : اذا كانت خميصة البطن دقيقة الخصر .
الاياطل : الاطل : الخاصرة كلها ، أو منقطع الاضلاع من الحجبة ، وقيل هو عظم الورك . فعمة : فعمت المراة : استوى خلقها وغلظ ساقها فهي فعمة .
الكفل : العجز او ردفه ، او القطن : ما بين الوركين الى العجز ، وجمعه اكفال ، ولا يشتق منه فعل ولا صفة .
(12) ينظر ديوانه . ص ٢٤٠ .

ولم تُنْسِ مداعبات الشاعر ، التي رأيناها أثنـاء دراستنا الاتجاهات الشعرية ، كما لم تنسه هذه الظباء وذلك الحسن ، الذي تغزل بـــه ، الحنين الدائم الى بلاده ، فكل نسمة تمر به ، يحسبها آتية من تل راهِط ، المطل على غوطة الشام الخضراء ، فيصرخ متلهفاً(١٣) :

ألا يا نســـيمَ الريحِ من تَلِّ راهـطٍ
وروض الحمى كيفَ اهتديتَ إلى الهند(١٤)

ومنهم القاضي يعقوب بن الجَنْدي(١٥) ، وقد قال عنه ابن الأثير : إنّه كان فاضلاً ، وله شعر جيـد ، قدم الى هـذا الاقليم سنة ثمان واربعين وخمسمائة .

ومن الشعراء الوافدين اليه ، محمد بن أحمد بن علي بن أحمـد النسوي(١٦) ، وكان من العلماء والكتاب المشهورين . قالوا عنه إنّـه كان(١٧) : « لغوياً نحوياً مفسراً ، مدرساً فقيهاً مفتياً ، مناظراً محدثاً ،شاعراً»، ومن شعره قوله :

مَنْ رامَ عنـــدَ الإلهِ منزلةً فَلْيَطع اللهَ حـقَّ طاعَتِـهِ
وَحَقُّ طاعاتِـه القيـام بهـا مُبالغاً فيه وُسْعَ طاقَتِـهِ

ومن شعره أيضاً قوله :

اتخـذ طـاعةَ الإله سـبيلاً تجدِ الفَوْزَ بالجنـان وتَنْجو
واترك الإثمَ والفَواحشَ طُرّاً يؤْتِكَ اللهُ ما تَرومُ وتَرْجو

---

(١٣) المصدر السابق . ص ٧٣ ، ادب الدول المتتابعة . ص ٣٥٠ .
(١٤) تل راهط وروض الحمى : موضعان في غوطة دمشق وضواحيها . ويقع تل راهط بعد مرج العذراء .
(١٥) نسبة الى مدينة « جند » : وهي مدينة عظيمة في بلاد تركستان ، اهلها مسلمون ينتحلون مذهب ابي حنيفة . ينظر : معجم البلدان ٢ : ١٦٨ (طبعة بيروت) .
(١٦) نسبة الى مدينة « نسا » من خراسان . معجم البلـدان ٥: ٢٨١ (بيروت) .
(١٧) ينظر طبقات الشافعية الكبرى ٤ : ١٧٦ (طبعة البابي الحلبي) .

ومن الملاحظ ان المسحة الدينية ، تطغي على أبيات الشاعر ، في دعوته الى طاعة الله ، ونهيه عن الفحش ، ومنازل الاثم ، ليفوز الانسان بالحياة الأخرى ، وينجو من العذاب .

ومن الحكمة قوله[١٨] :

العـلم يـأتي كـل ذي خفض ويـأتي كـل آبي
فالماء ينزل في الوهـد وليس يصعـد في الروابي

ومن الوافدين الى هذا الاقليم أيضاً ، العالم الحكيم الفيلسوف الشاعر ، ابن سينا[١٩] ، الذي عاش هناك تحت رعاية خوارزم شاه ، علي بن مأمون بن محمد ، ووزيره أبي الحسن السهيلي .

ومما ينسب اليه هذه القصيدة التي يقول فيها[٢٠] :

إحذر بُني من القران العاشـر وانفر بنفسك قبلَ نفرِ النافرِ[٢١]
لا تشغلنّك لذةٌ تلهو بهـا فالموتُ أولى بالظلوم الفـاجر
لا تركنن الى البلاد فانهـا سَيَعمّها حدُّ الحسام الباتـرِ
من فتيـة فطس الأنوف كأنهم سيلٌ طَما أو كالجرادِ الناشـرِ
خزر العيون تراهُمُ في ذلّـة كم قد أبادوا من مليـك قاهـرِ
ما قصـدهم الا الدمـاء كأنهم نار لهم من كل فـاه آمـرِ

(١٨) دمية القصر وعصره أهل العصر ٢ : ٩١ « تحقيق الحلو » .
(١٩) هو أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا . ولد في أفشـنة من قـرى بخارى قرب « خرميثن » في سنة ٣٧٠ هـ ـ ٩٨٠ م . تنظر ترجمتـه في : وفيات الاعيان ١ : ٤١٩ ، البداية والنهاية ١٢ : ٤٢ ، هديـة العارفين ١ : ٣٠٨ ، طبقات الفقهاء ـ زاده ـ ص ٧٠ ، عيون الانبـاء في طبقات الاطباء . ص ٤٣٧ ، الاعلام ٢ : ٢٦١ ، اعيان الشيعة ٢٦ : ٢٨٧ ، قصة الحضارة ـ ديورانت ـ م٤ . حـ٢ . ص ١٩٢ . لجنـة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ط ٣ . سنة ١٩٦٨م.
(٢٠) ينظر : الوافي بالوفيات (مخطوط) حـ ١١ . ورقة ٨٥ ، عيون الانباء في طبقات الاطباء . ص ٤٤٧ .
(٢١) يريد بالقران العاشر ، على ما زعمه المنجمون ، قران المشتري بزحل ، في برج الجدي ، وهو انحس البروج .

وخراب ما شـاد الورى حتى يرى   قفرا عمارتهم برغم العـامر

وقال منها يبين خراب بعض البلاد ، على أيدي هؤلاء :

أمّا خراسـان تعود منابتـا   للعشب ليس لأهلهـا من جـابر
وكذا خوارزم وبلخ بعدهـا   تضحي وليس بربعها من صافر[٢٢]

ثم بعد ذلك يأخذ في وصف حالة البلاد بعد خرابها فيقول[٢٣] :

ويفر سفّاك الدما منهم كمـا   فَرّ الحمام من العقاب الكاسِر
فهو الخوارزمي يكسـر جيشها   في نصف شهر من ربيـع الآخرِ
ويموت من كَمَد على ما نالـه   من ملكه في لجّ بحر زاخـرِ

والقصيدة طويلة وهي تبين لنا حالة البلاد ، عندما هاجمها التتار ، وهزيمة خوارزم شاه ، والد جلال‌الدين منكبرتي ، وموته غرقا ، وترك أمور البلاد لأبنه ، جلال‌الدين منكبرتي ، ويظهر ذلك في قوله :

ويكون آخر عمره في آمـدٍ   يُسّـرى إليه وما له من سائرِ
ويعود عظم جيوشـه مرتدة"   عنه الى الخصم الألدّ الفاجرِ

ومن الجدير بالذكر ، أن نشير الى أن استشهادنا بهذه القصيدة لم يكن على أساس انها من شعر ابن سينا ، ولكن لأنها تمثل حالة البلاد في عهدها الأخير خير تمثيل ، كما تمثل النهاية المؤلمة ، للسلطان جلال‌الدين منكبرتي وسقوط الدولة الخوارزمية ، سنة ٦٢٨هـ • وبهذا التأريخ أصبحنا على ثقة تامة ، بأن هذه القصيدة المنسوبة ، للشيخ الرئيس ليست له ، لأن الشيخ الرئيس توفي كما تجمع أكثر المصادر ، سنة ٤٢٨هـ ، أي قبل هذه الحوادث المذكورة ، في القصيدة بزمن طويل ، وبهذا تكون هذه القصيدة ، من وضع شاعر متأخر ، شاهد بنفسه تلك الحوادث ، أو سمع عنها •

---

(٢٢) الصافر : اللص : طير جبان يُنكِسُ راسه ، ويتعلق برجليه وهو يصفر خيفة ان ينام فيؤخذ ، أو هو الجبان مطلقا . وكل ذي صوت من الطير . ويقال : ما بالدار من صافر : أي أحد يصفر وما بها ديار .

(٢٣) الوافي بالوفيات (مخطوط) حـ ١١ . ورقة ٨٥ .

ومن تقاذفته الغربة الى هذا الأقليم ، وأقام به حتى مماته ، محمد بن الحسين ، الكاتب المعروف بالقصّاب ، والملقب بصريع الـكأس ، وهو من أهالي نيسابور ، وذكر القفطي أن له كتابة حسـنة ، ونظمـاً بارعـاً ، منه قوله(٢٤) :

حَيّـاكَ من ذا الربيعِ الطَلْق قادِمُـه
وأيُّ عيـشٍ هَنيٌّ أنتَ عادِمُـهُ ؟
أمـا تـرى البَرْدَ قـد ولّى بعسـكره
حلّت عزائمُـهُ منهـا هزائمـهُ ؟!
والغَيْمُ أقبـل يبكي مـلءَ مُقلتـه
والروضُ أقبـل مفتـراً مباسـمُهُ
والأرض تحكي عروسـاً في معارضها
والجـوُّ قـد كثرت فيـه مآتمـه
حتى كأنَّ يـدَ الشيخِ الأجلّ سـقَى
خضـر الرياض فروّتهـا غمائمُـه
لا شيء أعجبُ من خلـق الربيـع وقـد
غـدا على خلـق مولانـا يكارمُـه
فَليسَ تَحكي معانيـه معانِيَـه
هيهـات أن يحكيَ المخـدومَ خادِمُـه !

فهذه الأبيات من جميل الوصف ، الذي قاله هؤلاء الشعراء في وصف البيئة الحية ، وصف الربيع والرياض والخضرة، كما هي وصف للبيئةالصامتة، تمثلت في ذكر الشاعر الغيم والجو والغمام ، والقصيدة في جملتهـا صورة جميلة حية ، لفصل جميل من فصول السنة وهو الربيع . وقد انفرد صريع

(٢٤) المحمدون من الشعراء واشعارهم . ص ٢٥٢ .

الكأس ، من بين شعراء هذا الاقليم بهذه الخاصية ، لأننا لم نجد في شعرهم مما بين أيدينا شيئاً من هذا القبيل .

ووصف الشاعر للطبيعة في هذه الأبيات ، وصف وجداني يصور الجانب الرقيق الباسم ، الفواح بالعطر والشذى ، فالأرض شبّهت بالعروس لجمالها، فهي ضاحكة لبكاء سمائها ، ذلك البكاء الذي روّى الأرض ، فاخضرّ لذلك العود .

ونكتفي بهذا الاجمال ، عن الشعراء الوافدين ، الى هذا الاقليم ، بدراسة وافية ، عن الشاعر الكبير رشيدالدين الوطواط ، شاعر بلاط الخوارزمشاهيين .

• • •

الفصل السادس

رشيدالدين الوطواط :

اولا : حياته

١ ــ ولادته ونشأته في مسقط رأسه « بلخ ».

٢ ــ تحصيله العلوم والآداب في المدرسة النظامية ، في بلخ وأشهر أساتذته.

٣ ــ ذهابه الى خوارزم ، واتصاله بسلاطين الدولة الخوارزمية .

٤ ــ مذهبه وغيرته على الاسلام .

٥ ــ اختصاصه ببلاط الخوارزميين ، وخصّهم بالقسم الأكبر من شعره في المديح .

٦ ــ اتصاله بأدباء عصره وعلمائه .

ثانيا : اغراضه

١ ــ المديح : وهو الغالب على شعره .

٢ ــ الوصف .

٣ ــ أغراض أخرى .

ثالثا : سمات شعره

١ ــ المبالغة في اضفاء صوره على ممدوحيه ، الى حد الاستحالة .

٢ ــ غرامه وشغفه بالمحسنات البديعية .

٣ ــ أكثر معانيه في المديح دينية ، يتصل بنصر الإسلام ، والدين الاسلامي، وبعضها يتصل بالعدل .

٤ ــ معانيه ــ أحياناً ــ كمعاني العرب الجاهليين

رشيدالدين الوطواط[1] :

هو محمد بن محمد بن عبدالجليل . وقد شهر برشيدالدين الوطواط . ونسبه يتصل بسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ويكنى بأبي بكر ، ويلقب بالوطواط ، وانما لقب به لضآلة جسمه ، وهزال بنيته[2].

والراجح أن ولادته بين سنتي ٤٨٠ و ٤٨٧هـ ، في بيت من بيوتات بلخ[3] . وبلخ في تلك الأيام كانت من أعظم مدن خراسان ، حتى اعتبروها مساوية في المكانة لنيسابور وهراة ومرو . وهي تمتاز بكثرة المدارس والجوامع والمكتبات ، التي كان يقضي فيها الفضلاء والعلماء أيامهم ، ناشرين نور العلم والفضل ، مقيمين أسواق الافادة والاستفادة[4] .

وطفولته لا نعرف شيئاً عنها ، ولكننا نستطيع أن نقول : إنّه تلقى علومه الأولية ، في مسقط رأسه بلخ ، قبل أن يفد الى خوارزم ، وأنه درس في المدرسة النظامية في بلخ ، وحصل فيها قدرا من علومه ، وكان أستاذه الذي تأثر به كثيراً ، في تلك المدرسة ، هو الإمام أبو سعد الهروي ، الذي كانت له منزلة خاصة ، لدى رشيدالدين الوطواط ، والتي تتراءى لنا في رسالته التي بعث بها اليه ، والتي يقول فيها[5] :

كتـابي وفي الأحشـاءِ وَجْـد" على وجـد
الى الصدرِ مولانا الأجلِّ أبي سـعد[6]

---

(١) تنظر ترجمته في : معجم الادباء ١٩ : ٢٩ ، بغية الوعاة ١ : ٢٢٦ ، ترجمات المتقدمين من الشعراء ــ ابن خلكان ــ ص ٢٥ ، هدية العارفين ٢ : ٩٩، تاريخ كزيدة . ص ٧٥٦ . ، روضات الجنات ١ : ٧٧ ، الاعلام ٧ : ٢٥١، تاريخ الادب في ايران . ص ٤١٧ .

(٢) ينظر تاريخ الادب في ايران . ص ٤١٧ .

(٣) ينظر معجم الأدباء ١٩ : ٢٩ ، الاعلام ٧ : ٢٥١ .

(٤) ينظر : مقدمة كتاب حدائق السحر في دقائق الشعر . ص ٣ .

(٥) ينظر : معجم الادباء ١ : ١٠٣ ــ ١٠٤ .

(٦) الوجد : الحزن . والصدر : البارز السابق . يقال : صدر الفرس : اي برز بصدره وسبق ، وصدروه في المجالس فتصدر .

أشَـــمّ طويل البـــاع أصبح رافعـــاً
الى قِمَّـــةِ الأفلاكِ ألويةَ المجـدِ(٧)

سَـراةُ بني الاسـلام عقـدُ جواهـــر
وفيهم أبو سعد كواســـطة العقـدِ(٨)

وله فيه من أبيات اخرى ، يحنّ فيها الى اجتماعه معه في المجالس ، وفي المدرسة النظامية ويمدحه بعاطفة صادقة حيث يقول :

للهِ دَرّ امـــامٍ كلـّـــه أدب بفضله يتحلى العُجْمُ والعـَـرَبُ

أو قوله من كتاب بعثه إليه وفيه (٩) : « الله يعلم أَنّي وإن شَـطّ المَزارُ ، وشحطت(١٠) الديار ، لا أقطع أكثر أوقاتي ، ولا أُزجي(١١) أغلب ساعاتي ، الا في مدح معاليه ، وشرح أياديه(١٢) ، لو أنفقت عمري في ذلك وسلكت طول دهري تلك المسالك » .

ثم ختم الكتاب ببيت من الشعر ، يؤكد فيه اعترافه بفضله عليه ، حيث يقول :

لمِـا كنتُ أقضي بعضَ واجب حَقِّـــه
ولا كنتُ أحصي من صنائعـه عُشـرا(١٣)

---

(٧) رجل اشم : اي طويل الراس . واشم الرجل : مر رافعا راسه ، والمراد علو المكانة . قمة الجبل وقنته : اعلاه .
(٨) السراة : اسم جمع للسري .
واسطة العقد : حبة كبيرة تجعل في وسط العقد عند نظمه ، في سمطه. وهي اثمن حبات العقد وزينته .
(٩) معجم الادباء ١ : ١٠٥ .
(١٠) شط المزار : بعد . شحطت : اي بعدت .
(١١) ازجي : زجيت الشيء تزجية ، اذا دفعته برفق . يقـال : كيف تزجـي الايام ، اي كيف تقتضيها ، والريح تزجي السحاب .
(١٢) اياديه : الايادي : النعم . وهو هنا على سبيل المجاز المرسل ، علاقتـــه السببية كما هو معروف .
(١٣) صنائع : جمع صنيعة : وهي الجميل والمعروف .
عشرا : يريد جزء قليلا ، لا العشر بعينه . قال تعالى : « وما بلغوا معشـار ما اتيناهم » . اي بعضه .

أو قوله فيه أيضاً[١٤] :

مجـــالسُ مولانا أبي ســــعد الذي

به سَـعِـدَ الأيـامُ والدين والدُّنيـــا

هُـمـامٌ حوى يوم الفَخـار بنانـــــه

على رغم آنافِ العِـدا قَصَبَ العَلْيـا[١٥]

ولما أنهى رشيدالدين الوطواط دراسته في بلخ ، انتقل الى اقليم خوارزم، وأقام هناك في خدمة السلطان خوارزم شاه اتسز . وظل على وفائه لأستاذه يكاتبه من خوارزم ، ويقرّ بفضله ، ويستمع لنصائحه[١٦] .

وقد أصبح رشيدالدين الوطواط ، شاعراً لبلاط خوارزم شاه اتسز ، ولابنه ايل أرسلان من بعده ، ثم لابنه علاءالدين تكش . وقد بقي في خدمته مدة ثلاثين سنة . وكان السلطان اتسز قد اتخذ منه رفيقاً خاصاً ، بالاضافة الى كونه شاعراً لبلاطه ، طيلة مدة حكمه من سنة ٥٢١ ــ ٥٥١هـ . وظل الى آخر عمره في خدمة ملوك خوارزم ، الى أن أدركته الوفاة .

عاش رشيد الدين ، في عصر السلطان سنجر وأخوته ، (٤٨٥ــ٥٥٢هـ)، وكان عصر سنجر بصورة عامة ، عصراً زاهراً في الأدب والعلم ، وفيه ازداد عدد الشعراء والكتاب والعلماء ، من الفرس والعرب ، ونبغ فيــه جماعة من الشعراء ، والكتاب من الأمتين : العربية والفارسية . وكان رشـــيدالدين الوطواط ، ممثلاً للأدبين وكان الشاعر أنــوري ، شــاعر بلاط ســنجر ، ومنافس رشيد الدين ، ممثلاً للأدب الفارسي ، ومثله كان سنائي والعطار ونظامي ، وعمر الخيام .

ومن دراسة ديوان رشيدالدين الوطواط، يظهر لنا أنه كان لسانالسلطان

---

(١٤) معجم الادباء ١ : ١٠٤ .

(١٥) قصب العليا : اي استولى على الامد والغاية ، في العلياء والرفعة واصله انهم كانوا ينصبون في حلبة السباق قصبة ، فمن سبق اقتلعها واخذها، ليعلم انه السابق ، من غير نزاع . ثم كثر حتى اطلق على كل مبرز .

(١٦) معجم الادباء ١ : ١٠٣ .

اتسز الخاص ، الذي يمدحه ويهجو عدوه سنجر ، وشاعره أنوري ، ولذا كان السلطان سنجر متحاملاً عليه ، حتى أقسم كما يقال انه قاتله إذا ظفر به .

كان القرن السادس الهجري ، الذي عاش فيه الشاعر ، قرنا نفقت فيه سوق العلوم ، والآداب الاسلامية ، في الممالك الاسلامية الشرقية ، ولا سيّما في خراسان ، وما وراء النهر ، ومنها اقليم خوارزم ، حيث اتقـــدت مشاعل العلم ، وأنارت مـــدنا كبيرة ، مثل مرو وبلخ ونيسابور ، وهراة وطوس ، والجرجانية ، وبخارى وسمرقند(١٧) .

وكان لكل من السلاجقة والخوارزميين ، وزراء محبون للعلم والأدب، وكان بعضهم كتّاباً وشعراء ، كما هي حال الشبيبي ، والرقاشي والسـهيلي، والتاجر وغيرهم . كما كان لجهودهم التي بذلوها في سبيل الأمن والسكينة ، في هذا الاقليم المسلم ، فضل كبير ، فكان لهذا أثره البالغ في ازدهار الأدب، على ألسنة الأدباء ، الذين استطاعوا في هذا الجو الهادىء ، أن ينتجوا الكثير، فازدهرت مدن الاقليم وقراه ، وزخرت المدارس والمحافل بمن فيها ، كما رأينا في دراستنا للحياة العقلية .

ويقول ياقوت الحموي(١٨) : إنّ الوطواط كان « من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه في النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب . طار في الآفاق صيته ، وسار في الأقاليم ذكره » .

أما مذهبه ، فالظاهر أنه كان علوي المذهب ، يتبين ذلك من شعره في قوله(١٩) :

لقد تجمّع في الهادي أبي الحسن ما قد تفرّق في الأصحاب من حسَنِ

ويعلق القمي على هذا البيت بقوله : كان الوطواط أخذ هذا من شـعر الصاحب بن عبّاد ، في قوله :

---

(١٧) للتفصيل ينظر مقدمة كتاب حدائق السحر في دقائق الشعر . ص ٢٦.
(١٨) ينظر كتابه : معجم الادباء ١٩ : ٢٩ .
(١٩) ينظر : الكنى والالقاب ٢ : ٢٧٢ (النجف) ، ديوان الصاحب بن عباد . تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين . ص ٢٦٨ . بغداد ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م .

نجمّع فيـه ما تفرّقَ في الورى   من الخلقِ والأخلاقِ والفضل والعلى

كما يشعرنا بعلويته ، تأليفه المسمى ، مطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب ، عليه السلام[٣٠] .

وكان رشيدالدين الوطواط ، غيورا على الدين الاسلامي ، مدافعاً عنه، رامياً أعداءه بالجهالة والغرور ، معيّراً اياهم بحب الدنيا وزخارفها ، والميل عن الجنة ونعيمها[٣١] . وكان يتمنى لو أتاح له الزمن ، كما أتاح للزمخشري مجاورة بيت الله الحرام ، فهو يقول في كتاب بعثه ، الى الامام جارالله الزمخشري : « كانت قصوى منيتي ، وقُصار[٣٢] بغيتي ، أن أكون أحد الملازمين لسدته الشريفة ، التي هي مخيم السيادة ، ومقبل أفواه السادة ، من ألقى بها عصاه ، حاز في الدارين مناه ، ونال في المحلين مبتغاه ، ولكن سوء التقصير ، أو مانع التقدير ، حرمني من تلك الخدمة ، وحرم علي تلك النعمة[٢٣] » .

وقد اتصل الوطواط ، بكثير من ادباء عصره وعلمائه ، الذين عرفوا فضله ، فأحسنوا معاشرته ، ومنهم الزمخشري ، وتلميذه ابن شيرين[٢٤] ، الذي يقول فيه[٢٥] :

محيّـا جمـالِ الدين في الخَطب كوكبٌ
وَجَـدوى جمالِ الدين في الجَدْب وابلُ
وَالطافُـه عـلمٌ وحـلمٌ وسـؤددٌ
وأوصافُه عـزمٌ وحـزمٌ ونائـلَ

---

(٢٠) ذكر هذا الكتاب في : كشف الظنون ٢ : ٤٥٩ ، الذريعة الى تصانيف أهل الشيعة ٦: ٢٨٦ ، معجم المطبوعات . ص ١٩٢٢ .

(٢١) تنظر : مجموعة رسائله ٢ : ١٣ .

(٢٢) قصار : القصار والقصارى : الغاية .

(٢٣) ينظر : المصدر السابق ٢ : ٢٩ .

(٢٤) هو القاضي الامام جمالالدين يعقوب بن شيرين الجندي . كان تلميذا للامام الزمخشري .

(٢٥) مجموعة رسائله ١ : ٥٣ .

أأطواقُ دُرٍّ شعرُهُ أم قصائدٌ
وأوراقُ سحرٍ نَثْرُهُ أم رسائِلُ

فمن بَدْرِه للمهتدين مراشد
وفي صدرِه لِلْمُجتَدِينَ منازلُ[٢٦]

وكانت ملازمته لآتسز مبعث حسد الأدباء ، ومثار بث الحقد ، في صدر اتسز عليه ، من الوشاة ، مما دفع السلطان اتسز الى التغير عليه في أواخر أيامه. ومن هذا يتبين لنا أن الخوف قد أدى بالكثيرين ، ممن حول اتسز، من شعراء وأدباء ، أن يتبوأ هذا الفتى الطاريء على خوارزم ، تلك المكانة العالية في قلب السلطان ، واستكثروا عليه أن يشاركهم في ديوان الشعراء ، كما شاركهم في ديوان الكتاب . ثم امتاز عليهم بأن أصبح وزيراً للسلطان اتسز ، فاتهموه بالضعف في شعره ، كما اتهموه في أخلاقه ، ورموه بالغرور وسلاطة اللسان ، وفحش الألفاظ، حتى لقد رأى المستشرق براون BROWNE ان كثرة أعدائه وخصومه ، سببها حدة لسانه ، ولكننا نرى أن الحسد والمنافسة ، هما اللذان ولّدا تلك العداوة ، وأوجدا تلك الخصومة بينه وبين أدباء عصره . ومنهم الشاعر أديب صابر ، الذي يقال إنّ اتسز ، أمر باغراقه في نهر جيحون في سنة ٥٤٢/١١٤٧ م[٢٧] . ومنهم الشاعر الخاقاني[٢٨] ، الذي هجا رشيدالدين، وقدح فيه ، بسبب ما أبداه رشيد الدين من تحقير وتهوين لمنشآته كما يقال[٢٩] . فقد كان شعراء عصره ، يرسلون اليه أشعارهم ، ليبدي رأيه فيها، ويظهر أنه كان صريحاً معهم في ابداء رأيه ، وأن صراحته تلك قد أغضبتهم .

هذا الى أن الحياة السياسية ، قد لعبت دورا هاما في الخصومة ، التي

---

(٢٦) بدره : البَدْرُ : القمر الممتليء .
المجتدين : جمع جادٍ وهو سائل الجَدْوى ، والجدوى : العطية .
ويجمع الجادي على (جُداة) .

(٢٧) ينظر : تاريخ الادب في ايران . ص ٤١٧ ــ ١٨ ٤.

(٢٨) هو افضل الدين بديل بن علي الخاقاني الشرواني . ولد سنة ٥٠٠هـ. وتوفي سنة ٥٩٥هـ .

(٢٩) ينظر : حدائق السحر في دقائق الشعر . ص ٣٥ .

كانت بينه وبين أدباء عصره ، ولا سيّما الشاعر أنوري ، والشاعر أديب صابر، الذي كان نديماً للسلطان سنجر ، في الوقت الذي كان فيه رشيدالدين ،كاتب اتسز الخاص ، وشاعر بلاطه ، ولهذا ساءت العلاقات بينهما ، تنيجة سوء العلاقة بين السلطانين ، ووصل الأمر بالشاعرين الى التهاجي بأفحش العبارات والأقوال ، بعد أن تمادحا بأرقّ الألفاظ[٣٠] .

بلغ رشيدالدين مكانة عالية ، في بلاط اتسز ، في ديوان الشعراء ، وفي ديوان الانشاء أيضا . وكان هو كاتب اتسز ، لتمكنه من صناعة النثر،وصناعة الشعر . وظل شاعر بلاطهم ، يمدح ويسجل انتصاراتهم ، ويهجو أعدائهم ، حتى آخر أيامه ، كما ظل ناثرا يجيد ما يطلب منه تحريره في ديوان الانشاء . وله في هذا رسائل كثيرة ، الى الملوك والوزراء والعظماء ، سنوفيها حقها ، حينما نتكلم عنه ناثراً

وبقيت هذه حاله ، حتى توفي اتسز ، فرثاه ، بقصائد كثيرة[٣١] ، ثم ظل يعمل مع ابنه احتراماً وتقديراً ، لذكرى والده ، حتى توفي الابن فعمل فيخدمة ابنه علاء الدين تكش . ويقال : إنّه في يوم تملكه عرش خوارزم،سنة ٥٦٨هـ، حمل اليه رشيدالدين الوطواط ، في محفة لكبر سنه ، اذ كان قد جاوز الثمانين ، فهنأه الوطواط برباعية[٣٢] ، وهكذا بقي رشيدالدين الوطواط ، في بلاط الخوارزميين شاعراً مكرماً حتى توفي سنة ٥٨٧هـ .

---

(٣٠) ينظر حدائق السحر . ص ٤٤ .

(٣١) تنظر رباعيته في رثاء اتسز ، في ديوانه . ص ٦١٥ . وتظهر فيها عاطفة الشاعر ، وحبه لاتسز .

(٣٢) ينظر ديوانه . ص ٦١٢ ، الذريعة الى تصانيف اهل الشيعة ٦ : ٢٨٦.

شعره :

يعدّ رشيدالدين من أغزر الشعراء الوافدين أو الطارئين على هـــذا الاقليم شعرا . وقد خلف ديوان شعر باللغة الفارسية ، يشـــتمل على خمسة عشر ألف بيت من الشعر ، على حد قول براون ، نقلاً عن دولتشاه[1] . كما خلف أشعارا متفرقة ، باللغة العربية ، نجد بعضها في كتابه : حدائق السحر في دقائق الشعر ، وبعضها في رسائله التي كتبها باللغة العربية ، والتي سنوفيها حقّها من الدراسة ، حينما ندرسه كاتبا .

أما ديوانه الشعري ، فإنه تناول فيه أكثر الأغراض المعروفة ، في الشعر العربي ، والمدح هو الغالب عليه ، وأكثره في مدح السلطان اتسز . وله قصائد في الذّم والهجاء ، وجهها الى الشاعر ، أديب صابر[2] ، والى الشاعر أنوري . وله بالاضافة الى هذا أبيات في التهنئة ، وأخرى في التشوق ، والنصيحـــة والرجاء .

أما قصائده بصورة عامة ، فتمتاز بأنها من باب الفخر والحماسة ، وبهـــا المبالغات التي اعتادها شعراء المدح في ذلك الوقت .

نقول إنّ المدح هو الغالب ، على شعر الوطواط ، ولا عجب في ذلك ، فالشاعر بدأ حياته وختمها شاعراً رسمياً ، في خدمة الخوارزمشاهيين ، ووزيراً لأبي المظفر خوارزم شاه ، هذا بالاضافة الى ملازمته لهم في ســـفرهم وحضرهم ، وخدمته لهم ، وتلبيته لرغباتهم . وقد أثّر هذا في تآليفــه ، فلم يستطع على الرغم من مكانته الأدبية والعلمية ، أن يتحفنا بكثير من المؤلفات، لاشتغاله بمهام أولياء نعمته ، يضاف الى هذا أنه كان يحب السلطان اتسز حبا جما ، فكان صادق العاطفة في مدحه ، ولم ينس قط أنّه ولي نعمته وفضله .

هذه بعض أحوال رشيدالدين الوطواط ، التي تفسر لنا غلبة المدح على

---

(١) تاريخ الادب في ايران . ص ٤١٧ ــ ٤١٨ .

(٢) هو الاديب شهاب الدين صابر بن اسماعيل الترمذي .

شعره . وأما أحوال عصره العامة ، فواضح أنها كانت أحوالا شجعته ، كما شجعت غيره من الشعراء ، على السير في هذا الاتجاه ، لما عرف عن الأمراء، والحكام والملوك ، من حبهم للمدح ، وتقريبهم للشعراء المادحين لهم .

ومن الجدير بالذكر أن نشير ، الى أن مدح هذا الشاعر ، لم يكن كله مدحاً خالصاً ، وانما خالط القصائد فيه ، أغراض أخرى مثل الغزل الذي يستفتح به بعض قصائده ، سيرا على النهج التقليدي[٣] . أو التشوق والعاطفة القوية ، التي تحملها أبياته في مدح أستاذه ، أبي سعد الهروي ، والتي سبق أن استشهدنا بها قبل قليل .

أما الوصف فقد طرقه الشاعر أيضاً ، وأجاده على الرغم من مبالغته فيه. وقد لاحظنا له في هذا الباب ، قطعة شعرية يصف بها قصر خوارزم شاه ، وفي رأينا أنه شاعر يحسن الوصف ، ويبدع التشابيه والتراكيب ، ويستخدم الاستعارات والمجازات . على أنه ــ وإن أجاد في الوصف ــ شاعر مدح ، حتى ليمكن أن يعد ديوانه من أكثر الدواوين اقتصاراً عليه ــ كما نوهنا ــ وقد بينّا أن هذا ربما كان نتيجة معيشته في بلاط الخوارزميين ، وفي رعايتهم .

وفي وصفه للقصر ، نجده يصوره متجها للسعادة ، ولا متجه غيره ، على حد قوله ، ولذلك فإن الزمان قد وقع في حيرة من وهمه ، وأن النجم قدوقف في مكانه اعتباراً له[٤]

وها نحن نورد نماذج من شعره في المدح ، ليكون القاريء على بينةمنه.

قال في صدرالدين نظام الدين ، رئيس جرجان[٥] :

---

(٣) ينظر ديوانه . ص ٣٣ ــ ٣٤ . قصيدة في مدح السلطان اتسز . يبدا بالغزل ، ثم يتخلص منه الى المدح . والقصيدة مكونة من ١٦ بيت.

(٤) ينظر ديوانه . ص ٦٠٣ ، والقصيدة مكونة من عشرة أبيات . وفي ص٩٩ له قصيدة في وصف بلخ ، مكونة من عشرين بيتاً ، يتشوق فيها الى موطنه ويحن اليه ، ويصفها بكل وصف جميل . وفي ص ٤٠٨ له قصيدة اخرى في وصف قصر خاقان كمالالدين محمود ، مكونة من ٢٥ بيتا ، يصفه بانه روضة المجد ، وبيضة الدولة ، وكعبة العز .

(٥) تنظر مجموعة رسائله ١ : ٦٤.

لله شبل نظام الدين أن له
طبعاً بدائعه في الأرض منتشرُ
فالنظمُ دُرٌّ يشوق النفسَ منتظم
والنثرُ وردٌ يروق العين منتشر

وقال فيه أيضاً :

جنابك صدر دين الله حصن
لأهل الفضل من نُوَبِ الزمانِ
وَصَدرُكَ في الخطوبِ إذا ألمّت
محط رجالِ أولاد القرانِ(٦)
وجودُكَ دونَه فيض الغَوادي
وعزمُك دونَه حدُّ السنانِ
وبابُكَ فيه مسكنُ كلّ عافٍ
وعفوُكَ فيه مأمنُ كلِّ جانِ
غَدَوْتَ قريعَ فرسانِ القَوافي
وحائِزَ خصلها يومَ الرهان(٧)
لَقد بلَغت قاصيةَ المَعالي
كَما ملَكتَ ناصيةَ المَعاني
وَأعجزتَ الأفاضِلَ وقتَ نُطق
بمعجزةِ الفصاحةِ والبيانِ
يَشقُّ سَناكَ جلبابَ الليالي
وجنحُ ظلامها مُلقى الجِرانِ(٨)

فالشاعر يمدحه بالفضل والشجاعة ، والكرم ويمدحه بالفصاحة والبيان .

---

(٦) القران : القوة . والقران من القوم : سيدهم .
(٧) الخصل : الغلبة . أي انه غلب المتراهنين وفضلهم .
(٨) الجران : مقدم العنق .

وفي مدح ضياءالدين علي بن جعفر قال(٩) :

وَقاكَ اللهُ نائِبةَ الليـــــالي		وَصانَكَ من مُلمّـاتِ الزمانِ
جَنابُكَ روضةُ الإقبالِ تَزري		أَطايبُها بروضـاتِ الجنـانِ
يشقُّ إذا بدا بدرُ الديـــاجي		جَبينَكَ والدجى ملقى الجِرانِ
أيا ابن المصطفى فُقْتَ البرايـا		بأصنافِ المعـالي والمَعـاني
غَدا وَلَداكَ بل عَضُداكَ بحراً		وسيفاً بالبيـانِ وبالبنـــانِ
هُمـا غَيْثانِ لكن في العَطايا		هُما لَيْثان لكن في الطّعـانِ
فَهذا ما لَهُ في العلمِ نــدّ		وَهذا ما لَهُ في الحِلمِ ثاني(١٠)

فالشاعر يبدأ قصيدته ، بالدعاء للممدوح ، ثم يمدحه بالانتساب الى الرسول صلى الله عليه وسلم، ويمدحه بالعلا وبالفصاحة، والكرم والشجاعة.

ومن أبياته المضمنة قوله في مدح السلطان اتسز(١١) :

ثغورُكَ مثلُ عقدِ الدرّ حُسنا		وعقدُ الدرّ مُتَسّقُ النظـامِ
وَوَجهُك كالهلالِ إذا تَبَدّى		يشقُّ سَنـاه أوديةَ الظـلامِ
جَبينُك ساطعٌ كالبرقِ منـــه		جفوني هاطـلاتٌ كالغَمـامِ
وَجفنكَ ليس يدعى الجفنَ إلا		وفي ألحاظِهِ عمل الحســامِ
يملكني فراقُـكَ كل ميــــل		على لهب شديد الاضطـرامِ
أبيتُ وفي جفوني مـاءُ حُـزن		وما بينَ الضلوعِ لَظى غرامِ(١٢)

---

(٩) ديوان رشيد الدين الوطواط . ص ٤٨٢ « والابيات باللغة العربية ،فهي مضمنة ، وفي ديوانه مثل هذا » .

(١٠) ينظر ديوانه . ص ٤٨٢ – ٤٨٣ . والقصيدة طويلة . اقتصرنا منها على هذه الابيات .

(١١) ينظر ديوانه . ص ٤٧١ – ٤٧٣ . وهي مكونة من ٣٢ بيتا ، بما في ذلك هذا التضمين .

(١٢) « لظى غرام » في الاصل « نطى غرام » . ويبدو انها مصحفة ، ولعل الصحيح ما اثبتناه .

كَرِيم" في السخا كفّــاه بحــر خِضَمّ" زاخِرُ الأمواجِ طـامِ
شــــعارُ نهـــاهُ للأيام زين" وحصنُ عُلاه للإسـلامِ حامي

فهو يمدحه بالجمال ، وكأنه يتغزل به ، ثم يبين له حاله ، وما يسببه له فراقه ، ويتبع في ذلك طريقة العاشق ، الذي يبث شوقه وآلامه لحبيبتــه • ثم يستمر في مديحه ، فيمدحه بالكرم والسخاء ، وحماية الدين •

ومن الجدير بالاشارة ، أن العادات غير العربية ــ مهما زالت ــ إلا أن لها بقايا في النفوس ، من ذلك مدحهم الممدوح بالجمال ، فإن العرب لا يحبون المديح للرجل بالصورة الجميلة ، كما أنهم لا يرحبون بأن يُمدحوا بما يمدح به الملوك وأفضل من ذلك ان يمدح الشخص منهم بصفات اسلامية ، ولذلك فإن عبدالملك بن مروان ، قد غضب على ابن قيس الرقيات حين مدحه بهــذا في قوله :

يأتلق التـاجُ فَوقَ مفرقــه على جبــين كأنّــه الذهب

ويقال : إنّ عبدالملك قال له : تمدحني بما يمدح به الأعاجم ، وتقول في مصعب بن الزبير :

إنّما مصعب شـهاب" من الله (م) تَجلّتْ عن وجهه الظلمـــاءُ

ومما يلاحظ عليه أيضاً ، في هذه القصيدة ، تأثره بالمتنبي في أخذه بعض معانيه في البيت الذي يقول فيه :

وجفنُكَ ليسَ يدعى الجفنَ إلا وفي ألحاظِـه عمل الحســـــام

مأخوذ من بيت المتنبي الذي يقول فيه :

وَلِذا اسمُ أَغْطيــة العُيونِ جُفونُهـا
من أَنَّهــا عَمَــلُ السُّيوفِ عَوامِلُ

فهو يقول : إنّما سميت أغطية العيونِ جفونها ، لأنها ضمنت أحداقاً ، تعمل عمل السيوف[١٣] •

---

(١٣) ينظر ديوان ابي الطيب المتنبي بشرح ابي البقاء العكبرى ٣ : ٢٥٢ .

والذي يهمنا من ايراد هذه القصيدة بالذات ، هو تبيان عاطفة الشاعر الصادقة ، في مدحه لهذا السلطان ، وهي واضحة جلية في كل قصائده التي قالها في مدحه . وتتميز بجمالها ، وبلاغة أسلوبها ، على الرغم من مبالغاتها المستحيلة[١٤] .

اما مدى اهتمام الوطواط بالصنعة البديعية ، وشغفه بها ، فيظهر في قصيدته هذه ، التي قالها في أحد الوزراء معدداً فضائله ، وأنعمه عليه[١٥] :

أيا مَنْ للعِدى منه اختـرامُ ... ويا من للهدى منه احترامُ[١٦]

بـه لقبـائلِ الشرعِ ائتلافٌ ... به لقبائلِ الشـركِ انهـزامُ

فمنـه لِمَنْ يحالفُهُ حيـاة ... ومنه لِمَنْ يخالِفُهُ حِمـامُ

تُحلّى من ميـامنِكَ النَوادي ... ويجلى من محاسـنِك الظلامُ

وَتُلْقَى في مغانيكَ الأمـاني ... وَيُلْقى في أياديكَ المـرامُ

وللدنيـا بعِزّتك ابتهـاجٌ ... وللعليـا بعـزّتك اعتصـام

فما لثناء حضرتك انقطـاعٌ ... ولا لبنـاء دولتِكَ انهـدامُ

ومنكَ لجامدِ الكَرَمِ انسجامٌ ... ومنكَ لخامدِ الأدبِ اضطـرامُ

بقيتَ وفي يديكَ الـكلُّ ملـك ... وملـك أنتَ تهواهُ زمـامُ

ومن الملاحظ أن المسحة الدينية ، كثيراً ما تطغى على مديحه ، كمايطغى عليه الوصف الحسي أو الوصف الجسمي ــ إن صحّ هذا التعبير ــ أحياناً .

---

(١٤) تنظر قصائده في مدح هذا السلطان ، في ديوانه وفي صفحات كثيرة منه: ص ٥ــ ٩ قصيدة مكونة من ٥٧ بيتا ، ص ٤٨ ــ ٥٠ قصيدة مكونة من ٢٣ بيتا ، ص ٦٦ ــ ٦٨ قصيدة مكونة من ٤١ بيتا . كما تنظر الصفحات التالية : ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٧٢ ، ٧٤، ٧٨ ، ٨٠ ، ٩٢ ، ٩٨ . وغيرها فالديوان مليء بمدحه .

(١٥) مجموعة رسائله ١ : ٥٠ .

(١٦) اخترام : الخرم : مصدر قولك : خرم الخرزة يخرمها ، اي فصمها . وانخرم الثقب : انشق وانقطع . والشاعر يريد ان يقول : ان الممدوح قاهر اعداءه ، ولذلك فكأنهم مقطعون اربا اربا منه .

هذا بالاضافة الى مدحه بالصفات المتعارف عليها عنـــد العرب ، من كرم وشجاعة ، وعزة واباء . ولكنه يغلف كل ذلك بهذه المسحة الدينية ، التي تكاد تطغى على أكثر أشعاره . واسمعه يقول : من كتاب بعثه الى بعض العترة النبوية[١٧] :

أيا شَـرَفَ الدينِ الذي صوبُ كفِّـه
يخجّل صوب المُـزنِ والمزنُ هـاطلُ
غَـدوتَ وقيتَ الشـرَّ اكـرمَ ماجـد
إلى صَدْرِه المحروسِ تَطْوى الرواحِلُ
ضَميرُكَ والآداب بحـــرٌ ولُؤْلُؤٌ
وطبعُـكَ والألطافُ غيمٌ ووابـــلُ
جَنـابُكَ فيـه للجيـاعِ مطـــاعمٌ
وبابُكَ فيـــه للعِطاش مناهِـــــلُ
تَفرّعتَ من دَوْحِ الرســالةِ شُعْبَةً
الى ظلّهـا الممـدودِ تــأوى الأماثِلُ
قبيلتُـكَ العليـا لهـا الفخـرُ كلُّـه
إذا اجتمعت يـومَ الفخار قبـــائلُ
فَما في تصاب دونَ أصلـك مفخـــرٌ
ولا في كــلام دونَ نَظمِكَ طـــائِلُ
بل اخضـرَّ عودُ العلمِ والحلمِ والحِجى
وعـادَ إليـــه مـــاؤهُ وهو ذابِـلُ
فَجَدّدْتَ رَسْمَ المَجْدِ والمَجْدُ دارسُ
وأشْهَرْتَ صيتَ الفَضْلِ والفَضلُ خامِلُ
فَما في عبـادِ اللهِ مثلُكَ مفضـــلٌ
ولا في بــلادِ اللهِ مثلُكَ فاضِـــلُ

---

(١٧) تنظر مجموعة رسائله ٢ : ٣ ٥ .

بَقِيتَ هَنيءَ العيشِ ما جَنَّ غَيْهَبٌ
وعشْتَ رَخيَّ البالِ ما حَنَّ بازلٌ[١٨]
وَخصمُكَ في بئرٍ من الذلِّ واقعٌ
وَسِلْمُكَ في ثوبٍ من العزِّ رافِلُ

فالشاعر في قصيدة المدح هذه ، يضفي على الممدوح كل الصفات المحببة الى النفس ، من كرم وحلم وفضل ، وعقل وحكمة ، ونسب رفيع • وقد صاغ كل ذلك ، بأسلوب جزل عذب ، سهل الألفاظ ، غلبت عليه عاطفته الصادقة ، وطغت عليه نزعته الدينية ، فجاء متدفقاً جيّاشاً ، مليئاً بالمشاعر المتصارعة ، والوصف المتدفق •

وفي هذا قال أيضاً ، في الامام فخرالدين ، أبي ثابت ، عبدالعزيز بن عبدالجبار الكوفي ، مفتي نيسابور ومدرسها :[١٩]

صَنائعُ فَخْرِ الدينِ عندي كثيرةٌ
تَقاصَرَ عن اعدادِها عددُ القَصْرِ[٢٠]
فَلو نَظَمَ الرحمنُ عقدَ اجتماعِنا
نَثَرْتَ على أعطافِهِ دُرَرَ الشكرِ

وفي الامام محمود بن عمر الزمخشري ، قال الوطواط[٢١] :

لَقَدْ حازَ جارُ اللهِ ــ دامَ جمالُهْ ــ
فَضائِلَ فيها لا يُشَقُّ غُبارُهُ

---

(١٨) جن الشيء : اي ستره . وجن عليه الليل : اي ستره ، وبه سمي الجن لاستتارهم واختفائهم . والغيهب : ليل غيهب : اي مظلم ، وجمعه غياهب .
والبازل : يقال جمل بازل وبزول . ويقال للذكر والانثى . وبزل بزلا وبزولا للبعير : فطر نابه وطلع . والبازل : الناقة في التاسعة .
(١٩) مجموعة رسائله ١ : ٤٢ .
(٢٠) تقاصر : اي تضاءل .
والقصر : الحطب الجزل .
(٢١) مجموعة رسائله ٢ : ٢٨ ــ ٢٩ .

تَجَدَّدَ رَسْمُ الفضلِ بعدَ اندثارِهِ
بآثـارِ جـارِ اللهِ فاللهُ جارُهُ

ولرشيدالدين شعر كثير في هذا الباب ، ولكننا نكتفي بما ذكرنا ، فإنه كفيل بأن يلقي بعض الضوء ، على هذه الناحية ، من شعر الوطواط .

أما الرثاء فقد أجاد فيه الشاعر ، كما أجاد في المديح ، لأن رثاءه كان نابعاً من عاطفة قوية ، هي العاطفة التي رأيناها واضحة في مدحه للسلطان اتسز ، وتلك العاطفة الصادقة ، التي تمثلت في رثائه للشخص نفسه ، الذي رعاه وحماه ، فأحبه وأخلص له ، ورثاه بالدمع السخي الغزير . وفي ديوانه الكثير من هذا الرثاء(٢٢) ، الذي يمثل لنا جانباً انسانياً سامياً ، ويحمل كل معاني العاطفة الصادقة ، واللوعة والحسرة العميقة ، في نفس الشاعر ، والتي عبر عنها بتلك الرباعية ، التي يقول فيها(٢٣) :

شـاها فلک از سیاستت می لرزیـد
پیش تو بطبـع بندگی می ورزیـد
صـاحب نظـري کجاسـت تادر نگرد
تا آن همه مملکت بدین مي آرزیـد

فالشاعر في هذه الأبيات يقول: أيّها الملك .. لقد كان الفلك يرتعد لشدة قهرك .. وكان ينقاد طواعية لأمرك .. فأين مَن يتعظ ، لينظر في خبرك ، وهل كان كل هذا الملك ، ليساوي هذه النهاية ـ عندما غيبوك في قبرك ..

---

(٢٢) ينظر ديوانه ص ٥٧١ قصيدة قيلت في رثاء جمال الدين يوسف ، متكونة من عشرين بيتا . وفي ص ٥٨٤ قصيدة في سبعة أبيات ، في رثاء شخص اسمه فخرالدين . وفي ص ٦٠٩ بيتان في رثاء شخص اسمه نصرة الدين. وفي ص ٥٧١ بيتان في رثاء نصرة الدين اتسز . وفي ص ٥٢٦ قصيدة في رثاء سيد معزالدين ابن بهاء الدين علي بن جعفر نعمة ، في ١٠٩ ابيات. ومثل هذا كثير في صفحات أخرى من ديوانه .

(٢٣) ينظر ديوانه . ص ٦١٥ ، تاريخ كزيدة . ص ٤٨٥ ، وفيه (سلطنت) بدلا من « مملكت » . و « باين » بدلا من «بدين» .
وينظر تاريخ جهانكشاي ٢ : ٨ .

ولعل رشيدالدين الوطواط ، نظم ديوانه بالفارسية ، مع قدرته على ذلك في العربية ، ليؤكد بذلك مقدرته وكفايته في اللغتين •

ولم يقتصر الوطواط في شعره ، على هذين الغرضين ، وإنّما طرق أغراضاً أخرى ، حيث نراه تارة يرجو ، وأخرى يتشوق ، ويوصي ويهنيء ويشكر •

ومن التهنئة قوله في صدر الأئمة ، خطيب خوارزم ، يهنئه بالجلوس للدرس ، في مدرسة ، ويهديه كتابين(٢٤) •

يا قدوةَ الإسلامِ يا كَهْفَ الهدى
صَدْرَ الأئمةِ أخطبَ الخطباءِ
يا من اذا عُدَّ العلومُ وأهلُها
عُقِدَتْ عليه خَناصرُ الكبراءِ
لَكَ خاطرٌ كالنارِ وقتَ تلهّبٍ
لك منطقٌ كالسيفِ وقتَ مَضاءِ
لك راحةٌ للناسِ فيها راحةٌ
تربى صنائعها على الأنواءِ(٢٥)
هنأت مدرسةٌ بجاهِكَ جاوزَتْ
شُرُفاتُ مَفْخَرِها ذُرَى الجوزاءِ
فيها تَجَدَّدَ رَسمُ دينِ المصطفى
وبها اضمحلَّ مراسمُ الأهواءِ
هَنَّأْتُكمْ وَسَتَرْتُ وجهي خجلةً
إذ لَيستِ الدنيا لكم بكِفاءِ

---

(٢٤) تنظر مجموعة رسائله ٢ : ٣٤ . وورد الشطر الاول من البيت غير موزون، ولذلك رأينا ان نصوبه وكان كما يلي : يا قدوة الاسلام كهف لهدى . والصواب يا كهف الهدى .

(٢٥) الراحة الاولى : كناية عن الكف ، وتطلق على اليد عامة . والراحة الثانية : عدم التعب . وهي هنا كناية عن الكرم .

والله لا أرضى السماءَ وَشُهبَها
لَكَ في جَليلِ القَدْرِ شِسْعَ حِذاءِ (٢٦)

فالشاعر في هذه القصيدة يهنيء وهو يمدح ، ذلك المدح المعروف عنه، في مبالغته التي تخرج به أحياناً ، الى أن يكون مدحه ممجوجاً ثقيلاً ، كما في بيته الذي يقول فيه :

والله لا أرضى السماءَ وشهبَها   لَكَ في جلالِ القَدْرِ شِسْعَ حذاءِ

كما نراه يكرر المعاني نفسها التي رأيناها عنده من قبل ، من المدح بالعلم والفضل ، والجود والكرم ، واهتمامه بالمعاني الدينية ، في أكثر أبياته .

ومن التوصية ما كتبه إليه أيضاً ، يعترف بما له عليه من الأيادي ، ويستوصيه بأخيه خيراً (٢٧) :

غَمامُ نَدىً صَدْرُ الأئمةِ ساكِبُ
وَنَجْمُ علا صدرَ الأئمةِ ثاقِبُ
وناديه للرُّوَّادِ فيه مَراتعٌ
وواديه للورّادِ فيه مَشارِبُ
هو البحرُ والأَجوادُ طُرّاً مذانبٌ
هو البدرُ والأمجادُ طُرّاً كواكبُ
فأَفعالُه للمعضلاتِ صَوالِحٌ
وَأقوالُه في المشكلاتِ صوائِبُ
وعَرْصتُه مثوىً لمَنْ هو راغِبٌ
وَعُقْوَتُه مأوىً لمن هو راهِبُ (٢٨)

(٢٦) جاءت في الاصل « وشبهها » ولعل الصواب ما اثبتناه .
(٢٧) ينظر مجموعة رسائله ٢ : ٣٥ .
(٢٨) عقوته : العقوة والعقاة : الساحة ما حول الدار والمحلة ، وجمعها عقاء. وقيل : عقوة الدار : ساحتها . وقيل : ما حول الدار وقريبا منها .

وَسُـدَّتُهُ تُرجَى لديها رَغائِبٌ
وَحَضرتُهُ تُزْجَى اليهـا ركائِبُ

ويسير على هذا المنوال في المديح ، تارة شعراً ، وتارة نثراً حتى يصل الى غايته في نهاية الكتاب ، وهي التوصية بأخيه ، حيث يقول :

« عبده أخي عمر ـ أيده الله في عاجله ، وأسعده في آجله ـ تركته بالبلد معتضداً بعنايته الكريمة ، معتمداً على رعايته العميمة فالمتوقع من أعراقه الطاهرة ، وأخلاقه الزاهرة ، أن يختصه باكرامه ، ويستخلصه لأنعامه ... » .

والقصيدة طويلة وكلها على هذا النمط ، الذي يغلب فيه غرض المدح ، على الغرض الرئيس ، الذي قيلت من أجله وهو التوصية . وهو في معانيه ، لا يتعدى الصفات التي رأيناه يضفيها على ممدوحيه من قبل ، وهي صفات معروفة ، في الأدب العربي ، كتشبيه الممدوح بالغمام الندي ، والبحر الواسع في الكرم ، وبالنجوم في العلو والرفعة ، والمنزلة الرفيعة العالية .

والوطواط غير سبّاق في بعض معانيه وتشبيهاته ، ولا سيّما في بيته الذي يقول فيه :

هُوَ البحـرُ والأجوادُ طُـرّاً مذانبُ
هُوَ البدرُ والأمجـادُ طُرّاً كواكبُ(٢٩)

فهذا مأخوذ من شعر النابغة الذبياني ، في مدحه للنعمان بن المنذر ، في قوله :

فإنَّـكَ شَمْسٌ والملـوكُ كَواكِبٌ
إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

وكتب الى أحد القضاة ، يهديه في عيـد الأضحى ، مجلدة من رسائله العربية ، قال فيه(٣٠) :

---

(٢٩) المذانب : جمع مذنب : مسايل الماء أو الجدول اذا لم يكن واسعا .
(٣٠) ينظر مجموعة رسائله ١ : ٨٣ .

لأقضى قضـــاة المشـرقين مكــارم
تزيــــد على النــوء الربيعي امــدادا

هو الطَوْدُ طَوْدُ العِلْمِ من نَسلِ معشرٍ
أكابـرَ كانوا للشـــريعةِ أَطْوادا

اجَلُّ رجالاتِ الســيادةِ محتــدا
وأصــدقُ أَجْوادِ البسيطة ميعــادا

وَأصوبُهم في مُشكلِ الأمرِ أســهُما
وأصلبُهم في مُعْضِلِ الخَطْبِ أَعْوادا

فَكيفَ اهنّيهِ بعيــدٍ وقــد غَــدا
بهِ كلُّ أيامِ البريّــةِ أعْيــادا

وهو في قصيدته هذه ، لم يحد عمّا جاء به من قبل من المعاني الدينية، ومن المدح الذي يغلب على الغرض الرئيس ، الذي قيلت من أجله الأبيات •

وله من قصيدة يشكر فيها ، قوام الدين سهيل بن عزيز المستوفي ، على زيارته في بيته ، لأن تلك الزيارة ، رفعت مقامه في أعين الناس ، على حـد قوله • وتلك الأبيات هي(٣١) :

قَــدْ زُرْتَ يا مَلِكَ الأفاضِلِ منزلي
فَرَفَعْتَ عندَ ذَوي المناصبِ منصبي

ومن العَجائِبِ والعجائبُ جَمَّـةٌ
ليثٌ يميلُ إلى زيــارةِ ثَعلَبِ

---

(٣١) ينظر مجموعة رسائله ٢ : ٨٦.

سمات شعره :

يلاحظ على شعر رشيدالدين ، كما يلاحظ على شعر غيره ، من شعراء هذا الاقليم ، أنه يسير على الخط التقليدي ، في الشعر العربي . وعلى الرغم من أن رشيد الدين ، كان يسير على هذا النهج ، الذي سار عليه سابقوه ، كأبي بكر الخوارزمي وغيره ، إلا أن له سماته الخاصة ، التي تظهر واضحة جلية عنده ، في المديح خاصة . فالشاعر يشتطّ في الغلو والمبالغة فيه ، ولا سيّما حين يمدح السلطان اتسز ، فإنه بدافع من عاطفته الصادقة في حبه، واعترافه بجميله ، وحمايته له في بلاطه ، يضفي عليه صورا مستحيلة ، ولكنها — على بعده فيها — تبدو جميلة ، حين تقرأ بلغتها الفارسية . ولننظر اليه وهو يقول ما معناه : إنّك الملك المظفر ، والدهر خادمك ، والدنيا مسخرة لك ، والفلك تابعك ، وقدرك أعلى من الفلك[١] ..

فالشاعر في كل قصائده هذه ، يسرف كما نرى في صفاته ، فيضفي على ممدوحه ، أسمى آيات العدل ، ذلك العدل الذي جعل الحيوان الأليف كالحمار ، يعيش في طمأنينة تامة ، مع الحيوان المتوحش وهو الأسد ، ويشربان من مورد واحد ، دون أن يفكر الأسد في الفتك بالحمار ، لأن عدل الممدوح ، قلع أساس الفتنة والظلم ، وبأسه أزال قوة الماء والنار ، وان المشرق والمغرب وجدا الطمأنينة فيه ، لأنه ملجأهم في السراء والضراء[٢] .

وبعد هذا نقول : إنّ فن المدح في شعره ، هو أهم فن يمكننا ملاحظته ، وان الطابع العام الذي يغلب عليه ، هو جنوحه الى المبالغة والغلو ، واضفاء الصفات الحسنة التي ترضي النفس البشرية ، على ممدوحيه ، مضفيا على أكثر معانيه مسحة دينية ، تتصل بنصر الاسلام ،والدين الاسلامي ، والنسب

---

(١) تنظر الابيات بلغتها الاصلية « الفارسية » في ديوانه . ص ٥٠ — ٥٥ . وفي صفحات كثيرة من ديوانه ، تتخلله مثل هذا النوع من المديح . ينظر أيضا ص ٧٨ ، ٩٢ .

(٢) ينظر في مثل هذا الذي ذكرنا ، قصائده في ديوانه . ص ٢٠ ، ٢٣ ، ٦١، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ .

للرسول الكريم • وبعضها يتعلق بالعدل ، وبعضها كمعاني الجاهليين ، مثل النابغة الذبياني ، وبعضها كمعاني المتنبي وغيره •

وربما يرجع تعلقه بهذا ، نسبته الى العرب ، والى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه • وأما غلوه في المديح ، فربما مرّد ذلك هو ميل الفرس إلى مثل هذا الغلو ، وليس ببعيد ان يتأثر الشاعر بالمحيط الذي يعيش فيه •

ومن السمات الأخرى ، التي يمكننا ملاحظتها في شعره ، غرامه وشغفه بالمحسنات البديعية،واسرافه فيها ، إلى الحد الذي قد يؤدي الى فساد الصورة، والى تشويه جمال القصيدة • وقد كان مغرماً بصناعة الترصيع حتى ادّعى أن أحداً غيره ، لم يسبقه الى انشاء قصيدة كاملة ، دخلها الترصيع في سائر أبياتها ، وأنه المبتكر الأول لهذا النوع ، من بين الشعراء ، سواء منهم شعراء الفارسية ، أو العربية ، على حد قول المستشرق براون[٣] •

ثم هناك ظاهرة تأثره بالحياة الثقافية الزاهرة ، التي كان يعيش فيها هذا الاقليم ، وغيره ، من أقاليم ما وراء النهر ، في تلك الحقبة وقد تمثلت في شعره ثقافته العربية ، التي كان يحرص عليها ، ويفخر بها ، فظهر ذلك واضحاً ، في قوة ألفاظه ، وفي بيانه وبلاغته •

أما صناعته البديعية ، فقد كانت كما قلنا ، السمة الظاهرة في شعره ،لأن غرامه بها طغى على أسلوبه الشعري ، كما طغى على أسلوبه النثري ، وهذا ما دفع بالكثيرين[٤] الى أن يتهموه ، بأن أشعاره خالية من الرقة واللطف ، اللذين نحس بهما في أشعار طائفة من معاصريه • هذا مع أن أشعاره العربية منها والفارسية ، قوية التركيب ، محكمة البناء •

ونحن نقول : ربما كانت مراعاته للبديع ، في أغلب مصاريعه ، واجتهاده في ألا يترك بيتاً من أبياته ، خالياً من الترصيع ، أو الموازنة ، أو ما شابه ذلك من الصناعات البديعية ، هو الذي أضفى على شعره ، تلك السمة التي كانت سبباً في أن يتهم بذلك •

---

(٣) ينظر كتابه : تاريخ الادب في ايران . ص ٤١٨ ــ ٤٢١ .

(٤) منهم الدكتور ابراهيم امين الشواربي ، في مقدمته لكتاب حدائق السحر في دقائق الشعر . ص ٢٤ .

ومن أشـــعاره التي ظهرت فيها الصنعة واضحـــة جلية ، قوله من الترصيع(٥) :

يا بانيَ الفَخْرِ الأشَـــمْ يا ثانيَ البَحْـــرِ الخِضَـــمْ
أَنْتَ المقـدَّمُ في الهُـدَى أَنتَ المعظَّمُ في الأمَـــمْ
مَغْنـــاكَ للـراجي حِمى وَذَراكَ للاجـي حَـــرَمْ
الليْثُ دونَـــكَ في الوَغَى والغَيْثُ دونَكَ في الكَرَمْ
تَلْقى بحضـــرتِكَ المُنَى تَنْفَى بغُـــرَّتِكَ الظُلَمْ

ومن السجع المتوازن قوله(٦) :

هُوَ الشمسُ قَـــدْراً والملوكُ كَواكِبُ
هُوَ البحرُ جوداً والـــكرامُ مَذانِبُ

ومن رد العجز على الصدر قوله(٧) :

لَقد حازَ أَقسامَ الفضائِلِ كلَّها فأمسىوحيداً في فُنونِ الفَضائِلِ

ومن قوله في التشبيه ، وهو من التشبيه المشروط(٨) :

عَزَماتُه مثلُ النجومِ ثَواقبـــاً لو لم يكنْ للثاقبـــاتِ أفُولُ

ومن تشبيه التسوية قوله(٩) :

صُـــدْغُ الحبيبِ وَحـــالي كِلاهُمـــا كالليـــالي(١٠)

---

(٥) ينظر المصدر السابق . ص ٩١ .
والترصيع : هو استواء آخر جزء في صدر البيت ، وآخر جزء فيعجزه، في الوزن والروي والاعراب . وهو اليق ما يكون في مطالع القصائد .
(٦) ينظر حدائق السحر . ص ١٠٧ .
(٧) المصدر السابق . ص ١١٣ .
(٨) المصدر السابق . ص ١٤٢ . والتشبيه المشروط : نوع من انواع فن التشبيه .
(٩) المصدر السابق . ص ١٤٤ .
(١٠) الصدغ : الشعر المتدلي على ما بين لحاظ العين ، الى اصل الاذن . اي على المنطقة التي تسمى بنفس الاسم .

ثغوره في صفاءٍ وأدمعي كاللآلي

ومن ارسال المثل قوله(١١) :

تُحَيِّرني من طَرْفِهِ لَحَظاتُه
وَهَلْ في الوَرَى من لا يحيّرهُ السِّحرُ

أرَى منه جَمْراً مُضْرَماً في جَوانحي
وكل محبٍّ في جوانِحِهِ جَمْرُ

لقد عيلَ في الأحزانِ صَبْرِيَ كلُّهُ
وَمَنْ خالفَ الأحزانَ خالَفَهُ الصَّبْرُ

عَشِقْتُ وقَلبي ضاعَ في العشقِ سِرُّه
وفي أيِّ قلبٍ يُجْمَعُ العشق والسِّرُ

ومن المعمى قوله في الكَعْبَتَيْن(١٢) :

ثَلاثَةُ أبْطالٍ يُغيرونَ عُنْوةً
على كلِّ مالٍ فيه للمرءِ فائدهْ

يُعينَهمْ سِتٌّ وخمسٌ وأربعٌ
عُقَيبَ ثلاثٍ واثنتين وواحدهْ

والحقيقة أن مثل هذه الشواهد كثيرة ، عند رشيدالدين الوطواط . نراها مبثوثة في كتابه : « حدائق السحر في دقائق الشعر » . ونرى أمثالها شواهدَ فيكتب العروض ، وفي مواضع مختلفة منها . وهذا يدل على قيمة شعر الوطواط وأهميته(١٣) .

---

(١١) المصدر السابق . ص ١٥٥ .

(١٢) ينظر حدائق السحر . ص ١٧٢ . والمعمى : وهو أن يذكر الشاعر اسم معشوقته بطريقة خفية ، أو يذكر اسم شيء من الاشياء في بيت من أبياته بواسطة القلب ، أو الحساب ، أو التشبيه أو التصحيف ، او اي وجه آخر .
والكعبتين : الكعب والكعبة : مفرد كعاب وهي فصوص النرد .

(١٣) ينظر كتاب : المعجم في معايير أشعار العجم « بالفارسية » ، فقد

إذاً فرشيد الدين الوطواط ، ذو منزلة شعرية عظيمة ، بين شعراء العرب، فقد قال عنه ياقوت الحموي إنّه : « أفضل زمانه في النظم والنثر ، وأعلم ، الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب[١٤] » .

وهذا ابن خلكان يقول فيه[١٥] : « كان أديباً فاضلاً بارعاً ، ذا نظم ونثر بالعربية وبالعجمية » .

ويقول محمد عوفي[١٦] : إنّ الوطواط ، كان صاحب فضل موفور ، صاد بأدبه قلوب ملوك الزمان ، وقيّد به أرباب الدول ، لأن أدبه من الأدب الدائم ، الذي لا ينهدم ، حتى انقراض العالم . ولذلك لم يستطع أحد أن ينال ما ناله من غاية الكمال ، ونهاية المتانة في النظم والنثر .

وهكذا رشيد الدين الوطواط كان شاعراً ، وكاتباً بليغاً أيضاً . له الأسلوب الأخاذ ، وله ديوان رسائل منثورة ، سنوفيه حقه حينما تتكلم عنه ناثراً أو كاتباً .

ولقد عده المؤرخون ، من أفاضل أخدانه ، وأفذاذ زمانه ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب ، كما رأينا ، وكان له من المقدرة الفنية ، ومن سرعة البديهة ، ما يستطيع به ، أن ينشيء في وقت واحد بيتا بالعربية من بحر ، وبيتا بالفارسية من آخر ، ويمليهما معا[١٧] .

وهكذا كان رشيدالدين ، علما من أعلام الشعر العربي ، الذين ظهروا في هذا الاقليم المسلم،من أقاليم ما وراء النهر . كان شاعرا من شعراء العربية،

استشهد فيه صاحبه ، بشعر الوطواط ، في مواضع مختلفة ، مثل التكرير في ص ٣٤٢ . والتجنيس في ص ٣٤٣ . والتزام القافية في ص ٣٨٦ . والمقلوب في ص ٤٣٥ . والتشبيه المعكوس في ص ٣٥٢ .

(١٤) ينظر كتابه : معجم الادباء ١٩ : ٢٩ . وعنه أخذ السيوطي في بغية الوعاة ١ : ٢٢٦ .

(١٥) ينظر كتابه : ترجمات المتقدمين من الشعراء . ص ٢٥ .

(١٦) ينظر كتابه : لباب الالباب (بالفارسية) . ص ٧٨ .

(١٧) ينظر : معجم الادباء ١٩ : ٢٩ ، روضات الجنات ١ : ٧٧ .

الذين نشأوا في بلاد اسلامية ، بعيدة كل البعد عن مركز الخلافة الاسلامية ، ومع ذلك جاء بالشعر الجيد ، والنظم الحسن ، اللذين ربما عدّ بهما من أبرع شعراء العربية ، في القرن السادس الهجري ، في هذا الاقليم ، ومن الشعراء الذين حملوا راية الأدب العربي ، في بلاد المشرق من الدولة الاسلامية • وهو من أصحاب اللسانين : العربي والفارسي ، في منظومه ومنثوره •

• • •

الباب الثاني

النثر

الفصل الاول : النثر وأشهر الناثرين ·

الفصل الثاني : أنواع النثر ·

١ ـ نثر ادبي « نثر خالص ـ نثر تأليفي » ·

٢ ـ نثر علمي ·

الفصل الثالث : أبو بكر الخوارزمي ·

الفصل الرابع : أبو القاسم الزمخشري ·

الفصل الخامس : رشيد الدين الوطواط ·

الفصل الأول

النثر العربي واشهر الناثرين

تكلمنا في الفصل الخاص بالاتجاهات الشعرية ، على الشعر العربي ، في هذا الأقليم . وقلنا إننا لا نعرف شيئاً عن الشعر الفارسي قبل الاسلام ،سواء فيهذا الاقليم ، أم في غيره من الأقاليم الايرانية . كما أشرنا الى أن أكثر نقاد الأدب الايراني ، أشاروا الى أن الشعر الفارسي ، نشأ مع دخول الاسلام ، ومع تلاحم الأمتين : العربية والفارسية ، بلحام القرآن الكريم ، وحبالعربية. كما تعرض المؤلفون والأدباءالعرب[١] لمثل هذا ، وقالوا:إنّ الكتابة والتأليف من الموضوعات التي لم تكن رائجة ، في ايران قبل الفتح الإسلامي ، لغموض الخط الفهلوي[٢] وانبهامه . ولما تمّ فتح ايران ، قلّ التأليف بالفارسية ، حتى عقمت بعد قرنين من ظهور الاسلام .

وهنا لا بدّ لنا من التساؤل ، عن حال النثر في هذا الاقليم ، قبل الفتح الاسلامي ، وهل أن حاله حال الشعر أم لا ؟ .

وجواب هذا أن نقول : إن أمر النثر لم يكن كذلك. نستدل على قولنا هذا ، بقول شمسالدين محمد بن قيس الرازي[٣] ، في اثناء كلامه عن استهجان علماء عصر بَهْرام جُور ، قوله الشعر كما رأينا ، ونصحهم له بالابتعاد عنه ، تنزهاً عن معايبه ، ومن أجل ذلك كانت مدائح باربد وأغانيه، عند كسرى أبرويز ، كلها منثورة لا نظم فيها .

وفي كتاب الشعر والشعراء ، يقصر ابن قتيبة قول الشعر على العرب ،

---

(١) منهم الدكتور طه حسين وآخرون في كتاب : التوجيه الادبي . ص٢١٢، مطابع دار الكتاب العربي بمصر . سنة ١٩٥٤م .

(٢) الفهلوية : لغة الفرس القديمة ، المنسوبة الى فهلة ، معرب « بهلة » اسم يقع على اصبهان والري ، وماه ، ونهاوند ، ولندا واذربيجان . كما ورد في معجم متن اللغة ٤ : ٤٦٠ .

(٣) ينظر كتابه : المعجم في معايير اشعار اهل العجم . ص ٢٣ .

ويجرد العجم منه • ومعنى هذا أنه لم يجرد هؤلاء من النثر ، وإنّما جردهم من الشعر فقط •

نشأ النثر الفارسي الحديث ، في رعاية الأدب العربي ، وتحت سلطانه وطبع على غراره ، في أكثر الأساليب والموضوعات • وإذا كانت هذه حال هذا الأدب ، فكيف بنا في الأدب الذي قيل باللغة العربية ؟ ••

من خلال دراستنا لتطور هذا النثر في هذا الأقليم ، نرى أن كتّابه وجدوا في النثر العربي مثلهم الذي يحتذونه ، ومعينهم الذي ينهلون منه ، ولذلك حاكوا بلغاء الكتّاب في رسائلهم ، فظهرت تلك المحاكاة واضحة ، في رسائلهم الديوانية ، ورسائلهم الخاصة ، التي كتبت ـ كما نرجح ـ على غرار رسائل ابن العميد(٤) •

ولا نكاد نجد نماذج ذات شأن ، من نثر كتّاب هذا الاقليم ، إلاّ ما نعرفه من نثر أبي بكر الخوارزمي ، ونثر أبي القاسم الزمخشري ، ونثر رشيد الدين الوطواط • ولكن الذي لا شك فيه ، هو أن هذا الاقليم عرف الكثير من الناثرين ، الذين كان لهم حظ في هذا المجال ، يفوق حظهم من الشعر •

ومنذ سادت العربية هناك ، أصبحت بلادهم موطناً من مواطن الأدب العربي ، شعره ونثره ، وبقيت هذه حاله ، الى أن أغار التتار على بلادهم ودمروا حضارتهم •

وكان لأصحاب اللسانين ، الذين نظموا باللغة العربية واللغة الفارسية ، القدح المعلى في ذلك • وكان طبيعياً وقد أسهمت الكتابة ، في مختلف الشؤون السياسية ، للدولة الاسلامية اسهاماً فعالاً ، أن تسهم أيضاً في علاج الشؤون العامة ، الخاصة بالشعب المسلم الجديد • ومع الدولة السامانية ، ارتفع كما نوهنا سابقاً ، شأن البلاغة ، وظهر كبار الكتّاب ، وانتعش الأدب بصورة عامة ، لاقبال أهل هذا الأقليم ، على تعلم اللغة العربية ، بسرعة عجيبة • ومع

---

(٤) وهو ابو الفضل ابن العميد . من الكتاب الشعراء الاذكياء . ولذلك يلقب بذي الكفايتين . توفي سنة ٣٦٦هـ . كما ورد في معجم الادباء ٥ : ٣٤٧، وفي الاعلام ٥: ١٤٣ . اما في النثر الفني ٢ : ١٩٣ فقد جاء فيه ان وفاته كانت سنة ٣٥٩هـ .

أن معظم حكام هذه الدولة ، كانوا من الفرس ، وكانت اللغة الفارسية ، هي اللغة الرسمية في أيامهم ، كما لاحظنا ، حين تكلمنا عن الحالة السياسية ، إلا أنهم حموا في قصورهم كتّاب اللغة العربية ، الى جانب كتاب اللغة الفارسية ، وكانت هذه حالهم مع الشعراء كما رأينا .

ولسنا نريد من هذا ، أن تتعرض للنثر الفارسي في هذا الاقليم ، وإنّما لندل على أن النثر العربي ، قد ساير النثر الفارسي ، وسار معه جنبا الى جنب، مثله في ذلك مثل الشعر .

ومن الجدير بالذكر أن نشير الى أن بحثنا للنثر ، سينصب على القرن الرابع الهجري ، والقرنين التاليين ، لعدم توفر نماذج نثرية لدينا قبل هذه الحقبة ، مثله في ذلك مثل الشعر . وقد أتانا نثرهم بأجلى صوره ، في القرن الرابع الهجري ، على يد الكاتب الكبير ، أبي بكر الخوارزمي ، وغيره ممن نبغوا في هذا الاقليم .

وبما أن أكثر الناثرين هم الشعراء ، فانه كما سبق أن نوهنا ، أثناء كلامنا على الشعر واتجاهاته ، وقلنا إنّ الشعر الفارسي القديم ، لم يكن معروفاً لدى أولئك الشعراء الذين نظموا باللغة العربية ، ولذلك كان تأثرهم بالآداب العربية ، تأثراً سريعاً ، كذلك نقول عن النثر والناثرين ، وفي هذا جواب عن الدهشة التي تصيب القاريء ، من الصورة البليغة ، التي وصل اليها نثر أبي بكر الخوارزمي ، وغيره من أدباء هذا الاقليم ، الذي كان أعجمياً قبل الفتح، وثم تركياً بعده وتحت حمايته ، وذلك بسيطرة حكامه الأتراك ، من السلاجقة والخوارزميين .

وقد عرف أقليم خوارزم ، طائفة من الأدباء الكتّاب ، الذين كان بعضهم قد أسهم بنشاط نثري غزير ، كأبي بكر الخوارزمي ، وأبي القاسم الزمخشري، ورشيد الدين الوطواط ، ووجدنا الشيء القليل عند غيرهم . وليس معنى هذا انهم لم ينتجوا الا هذا القليل الذي وجدناه ، وإنّما سبب ذلك ــ كما نرجح ــ ضياع منتوجهم ، مثله في ذلك مثل شعرهم ، وكثير من علومهم ومعارفهم ، ابان الغزو التتاري ، الذي أصاب هذا الاقليم ، ودمر كل شيء ، وذلك في سنة ٦١٨هـ .

ومن خلال دراستنا للحياة الأدبية ، رأينا ظهور جيل من الناثرين ، الذين كانوا يكتبون في دواوين الدول ، التي تعاقبت على حكم هذا الاقليم ،فكانوا يمدحون وينادمون ، ويملون في المدارس ، ويؤلفون الكتب في أكثر الميادين.

ومن خلال دراستنا لرسائل أبي بكر الخوارزمي ، ومقامات أبي القاسم الزمخشري ، ومقالاته في كتابه أطواق الذهب،ورسائل رشيدالدين الوطواط، وبعض الرسائل الأخرى ، التي استطعنا الحصول عليها ، مما تبقى من نثرهم ، نستطيع القول : إنّه من الملاحظ على نثرهم ، انه كان متأثراً بنثر القرن الرابع الهجري ، وامتداداً لنثر ابن العميد .

ومن ابرز مظاهر هذا النثر ، أنه طرق المواضيع التي تناولها الشعر ، من مدح وفخر ، وهجاء وشكوى ، وتهنئة وتعزية ، الى غير ذلك ، من أغراض الشعر العربي المعروفة (٥) .

ويمكننا القول إنّ النثر في هذا الاقليم ، كان على درجة من الرقي والتقدم ، ويتضح هذا في تلك الكثرة من الادباء الناثرين ، الذين ازدحم بهم الاقليم ، والذين حفظت لنا كتب التاريخ والتراجم ، اسماء كثيرة منهم (٦) ، حتى ازدحم بهم بلاط السلاطين ، فكان لهم منهم كتاب ، أمثال السهيلي ، والشبيبي، والوطواط . وهذا ليس ببعيد التصور ، بعد أن عرفنا ما كان لهذا الاقليم من وثبة ثقافية ، استطاعت أن تثب بالأدب العربي ، الى مدى بعيد .

وعلى هذا يمكننا القول : إنّ النثر العربي في هذا الاقليم ، لم يكن نثراً بسيطاً ، وإنّما كان نثراً فنياً ، تتضح فيه المؤثرات الاجنبية ، من فارسية وتركية ، نتيجة اتّصال هذه الفنون ببعضها .

ومن الجدير بالذكر أن نشير ، الى أن المؤلفين لم يعنوا الا بنثر أبي بكر الخوارزمي ، من كتّاب هذا الاقليم . ونسوا أو تناسوا أن هناك كتّاباً آخرين وأن هذه البلاد ، عرفت بعض الناثرين ، الذين كان لهم حظ في هذا المجال ،

(٥) للدلالة تنظر : رسائل ابي بكر الخوارزمي ، ورسائل رشيدالدين الوطواط .

(٦) تذكر منهم على سبيل المثال : الحسن بن المظفر النيسابوري ، واحمد ابن محمد الصخري ، والقاسم بن الحسين الخوارزمي ، وابا عبدالله ابن حامد ، والرقاشي وغيرهم .

ذلك لما كان من دواع للنثر كالخطابة[٧] ، التي هي ضرورة تقتضيها ظروف النزاع بين الدول ، التي تعاقبت على حكم هذه البلاد . كما تتطلبها المناسبات الدينية ، ولا سيّما صلاة الجمعة مثلا ، وخاصة في اقليم مقبل على دين جديد تكون خطبة الجمعة فرضاً فيه . كما تتطلبها المناسبات السياسية ، من تنصيب سلطان ، أو ترئيس رئيس ، او تهنئة بمنصب جديد أو ترقية ، الى غير ذلك . وبعد هذا نقول : إنّه لا يمكننا أن نتصور أن المسلمين ، قد عاشوا في هذا الاقليم ، دون أن يصغوا الى خطباء ، هذا بالاضافة الى ورود أسماء كثيرة، في كتب التراجم ، ضمن أسماء الخطباء ، ومنهم من عرف عنه هذه المهنة ،حتى اشتهر بها ، مثل الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي ، المعروف بخطيب خوارزم.

ومن خطباء هذا الاقليم : حسام الدين المشاطي ، الذي ذكره ابن بطوطة في رحلته ، بقوله[٨] : « إنّه كان خطيباً مصقعاً » . ومنهم البرقي ، وكان من الخطباء الفصحاء ، على حد قول ابن ماكولا[٩] . والباقي الذي كان يرتجل الخطب ارتجالاً ، كما ذكر السمعاني[١٠] .

كما ورد في هذه الكتب ، أسماء كثير من الوعاظ ، أمثال : محمد بن أحمد الكَرْدَرانخاسي ، وحسام الدين المشاطي أيضاً ، الذي وصفه ابن بطوطة بقوله[١١] : « كان من أكبر الوعاظ والمذكرين » .

وكما قلنا إن الناثرين ، هم في الغالب الشعراء ، ومن هنا يسهل علينا تفسيرظاهرة تضمينهم لأطايب الشعر في نثرهم[١٢] .

وقد ذكرنا قبل قليل ، أن نثرهم كان نثراً فنياً ، ونزيد بأن نقول : إنّ

---

(٧) ذكرت كتب التراجم اسماء كثيرة من خطباء خوارزم ، اشهرهم خطيب خوارزم ، وحسام الدين المشاطي .ومع ذلك لم نجد نماذج من خطاباتهم . ولعل سبب ذلك ضياعها ، اثناء تدمير الاقليم ، كغيرها من العلوم والفنون الاخرى .

(٨) ينظر ص ٥٢ .

(٩) ينظر كتابه : الاكمال ١ : ٤٨٣ .

(١٠) ينظر كتابه : الانساب « مخطوط » . ورقة ٦١آ .

(١١) رحلة ابن بطوطة . ص ٥٢ .

(١٢) التضمين عندهم، اما ان يكون من شعر الكاتب نفسه ، أو من شعر غيره ، من الشعراء المشهورين .

خصائصه الفنية هي خصائص النثر العربي الفني،في القرن الرابع الهجري ، من ميل الى الايجاز ، وعناية بقوة العبارة أكثر من العناية بجمالها ، والاعتناء بالألقاب ، التي ظهرت واضحة في العصر العباسي فيما بعد ، ولعل مرجع ذلك الاختلاط الحاصل بين العرب ، وأهل البلاد المفتوحة • وامتزاج الحضارات العربية ، والفارسية والتركية ، مع الحضارات الطارئة على البلاد ، مثل اليونانية •

وأهم خاصة في نثرهم ، هي ظاهرة السجع والمحسنات البديعية ، التي عرفها القرن الرابع الهجري ، وهي واضحة كل الوضوح ، عند أبي بكر الخوارزمي ، ورشيدالدين الوطواط ، كما سنشير الى هذا فيما بعد •

ومن خواصه أيضاً : ظاهرة الاقتباس ، من القرآن الكريم(١٣) ، وكثرة الكلمات الدعائية ، كما في رسائل رشيدالدين الوطواط •

ومنها : عدم تقيد ناثريه بصيغة خاصة ، في بداية كتبهم ، فمنهم من يكتب موضوعه مباشرة ، من غير أن يقدم له بشيء ، ودون مراعاة لقواعد ما ، اللّهم الا في حالة مخاطبة الوزراء والأمراء والملوك ، حيث تبدأ الرسالة بالعبارات المملوءة بالمجاملة ، كقول رشيدالدين الوطواط ، في بداية كتاب كتبه الى واحد من أركان الدولة ، وأعيان الحضرة(١٤) :

« جناب سيدنا أدامَ الله علوَه ، وَحَرَسَ سموه ، نجعةُ الروادِ ، وشرعةُ الورادِ ، وكعبةٌ تطوف بها طوائفُ الكرامِ ، وقبلةٌ يتوجه اليها أكابرُ الأنامِ ، كلّ من ضربَ إلى عقوتِهِ أكبادَ المطي ، وأناخ راحلتَه بذلك الكنفِ الوطي ، خلص من أنيابِ النوائبِ ، وَنَجا من أنواعِ المطالبِ ، بما أملَ وَرَجا •• » •

كما نجد التأنق في الأسلوب الأدبي ، يبلغ ذروته في رسائل أبي بكر

---

(١٣) تنظر رسائل رشيد الدين الوطواط . ص ٧٩ . حيث ضمن كتابه الآية الكريمة : « ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما ، انما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا » . سورة النساء آية ١٠ . كما ضمنه بعض المعاني القرآنية الاخرى .

(١٤) ينظر : مجموعة رسائله ١ : ٣٧ .

الخوارزمي . وقد ظهرت عندهم المبالغة المفرطة في المعاني ، تلك المعاني التي رأيناها عندهم في الشعر أيضاً. ويتضح هذا في قول أبي بكر الخوارزمي ، في كتابه الى تلميذه(١٥) :

« وَرَدَتِ القَصيدةُ الغَرّاء ، بَلِ الدُّرَّةُ العَذْراء ، بَلِ الهديةُ العظيمةُ ، بَلِ التحفةُ(١٦) الكَريمةُ ، بل الياقوتةُ اليتيمةُ ، بل فَريدةُ الدُّرِّ . بل غرّةُ الغُرِ(١٧) ، بل شمسُ الكرامِ وغريبة الأيام . بل الخطاب الجزل ، والمنطق الفصل .. » .

وأخيراً نقول : إذا جاز لنا تقسيم النثر ، فنقول : إنّه يقسم إلى نثر أدبي ، ونثر علمي ، وإنّ النثر الأدبي ، يتألف من نثر يمكننا تسميته بالنثر الخالص ، الذي نراه متمثلاً في الرسائل والمقامات والمقالات . وهو نثر يراد به تصوير عاطفة ، أو نقل تجربة لها بعض الاتصال بالعاطفة . ونثر تأليفي : وهو النثر الذي تصاغ به المعارف الانسانية ، التي ألفت في أسلوب أدبي . أما النثر العلمي : فيشمل النثر الذي كتب به الفلك والرياضيات ، والجغرافية والفلسفة وغير ذلك .

أقول إن صحّ هذا التقسيم ، فإن النثر في هذا الاقليم ، كان شاملاً لهذا كلّه . وقد عرف اقليم خوارزم ، النثر التأليفي بأوسع صوره ، ومرجع ذلك حياته الثقافية العالية ، ومستواه العلمي الرفيع ــ كما رأينا ذلك في دراستنا للحياة العقلية ــ والذي أهّله لأن يعد في أوائل أقاليم المملكة الاسلامية ، في هذا المجال ، بما خرّجه من أعلام وعلماء ، في الميادين العلمية والأدبية ، وفي مختلف فروع الثقافة .

ومن الملاحظ على نثرهم ، الذي أسميناه بالنثر الخالص،أنه كان مقصوراً

(١٥) تنظر رسائله . ص ١٥٣ .

(١٦) جاءت في الاصل (الشمسة) ويبدو انها مصحفة ، ولعل الصواب ما اثبتناه .

(١٧) لعلها الفرر ، وانما جاءت هكذا للسجع لتناسب « الدر » .

على الفروع التقليدية ، كالرسائل والمقامات[١٨] ، والمواعظ ، وما أشبه ذلك. ولكنه يتسم بالجودة ، الناتجة عن استخدام بعض المحسنات البديعية ، التي نراها كثيراً في كتاباتهم ، ومنها ما أتي به دون تكلف أو تعمّل ، ومنها ماخرج عن ذلك أحياناً .

وعلى الرغم من ذكر بعض خصائص النثر في هذا الاقليم ، إلا أننا نقول: إننا وإن كنّا قد استطعنا أن نميز للشعر العربي هناك ، بعض السمات الخاصة به ، فربّما من المتعذر علينا تمييز مثل ذلك للنثر ، اللّهم الا اكثـــاره من المحسنات البديعية ، وغلوهم في استعمالها ، وهذه ليست خاصة بهذا الاقليم، وإنّما هي صفة عامة ، في الممالك الشرقية ، من الدولة الاسلامية .

(١٨) هي احدث الفنون ظهورا ، في الادب النثري . ولم نجد منها عند كتاب هذا الاقليم ، الا ما وجدناه عند جارالله الزمخشري .

الفصل الثاني

أنواع النثر

النثر الخالص[1]:

نستطيع القول إنّ هذا النوع من النثر ، سار متأثراً بمذهب ابن العميد، الذي أخذ يتجه بشكل واضح ، الى استعمال المحسنات البديعية ، وتطويل الرسائل .

كذلك انعكست عليه ثقافة اقليم خوارزم العالية ، التي عمت أكثر مدن هذا الاقليم ونواحيه . ولذلك نرى هذا النثر ، وقد كثرت فيه الجمل الدعائية المفخمة[2] ، والجمل الاعتراضية ، وتضمين الشعر . ومثال على الجمل الاعتراضية ، قول الحسن بن المظفر النيسابوري[3] :

« عرّف اللهُ الشيخَ الرئيسَ ، بركةَ شهرِ رمضان ، ووفّقه من طاعته ، لما يكتسب به من العفوِ ، ولولا العذر الواقع من الوصول ، لقصدت مجلسه ــ أعلاه الله ــ بالتهنئة والتسليم ، وقضاء حقه العظيم هذا ــ أدام الله تمكينه ــ وعهدي به يَعُدّني من جملة عياله . ويخصني في كل وقت بأفضاله . فليت شعري لِمَ عَدَلَ إلى الفطام ، من ذلك الإنعام ، فإن كان نسيان فقد جاءه ذكري ، وإن كان هجران ، فحاشاه من هجري » .

فقد احتوت هذه القطعة ، على بعض الجمل الاعتراضية . هذا الى جانب ما فيها من الحسن ، والابداع الفني .

---

(١) كنا نظن اننا لم نسبق الى هذا الاصطلاح ، حتى الانتهاء من كتابة هذا الفصل الخاص بالنثر . وصدفة وجدنا ان الدكتور شوقي ضيف قد سبقنا في استعمال هذا الاصطلاح ، في كتابه : الفن ومذاهبه في النثر العربي . ص ٣٩٤ .

(٢) مثل : وفقك الله ، واطال الله بقاء سيدنا ، وايد الله الشيخ الرئيس ، واعز الله تعالى ... الى غير ذلك من هذه العبارات ، وهي كثيرة في رسائل رشيدالدين الوطواط .

(٣) ينظر : معجم الادباء ٩ : ١٩٣ ــ ١٩٤ . وذكر ياقوت الحموي ، ان للحسن بن المظفر النيسابوري ، ديوان رسائل .

أما ظاهرة التضمين الشعري ، فكانت احدى الظواهر الواضحة في كتاباتهم ، مثال ذلك ما نجده في بعض رسائل أبي بكر الخوارزمي ، ورسائل رشيدالدين الوطواط ، وفي القليل المتبقي لدينا من نثر القاسم بن الحسين الخوارزمي .

ولا ننسى أنّ نظم الشعر كان يغلب على كتاب القرن الرابع الهجري ، وكانوا يلجأون اليه في المواطن التي لا يحسن فيها غير القريض ، كما كانوا يلجأون الى تحليل الشعر ، وأخذ معانيه في مثل هذه المواطن أيضاً . كما لا ننسى أنهم كانوا يغالون في الصنعة ، وهذا ما يدفعهم على الحرص ، في الإجادة المتأنية عن تضمينهم للشعر ، لأن الشعر أدخل في النفس من النثر . كما ان تفوق هؤلاء في صناعتي الشعر والنثر ، جعل منزلتهم في النثر الفني أعلى وأرفع ، ولذلك كان هذا النوع من النثر عندهم ، فنّاً خالصاً ، ليس بينه وبين الشعر ــ كما سنرى ــ غير القوافي والأوزان . ومن يقرأ رسائل أبي بكر الخوارزمي ، ورسائل رشيد الدين الوطواط ، يرى أننا لم نطلق الأحكام جزافاً .

كما يلاحظ أن النثر الصادر ، عن ذوي الثقافة الدينية ، كان اكثر استشهاداً بالقرآن الكريم ، والمعاني القرآنية ، وأكثر ميلاً الى السجع . وخير مثال على ذلك ، الكاتب رشيدالدين الوطواط ، في كتابه الى الخليفة المقتفي لأمر الله ، اذ يقول فيه(٤) :

« الحمد لله كاشِفُ غُمَّة الغم عن عباده، ومزيل ظلمة الظلم عن بلاده. قاهر من يترك حجته ، وناصر من يسلك محجته . معمر من يعمر العالم بالعدل والاحسان ، ومدمر من يسفك دماء بني آدم ، بالظلم والعدوان . قَدُمَتْ جبروته ، وعَظُمَتْ ملكوته . لا مرد لقضائه ، ولا مفرّ عن نازل بلائه . هو العظيم الذي لا يقهر سلطانه ، الحكيم الذي لا يُبْهَر(٥) برهانه .. من

(٤) ينظر : مجموعة رسائله ١ : ٤ ــ ١٣ . فالكتاب طويل اقتصرنا منه على على ما ذكرنا .

(٥) يبهر : لا يغلب . ابهره بهرا : غلبه وعلاه : فضله وظهر عليه .

اعتصم بحبل مشايعته ، وانتظم في سلك مبايعته ، نال في الدارين مناه ، وحاز في المحلين مبتغاه ، وصار من القوم الذين لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون» .

ومثل هذا قوله من كتاب بتقليد أحدهم قضاء بلدة[٦] :

« لما وجدنا فلاناً أدام الله فضله ، أهلاً للصنيعة ، ومستحقاً للمنزلة الرفيعة ، على الحداثة من سنه ، والغضاضة من غصنه ، لما آنسنا فيه من دلائل النجابة والرشد . وتفرسنا من مخايل الدراية والزهد . وتحققنا من اشتغاله بالعلم ، واقباله على العمل الرافع ، وتجنبه مرابض[٧] الآثام .. قلّدناه قضاءَ بلدة كذا وما يليها ، من أطرافها ونواحيها . واعتمدنا في ذلك على وفور تديّنه ، وكمال تَصوّنه . وأمرناه أن يجعل الهدى شعاره ، والتقى دثاره ، والورع زاده ، والعفة عَتَادَه[٨] . وأن يحكم بين الناس بالعدل ، ويتحرز من المداهنة والميل ، ويصون نفسه من المطامع الدنيّة ، والمطاعم الوبية ، ولا يغتر بالدنيا وزخارفها ، فإنها متاع الغرور ، وجالبة غضب الله يوم النشور ، وأن يحفظ أموال اليتامى من الأيدي الغاصبة ، والاكف الناهبة ، فان الله تعالى في محكم تنزيله وهو أصدق القائلين . « إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنّما يأكلون في بطونهم ناراً ، وسيصلون سعيراً ... »

أما الكتابة الرسمية في هذا الاقليم ، فالظاهر أنها لقيت عناية كبيرة ، حيث قام بها طائفة من الأدباء المقتدرين ، الذين وصل بعضهم الى منصب الوزارة ، ولمع من بين الأسماء في هذا الميدان : السهيلي ، والرقاشي ، والوطواط .

واشتهر في هذا النوع من النثر « الخالص » أيضاً : جماعة منهم : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن شاه الخوارزمي البرقي ، وابنه الشيخ أبو بكر ، الذي اشتهر بنثره الكثير ، وبديوان شعره ، كما ذكر ابن ماكولا[٩] .

ومنهم البافي ، الذي كان يكتب الرسائل المطولة ، من غير حاجة الى روية، وكان فصيح اللسان ، بليغ الكلام ، حسن المحاضرة ، حلو العبارة ، حاضر

(٦) ينظر : مجموعة رسائله ١ : ٧٩ .

(٧) جمع مربض وهو مأوى .

(٨) عدته .

(٩) ينظر كتابه : الاكمال ١ : ٤٨٣ .

البديهة[١٠] . والموفق بن أحمد خطيب خوارزم . والعالم الكاتب النسوي ، وهو من الوافدين ، وقد تولى كتابة الإنشاء ، في عهد السلطان جلال الدين منكبرتي[١١] .

أما الصخري : فكان من الكتّاب البارعين ، بليغاً مرتجلاً ، سريع الخاطر ، سليم الطبع . ومما وصل الينا من نثره قوله[١٢] :

« الشيخ أصدق لهجة ، وأبين في الكلام محجة[١٣] ، من أن يُخْلفَ بَرْقَ ضَمانِه ، ولا يُمطرَ سحابَ احسانِه ، فليتَ شعري : ما الذي فعله في أمر وليه[١٤] ، القاصر عليه أمله ؟ وهل بلغ الكتاب أجله ؟ وقد استهلّ[١٥] الشهر الثامن استهلالاً ، ولا نرى لأفق مواعده هلالاً » .

ومن نثره أيضاً قوله[١٦] : « طَبْعُ كرمه أغلب من أن يُحتاج إلى هَزّ وحسامُ فَضلِهِ أقطعُ من أن يُهزّ لِحَزّ » .

وهو القائل أيضاً[١٧] : « كتابي ـ وقد عرتني علّة ، منعتني من استغراق المعاني واستيعابها ، واشباع الكلم في وجوهها وأبوابها ، فاختصرت وقصّرتُ ، وعلى النُّبَذ اليسيرة اقتصرت ، وما أعرف هذه العلة إلا من عوادي فراقه ، ودواعي اشتياقه ، وان كانت النعمة بمكانه خارجة عن القياس غير خافية من جميع الناس ، الا أنها ازدادت الآن ظهوراً ، وإن لم يكن قدرها مستوراً ، وقدر النعمة لا يعرف الا بعد الزوال ، ولا يتحقق الا مع الانتقال ـ أَهّلَنا الله لعودها ـ لنحسن جوارها ، بشكرها وحمدها ، وأصحبه

---

(١٠) ينظر الانساب « مخطوط » . ص ٦١آ ، انباه الرواة ٢ : ١٣٢ ، طبقات الشافعية الكبرى ٢ : ٢٣٣ .
(١١) ينظر سيرة جلال الدين منكبرتي . ص ٢٤ ـ ٢٥ .
(١٢) معجم الادباء ٥ : ٢٣ ـ ٢٤ .
(١٣) المحجة : جادة الطريق : أي معظمه ووسطه . وجمعه محاج .
(١٤) الولي : العبد والسيد وابن العم . والمراد هنا : الاول من باب التواضع .
(١٥) اي ظهر وبدأ .
(١٦) معجم الادباء ٥ : ٢٢ .
(١٧) معجم الادباء ٥ : ٢٤ ـ ٢٥ . وقد اورد ياقوت الحموي له ايضا نماذج اخرى من نثره .

السلامة حالاً ومرتحلاً ، ومقيماً ومنتقلاً ، إنّه خيرُ صاحبٍ ، يصحب كلَّ غائب » .

ومنهم أبو عبدالله بن حامد ، الذي قال الثعالبي إنّ له نثراً كنثر الورد، والذي كان في شبابه ، كاتباً لأبي سعيد الشبيبي ، ثم للصاحب بن عبّاد ، وإنه تغلب عليه ببراعته ، وحذقه في صناعته ، وقد اعتمده رجال الدولة الخوارزمية ، في المهمات السلطانية ، والسفارات الكثيرة،لحسن عبارته[١٨].

ومنهم الرقاشي والقاسم بن الحسين ، الذي وصفه الحموي ، بذلاقة اللسان ،والبراعة في الأدب ، ونثر الخطب[١٩] .

ومن نثره ما كتبه الى بعض أصدقائه قوله[٢٠] : « كتابي إلى المجلسِ الرفيعِ ، جمال الحرمين ، إمام الفريقين ، يُديم اللهُ رفعتَه ثم يُديم ويُنيم عنه طَوارقَ الحَدثان[٢١] ثم يُنيم وأَنا إليه كالصادي إلى قَعْقَعَةِ الجَمْد[٢٢] ، وبجماله كهو[٢٣] بجمال المجد ، لا أروي الا عن فضله وأفضاله[٢٤] ، ولا أَرتوي إلا من وِردِه وزُلاله . ولا أتحسرّ إلا على ليال وشَيْتها[٢٥] بجواره ، ثم طرزتها بحواره :

إذا ذكرتها النفس باتت كأنها
على حدٍّ سيف بين جَنْبَيَّ يُنْتَضى
تَولّى الصِّبا والمالكية أعرضت
وزالَ التصابي والشبابُ قد انقَضَى

---

(١٨) ينظر : يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٨ (طبعة السعادة) .
(١٩) معجم الادباء ١٦ : ٢٣٨ .
(٢٠) المصدر السابق ١٦ : ٢٤٧ .
(٢١) الحدثان : الليل والنهار .
(٢٢) الصادي : العطشان . والقعقعة : الصوت . والجمد : ما جمد من الماء .
(٢٣) لعل كلمة « مشغوف » سقطت . وتأتي بعد كلمة « وبجماله » .
كهو : هكذا جاءت في النص ، وكاف التشبيه جاءت مع الضمير .
(٢٤) الافضال : الاحسان وانالة الفضل .
(٢٥) وشيتها : نقشتها .

رفعَ اللهُ البَيْنَ من البَيْنِ[٢٦] ، حتى أرى نُضارَهُ في قميص من اللجين[٢٧] » .

ولعل أهم ما تتميز به هذه القطعة ، هو أن شخصية القاسم بن الحسين شاعراً ، أثرت في شخصيته كاتباً . يظهر هذا في لجوئه الى التضمين الشعري، الذي زَيَّنَ به كتابه . وهو في ذلك ككتّاب هذا الإقليم ، ممن أشتهروا بالصناعتين ، صناعة الشعر ، وصناعة النثر .

كما نلاحظ أنه أتحفنا بألوان من الصنعة البديعية ، ولا سيّما في استعماله الجناس ، والسجع وتكراره لألفاظه ومعانيه .

ومن نثره أيضا ما أورده ياقوت الحموي ، وقد بعث به الى الدار العزيزة ببغداد ، حرسها الله تعالى ، يقول فيه[٢٨] :

« رايات مولانا الصَّوَّام القَوَّام[٢٩] ، أمير المؤمنين ، وامام المتقين ، وخليفة رب العالمين ، الإمام الذي ليس للتابعين غيره إمام ، ولا دون عتبته مُتَمَسَّكٌ واعتصام، هي التي لم ازل أدعو الله أن يَعْقِدَ بِعَذَباتِها[٣٠] النَّصْرَ . ويجعل من أشياعها الذئبَ والنسرَ . تسايرها الآمال ، وتحل حيثما رفعت الآجال . ويَحْتَفُّ بها الجُدود ، ويرفرف عليها السُّعود ، وهذا دعاء لو سَكَتُّ كَفيتَهُ ، وأمَلٌ لو لم أسأله ، فَقَدْ أوتيته ، منى العبد أن يسعى الى المواقف المقدسة ، مسعى القلم يحبو على رأسه ، لا على القدم ، ليَشِمَّ بثراها الثَّرِيِّ[٣١] لَخْلَخَةَ المِسْكِ الذكي ، ويُعفِّر

(٢٦) البين الاول : الفراق . والثاني كلمة تنصيف وتشريك ، وهي ظرف بمعنى وسط . ومعنى الجملة : رفع الله الفراق من وسطنا .

(٢٧) النضار : الذهب . واللجين : الفضة .

(٢٨) معجم الادباء ١٦ : ٢٤٧ .

(٢٩) القوام : مبالغة في قائم ، اي كثير القيام في الليل ، لاقامة الصلاة . ومثلها صوام اي كثير الصيام .

(٣٠) عذباتها : جمع عذبة : وهي ما يسبل من العمامة بين الكتفين ، وهو مجاز .

(٣١) ثراها : الثرى : ترابها الذي بعد الجدوبة واليُبْس .

بها جبينه وأنفه . ويُجيل في مسارح الحمد طرفه ، ويستلمَ عتبةً بها التفَّ الثقلان ، ودانت لها الأيام بعد حِران ، لكنَّ الحوادثَ قلّما توافِقُه ، والأيام تُماكِسُه[٣٢] ـ أعلى نور الله به مشارق الأرض ومغاربها ـ تلقّاه العبد بالتعظيم والإجلال ، ووضعه على قِمّةِ الامتثال .. » .

ونحن نرى الكاتب في هذه القطعة ، قد ساير القدماء في سجعهم ، فزيّن به كل مقطع من مقاطعه تقريباً ، كما نراه يعمد الى تغيير فاصلته ، ثم يأتي بفاصلة على نسقها ، بعد مقطع أو مقطعين .ثم يستمر في كلامه ، فيأتي بفواصل أخر . وهذا يدل على حال من الاستطراد ، الذي عرف عن الجاحظ ومن سار على طريقته فيما بعد .

ولعل الكاتب أراد بعمله هذا أن يدل على مقدرته في الكتابة ، ببعض الكلمات الصعبة ، التي تحتاج في فهمها الى استعمال القاموس ، بحيث يجعلنا نحس كأنه جاء بزخرف السجع ، من أجل أن يكون تابعاً للفظ الغريب ، كأنه الأساس أو الخيط ، الذي ينسج عليه هذا الزخرف ، أو هذا الوشي .

ولنستمر معه حيث يقول : «وفضَّ خِتامه عن الدُّر المكنون .بل أناسيِّ العيون[٣٣] . وعن مشمول من الروض مجنوب[٣٤] . وكَلِمٍ على صفحات الدهر مكتوب ، فما زالت أعضاؤه تَودُّ أن تكون شفاهاً تُقَبِّلُه ، وخواطر تتأمله ، تمنِّياً يَلَذُّ به المستهام[٣٥] ، ويحلو له الغرام . ثم استدعى الأرامل

---

(٣٢) ماكسه : اي شاكسه وشاحه .

(٣٣) أناسي العيون : جمع انسان العين : وهو سوادها .

(٣٤) مجنوب : اي اصابته ريح الجنوب . ومثله المشمول : اي اصابته ريح الشمال .

(٣٥) هذا شطر بيت للمتنبي :

تمن يلذ المستهام بمثله وان كان لا يغني فتيلا ولا يجدي

ينظر : شرح ديوان المتنبي . وضعه عبدالرحمن البرقوقي . حـ٢ـ . ص ١٦٢ . نشر : دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان .

والأيامى(٣٦) فأعطاهم واستحضَرَ المساكين واليتامى وأغناهم، وأَنْحى(٣٧) ما ملكت يمينه من العبيد والأسرى، فأعتَقَهُمْ وأطلقَهم شكراً، وسأل الله تعالى أن يديمَ أكنافَ(٣٨) العَرْصة(٣٩) الفيحاء، مرتعـــاً للعـزة القعساء(٤٠)، ان شاء الله تعالى» .

وممّن اشتهر بهذا النوع من النثر، الهراسي، الذي يقول فيه الزركلي: إنه من كتاب الرسائل البليغة(٤١) .

ومنهم أحمد بن علي الصفار الخوارزمي، الذي كان من بلغـــاء اقليم خوارزم وكتابه، وذكر ياقوت الحموي، نقلاً عن لسان محمد بن أرسلان، أن له رسائل لبقة(٤٢) خفيفة، جمعها الحسن بن المظفر الأديبي، المعروف بأبي حفص(٤٣) .

ومما وصل الينا من نثره، ما كتبه عن أبي سعيد، سهل بن أحمـــد السهيلي، الى عميد الملك أبي نصر الكنـــدري، حـــين أنهض ولده الى حضرته(٤٤) :

« كتابي ـ أطال الله بقاء الشيخ السيد ـ وأنا معترف بِرِّقٍ ولائه،

(٣٦) الايامي : الأيِّم من النساء : من لا زوج لها، بكرا كانت أو ثيبا مطلقـــة كانت أو متوفى عنها، جمعها أيامي وأيايم . ويستعار للرجال . أو هي التي كان لها زوج، فمات عنها، وهي تصلح للازواج، لان فيها سورة من شباب . وقيل الايم : الحرة . وقيل الايامى : القرابة كالاختوالبنت والخالــة .
(٣٧) انحى : اقبل على .
(٣٨) الكنف : الحرز والستر . والكنف : الجانب والظل . والكنف : الناحية.
(٣٩) العرصة : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء، وجمعها عراص وعرصات واعراص .
(٤٠) العزة القعساء : أي الثابتة .
(٤١) ينظر الاعلام ٧ : ١٦١ . كما ذكر الصفدي في كتابه : الوافي بالوفيـــات ٤ : ١٢١ ان له كتاب رسائل .
(٤٢) اي ظريفـة .
(٤٣) ينظر معجم الادباء ٤ : ٦٧ .
(٤٤) المرجع السابق ٤ : ٦٨ ـ ٧٠ .

متصرف في شكر سوابق آلائه ، حامد الله تعالى ، على تظاهر أسـباب عزه وعلائه ، ولم أزل منذ حرمت التشرف بخدمته ، أنطوي على مبايعته ، وأتلظى شوقاً الى التسعد بخدمة حضرته ، التي هي مجمع الوفود ، ومطلع الجود ، وعصرة المحمود ، وأتمنى على الله تعالى ، حالاً تدنيني من جنـابه الرحب ، ومشرعه(٤٥) العذب ، ومتى تذكرت تلك الأيام ، التي كانت تسعفني بالتمكن من خدمته ، التي هي مادة الجمال، وغاية الآمال ، انثنيت بحسرة مرة ، أو انطويت على غصة(٤٦) مستمرة ... » .

ففي هذه الرسالة ، نرى أن أحمد بن علي الصفار ، قد أتبع الطريقـة التي سار عليها غيره من كتّاب هذا الاقليم ، وهي التأثر بكتابة القرن الرابع الهجري ، فقد جمّل كتابه بالجمل الإعتراضية ، والمحسنات البديعيـة ، ولا سيّما السجع .

ولنستمر معه في كتابه ، لنراه كيف ملأه بالمديح ، وكيف غالى في مديحه، فأضفى على الممدوح ، كل الصفات الحسنة التي تشتاقها النفس البشرية ، وجرّد نفسه منها تواضعاً ، واكتفى بأن يكون الخادم الأمين ، للممدوح . ولم يكتف بوهب نفسه لتلك الخدمة ، وانّما وهب ابنه أيضاً(٤٧) ، فهو يقول :

« وكم كاتبت شريف حضرته ، لا زالت محسودة مأنوسة ، فلم أُؤهل لجواب(٤٨) ، ولم أشرّف بخطاب ، فأمسكت عن العادة ، في المعاودة ، جرياً على طريقة الأصاغر ، في مراعاة حشمة الأكابر ، ولو جريت في مكاتبة حضرته، على حكم الاعتقاد ، والنيّة الخالصة ، في الوداد ، لأكثرت حتى أضجرت ، وهو بحمد الله أحسن أخلاقاً ، وأوفر في الكرم والمجد ، خلافاً من أن يرى ، عن قدماء خدمه متجافيا ، ولخواص أصاغره جافيا ، ولو كان رحيلي ممكنـاً ، لاستعملت في الخدمة قدمي ، دون قلمي ، وحين عجزت عن ذلك ، لما أنا مدفوع اليه ، من اختلال الحال ، وتضاعف الإعتدال ، أنهضت ولدي أبا الحسـين

---

(٤٥) المشرع : مورد الشاربة .

(٤٦) الغصة : الحزن والهم .

(٤٧) لا اقصد بالوهب انه اراده أن يكون له خادما ، بالمعنى المتعارف عليه ، وانما تقال مثل تلك العبارات ، على سبيل التواضع الزائد فقط .

(٤٨) أؤهل : اي اكن اهلا .

خادمه ، وابن خادمه ، نائباً عني في اقامة رسم حضرته ، ـ التي من فاز بها ، فقد فاز وسعد ، وعلا نجمه وصعد ـ فلا زال مولانا منيع الأركان ، رفيع القدر والمكان ، سابغ القدرة والإمكان، محروس العز والسلطان، تدين المقادير لأحكامه ، وتجري السعود تحت راياته وأعلامه ، آمين ان شاء الله » •

وواضح أن هذه الرسالة ، ليست كلها مسجوعة ، ولكنها مع ذلك قد أحكمت صنعتها ، سواء من حيث اختيار ألفاظها ، أم من حيث دقتها في تصوير غلو الكاتب في مديحه ، وخضوعه وتصاغره أمام الممدوح ، ثم من حيث تبطينه كل ذلك ، ببطانة باهتة ، من العتاب ، الذي نراه يطل بخجل من وراء السطور ، خجل الخادم الذي ، يطلب المساواة مع سيده ، في أن يجاريه بالجواب على رسائله ، وذلك الخجل تنيجة لذلك الشعور المتمكن في نفسه ، والذي يذكّره بأنه غير أهل لكي يتبوأ تلك المكانة ، التي تؤهله ليكون نداً لممدوحه •

وقد صور لنا الكاتب هذا التصاغر ، تصويراً دقيقاً ، بحيث جعلنا نحس أننا نعيش بين شخصيتين متناقضتين ، احداهما تسيطر عليها عوامل الغنى ، والكبرياء ، والسيادة ، والأخرى تسيطر عليها عوامل الضعف والاستكانة ، التي أوجدتها الحاجة وربّما لقمة العيش •

وقد أجاد الكاتب في رسم هذه اللوحة البديعة ، وان كنا لا نستطيع الجزم بأن هذه الصورة ، التي رسمها لنا ، إنّما هي صورة للواقع الذي يعيش فيه •

وأظن أن صنعة أحمد بن علي الصفار الخوارزمي ، قد وضحت لنا ، في هذه النماذج القليلة ، إذ رأيناه يعنى في رسالته ، بالصنعة البديعية ، باستعماله السجع وهو أحد فنونها ، كما عنى ببعض الجمل الاعتراضية ، وسلك مسلك الشعراء في استعماله للأغراض المعروفة ، في الشعر العربي • ونبهنا الى أن ظاهرة الغلو في المدح ، والتصاغر والخضوع للممدوح ، من سمات معاني النثر في هذا الأقليم •

ومنهم الأديبي ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء ، وقال عنه نقلاً عن أبي محمد في تاريخ خوارزم ، إنّه كان ، كاتباً بارعاً ، حسن التصرف في

الترسل(٤٩) ، وافر الحظ من حسن الكتابة ، وفصاحة البلاغة ، كما كان خطه، في الدرجة العليا ، من أقسام الحسن والجودة(٥٠) .

ومما وردنا من منثور كلامه قوله(٥١) : « الزِّيادَةُ فَوْقَ الحَدِّ نُقْصانٌ ، والأساءَةُ بِلِسانِ الحَقِّ إحْسانٌ » .

وقال ياقوت الحموي أيضاً ، نقلاً عن أبي محمد ، إن الأديبي كان إذا رأى كتابة متعقدة ، متكلفة ، قال : « الكِتـابَةُ تَسْكُنُ سَكَنَ أخْرى »(٥٢) .

ومن هذا نفهم أن الأديبي ، كان يفضل الأسلوب السهل ، على الأسلوب المعقد ، لأن السهل يأتي طبيعياً ، ولا يحتاج الى التكلف والتصنع ، كما هي الحال في الأسلوب المعقد ، الذي يخضعه تعقيده الى التصنع والتكلف .

ومما وردنا من نثره أيضاً ، وما كتبه الى بعض الرؤساء ، يشكو رجلاً ثقيلاً(٥٣) :

« قَدْ مُنيتُ مِنْ هَـذا الكَهْلِ الرازيِّ ، صاحِبِ الجُبَّـةِ الكَهْباءِ (٥٤) ، واللِّحيَةِ الشَّهْباءِ (٥٥) ، بالداهيـةِ الدهْيـاءِ ، والصَّيْلَمِ (٥٦) الصَّماءِ ، جَعَلَ لسانَهُ سِنانَهُ(٥٧) ، وأشْفارَ عَيْنَيْه الصَّلبَةَ شِفارَهُ(٥٨) ، فاذا تكلَّمَ كَلَمَ بلسانِهِ ، أكثرَ ممّا يكلمُ بسِنانِهِ ، واذا لَمَحَ ببصرِهِ ، جَرَحَ القُلوبَ بلحظِهِ ، أشَدَّ

---

(٤٩) اي الكتابة الانشائية .
(٥٠) هذا يدلنا على اهتمامهم بجمال الخط ايضا .
(٥١) ينظر معجم الادباء ٢ : ١٣١ – ١٣٢ .
(٥٢) اي تحل محلها بغير حق .
(٥٣) المصدر السابق ٢ : ١٣١ – ١٣٢ .
(٥٤) الكهبة : لون ليس بخالص في الحمرة ، وهو في الحمرة خاصة .
(٥٥) الشهبة في اللون : البياض الذي غلب على السواد .
(٥٦) الصيلم : الداهية . والصماء الشديدة : اي الداهية ايضا .
(٥٧) السنان : الرمح أو ظبته .
(٥٨) شفاره : جمع شفرة ، وهي من السيف حده .

ممّا جَرَحَ الأذانَ بلفظِهِ ، يَظْهَرُ للنّاسِ ، في زِيٍّ مَظْلومٍ ، وإنّه لَظالِمٌ ، ويَشكو اليهم وَجَعَ السّليمِ[٥٩] ، وهو سالِمٌ » .

ومن الملاحظ أنه ، على الرغم من الأسلوب البسيط ، الذي ارتضاه الأديبي لنفسه الا أنه قد مال الى استعمال بعض المعاني الصعبة ، التي لا تفهم الا بشرحها .

ومن منثور كلامه ، ما كتبه الى واحد ، بعث اليه شاة[٦٠] :

« وصلت الشّاةُ فكانَتْ شاةَ الشّياةِ ، حَسَنَةَ الحلْيِ والشّيّاتِ[٦١] ، فَفَرِحَ الفَراريجُ بمكانِها ، ومَلأوا مِنْها حواصِلَهُم[٦٢] ، وثَنّوْا بالدُّبّاءِ[٦٣] والدّعاءِ أنامِلَهُمْ » .

وله أيضاً[٦٤] : « ساعَدَتِ الأيامُ بالمُرادِ ، ووَفَتْ بالميعادِ ، وجَمَعَتْ لي بَيْنَ طَرَفَيِ الإصْعادِ ، والاسْعادِ » .

ومن منثوره أيضاً قوله[٦٥] :

« حَضَرْتُ مَواليَ الحَضْرَةَ ، التي تَضْرِبُ اليها أكبادُ الإبِلِ[٦٦] ، من كلِّ فجٍّ عميقٍ ، وتَمتدُّ نَحْوَها أعناقُ الأملِ ، مِنْ كلِّ فَوْجٍ وفَريقٍ » .

ومن نثره الذي خرج به الى المدح قوله[٦٧] :

---

(٥٩) السليم : الذي لدغته الافعى تجوزا بأنه يسلم بعد .
(٦٠) ينظر معجم الادباء ٢ : ١٣٣ .
(٦١) الشيات : جمع شية ، وهي العلامة . جانس بها بين شياة الاولى ، التي هي جمع شاة ، وبين شيات الثانية التي هي العلامات .
(٦٢) أي التقطوا من العلف الذي قدم اليها . ومن المحتمل انه يريد انهم شربوا من لبنها .
(٦٣) الدباء : القرع ، واحدته دباءة .
(٦٤) معجم الادباء ٢ : ١٣٣ .
(٦٥) المرجع السابق ٢ : ١٣٣ – ١٣٤ .
(٦٦) أي ان يرحل اليها .
(٦٧) المرجع السابق ٢ : ١٣٤ .

« أيّامُ مولانا مُشْرقَة" كأخلاقِه ، وأخبـــارُه عَبِقَـــة"(٦٨) كأعراقِهِ(٦٩) ، تَزْهى(٧٠) بجَلالِ مَكانِه الرُّتَبُ والمَعارجُ ،وتَزَيَّنُ بِكَرَمِ(٧١) وَجْهِهِ الأعيادُ والمَهارجِ(٧٢) » .

ومن الجدير بالذكر ، أن نشير الى أن من أشهر الناثرين في هذا المجال، الكاتب أبا بكر الخوارزمي ، وجارالله الزمخشري ، ورشيدالدين الوطواط ، ولم نتعرض لهم هنا ، لأننا رأينا أن نفرد لكل منهم ، دراسة خاصة به ، لنعطي صورة أوضح عن النثر العربي ، في هذا الاقليم .

---

(٦٨) اي ذكية الرائحة ذات عبق . والعبق : النشر والعبير .

(٦٩) اعراق الرجل : اصوله . وفي الكلام تشبيه .

(٧٠) من الزهو وهو الاعجاب ، أي ان الرتب والمعالي تفخر به ، وتتيه إعجابا بقــدره .

(٧١) اي يكسو وجهه الاعياد والمهرجانات ، زينة وحسنا .

(٧٢) المهارج : جمع مهرجان ، وهو من أعياد الفرس .

ونكتفي بهذه النماذج للدلالة على نثره ، وقد أورد له ياقوت الحموي ، في كتابه : معجم الادباء ٢ : ١٣٤ ــ ١٣٥ نماذج اخرى .

النثر التأليفي :

ونقصد به ذلك النثر ، الذي تصاغ به المعارف الإنسانية ، المؤلفة في أسلوب أدبي ، ولكنها لا تعني التعبير عن عاطفة ، أو تجربة تتصل بالعاطفة ، كما لاحظنا في النثر الخالص .

وقد عرف اقليم خوارزم ، النثر التأليفي ، بأوسع صوره ، وذلك للمستوى الثقافي ، والعلمي اللذين عمّا أنحاء هذا الاقليم .

ومن خلال دراستنا لبعض مؤلفاتهم ، رأينا أنها تشترك بطابعها الثقافي ، العربي منه والاسلامي ، ولكنها تفترق فيما بينها ، تبعاً لميول أصحابها ،وميلهم الى فرع معين ، من فروع الثقافة .

ومن الجدير بالذكر ، أن الأدباء ، هم في الغالب المؤلفون ، وأن هناك الكثير ممن قام بدور فعّال في الانتاج بالعربية ، ولا سيّما أصحاب اللسانين منهم .

والنثر التأليفي يحتاج الى نضج عقلي ، وازدهار ثقافي واسع ،واستقرار نفسي ، وقد وجدت كل هذه العوامل ، في اقليم خوارزم ، الذي هنيء فترات طويلة ، بالهدوء والأمن والطمأنينة ، هذا بالاضافة الى بيئته الغنية ، الوافرة الخيرات ، التي سهلت سبل العيش ، وكانت من أسباب الاستجابة ، الى هذه الطريقة في أسلوب النثر .

وقد توفر الأدباء والعلماء ، على التآليف ، وأنتجوا لنا الشيء الكثير ، حتى أن بعضهم ألف في اكثر أنواع فروع الثقافة الإسلامية ، كما فعل الامام جارالله الزمخشري ، الذي ألّف في القرآن والحديث ، واللغة والأدب ، والشعر والوعظ ، والفقه(١) .

وامتاز بعضهم بأنه جمع الى جانب أطراف الثقافة الاسلامية ، والعربية

(١) تنظر مؤلفاته في معجم الادباء ١٩ : ١٣٣ ـ ١٣٤ ، وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٤ .

ثقافات أخرى ، كالبيروني ، الذي كان يجيد لغته الأصلية الفارسية ، بالاضافة الى اللغة السنسكريتية واليونانية والهندية .

كما ظهر في هذا المجال أعلام مخلدون ، في التأريخ الأدبي ، وفي علوم الحديث والفقه ، والتاريخ ، والقراءات ، والتفسير ، والفلسفة ، وما اليها . ونخص بالذكر منهم ، الامام فخرالدين الرازي ، والامام الزمخشري أيضاً .

ومن الناثرين المؤلفين ، في هذا الاقليم ، الغَزْميني ، وله تآليف كثيرة، ذكر اللكنوي[٢] ، وطاش كبرى زادة[٣] منها : كتاب « شرح القدوري » ، و « رسالة الناصرية » و « زاد الأئمة » و « المجتبى في الأصول والفرائض » و « شرح مختصر القدورى » ، وكتاب « قنية المنية لتتميم الغنيــــة » «استصفاها من البحر المحيط ، للبديع القزيني » ، وكتاب «الحاوي»وغيرها.

ومنهم الفَرَاوي[٤] ، وكان من أعيان الكتاب ، ومن أحفظ الناس لما يستملي من لسان ذوي أمره ، حتى أملي عليه ألف كتاب مختلفات الأغراض، لم يخطيء حرفاً ، ولا أخل بنكتة ، على حد قول الباخرزي[٥] .

وذكر الباخرزي أنه كان يكتب في ديوان الشيخ أبي الفضل سوري بن المعتز ،الذي قال فيه :

قلتُ للنــائباتِ لمـــــا تبــدتْ
لا تــدوري بنكتـــة حولَ دوري
ليس للدهــر مطمعٌ في اهتضـــــامي
ظـلُّ سـوري من الحوادثِ سـوري[٦]

---

(٢) الفوائد البهية . ص ١٧٠ .
(٣) مفتاح السعادة . ص ٢٧٩ .
(٤) هو أبو الحسن نصر بن محمد الفراوي . نسبة الى « فراوة » بلــدة متطرفة من جهة خوارزم . يقال ان عبدالله بن طاهر ، هو الذي بناها، في خلافة المأمون .
ينظر : المشتبه في الرجال ٢ : ٥٠٠ ، الجواهر المضيــة ٢ : ٣٣٣ . نقلا عن السمعاني .
(٥) ينظر دمية القصر ٢ : ٩٠ .تحقيق د . الحلو .
(٦) استعمل الكاتب المحسنات البديعية في قوله : سورى الاولى اســم

ومنهم الزيدري[٧] ، منشيء جلال‌الدين خوارزم شاه ، له كتاب معروف باسمه « تاريخ الزيدري » ، كتبه سنة ٦٢٢هـ ، في انقراض دولة الخوارزميين، وفتنة المغول ، ويعد من الوثائق المعاصرة المهمة .

ومنهم أبو المحامد ، عمادالدين[٨] ، من رجال القرن السادس الهجري ، وذكرت كتب التراجم له عدة مصنفات منها : سلك الجواهر ونشر الزواهر ، و « خلاصة المقامات » ، وكتاب كبير سماه « خلاصة الحقائق » ، يشتمل على خمسين باباً ، في آثار ومواعظ وحكايات ، ذكره اللكنوي ، قائلاً إن ابن قطلوبغا قد طالعه ، وقال فيه إنّه : « كتاب لم يكتحل عين الزمان ثانيه »[٩].

ومنهم المطرزي وله تآليف كثيرة ، ذكرت في كتب التراجم منها : «المغرب في لغات الفقه » و « الايضاح » أو « شرح مقامات الحريري » و « الاقناع في اللغة » و« مختصر اصلاح المنطق » ، ومقدمة في‌النحو سماها«بالمصباح»[١٠] و « مختصر المصباح في النحو » ، و مقدمة فيه مشهورة ، سماها « بالمطرزية »[١١] .

ونكتفي بهذا الكلام ، عن النثر التأليفي ، لأننا لا نقصد في بحثنا هذا النوع، من النثر أو النثر العلمي ، الذي سنعرض له بعد قليل ، وانّما هدفنا هو النثر الخالص الذي تمثل في الرسائل ، عند ابي بكر الخوارزمي ، ورشيدالدين الوطواط ، وغيرهما ، وفي المقامات ، عند الامام الزمخشري ، وانّما تعرضنا له من باب الإلمام به فقط .

الرجل الممدوح ، وسوري الثانية ، اي السياج الذي يحيط بالبناء ، يريد ان الممدوح كان حاميا له ، كالسياج بالنسبة للبيت .

(٧) هو الخواجة نورالدين محمد الزيدري الخراساني . ينظر عنه : التعريف بالمؤرخين في عهد المغول . ص ٦٤ .

(٨) هو محمود بن احمد بن ابي الحسن ، ابو المحامد ، عماد الدين ،استاذ شمس الائمة الكردري . توفي سنة ٦٠٧هـ .

(٩) تنظر الفوائد البهية . ص ١٦٦ .

(١٠) ينظر هدية العارفين ٢ : ٤٨٨ ، طبقات الفقهاء . ص ١٠٦ ، الفوائد البهية . ص ١٧٣ ، مفتاح السعادة ١ : ١٢٦ .

(١١) بغية الوعاة ٢ : ٣١١ ، الاعلام ٨ : ٣١١ ، روضات الجنات ٤ : ٧٣١، تاج التراجم في طبقات الحنفية . ص ٧٩ .

النشر العلمي :

ونقصد به المؤلفات التي ألفت ، في ميدان العلم ، لا في ميدان الفن ، وهي كثيرة منها في الجغرافية الفلكية ، ومنها في العلوم والرياضيات ، والتنجيم والفلسفة وغير ذلك .

وممن اشتهر بالفلك والتنجيم ، وكان من علماء الحساب ، في هذا الاقليم ، الجَغْميني ، وذكر المستشرق براون ، أن أكثر مؤلفاته ضاعت ، باستثناء كتاب واحد ، هو « الملخص في الهيئة »(١) .

ومنهم إبن سينا ، وكان من الحكماء العلماء المسلمين ، الذين غلبت عليهم الفلسفة ، والذي يقال : إنّ له من المؤلفات نحو مائة كتاب ، منها ٢٦ كتاباً ، في الفلسفة(٢) .

ولم يقتصر ابن سينا على هذا ، وانّما ألّف في الطب ، ومن أشهر كتبه في هذا المجال ، « القانون » .

وترجع أهمية ابن سينا الى براعته ، في كثير من العلوم ، وخاصة الفلسفة والطب ، أما مؤلفاته ، فقد تناولت أكثر العلوم ، من فلسفة وطب ، وهندسة وفلك ، كما ألّف في الالهيات ، وفقه اللغة ، والفنون .

وأهم ناثر علمي، ظهر في القرون الوسطى ، وكان علماً من أعلام العلماء ، الذين جاد بهم القرن الرابع الهجري البيروني ، الذي استطاع بدقة عقلهوسعة

---

(١) وذكر الزركلي في كتابه الاعلام ٨ : ٥٩ . رسالة في الحساب «مخطوط» وشرح طرق الحساب في مسائل الوصايا « مخطوط » . وفي دائرة المعارف الاسلامية « الترجمة العربية » ٧ : ٤٥ ذكر قسم آخر من مؤلفاته .

(٢) من اشهر كتبه في الفلسفة ، الشفاء . ويقول ابن خلدون في تاريخه ١ : ٦٠٥ بانه سمع ان هناك ملاحم ايضا منسوبة لابن سينا .
وينظر ايضا تاريخ التمدن الاسلامي ٣ : ١٩٦ .

علمه ، أن يخضع النثر ، ويعبّر به عن أعقد مشكلات العلم ، وأن يطوعه ليستوعب أدق فروعه من فلك وجغرافية ، ورياضيات وغيرها[٢] .

أما مؤلفاته فهي كثيرة ، ذكر ياقوت الحموي بعضها ، قال إن له كتباً في النجوم والهيئة ، والمنطق والحكمة تفوق الحَصْر ، وأنه رأى فهرستها في وقف الجامع بمرو ، في نحو ستين ورقة ، وبخط مكتنز[٤] .

والواقع أن البيروني كان أحد أئمة الفكر العلمي والفلسفي ، كما كان ذا عقلية جبارة ، في أكثر الميادين العلمية، ولذلك فاق علماء عصره ، بابتكاراته القيمة ، وبحوثه المستفيضة[٥] . وقد أعانته معرفته لعدة لغات ، على التوسع في مختلف العلوم ، كما أعانه شغفه بالعلم على ذلك . ومما يدل على هذا الشغف ، ما حكي عنه : أنه دخل عليه بعض أصحابه ، وهو يجود بنفسه ، فسأله وهو في تلك الحال عن مسألة ما ، طالباً جوابها ، خوفاً من أن يترك الدنيا وهو جاهل بها .

وكنموذج على نثره ، نقتطف بعض الفقرات من كتابه : تحديد نهايات الأماكن قوله[٦] :

« لما كانت العقول محتاجة الى الاستمداد ، والنقوش غير مستغنية عن الاسترفاد ، فأخلق بي أن أعرض ما يخطر بالبال ، من استنباط فن واكمال ، على الشيخ ليكتسي بتأمله اياه سربال البهاء ، ويكتسب برضاه به ، محاسن الدوام والبقاء ، فهو الفائز بعظم الأخلاق ، والحائز مزية الفضل بالاضافة والاطلاق ، وإنّي لأكاد أصدق بموضوعات ، أصحاب صناعة الأحكام[٧] ،في

---

(٣) على الرغم من ان البيروني اشتهر ايضا في النواحي الادبية ، الا ان النواحي العلمية كانت غالبة عليه .

(٤) مكتنز : اي مجتمع . ينظر : معجم الادباء ١٧ : ٨٥ ١.

(٥) من الجدير بالذكر ان كل الدراسات التي تناولت البيروني ، تناولته من نواح معينة ، هي ناحية الشخصية الرياضية الفلكية ، التي ركز عليها المستشرقون خاصة . اما الجوانب الاخرى كالفلسفة والادب وسواهما ، فلم يتعرضوا لها الا عرضا .

(٦) ينظر ص ٣ .

(٧) يعني احكام النجوم .

الأدوار وتدابير الكواكب ، لمثيها وألوفها ، وجريان الأحوال ، في العالم بأسره بحسبها » .

الى أن يقول : « إذا نظرت الى أهل زماننا ، وقد تشكلوا في أقطاره ، بشكل الجهل ، وتباهوا به ، وعادوا ذوي الفضل ، وأوقعوا بمن أتسم بعلم ، وساموا أنواع الظلم والضيم ، ثم أطبقوا ــ وان كانت الأمة لا تجتمع على ضلالة ــ على استحسان أقبَحِ الأخلاق وأضرها بالكل ، التي معظمها الطمع لا على وجهه .. » .

ونثره هذا ــ كما نراه ــ بعيد عن الصناعة البديعية ، يتوخى فيــه الوضوح ، ويميل الى التعابير والألفاظ السهلة الواضحة .

• • •

الفصل الثالث

أبو بكر الخوارزمي

من كبار كتّاب القرن الرابع الهجري ، المعروفين بانشائهم بالعربية •

كان كثير الترحال ، في طلب العلم ، زار نيسابور وبلخ ، والعراق والشام وغيرها ، وسمع الشيوخ في الأدب والحديث والفقه • وتمرس في الكتابة والشعر ، تمرساً تاماً ، وساعده على ذلك استعداده الفطري ، للتقبل والتلقي ، كما ساعده ذهنه الوقاد ، وحافظته العجيبة ، وقريحته المتدفقة السيّالة ، مما جعل أديباً كبيراً كالثعالبي يقول عنه[٢] : « علم النثر والنظم ، يجمع بين الفصاحة العجيبة ، والبلاغة المفيدة ، ويبلغ في محاسن الأدب كل مبلغ » •

برع الخوارزمي في كتابة الرسائل ، ولا سيّما الاخوانية منها ، وكان طابع التجويد والابداع ، ظاهراً على كل ما ينظم ، وما ينشيء[٣] •

وحاز أبو بكر شهرة واسعة ، في ميدان الأدب ، فقصده الطلاب من كل حدب وصوب ، على أنه على الرغم من تلك المنزلة العالية ، في هذا الميدان ، عاش فقيراً بائساً ، يعاني ضنك العيش ومرارته • وهو يقول فيه[٤] :

« إنّما يكره الفقر ، لما فيه من الهوان ، ويستَحبُّ الغنى لما فيه من الصوان[٥] ، فاذا نبغ الضم من تربة الغنى ، فالغنى هو الفقر ، واليسر هو

---

(١) من الجدير بالذكر ان نشير الى ان دراسة الدكتور زكي مبارك ، لابي بكر الخوارزمي كاتبا ، هي دراسة جيدة ، ومع ذلك رأينا ان نخصه في بحثنا ، بدراسة مفردة ، وذلك راجع لمكانته الكتابية المرموقة ، في الكتابة الفنية ، في القرن الرابع الهجري . وراجع ايضا الى اننا ربما استطعنا ان نكشف بعض الجوانب الاخرى ، التي قد يكون الدكتورزكي مبارك اغفلها في دراسته ، او تجنبها خوفا من التطويل .
ينظر كتابه : النثر الفني في القرن الرابع ٢ : ٢٥٩ - ٢٧٦ .

(٢) ينظر يتيمة الدهر ٤ : ١٩٤ (طبعة حجازي) .

(٣) ينظر ديوان رسائله .

(٤) المرجع السابق . ص ١١٣ ، يتيمة الدهر ٤ : ٢٠٣ . (حجازي) وفيه بعض الاختلافات عن الاصل .

(٥) اي صون الكرامة والنفس .

العسر ، لا بل الفقر على هذه الصفة ، والحالة والقضيــــة ، أجمل من الغنى حالاً ، وأقل منه اشتغالاً ، لأن الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منفـــك الرقبة من كل رق ، لا يلزمه اداء الزكاة ولا تتوجه اليه غوائل النائبات ، ولا يستبطئه اخوانه ، ولا تطمع فيه جيرانه ، ولا ينتظر في الفطر صدقته ، ولا في النحر أضحيته ، ولا في شهر رمضان مائدته ، ولا في الربيع باكورته[٦] ، ولا في الخريف فاكهته .. » .

فهذا الكلام كما تتصور صادر عن انسان ، ذاق مرارة الفقر وهوانه، تلك المرارة التي تحولت أثناء الكلام ، الى حكم صادرة ، عن فكر متوقد ، وفهم للامور الدينية والدنيوية .

ومن الملاحظ أن العاطفة الصادقة ، هي ما يميز كتابة الخوارزمي ،وربما سبب ذلك يعود الى ضيق عيشه ، فقد عاش في وطنه ، وهو في أضيق حــال . ولننظر اليه يقول من كتاب أرسله الى خوارزمشاه[٧] :

« فَما زالت صروفُ الدهرِ بخوارزم ، تُقاتلني جَهْراً ، وتُخاتلني سِراً ، حتى خرَجْتُ منها أعرى من حَيَّة ، بعدَما كنت أكسى من بَصَلَة، وأفقر من الحَجَرِ ، بعدَما كنت أغْنى من الكَعبةِ ، وأعطل من المحرم ، بعدما كنت أحلى من الشمسةِ[٨] . قد كَسَّرْتُ كسر الجوز ، وقَشَّرتُ قشر اللوز ، وَجَرَى علي من مسقط رأسي ، ومجمع أسرتي ، ومقطع سرتي، من العزم الثقيل ما كان من الثقل أثقل ، ومن الذلّ الطويل ، ما كان من الطول أطول ، ومرَّ على رأسي ، ما لو مرَّ على رأس الشاب لشاب ، ولو نزل بالحديد لَذاب .. » .

وأبو بكر بليغ في كلامه ، مما جعل الثعالبي أيضاً يشهد له بهذه البلاغة، مستشهداً له بشيء من نثره ، للدلالة على تلك البلاغة المتمثلة فيقوله[٩] :

---

(٦) باكورة الشيء : أول ما يظهر منه .
(٧) ينظر : التمثيل والمحاضرة . ص ١٤١ .
(٨) هكذا جاءت في الاصل (الشمسة) مع تاء التأنيث .
(٩) ينظر : التمثيل والمحاضرة .ص ١٤١ .

« لا صغير مع الولاية والعمالة ، كما لا كبير مع العطلة والبطالة ، وانّما الولاية أُنْثى تصغرُ وتكبر بواليها ، ومطية تحسن وتقبح بممتطيها ، والصدر بمن يليه والدَّسْت(١٠) بمن يجلس فيه ، والأعمال بالعمّال ، كما أن النساء بالرجال •

إنّ ولاية المرء ثوب ، فإن قصر عنه ، عَرِي منه ، وإن طال عليه ، عثُر فيه » •

ومن ايجازه وسحر بيانه ، قوله(١١) :

« قد أراحني الشيخ ببره ، بل أتعبني بشكره ، وخفف ظهري من ثقل المحن ، لا بل أثقله باعباء المنن ، وأحياني بتحقيق الرجاء ، بل أماتني بفرط الحياء ، فإنّي له رفيق ، بل عتيق ، وأسير بل طليق » •

فهذه الكلمات من أحسن وأظرف ما يمكن أن يقال •

وأهم ما في رسائل أبي بكر ، أنها تعرفنا على بعض الظواهر الاجتماعية، ومدى تقبل المجتمع لظاهرة منها أو رفضه لها ، مثل ظاهرة زواج الأم الأرمل العجوز ، فقد كانت ظاهرة من الظواهر ، التي لا يقرها المجتمع ، كما كانت مؤلمة للابن ايلاماً شديداً ، حيث يصبح مجالاً للتندر والسخرية ، لذلك فهي مصيبة كبرى ، توجب العزاء للابن الذي حلت به المصيبة •

ومثال على هذا رسالة أبي بكر ، الى ابن مسكويه ، أحمد بن محمد بن يعقوب ، التي يقول فيها(١٢) : « العاقل أعزكَ الله تَعالَى ، لا يَرى المحنةَ إذا تَخَطَّتْ دينه محنة، ولا يَرى النعمةَ، اذا تعلقت بِذَنْبٍ خطيئةٍ نعمة، ولا يُريدُ الشرفَ الا بالتقوى ، ولا يرى الضعةَ الا ما وضعَ ، من رتبتِهِ ، في الدارِ الأخرى ، وَبَلَغَني ما اختارتْهُ الوالدةُ صانَها الله تعالَى ، فحمدتُ اللهَ تعالَى ، الذي رزقَكَ والداً لا يلزمك حق أبوته ، ووعدكَ

---

(١٠) الدست : « دخيلة عباسية » وتعني صدر المجلس ، كما تعني الديوان والرياسة ، ومجلس الوزارة .

(١١) خاص الخاص . ص ١٣ ، الاعجاز والايجاز . ص ١١٦ – ١١٧ .

(١٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي . ص ٢١٣ – ٢١٤ .

أخاً ، لا يجملك حمل اخوتـه ، وقد كُنْنتُ أسأل الله تعالـى ، أنْ يباركَ لك في حياتـِها ، والآن أسأله أن يعجّلَ لكَ بوفاتـِها ، فإن القبرَ أكرمُ صهرٍ وان الموتَ أسترُ ستر ، ولا تذهب نفسكَ حسرات ، على ما سبقكَ عليك الدهر ، وغلبكَ عليه الرزق ، فلا حمية فيما أحلّ اللهُ ولا مضايقة من حيثِ وسعَ الله ، وللإنسان اباء ، والحمد لله ، الذي كان العقوق من جهتـِها ، ووقعَ الجفاءُ من جنبتـِها،فإنكَ بَرَرْتَها صغيراً ، وبَلغتَ مرادَها كبيراً ، فاجتمعَ لك برّان ، ووقعَ لكَ على اللهِ أجْران » .

ففي هذه القطعة ، يواسي الكاتب الخوارزمي ، صديقه ابن مسكويه ، على البلوى التي حلّت به ، بزواج أمه ، ذلك العزاء المغلف بروح التفكـــه والسخرية ، التي لم تمنعه من الحكمة الرزينة ، الصادرة عن ذهن حاد ، وذكاء وقاد ، سَهّلا للكاتب في هذه الرسالة الجمع بين النقيضين ، ومع ذلك جاءت صورة طريفة ، من الأدب الفكاهي ، الرفيع الساخر(١٣) .

كما يبين لنا بعض الظواهر الأخرى ، مثل انتقادهم للظلم ، المتمثل في شخصية الظالم ، ولذلك نرى أبا بكر يقول ، في وصف ظـالم شـــديد في ظلمه(١٤) :

« وردَ علينا فلان ، ونَحنُ نيام نومَ الأَمنَة ، وسكارى سكر الثروة، ومتكئونَ على فراشِ العدلِ والنَصَفَة،فَما زال يفتحُ علينا أبوابَ المظالم، ويَحْتَلِبُ فينا ضِرْعَى الدنانيرِ والدراهمِ ، ويَسيرُ في بلادِنا سيرة ، لا يسيرها السنَّوْر في الغار ، ولا يستخيرها المسلمونَ في الكفّار ، حتى افتقرَ الأغنياءُ ، وانكشفَ الفُقَراءُ ، وَحتَى تركَ الدهقان ضيعتَه ، وَجَحَدَ صاحبُ الغلّةِ غلتَهُ ، وحتى أَخْرَبَ البلادَ ، بَل أخْرَبَ العبادَ ، وحتى شَوّقَ الى الآخرةِ ، أهْلَ الدنيا ، وحَبَّبَ الفَقرَ الى

(١٣) ينظر الادب في موكب الحضارة الاسلامية . د . مصطفى الشكعة . ص ٧٤ ٥. مط : مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٨م .
(١٤) رسائل ابي بكر الخوارزمي . ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

أهْلِ الغنى ، وحتى نَشّفَ الزرعَ والضرعَ ،وأهلكَ الحَرْثَ والنَسْلَ ، وحتى لُقّبَ بالجراد ، وكُنّيَ أبا الفساد ، وصارَ الدرهمُ في أيامِهِ ، أقلّ من الصدقِ في كلامِهِ ، وصارَ الأمنُ في أعمالِه ، أَعَزّ من السدادِ في أفعالِه ... » .

ومن هذه القطعة يتبين لنا ، أن ظاهرة ظلم الحكام ، كانت شائعة ، في عصر أبي بكر الخوارزمي ، كما أن أكثر من كاتب ، قد تناول هذه الظاهرة، تنفيساً لما تختلج به نفوسهم ، من الغضب والحقد ، على الحكام الظالمين(١٥) .

وللخوارزمي رسائل غير قليلة ، تلقي بعض الضوء،على مشكلات عصره، وعلى بعض ظواهره الاجتماعية ، نلاحظها واضحة ، في أثناء رسائله ، وقد جاءت عرضاً ، ولم تكتب بقصد علاج تلك المشكلات .

ومن الظواهر التي نستشفها ، من كتب من ترجموا له ، تلك المنافسات والمنازعات ، التي كانت على أشدّها ، بين الكتّاب المعاصرين لأبي بكر ، والتي كانت في أحيان كثيرة ، تقام لها المجالس ، في الأمكنة العامة ، أو في دار أحد الاعيان أو الفضلاء المعروفين ، وكانت تلك المجالس ، تأخذ شكل قاعات الامتحان ، بما تعقده من مناظرات ، بين المتنافسين ، أو المتخاصمين ، والتي تنتهي بفوز أحدهما ، فينفض المجلس ، كما حدث مع أبي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني .

ومن الظواهر الأخرى ، التي توحي بها لنا رسائله ، ظاهرة كرههم للبنات، وعدم مساواتهن بالذكور ، واعتبار مجيئهن الى الدنيا ، نكبة للوالدين ، لأنهن عورة تكلف الرجل الكثير لسترها ، ولذلك فالقبر هو أحسن صهر لهن ، وفي هذا يقول أبو بكر ، في احدى رسائله ، معزياً أحد الرؤساء بوفاة ابنته(١٦):
« ... ولولا ما ذَكرتَهُ من سترِها ، ووقفتُ عليه من غرائبِ أمرِها ، لكنتُ الى التهنئةِ أقرب ، من التعزيةِ ،فإن سترَ العوراتِ ،من الحَسَناتِ ، ودفنِ البناتِ من المكرماتِ ، ونحنُ في زمانٍ ، إذا قدم أحدنا فيه الحرمة،

(١٥) رأينا بديع الزمان الهمذاني ، قد تناول هذه الظاهرة في رسائله .
(١٦) تنظر رسائل ابي بكر الخوارزمي . ص ٩ ٢ .

فقد استكملَ النعمة ، واذا زَفَّ كَريمةً الى القبرِ ، فقد بلغ أمنيتَه مــن الصَّهْرِ .. » .

ففي هذه القطعة ، نرى الروح الجاهلية ، في نظرتها الى المرأة ، واعتبارها احدى العورات ، التي تلزمها المحافظة والستر ، ولذلك فهي ثقل ينوء الرجل بحمله ، فيتمنى الخلاص منه .

ومثل هذا نراه في كتاب آخر له ، بعث به الى كثير بن أحمد ، يعزيه في ابنة له فقدها ، يبين لنا فيه ، مدى استصغارهم ، لمنزلة المرأة ، فهويقول[١٧] :

« ... ولأن يقع سهم الزمانِ على النسوانِ ، أمثل من أن يقعَ على الذكرانِ ، فالحمد لله تعالـى الذي جعلَ في طيِّ المحنةِ منحة، ومزجَ الترحةَ بفرحةٍ ، فسترَ عورةً من حيث سلبَ أُنْساً ونزهةً، وكَفَى مؤُنةً من حيث جلبَ فجيعةً ، وأبقَى الكبيرَ من حيث أخذَ واحدةً صغيرةً . وَجَمَّلَ والداً من حيث اثكلَ والدةً ، وهكذا تكون مصائب المقبلين المجدودين ، فإنّ الدهرَ إذا ساءَهم في القليلِ ، أحسنَ اليهم في الجليلِ ، وإذا كاشَفَهم في الخَفيِّ المستور ، صانَهم في الجليل المَشهور .. » .

وديوان رسائل الخوارزمي ، بمضمونه وأغراضهِ ومقاصده ، وأخيلته، ما هو الا ديوان شعر منثور ، فيه أكثر الأغراض ، التي طرقها الشعر العربي ، من مديح وهجاء ، وتهنئة ورثاء ، واستعطاف وعتاب .

ومن الشكوى رسالته ، الى صاحب الديوان قوله[١٨] :

« كِتابي الى الشيخِ من الديوانِ ، وأنا فيه ملتحفٌ بالحرمــــان ، مشتملٌ بالذلِّ والهوانِ ، قاعدٌ بينَ النقصانِ والخســـرانِ ، عن يميني مستخرجانِ ، وعن يساري وكيلانِ ، والحمد للهِ على تصاريفِ الدهرِ وأحوالـِهِ ، وصلّى الله تعالـَى ، على سيّدِنا محمدٍ وآله ، قد أحفيتُ قَلَمي

---

(١٧) المرجع السابق ص ٧٨ – ٧٩ .
(١٨) رسائل ابي بكر الخوارزمي . ص ١٣٨ – ١٣٩ .

ويدي ، في كتبي الى الشيخ ، أخطب نظره لي ، وأنشد ما أضللته من عنايته بي ، فلم يعطفْ عليّ عطفه، ولم يشغلْ نجابتي طرفه .. » .

فالخوارزمي يبدأ رسالته بشكوى عامة ، ثم يعرض لمشكلته ، ومشكلة عامة الناس ، مع الوالي الظالم ، فيصفه بأوصاف غير حسنة ، فهو وال غير عادل ، يغتصب الأموال بشراهة ، حتى أدى الأمر بالناس ، الى تمني الموت ، فهو أرحم من هذا الظالم : « وحتى شوّق الى الآخرة أهل الدنيا » .

ولنستمر معه في كتابه ، لنراه يبالغ في وصفه لهذا الظالم ، فيضفي عليه صورة مكبرة للظلم ، حيث يقول :

« والله ما الذئب في الغنمِ ، بالقياسِ اليه الاّ من المصلحينَ ، ولا السوس في الخزّ ، في الصيفِ عندَه ، إلاّ من المحسنينَ ، ولا الحجاج بن يوسف الثقفي ، في أهلِ العراقِ ، إلاّ أول العادلينَ ، ولا يَزْدَجِرْد(١٩) الأثيم في أهلِ فارس بالاضافة اليه ، الاّ من النبيينَ والصديقينَ ، ولا فرعون في بني اسرائيل إذا قابلته به ، الاّ من الملائكةِ المقربين .. » .

وفي هذه القطعة ما يدل على مدى مقدرة الكاتب ، في دقـة تصويره تصويره لشخصية الظالم . ومقدرته الفنية في تشبيهاته ، وانتقاء صوره عند المقارنة .

ومن نثره في العتاب ، ما كتبه الى أحد أصدقائه ، عاتباً عليه عدم زيارته له في محنته ، ومن ثم تهنئته حين زوال تلك المحنة عنه (٢٠) :

« كتابي وقد خَرجتُ من البلاءِ ، خروج السيفِ من الجلاءِ ، وبروز

(١٩) وردت هذه الفقرة ، في رسائله . ص ١٣٩ هكذا : « ولا يحسب الاثيم في أهل فارس » ووردت في النثر الفني في القرن الرابع ٢ : ٢٧٢ « ولا يزدجرد الاثيم » واثبتنا ما ورد في النثر الفني ، لانه اكثر انسجاما مع المعنى .

(٢٠) ينظر : رسائل ابي بكر الخوارزمي . ص ١٢٢ . ولسنا ندري ماهي تلك المحنة التي ذكرها اهي محنة المرض ، ام هي تخلصه من يد محمد ابن ابراهيم ، كما ورد في عنوان كتابه .

البدرِ من الظلماء ، وقد فارقَتْني المحنةُ ، وهي مفارق لا يشتاق اليه ، وودعَتْني وهي مودع لا يُبكى عليه . والحمد لله على محنةٍ يجليها ، ونعمةٍ ينيلها ويوليها . كنتُ أتوقعُ أمسَ كتابَ الشيخِ بالتسليةِ ،واليومَ بالتهنئةِ ، فلم يكاتبْني في أيامِ البرحاءِ بأنَّها غمَّته ، ولا في أيامِ الرخاءِ بأنَّها سَرَّته .. » .

ففي هذه القطعة ، ترى الهيجان العاطفي بأجلى صوره ، ولعل ذلك ناتج عن طبع الخوارزمي ، وسرعة غضبه .

وكتب الخوارزمي يصف بؤسه وتغير الناس عليه ، حتى أدى به بؤسه الى تشتت أفكاره ، فهو يقول[٢١] :

« كتابي الى الشيخِ ،وقد أمضتْ الأيام في حكمِها ، وأنفدتْ في صبري وتجلدي سهمَها ، والحمد لله تعالَى على كلِّ شيء ، الاّ غيبتي عن الشيخِ ، الى غايةٍ ليسَ بينها وبينَ الموتِ حجاز ، ولا وراءها للبلاءِ مجاز ، حتى لقد ركبتُ غيرَ دابتي ، وأكَلْتُ غيرَ نَفَقَتي ، ونزلتُ بيتاً بكراً ، وأكلتُ خبزاً بَسْراً [٢٢] ، وحرمت العيني[٢٣] ، وشربتُ الزَبيبي[٢٤] ، ولبستُ الصوفَ في المصيف ، والبردى في الخريفِ ، وكوتبتُ مواجهة ، وخوطبتُ بالكافِ مشافهة . وأجلستُ في صفِّ النعال ، أعني أُخْرياتِ الرجالِ . وناظرَني من كانَ يدرس علي[٢٥] ، وخالَفني من كانَ يختلفُ اليّ . وحتىلقد نَشَزَتْ عليّ جارِيتي[٢٦]، وحزنتْ عليّ

---

(٢١) تنظر رسائله . ص ٤٢ ـ ٤٤ « من كتاب بعث به الى ابي علي البلعمي ، لما فارق الحضرة وورد نيسابور » .

(٢٢) البُسْر : الغض من كل شيء . والبَسْر : ما لم ينضج .

(٢٣) العيني : العين من الماء : الظاهر الجاري على الارض . والعَيِّن والعِيِّن : من الأسقِيَة « والكسر اكثر » : الذي سال ماؤه ، او الجديد .

(٢٤) الزبيبي : نقيع الزبيب ، ويسمى الخشاف .

(٢٥) وردت في الاصل « يدوس » ولعلها مصحفة . واثبتنا ما رايناه مناسبا للمعنى .

(٢٦) نشزت المراة بزوجها : استعصت عليه وترفعت عنه ، وخرجت عن

دابتي[٢٧] ، وتَقدمَني في السير رفيقي ، الذي جمعني واياه طريقي ...» .

وديوان رسائله مليء بهذه الأغراض الأدبية ، التي عرفها الشعر العربي ، وهي ليست خاصة بطبقة من الناس ، وانّما كانت توجه الى السلاطين والأمراء ، والوزراء والقضاة والعمّال ، والعلماء واللغويين . وهي تارة تهنيء بالعيد وبالمنصب وبالنجاة من محنة ، أو من مرض ، والشكر على هدية ، وتارة بالتعزية بوفاة وغير ذلك .

وفي ديوان رسائله ما يظهره لنا مغالياً في تشيعه . كتب الى جماعة من الشيعة في نيسابور يقول[٢٨] :

« قال أميرُ المؤمنين ، ويعسوب الدين عليه السلام : المحن إلى شيعتنا أسرع من الماءِ الى الحدور . وهذه مقالة أُسِسَتْ على المحن، وولد أهلها في طالعِ الهَزاهزِ والفتن ، فحياةُ أهلها نَغْصٌ ، وقلوبُهم حَشْوها غصص، والأيام عليهم متحاملة ، والدنيا عنهم مائلة . فاذا كنا شيعة أئمتنا في الفرائضِ والسنن ، ومتبعي آثارِهم في كلّ قبيحٍ وحسن ، فينبغي أن نتبعَ آثارَهم في المحنِ ، غصبتْ سيدتنا فاطمة — صلوات اللهِ عليها وعلى آلها — ميراثَ أبيها صلوات الله عليه وعلى آله ، يوم السقيفة وَأُخِّرَ[٢٩] أميرُ المؤمنين عن الخلافةِ ، وَسُمَّ الحسَنُ رضيَ اللهُ عنه سِراً[٣٠] ، وَقُتِلَ أخوه كرّمَ اللهُ وجهَه جهراً ، وَصُلِبَ زيدُ بن علي بالكُناسَةِ[٣١] ، وقُطعَ رأسُ

طاعته ، وابغضته وفركته . وقيل : النشوز يكون بين الزوجين فقط . وقد تكرر ذكره في القرآن الكريم والاحاديث .

(٢٧) حرنت : اي صارت حرونا . والحرون : ذات الحِران من ذوات الحافر : وهي التي اذا استدر جريها وقفت .

(٢٨) تنظر رسائله . ص ١٦١ — ١٧٢ . والكتاب طويل وقد اكتفينا ببعضه. وينظر هذا الكتاب ايضا في : تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون . ص ٢١٢ .

(٢٩) وردت في الأصل « آخَر » ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٣٠) وردت في الاصل « سر » بالرفع ، والصحيح ما اثبتناه بالنصب .

(٣١) الكناسة : محلة بالكوفة ، عندها واقع يوسف بن عمر الثقفي ، زيد بن علي بن الحسين ، بن علي بن ابي طالب ، عليه السلام .

زيدٍ بن علي في المعركة ، وقُتِلَ ابناه محمد وابراهيم ، على يدِ عيسى بن موسى العباسي[٣٢] .. » .

وتظهر لنا في هذا الكتاب ، روح الخوارزمي المتمردة الثائرة ، الحاقدة على كل من عادى أهل البيت عليهم السلام . وقد تعرض الدكتور زكي مبارك، لهذه الرسالة وعلق عليها بقوله : إنّها تبدو لمن يقرؤها ، وكأنها صاعقة تصب على رؤوس من عادى الرؤساء ، كما يبدو الخوارزمي فيها ، وهو أزرق الناب، مسموم اللعاب ، كالحيّة النضناض . وفيها أيضا يبدو طيب أبي بكر وخبثه ، وكرمه ولؤمه[٣٣] .

والحقيقة أننا لو نستمر مع الخوارزمي في هذه الرسالة ، لرأيناه فيها تارة مثلما ذكره الدكتور زكي مبارك . وسنراه تارة مؤمنا متبتلاً ، خاشعاً صبوراً .

وأبو بكر الخوارزمي ، أديب معجب بنفسه وبقومه كل الاعجاب ، يطرب لمن يطربه ، حتى يصل به الطرب أحياناً حد الغرور ، حين يقول[٣٤] :

« إنّ قوماً أنا أصغرهم لكبار ، وانّ أمة أبو ذرّ شرّها لخيار » .

والواقع أن الخوارزمي في رسالته هذه ، ما هو الا صدى للمتنبي ، فهو يصور أخلاقه تصويراً دقيقاً ، في روحه المتمردة ، ونفسه المتعالية المتفاخرة ..

والخوارزمي شاعر في منثوره ، سلك الطريق الذي سلكه ابن العميد من قبل ، وبهذا يكون قد ابتعد عن طريق الترسل الذي نهجه ابن المقفع ، ثم الجاحظ من بعده ، الى طريق السجع الذي نهجه ابن العميد ، وان رأينا أبا بكر الخوارزمي ، يذكر في احدى رسائله ، أنه سار في نثره مترسلاً ، ولكنه في الحقيقة بعيد كل البعد عن الترسل[٣٥] .

---

(٣٢) النص مضطرب ، لان ابراهيم ومحمد هما ابنا عبدالله بن محمد بن عبدالله بن حسن ، وليسا ابني زيد بن علي .

(٣٣) ينظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري ٢ : ٢٧٥ .

(٣٤) تنظر رسائله . ص ١٢٩ .

(٣٥) يقول في احدى رسائله . ص ٢٣١ « ... وخرجني واصطنعني ، فتعلمت الترسل من نثره .. » .

مميزات فنه الكتابي :

كان أبو بكر الخوارزمي ، كثير المحفوظ من الشعر والنثر ، وأمثال العرب . ولكنه كان حزين النفس ، لبعده عن وطنه ، وعدم استقراره ،وضيق عيشه ، واحساسه بالبؤس والشقاء ، فأثر ذلك في أدبه ، وطبعه بطابع حزين ، على الرغم من الطابع الفكاهي ، الذي يلون أسلوبه أحياناً . ولننظر اليه وهو يقول[١] :

« ياملك الموتِ الى كم تنام ؟! » . فهو يطلب الموت ، ليخلصه من بؤسه وشقائه ، وهل يطلب الموت الا من ملّ الحياة ؟ .

يغلب على أسلوب الخوارزمي ، السجع والوضوح وقلة الغريب . وهو يستعين بالأدب القديم ، ويستشهد بالشعر ، مما يدل على كثرة محفوظه ، مما جعل أديباً مثل الزركلي ، يعده من أئمة الكتّاب[٢] ، كما عده المستشرق آدم متز من أكبر كتّاب العرب ، وأشهرهم في كتابة الرسائل الإخوانية[٣] .

والواقع أن رسائل أبي بكر ، مقصورة على هذا النوع من الرسائل ، وقد أجمع من ترجموا له ، أنّه ناثر أبرع منه شاعراً . ولا يغض هذا من منزلته الشعرية ، وان فاقت براعته في النثر براعته في الشعر .

وديوان رسائله شبيه برسائل سابقيه ، من حيث الشغف بالألفاظ الجزلة، والتشبيهات الحسنة . والقلق الناتج عن نفسية الكاتب القلقة . كما يلاحظ عنده المبالغة والتكرار ، الناتجان عن أسلوبه الساخر الفكه أحيـــاناً ، ومن رسائله في هذا المجال قوله[٤] :

« فلانٌ أبطأ عليّ ، فليتَ شِعري الريح قلعته ، أم الأرض أبتلعته ، أم

---

(١) ينظر : التمثيل والمحاضرة . ص ١٢٤ .
(٢) ينظر كتابه : الاعلام ٧ : ٢ ٥.
(٣) ينظر كتابه : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٤٣٣ .
(٤) ينظر ديوان رسائله . ص ١١١ .

الأفعى نهشته ، أم السباع افترسته ، أم الغول أغوته ، أم الشياطين استهوته، أم أصابته بائقة ، أم أحرقته صاعقة ، أم رفسته الجمال ، أم اغتاله الجمّال •• » •

ففي هذه القطعة ، يظهر أسلوب الخوارزمي الساخر ، الذي كثيراً ما يعمد اليه باعتباره طريقة فنية ، لما يحويه من تكرار وحشو •

ومن فكاهاته أيضاً ، رسالته في وصف بستان ، يذكر فيها أن ذلك البستان ، كان مرتعاً لناظره ، ومتنفساً لخاطره ، ومجالاً لبصره ، ومداراً لفكره إذ ليس فيه زاوية، الا وقد صب عليه فيها كأس ، ونام في حافتها وَجْه" صبيح ، وتقلب في أطرافها قدّ مليح •• ثم يفاجئنا بقوله : بأن بستانه هذا ، ما هو الاّ : « بُقَيْعَة طولها باع ، وعرضها ذراع ، أعني باع البقّة ، وذراع الذرة ، وأقلّ من لا ، وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ • لو طارت عليه ذبابة" لغطته ، أو دخلته نملة" لسدته ، تسقى بالمسعط[٥] صباحاً ، وتكنس بالظلال مساءً ، أشجاره مائة الا تسعة وتسعين ، وأنهاره خمسون إلا تسعة وأربعين[٦] •• »

كما يميل الخوارزمي في بعض الأحيان ، الى الإطراف والتجديد في كتابته ، مثال ذلك رسالته التي يظن القاريء حين يقرؤها لأول وهلة ، أنها قيلت في وصف بستان ، ولكنه حينما يتمعن فيها ، ويصل الى نهايتها ، يرى أنها في وصف الشعراء يقول أبو بكر في هذه الرسالة[٧] :

« البستان قد وعدتني يا سيدي ، وظيفته بالشجرِ ، وبالنورِ والزهرِ ، وأنتَ يا سيدي قَمين[٨] ، ووفاؤك ضَمين ، وذلكَ المكان مرتفع ناظري ، ومتنفس خاطري ، ومجال بصري ، ومراد فكري ، ونقلي اذا شربتُ ،ومحدثي

(٥) المِسعَط والمُسعَط الاناء يجعل فيه السعوط ، ويصب في الأنف . وجاءت كلمة (لسدتها) في النص واثبتنا (لسدته) تمشيا مع النص .
(٦) ينظر ديوان رسائله . ص ٢٠ •
(٧) المرجع السابق . ص ١٩ — ٢٠ .
(٨) القمن والقمين : السريع : القريب . وهو قمن ان يفعل كذا وقمين به: جدير .

إذا خلوتُ ، وتسليتي اذا اغتَمَمْتُ ، وشمامتي إذا شممتُ ..
وكأنّي بكَ وقد عرضتُ هذا الفصلَ على الناسِ ، فظنّوا أنّي
أصفُ بستانَ الزاهر[٩] ، أو دارَ ابن طاهر[١٠] ، أو أذكرُ
الجَعْفَرِيةَ[١١] ، أو البركةَ المتوكلية ، أو أعني صَغْد خُراسان[١٢] » .

وهكذا نراه ينتقل من فكرة الى أخرى، حتى نراه يقول في نهاية الكتاب:
« وإنّي شاعر إذا أحسَّ من لسانه بسطه ، ووجدَ في خاطرِه فضله ،وأصابَ
من القولِ جرياناً ، ووجدَ ميداناً ، وقال ما وجدَ بياناً ، وما ظنكَ بقومٍ :
الاقتصادُ محمودٌ إلا منهم ، والكذبُ مذمومٌ الا فيهم ، إذا ذَمّوا ثَلَبوا،
وإذا مَدَحوا سَلَبوا ، واذا رَضَوا رَفَعوا الوضيعَ ، واذا أُغضِبوا
وَضَعوا الرفيعَ ، واذا أَقرّوا على أنفسِهم بالكبائرِ لم يلزمْهم أحَد"» .

وهكذا يستمر في ذكر مثل هذه الصفات ، التي تتردّد عادة في شعر
الشعراء ، الى أن نراه يقول : «بل ما ظنكَ بقومٍ هم أمراء الكلام،يُقَصِّرون

---

(٩) بستان الزاهر : احد بساتين قصور بغداد في العصر السلجوقي . ومحله قرب جامع عادلة خاتون .

(١٠) ابن طاهر : لعله من آل طاهر بن الحسين ، ودار طاهر : يعني الحريم الطاهري .

(١١) الجعفري : اسم قصر بناه امير المؤمنين جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بالله ، قرب سامراء ، بموضع يسمى (الماحوزة) سنة ٢٤٥هـ . وفيه قتل سنة ٢٤٧هـ . وهذا القصر هو الذي يقول فيه البحتري :

قد تم حصن الجعفري ولم يكن ليتم الا بالخليفة جعفر
في راس مشرفة حَصاها جوهر وترابها مسك يشاب بعنبر

تنظر الابيات في : أحسن ما سمعت ص ٨١ـ٨٢ .
والجعفرية : محلة كبيرة مشهورة في الجانب الشرقي من بغداد . ينظر معجم البلدان ٢ : ١٤٣ (طبعة بيروت).

(١٢) صغد خراسان : جاءت في الاصل (صعد) ولعلها مصفحة والصواب ما أثبتناه . والمراد بصغد خراسان ، الربع الرابع من ارباع خراسان ، حسب تحديد بعض الجغرافيين . معجم البلدان ٢ : ٣٥١ (طبعة بيروت) .

طويلَه ، ويُخَفِّفون ثقيلَه ، ويُقَصِّرون معدودَه • ولم لا أقول ما ظنكَ بقومٍ ، يتبعهم الغاوون ، وفي كلِّ وادٍ يهيمونَ ، ويقولونَ ما لا يفعلونَ » •

ومن الملاحظ أن أبا بكر ، ختم كتابـــه مستشهداً بالآيـة الكريمة : « والشُّعراء يتبعهم الغاوون ، ألَم تَرَ أنَّهم في كلِّ وادٍ يَهيمونَ ، وأنَّهم يقولونَ ما لا يَفْعلونَ »[١٣] •

والخوارزمي يستشهد كثيراً بالشعر ، وقد يكون الشعر له أو لغيره ، ومثال هذا قوله من كتاب[١٤] ، بعثه الى وزير خوارزم شاه حينما نكبه ، ولا ندري سبب نكبته ، وكل ما نعرفه أن أبا بكر حاول في كتابه أن يخفف من تلك النكبة ، في نفس الوزير ، وذلك بلجوئه في رسالته الى الحكمة والنصائح والتصبر ، ملقيا اللوم على الدهر ،المولع بصب النكبات على رؤوس الأفاضل• ثم نراه يستشهد على ذلك بقول ابن المعتز :

يا محنـــة الدهر كفي إن لـــم تـكفي فخفي
قد آن أن ترحمينـــا من طولِ هـذا التشـفي

ثم نراه يطيب خاطره بقوله : إن هذه المحنة ما هي الا امتحان للوزير،حتى يستطيع أن يعرف عدوه من صديقه،ويستشهد على كلامه بقول البحتري[١٥]:

لَئِنْ ثَنَى الدَّهْرُ من سَهْمي فَلَمْ يَصِلْ
وَرَدَّ من يَـدَيَ الطُّولَى فَلَمْ تَنَلِ
لَقَدْ حَمِدْتُ صُـروفاً مِنْهُ عَرَّفَني
مَذْمومُها عُصَبـاً مِمَّنْ عَليَّ وَلي

ومثل هذا كثير في رسائل أبي بكر الخوارزمي •

وأخيراً نقول : إنّ أبا بكر الخوارزمي ، كان موسوعة معارف ، فهو

---

(١٣) سورة الشعراء . آية ٢٢٤ .
(١٤) ينظر ديوان رسائله . ص ٤٠ ـ ٤١ .
(١٥) ينظر ديوانه م٣ . ص ١٨٧٢ . تحقيق حسن كامل الصيرفي . مط : دار المعارف بمصر ١٩٦٤م .

أديب ناقد للشعر والشعراء ، وناقد للانشاء . وصفه الأستاذ جرجي زيدان فقال : ولم يسبقه في هذا المجال ، الا ابن قتيبة ، المتوفى سنة ٢٦٧هـ . في كتابه أدب الكاتب[١٦] .

وتأييداً لهذا نقول : إنّ أبا بكر يتناول أحياناً ، في رسائله بعض ما يتصل بالأدب ، يتناوله تناول المحلل الناقد ، مع سَلاسَةٍ في التعبير ، وبذلك فإن بين أسلوبه وأسلوب كتّاب العرب ، في القرن الثالث الهجري ، شبهاً وقرباً[١٧] .

---

(١٦) ينظر كتابه : المختصر في تاريخ اللغة العربية . ص ١٥٥ .
(١٧) للتفصيل ينظر : تاريخ ادبيات ايران « فارسي » . ص ٦٣٩ — ٦٤٠ .

الفصل الرابع

ابو القاسم الزمخشري

من مشاهير الكتّاب ، في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري ، المتوفى سنة ٥٣٨هـ •

ونحن نراه من أكبر المؤلفين باللغة العربية ، ومؤلفاته لها مكانة علمية ودينية هامة[١] •

وشهرة الزمخشري وخاصة في التفسير ، لا تحتاج الى اشارة ، وإنّما أريد هنا أن أشير الى شخصيته كاتباً ، كما سبق أن أشرت اليه شاعراً وبيّنته•

وقبل أن آخذ بهذا ، أبيّن أنه مع ما له من فضل على علوم اللغة العربية عامة ، كان استاذاً لعدد كبير من الأدباء والفقهاء والمحدّثين[٢] •

وقد شهد للزمخشري معاصروه ، بالعلم والفضل والأدب ، وأثنى عليه معظم مؤرخيه • قال ياقوت الحموي فيه[٣] : « كان إماما في التفسير والنحو والأدب ، واسع العلم ، كبير الفضل ، متفنناً في علوم شتى[٤] » •

وقال السمعاني[٥] : « كان يضرب به المثل ، في علم الأدب والنحو » •

---

(١) يكفينا دليلا على هذا ان نشير الى كتابه : « الكشاف »و « المفصل » و « أساس البلاغة » الذي يعطينا صورة واضحة ،عن تمكن الزمخشري من اللغة العربية ، تمكنا تاما .

(٢) من تلاميذه بزمخشر : ابو عمرو عامر بن الحسن السمار . وبطبرستان ابو المحاسن اسماعيل بن عبدالله الطويلي . وبأبيورد ابو المحاسن عبدالرحيم بن عبدالله البزاز . وفي سمرقند ابو سعد احمد بن محمود الشاشي وغيرهم . والحقيقة ان تلامذته كثيرون ، وهم من بلدان مختلفة كما راينا . وقد عقد لهم الدكتور الحوفي ، في كتابه : « الزمخشري » فصلا خاصا بهم ، فمن اراد الاطلاع على المزيد من اسمائهم فلينظر ص ٥٢ .

(٣) معجم الادباء ١٩ : ١٢٦ .

(٤) تنظر مؤلفاته في مقدمة الادب ١: ١١ ــ ١٨ .

(٥) الانساب . ورقة ٢٧٧ « مخطوط » .

وقال ابن خلكان[٦] : « كان إمام عصره غير مدافع ، تشد إليه الرحـال في فنونه » .

أما القفطي فقد قال فيه[٧] : « ألقت العلوم اليه أطراف الازمة ، واتفقت على اطرائه الألسنة . وتشرفت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة . ولم يتمكن في دهره واحد من جلاء رذالة[٨] النظم والنثر ، وصقال صوارم الأدب والشعر ، الا بالاهتداء بنجم فضله ، والاقتداح بزند عقله » .

وهذا السيوطي يقول فيه[٩] : « كان واسع العلم كثير الفضل ، غاية في الذكاء وجودة القريحة ، متفنناً في كل علم ، معتزلياً قوياً في مذهبه » .

وقال فيـه صدر الأئمـة ، الموفق بن أحمـد المكي : « خوارزم كانت قبل فخرها[١٠] ، مزهوّة بأبي بكرها ، متباهية به ، مباهاة ببكرها ، تعـده لغرائبه من رغائبها ، وتعده لرغائبه من غرائبها ، وما أخطـأت خوارزم باعتقادها فيه ..[١١] » .

وعلى هذا الأساس نستطيع القول : إنّ الزمخشري يمثل من ناحيـة تفكيره ، أنموذجاً طريفاً فريداً .

وصل الينا من نثر الزمخشري، مقاماته ومقالاته[١٢] . وهذه وهذه تمثل لنا الفترة الثانية من عمره أي بعد توبته[١٣] .

---

(٦) وفيات الاعيان ١ : ١٠٧ .
(٧) انباه الرواة على أنباه النحاة ٣ : ٢٦٥
(٨) وردت في الاصل « رذائل » ولعل الصحيح ما اثبتناه . ورذالة او رذال بمعنى : ما انتقى جيده ، وبقي رديئه .
(٩) بغية الوعاة ٢ : ٢٧٩ .
(١٠) اي الزمخشري ، لانه يسمى فخر خـوارزم . اي ان خـوارزم قبـل الزمخشري ، كانت تزهو بأبي الخوارزمي ، وهو أهل لذلك .
(١١) ينظر : مجمع الاداب في معجم الالقاب حـ ٤ . ق٣ . ص٣٩٢ .
(١٢) أقصد بها كتابه اطواق الذهب .
(١٣) من الممكن تقسيم حياته العلمية الى فترتين : الفترة الاولى حتى سـنة ٥١٢هـ ، وهي السنة التي مرض فيها بالمرضة المنهكة ، كما سماها في مقاماته . ويغلب على تآليفه في هذه الفترة الطابع اللغوي والنحوي . والفترة الثانية : بعد سنة ٥١٢هـ حتى سنة ٥٣٨هـ ، وهي سنة وفاته، ويغلب عليها الطابع الديني والوعظي .

ومن خلال دراستنا لمقاماته ومقالاته ، وحكمه المسجوعة ، في كتابه « الكلم النوابغ »[١٤] ، ومن النتف المتناثرة ، التي ستطعنا الحصول عليها في كتبه ، سندرسه كاتباً فنياً • أما رسائله التي ذكرت في بعض المصادر[١٥]، فلم نستطع الحصول عليها ، لأنها ما زالت مفقودة •

على أننا وان لم يتأت لنا الحصول على رسائله هذه ،فإن الذي بين أيدينا من نثره ، يمكّننا من اصدار الأحكام ، التي نطمئن اليها كل الاطمئنان •

امتاز الزمخشري عن سابقيه من الناثرين ، بأسلوبه الوعظي التجريدي ، وقد عرفنا عن بديع الزمان في مقاماته ، أنه جعل لها شخصية معروفة ، وهي شخصية عيسى بن هشام • وكذلك فعل الحريري ، فجعل أبا زيد شخصية لمقاماته • أمّا الزمخشري فلم يفعل فعلهما ، وانّما حاول أن يخلق من نفسه شخصية أخرى ، فيخاطبها بكنيته ، وهذا النوع من الخطاب بالكنية يأتي عادة في أساليب التحبب ، وهو يستفتح مقاماته بقوله : « يا أبا القاسم » ــ وهي كنيته ــ ويلجأ الانسان عادة الى مخاطبة نفسه ، في الحالات العاطفية ، التي تصل فيها العاطفة ذروتها • وفيها يَبْدو الزمخشري ، وهو على أشد حالات الندم والتوبة ، وأشد حالات الرجاء والاستعطاف لقبول توبته ، للتكفير عن ماضيه •

كان جار الله الزمخشري ، في فترة حياته الأولى ، يمدح الملوك والوزراء، والعظماء ، ويحصل على عطاياهم ، وبعد مرضته التي سماها بالمرضة المنهكة وتوبته ، أخذ العهد على نفسه ، ألا يطأ عتبة سلطان مادحاً ، وأخذ يترفع عن فعل ما كان يبيحه لنفسه ، ونأى بها عما يرتضيه غيره من الأدباء،لكسب العيش عن طريق التزلف الى الملوك ، والوزراء والرؤساء والأمراء ، وغيرهم • كما حزّ في نفسه تجاهل حكام عصره لمنزلته ، ورفع من هم دونه مكانة ،وتبؤوهم ما لا يستحقونه من المنزلة والجاه ، فكان لهذا عظيم الأثر في نفسه الحساسة ،

---

(١٤) ورد اسم هذا الكتاب ، في كثير من المصادر باسم (نوابغ الكلم) .

(١٥) ذكرها ابن خلكان في وفياته : ٤ : ٢٥٤ . وذكرها ابن قطلوبغا في كتابه: تاج التراجم في طبقات الحنفية . ص٧٢ .

وهذا التأثر كان واضحاً في مقاماته ، وهي مواعظ ونصائح ، ولكنها نصائح بليغة ، ومثالها قوله(١٦) :

« يا أبا القاسم أُترُكِ الدُّنْيا قَبْلَ أن تَتْرُكَكْ ، وافركها قبلَ ان تفرُكَكْ(١٧) ، طَلِّقِ القائِلَةَ بِمِلْءِ فيها أنا غَدّارة غَرّارة ، خَتّالة خَتّاره(١٨) ، وما الفائِلُ(١٩) رأيه الا مَنْ رآني على الأخرى مُخْتاره ، لا تَني أيّامُها ولَياليها يَنْحَتْنَ من أَقْطارِكَ(٢٠) ، فَقَضّي فيها أسرَعَ ما تَقْضي أهَمَّ أوطارِكْ ، إنَّ أهَمَّ أوطارِكَ فيها تزَوُّدُكَ منها ، فالبِدارَ البِدارَ(٢١) قَبْلَ اشخاصِكَ عنها .. »(٢٢) .

ومن هذا يظهر لنا ، أن الزمخشري كتب مقاماته ، في الفترة الثانية من حياته ، تلك الفترة التي تحررت فيها نفسه من مباهج الحياة ، وندم على العمر الذي قضاه في الوقوف ، على أعتاب الأمراء والوزراء وغيرهم ، وعاتب نفسه على ما فرط منها ، في طلب ذلك الزائل ، وعزفها عن طلب الأبَديّ حيث يقول(٢٣) :

---

(١٦) مقامات الزمخشري . ص ٢٢ ــ ٢٤ .
(١٧) الفَرْك والفِرْك : ان تبغض المراة زوجها . قيل : وهذا حرف مخصوص به المراة والزوج ، ولم يسمع في غير الزوجين . وهو هنا يشبه الدنيا بالمراة ، ويحث على الابتعاد عن ملذاتها وتطليقها ، كما تطلق المراة .
(١٨) الختل : الخدع ، وكلب ختال : يختل : الانسان حتى يثب عليه . والختر : اقبح الغدر .
(١٩) الفائل رايه : اي ضعيفه .
(٢٠) ينحتن من اقطارك : يأخذن من جوانبك ، بمعنى ينقصن قواك ويضعفن بدنك .
اقطارك : القطر : الناحية والجانب ، والجمع اقطار .
(٢١) البدار : بدر الى الشيء : اسرع وسبق . والزمخشري هنا يحث نفسه على الاسراع في عمل الخير ، قبل ان يترك الدنيا .
(٢٢) اشخاصك : شخص عن قومه : خرج منهم . وشخص من بلد الى بلد: ذهب او سار . والمراد هنا : تركه الدنيا .
(٢٣) أطواق الذهب . ص ٣٨ ــ ٣٩ .

« يا عَبْدَ الدّينارِ والدّرْهَمِ ، مَتَى أنتَ عَتيقُهُما ؟ ، ويا أسيرَ الحِرْص والطَّمَعِ ، مَتَى أنتَ طَليقُهما(٢٤) ؟ هَيْهاتَ لا عَتاقَ الاّ أنْ تُكاتبَ على دينِكَ المُمَزَّقِ (٢٥) ، ولا اطلاقَ أو تُفادي بخَيْرِكَ المُلَزَّقِ(٢٦) ، يا من يُشبِعُه القُرْصُ ، ما هَذا الحِرْصُ ؟ ويا مَنْ تُرْويه الجُرَعُ ، ما هَذا الجَزَعُ؟ ستعلم غداً(٢٧) إذا تَنَدَّمْتَ أن لَيْس لك الا ما قَدَّمْتَ ، وإذا لَقيتَ المَنونَ ، لَمْ ينفعْكَ مالٌ ، ولا بَنونَ • ما يَصْنَعُ بالقناطِرِ المُقَنطَرَةِ (٢٨) ، عابِرُ هذه القَنطَرَةِ (٢٩) ، وما يُريدُ من البَهْجَةِ والفَرْحَةِ ، نازِلُ ظِلِّ هذه السَّرْحَةِ (٣٠) » •

ومن هذا يظهر لنا ، أن الكاتب كان خصباً في لغته وانشائه ، ملمّاً بمفردات اللغة ومترادفاتها ، ونراه نسيج وحده في مقاماته وان كان قد تأثر ،

---

(٢٤) اي يا خادم النقدين ، في اي وقت تترك خدمتهما ، وتخدم ربك ؟ . والمراد به : التوبيخ على صرف كل همته وخدمته ، في طلب الرزق . ومثله قوله : يا أسير الحرص .. الخ : اي فاتق الله ، وجَمِّل في الطلب.

(٢٥) قوله هيهات .. الخ : اي بعد ذلك الاطلاق والعتق على ضعيف الاعتقاد. وقوله لا عتاق : تأكيد أي لا تعتق نفسك ، الا بالمكاتبة على دينك المخرق ، اي بترك عبادتك الناقصة ، ولا تطلقها الا أن تغذيها بحسناتك .
وقوله الممزق : كقولهم المرقع .

(٢٦) الملزق : يقال لغير المتمكن ملزق .

(٢٧) قوله ستعلم غدا : اي يوم الميعاد .

(٢٨) القناطير : جمع قنطار وهو مائة رطل من ذهب او فضة .
المقنطرة : المكملة .

(٢٩) القنطرة : الجسر فوق النهر . والمراد به هنا الدنيا .

(٣٠) السرحة : واحدة السرح : وهو كل شجر طال ، والتي لا شوك عليها ، أو هي الدوحة العظيمة المحلال ، يحل تحتها الناس في الصيف ، ويبنون البيوت تحتها ، وظلها صالح .

كما سنرى بالحريري ، وتأثره به واضح ، فقد كان معجباً به أشد الإعجاب، حتى قال في مدحه(٣١) :

أقسمُ بالله وآياتِه ومشعرِ الحجِّ وميقاتِه
إنّ الحريريَ حريٌ بأنْ نكتبَ بالتبرِ مقاماتِه

كما يظهر لنا تأثره بالجاحظ ، في استطراده ، فالزمخشري يسلك أحياناً هذا المسلك ، فينتقل بالقاريء من عظة الى عظة ، ومن حديث الى حديث ، بلا تبويب ، أو ترتيب . ولم يكن الزمخشري أول من تأثر بهذا ، فقد صنع هذا الصنيع كثير ممن تقدموه وعاصروه . ولهذا المنهج قيمته في تشويق القاريء، ونقله من حال الى حال ، بين لحظات الامل واليأس ، والرضا والقناعة وعدمهما ، وبين لحظات من السعادة ولحظات من الألم .

ومن مقاماته التي تنقلنا من فكرة الى أخرى ، مقامة الصدق التي يقول فيها(٣٢) :

« يا أبا القاسمِ كلُّ سيفٍ يُحادَثُ(٣٣) بالصِّقالْ ، دونَ لسان يُحَدِّثُ بِصِدْقِ المَقالْ ، فلا تُحرِّكْ لسانَكْ بالنُّطْقْ ، إلاّ إذا كانَ النُّطقُ بالصِدْقْ ، وَصُنْهُ مِنْ خَطأ الكَذِبِ وَعَمْدِهْ ، كما يُصانُ اليمانيُّ في غِمْدِهِ ، إنَّ الحُسامَ يَذْهَبُ بِرَوْنَقِهِ الصَّدا ، والكذِبَ لِلِّسانِ مِنَ الصَّدأ أرْدَى . أُصدُقْ حَيْثُ تَظُنُّ أنَّ الكَذِبَ يُفيءُ عليكَ المغانِمَ ، ولا تكذبْ حَيْثُ تَحْسَبُ أنَّ الصِّدْقَ يَجُرُّ اليكَ المَغارِمْ . وإذا عَقَدْتَ ميثاقاً(٣٤) ، فأوْفِ بِعَقْدِكْ ، أوْ وَعَدْتَ فَسارِعْ إلى إنجازِ وَعْدِكَ ، ولا يَكُونَنَّ

(٣١) ينظر كشف الظنون ٢ : ١٧٨٧ ، الترجمانة الكبرى . ص ٥٧٠ وجاء فيها : « والمشعر الحنيف وميقاته » .
(٣٢) تنظر مقاماته . ص ١٧٧ .
(٣٣) محادثة السيف : تعهده بالصقل .
(٣٤) الميثاق : العقد المؤكد بيمين أو عهد . وجمعه مواثق ومياثيق .

مَوْعِدُكَ مِثْلَ لَمْعِ البَروقِ[٣٥] بالذَّنَبْ ، ولا مُشْبِهاً بِلَمْعِ البُروقِ الخُلَّبْ[٣٦] ، وإنْ أرَدْتَ أن تَمْسَحَ ناصيةَ الكَرَمِ السّابِقْ ، وتَضْرِبَ قَوْنَسَ[٣٧] المجدِ ، فأشْبِهْ سَحاباً تَقَدَّمَ وَدْقَهُ[٣٨] على رَعْدِهْ ، وكُنْ رَجُلاً قَدَّمَ عَطاؤهُ قَبْلَ وَعْدِهْ » .

ففي هذه المقامة نرى لغة مخاطبة النفس ، مصاغة بحكم ونصائح وينهى بها عن الكذب ، مع بيان مضاره ، ويحث على اللجوء الى الصدق ، لأنه يؤدي الى السعادة .

ثم يستمر في استطراده ، فيتكلم عن الوفاء بالعهود ، داعياً الى انجازها، والأخذ بالميثاق ، ثم ينتقل الى فكرة أخرى ، ليتكلم عن الكرم ، داعياً الى السخاء في العطاء ، مؤيداً كلامه هذا بنصيحة عامة ، وهي تقديم العطاء على الوعد ، وقد جاء بكل ذلك بأسلوب جميل ، وسبب هذا الجمال يرجع الى دقة المؤلف ، ، في تعابيره ، وسلامة القطعة من الفضول ، وفهمه لمواقع البلاغة. ولا ننسى أن الزمخشري من الوجهة الفنية ، يعد من أعرف الناس ، بصياغة الكلام ، وهو يراعي فنون البديع مراعاة تامة ، يكثر من السجع ، ولعل مرجع ذلك ، الى كونه أقرب فنون البديع ، الى لغة أصحاب المقامات ، لأنه أسرع تأثيراً في أذن السامع ، ولكنه يأتي به في صورة مقبولة حسنة . أما اختياره للوعظ ، فربما يرجع الى تأثره ، بكتاب الوعظ ، أمثال الحسن البصري، الذي يذكره على سبيل الاستحسان مشبهاً نفسه به ، كما سنرى .

---

(٣٥) البَروق : برقت الناقة : تلقحت وشالت بذنبها بعد اللقاح ، فتوهم انها لاقح ، فهي بروق .

(٣٦) البُروق : جمع برق . وبرقت السماء أي لمعت وجاءت بالبرق .
الخلب : يجوز أن يكون صفة للمع ، كقولك : برق خلب .

(٣٧) القونس : أعلى الراس وجمعه قوانيس . والقونس من الانسان مقدم راسه ، والمراد هنا بقونس المجد علوه وقمته .

(٣٨) ودقه : الودق : المطر .

كان أبو القاسم ، عزيز النفس ، مقبلاً على عمله ، يظهر ذلك من قوله[٣٩] :

« ما مَثَلي مَع أعلام العلماء ، الا كمثل السُّها[٤٠] ، مع مصابيح السماء ، والجَهام[٤١] الصِّفْر والرهام[٤٢] مع الغوادي العامرة للقيعان والآكام ، والسُّكَيْت[٤٣] المخلف عن خيل السباق[٤٤] والبغاث[٤٥] مع الطير العَناق[٤٦] ، وما التقليب بالعلاّمة ، إلاّ شبه الرقم بالعلامة[٤٧] ، والعلم مدينة ، أحد بابيها الدّراية[٤٨] ، والثاني الرواية ، وأنا في كلا البابيْن ذو بضاعة مُزجاة[٤٩] ، ظلّي فيها أقلص[٥٠] من ظلّ حَصاة. أمّا الرواية فحديثة الميلاد ، قريبة الإسناد ، لم تستند إلى علماء نحارير ، ولا

---

(٣٩) هذا كتاب بعثه الى حافظ الاسكندرية ، ابي الطاهر السلفي ، جوابا عن كتاب كتبه السلفي اليه ليستجيزه. ينظر معجم الأدباء ١٩ : ١٣٢–١٣٣ ، وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٦ ، تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب جـ٤ . ق٢ . ص ١١١٦ .

(٤٠) السها : كوكب خفي .

(٤١) الجهام : السحاب لا ماء فيه . الصفر : « ويثلث » . الخالي .

(٤٢) الرهام : المطر الدائم .

(٤٣) السكيت : السُّكَيْت والسُّكَّيْت : من خيل السباق . او الذي يجيء في آخر الحلبة ، وقيل هو العاشر ولذلك يجيء آخر الحلبة . وسمي بالسكيت لأنه يبقى مسكتاً في اثناء جريان الخيل .

(٤٤) في وفيات الأعيان ٤ : ٢٥٦ « مع خيل السباق » .

(٤٥) البغاث : طائر ابغث : اي ضعيف .

(٤٦) العناق : دابة كالفهد ، او الكلب من الجوارح الصائدة ، ويقال لها « النفة » ، وهي لا تؤكل ، ولا تأكل الا اللحم ، لونها أبيض ، وراسها سوداء .

(٤٧) في وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٦ (بالعلامة) . وفي معجم الادباء ١٩ : ١٣٢ « والعلامة » .

(٤٨) الدراية : العلم .

(٤٩) مزجاة : اي قليلة . وفي التنزيل العزيز : « وجئنا ببضاعة مزجاة » . سورة يوسف . ص ٣٢٢ . آية ٨٨ .
وقال ثعلب : بضاعة مزجاة : فيها اغماض لم يتم صلاحها .

(٥٠) اي اقل .

الى أعلام مشاهير • وأما الدراية فَثَمَد(٥١) لا يبلغ أفواهاً ، وبَرْض"(٥٢) ما يبلّ شفاها » •

ولنستمر معه في تواضعه ، لنرَه وهو يقول(٥٣) :

« ولا يغرنكم قول فلان وفلان فيّ ، فإن ذلك اغترار(٥٤) بالظاهر المموّه(٥٥) ، وجهل بالباطن المشوّه ، ولعلّ الذي غرّهم مني ، ما رأوا من حسن النصح للمسلمين ، وبلوغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع(٥٦) ، وافادة المَبارّ والصنائع(٥٧) ، وعزة النفس والرُّبء(٥٨) بها عن السفاسف(٥٩) ، والإقبال على خُوَيْصّتي(٦٠) ، والاعراض عمّا لا يعنيني ، فجللت في عيونهم ، وغلطوا فيّ ، ونسبوني الى ما لست منه ، في قبيل أو دبير(٦١) ، وما أنا فيما أقول بهاضم لنفسي ، كما قال الحسن البصري ، رحمه الله تعالى ـ في قول أبي بكر الصديق ، رضوان الله عليه « وليتكم ولست بخيركم » : ان المؤمن ليهضم نفسه ، وإنّما صدقت الفاحص عني ،

---

(٥١) ثمد : الثمد : الماء القليل لا مادة له . وقيل هو الحفر فيه قليل ماء . وجمعه أثماد وثماد .

(٥٢) برض : البرض من الماء : القليل وجمعه براض وبروض وابراض .

(٥٣) معجم الادباء ١٩ : ١٣٣ ، وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٦ وفيه : « لا يغرنكم قول فلان في وقول فلان .

(٥٤) في وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٦ : فان ذلك اغترار (منهم) بالظاهر المموه .

(٥٥) المموه : اصله أن يطلى الحديد ونحوه بماء الذهب ، ليظن انه ذهب . ثم صار مثلا في كل شيء مزور .

(٥٦) المصدر السابق ٤ : ٢٥٦ : « وقطع المطامع عنهم » .

(٥٧) في المرجع السابق : « والصنائع عليهم » . المبار : المبرة : البر .

(٥٨) الرّبء : العلو والرفعة .

(٥٩) في وفيات الاعيان ٤ : ٢٥٦ السفاسف « الدنيات » .

(٦٠) اي ما يخصني .

(٦١) يقال في الكلام : ما يعرف قبيلا من دبير . والاصل ان القبيل : الفتل الاول ، والدبير : الفتل الثاني ، يريدون لا يعرف ما فتل فحسب ، مما أحكم فتيله ، ويقولون فيه عند ذلك ، انه لا يعرف الشاة المقابلة من المدابرة . والمقابلة ما قطعت أذنها وبقيت مدلاة . وكذلك يريدون بهذا القول : انه لا يعرف من يقبل عليه ، ممن يدبر عنه .

وعن كنه روايتي ودرايتي ، ومن لقيت وأخذت عنه ، وما بلغ علمي ، قصارى فضلي ، وأطلعته طلع أمري ، وأفضيت اليه نجيبة سري ، والقيت اليه عُجَرَي وَبُجَرَي(٦٢) ، وأعلمته نجمي وشجري(٦٣) » .

وفي هذا الكتاب نراه حريصاً على تتبع أحوال معاصريه ، وربط ما يسمع من أخبارهم ، بما نقل اليه من أخبار السالفين ، معتمداً في ذلك على الدّراية والرواية .

وفي هذا المجال قال أيضاً(٦٤) :

« عِزَّةُ النَّفسِ وَبُعْدُ الهِمّةِ ، الموتُ الأحمَرُ ، والخُطوبُ المُدْلَهِمَّةُ ، ولكنْ مَنْ عَرَفَ مَنْهَلَ الذّلِّ فعافه ، استَعْذَبَ نقيعَ العِزِّ وذُعافَه(٦٥) ، ومَنْ لم يَصْطَلِ بحَرِّ الهَيْجاء ، لم يَصِلْ الى بَرْدِ المَغْنَمِ ، ومَنْ لم يَصْبِرْ على براثنِ(٦٦) أسْدِ اللّقاءِ ، لم يُصِبْ أطرافاً كالعَنَمِ(٦٧) .. » .

---

(٦٢) عجري : يقولون شكا اليه عجره وبجره اي عيوبه واحزانه . او ما ابدى وما اخفى ، أو ظاهر امره وباطنه .
ويقال : افضيت اليه بعجري وبجري : اي اطلعته من ثقتي به على معايبي ، والعرب تقول : ان من الناس من احدثه بعجري وبجري ، أي احدثه بمساوي . ويقال هذا في افشاء السر .
(٦٣) نجمي وشجري : يريد انه أعلمه طالعه وسرّه .
(٦٤) اطواق الذهب . ص ٢٢ .
(٦٥) نقيع العز : النقيع من الشراب : الناجع يذهب العطش ، والنقيع : الماء البارد والعذب ، ونقيع العز هنا على الاستعارة .
وذُعافه : الذعاف والذعف : السم القاتل سريعا وجمعه ذُعُف . ولست ادري ماذا يقصد الزمخشري هنا بذعاف العز وهل اتى به من اجل السجع ام ان الكلمة محرفة ؟
(٦٦) براثن : البرثن : مخلب الاسد ، أو ظفر مخلبه ، ويستعار لاصابع الانسان .
(٦٧) العنم : شجر لين الاغصان لطيفها ، يشبه به البنان . او ضرب من الشجر له نور احمر ، يحمل ثمرا احمر كالعناب ، او ثمر العوسج يكون احمر ، ثم يسود اذا نضج وعقد . يشبه بكل ذلك البنان المخضوب . واحدته عنمة .

ولعل الزمخشري ، يريد أن يقول : إنّ عــــزة النفس وعلو الهمة ، من الأمور الصعبة ، وإنّها على الرغم من أنها منبع عزّ ، لمن عرفت عنه ، الا أنها تكلف صاحبها كثيراً ، وربّما يراها كالسم القاتل ، لأن عزة النفس ، لاتبيح لصاحبها ما يرتضيه غيره ، ولعله هنا يقصد نفسه بهذا ، ويقصد الوقوف على أبواب الأمراء والوزراء وغيرهم ، ويرى أن المعيشة في اكنافهم عز ، ولكنهـا بالنسبة لأبي النفس سم وذل • ثم نراه يستدرك فيقول : ولــكن من عرفَ مشرب الذلّ ، وتركه كراهة به ، استطاب مرّ العز وسمّه ، ومن لم يتعذب بحرّ الحرب ، لم يصل الى المغنم الهنيء ، ومن لم يصبر على سلاح شــجعان الحرب ، لم يحظَ بامرأة بنانها رخص ، مخضوب كأطراف شجرة العَنّم •

وقد أصطدمت عزة نفس الزمخشري وكبريائه،بتجاهل أهل وطنه لمنزلته الأدبية ، وأثر ذلك التجاهل في نفسه ، حتى أخرجه شعراً ونثراً على لسانه ، فهو يقول(٦٨) :

« رُبَّ مَوْصوفٍ بالمكارِمِ والمساعي ، وهو معــروفٌ بالمكارِهِ والمَساوي، ومَنْعوتٍ بالحِلْمِ الرّاسي، والعلمِ الراسخِ ، وهو منهما على أَمْيالٍ وفَراسخٍ(٦٩) ، حَسْبُكَ بهـــذا الشَّطَطِ مُسْتَنْزِلاً للسَّخَطِ » •

وهو يريد أن يقول : إنّ كثيرا من الناس يصفهم الجاهلون بمحاســن الصفات ، ومكارم الأخلاق ، والمساعي المشكورة ، وهم عنـــد ذوي الحق والتحقيق ، معروفون بالعيوب والمقابح•ورُبَّ منعوت بالحلم والعلم الثابتين، وهو بعيد منهما مسافة طويلة •

وهو يريد أن يشير هنا الى موقف حكام عصره ، ورفعهم للرجل الغشوم، وعدم رفعهم للفاهم المثقف ، كما هي حاله ، مع أنه كان ركناً من أركان الحياة الأدبية في زمانه ، مما دعاه الى الضجر من تلك الحال • وكثيراً ماحمله ضجره،

---

(٦٨) اطواق الذهب . ص ١٠١ .
(٦٩) الميل : الف باع . والفرسخ ، ثلاثة اميال .

على الإكثار من شكوى الزمان ، فهو تارة يشكو غربته عن موطنه ، وتارة يتحدث عن موقف أولئك الحكام حيث يقول(٧٠) :

« يا أبا القاسِمِ ! يا أَسَفي على ما أمضيتَ من عمرِكْ ، في طلبِ أنْ يُشادَ بذكرِكْ ، ويُشارَ اليكَ بأصابعِ بَني عَصْرِكْ ، عَنيتَ على ذلكَ طَويلاً ، فَما أَغْنَيْتُ عنكَ فَتيلا(٧١) ، حَسِبْتَ أنَّ مَنْ ظَفِرَ بذاكَ فقد استصفى المَجْدَ بأغبارِهْ(٧٢) ، واستَوْفى الفَخْرَ بأصبارِهْ(٧٣) وقدَّرْتَ أن الشَّارَةَ(٧٤) البهيةَ هي الجَمالْ ، وأنَّ الشُّهْرَةَ في الدُّنْيا هي الكَمالُ ، وما أدراكَ يا غافِلُ ما الكاملُ ، الكاملُ هو العامِلُ الخامِلْ ، الَّذي هُوَ عندَ النَّاسِ مَنْكور ، وهَوَ عندَ اللهِ مَذْكوُر ، مَجْفُوٌّ في الأرْضِ ، لَيْسَ له ظَهير" ولا ناصِرُ ، ولا تَثْني به إباهيمُ ولا خَناصِرْ(٧٥) .. » .

وليس في هذه المقامة شيء جديد ، فإن شكوى الزمان ، من الظواهر الإنسانية ، التي يجدها القاريء عند القدماء والمحدثين . كما يجب الاّ توحي الينا هذه المقامة ، أن حكام عصر الزمخشري ، هم وحدهم من اتصفوا بعدم الإنصاف أو أن أهلَ القرن الخامس ، الذي عاش فيه الزمخشري ، كانوا أكثر الناس جحوداً ، بأبنائهم النابهين ، وانّما هم كذلك في نفس أبي القاسم الزمخشري .

---

(٧٠) مقامات الزمخشري . ص ١٧١ . وهي مقامة طويلة اكتفينا منهابالقليل.
(٧١) الفتيل : ما في شق النواة من نحو الشعرة . وقيل هو ما تفتله بين اصبعيك .
(٧٢) بأغباره : بأجمعه . وغبر الشيء بقيته ، وكذلك هو من الليل بقاياه .
(٧٣) باصباره : اي جميعه .
(٧٤) الشارة : الهيئة . يقال فلان حسن الشارة ، حلو الاشارة .
(٧٥) اباهيم : جمع ابهام في اليد او القدم ، كبرى الاصابع . مؤنث وقديذكر. وجاء في الشعر اباهم وابهامات .
خناصر : الخِنْصَر والخِنْصِر : الاصبع الصغرى أو الوسطى وجمعها خناصر . وهي مؤنث . وهو يعني ان الناس لا تذكره ، وهم في ذلك سواء أولهم وآخرهم ، اي انه لا يذكر البتة لخموله .

ولجار الله الزمخشري مقالة ، مليئة بالانتقاد لفساد الحياة الاجتماعية ، وقبول القاضي للرشوة ، ومقدار ما تفعله الرشوة ، في النفس البشرية ، من نشوة تعادل نشوة الشارب للخمر حيث نراه يقول[٧٦] :

« القاضي تعملُ فيه الرشوة[٧٧] ، ما لا تعمل في الشَّاربِ النَّشْوة ، إنْ أتتْه فَسَكْرانُ ميلاً وطرباً[٧٨] وإنْ فاتَتْه فثكلانُ وَيْلاً وحَرَباً[٧٩] ، كأنْ لم يسمعْ أنّ الرَشْوَةَ مِنَ السُحْتِ[٨٠] ، وأنَّ السُحْتَ[٨١] ، وانّ آكِلَه ممّن يَسْحَتُهُ الله بمَثُلاتِهِ[٨٢] ، ومن جملةٍ من يَنْحتْ اللهُ أَثلاتِهِ[٨٣] ، أيّةَ نار يُوَرِّثُ[٨٤] حينَ يَقْسمُ ويورِّثُ[٨٥] ، يُقدِّمُ نَصيبَه ونَصيبَ مَنْ نَصَبَه ، على حقوقِ ذوي الفَرْضِ والعَصَبَةِ[٨٦] ، يُسَمَّى القاضي ، وهو السُّمُّ القاضي[٨٧] ».

---

(٧٦) اطواق الذهب في المواعظ والخطب . ص ٤٦ ــ ٤٧ .

(٧٧) قوله تعمل : اي تؤثر .

(٧٨) ميلا وطربا : هزة وفرحا .

(٧٩) قوله ويلا وحربا :اي تفجعا وتحسرا ، ويقال : واحرباه في التحزن والتأسف .

(٨٠) السحت : كسب خبيث وفيه عار .

(٨١) السحت الثانية : الاهلاك والاستئصال .

(٨٢) بمثلاته :اي بعقوبات امثاله . ومفردها مثلة : والمثلة : ما اصاب الفرد من العذاب .

(٨٣) ينحت اثَلاتِهِ : يطعن فيه ويذمه . واصل ينحت يبرى وينحل ، والأثَلات : جمع اثلة ، وهي شجرة معروفة ، فصار كناية عما ذكر .

(٨٤) اي اية نار عظيمة يوقد . اي شرا عظيما يهيج .

(٨٥) قوله : حين يقسم ويورث : اي حين يقسم التركة ، ويحكم بالارث بين الورثة .

(٨٦) يريد بهذه الفقرة : اي يأخذ حصته قبل الورثة المقدمين ، على ذوي الارحام : وهم اصحاب الفرض كالجدة والأم ، والعصبة كالابن والعم .

(٨٧) قوله : يسمى القاضي : اي فاصل الخصومات . وقوله : وهو السم القاضي : اي القاتل .

وفي هذه القطعة تظهر لنا صنعة الزمخشري جيدة باهرة،تشهد له بالحذق وطول الباع . واليك قوله أيضاً(٨٨) :

« لا تَمْنَعِ المَعونَ والماعونَ(٨٩) ، حَتَّى يَنْعاكَ الناعونَ(٩٠) ، إنَّ مَثَلَ تَوْسِعتِكَ على أخيكَ ، وَقَدْ أضاقَ(٩١) ، وَحَقْنِكَ ماءَ وجهِهِ أنْ يُهراقَ(٩٢) ، مَثَلُ العَيْنِ الغَديقةِ(٩٣) ، في حَرِّ الوَديقَة ، ذاكَ مِنْ ذَوائبِ الخَيْرِ والنَّواصي ، وَحَقيقٌ أنْ يَطولَ بِهِ التَواصي » .

ومثل هذا قوله أيضاً(٩٤) :

« رُبَّ مُطيقٍ يَوَدُّ غَداً لَوْ لَمْ يكنْ بمُطيقٍ(٩٥) ، وَمِنْطيقٍ، يَقولُ لَيْتَني كُنْتُ غَيْرَ مِنْطيقٍ(٩٦) ، وقَدْ يجوزُ على الصِّراطِ مَنْ هو مُفْحَمٌ(٩٧) ، والمُفَوَّهُ في كُبَّةِ النَّارِ مُقْحَمٌ ، ومايُدريكَ لَعلَّ باقلاً وائلٌ ، ويُسْحَبُ على وجهه سَحْبانُ وائلٍ(٩٨) ، فلا

(٨٨) أطواق الذهب . ص ١٧ .
(٨٩) المعون : الاعانة . والماعون : المعروف ، وكل ما انتفع به ، او كل ما يستعار من فأس وقدوم وقدر .
(٩٠) النعي : الاخبار بالموت .
(٩١) التوسعة : تكثير الرزق . والمراد بالاخ كل انسان ، لان الناس اخوانه، ويعبر به للتعطيف .
(٩٢) حقن الماء : حبسه عن الاراقة ، ويهراق : اي يراق . واراقة ماء الوجه كناية عن الخضوع والذل .
(٩٣) العين : ينبوع الماء . والغديقة : غزيرة الماء.
(٩٤) أطواق الذهب . ص ٦٨ .
(٩٥) قوله رب الخ : اي قد يتمنى ذو الطاقة ، اي صاحب القدرة والوسع، انه لم يكن مطيقا ، بل ضعيفا ، حيث يرى الضعفاء ، قد نالوا ما لم ينله الاقوياء .
(٩٦) المنطيق : البليغ ، اي البالغ الدرجة العليا في المنطق .
(٩٧) قوله قد يجوز الخ : اي وقد يمر بالسلامة ، على جسر جهنم من كان عيا من الكلام ، وقد لا يستطيع المرور المنطيق ، فيرمى في نار جهنم .
(٩٨) قوله وما يدريك الخ : اي انك لا تعلم ما يكون ، فربما نجا العي ،وعوقب

تَغْبطَنَّ الخَطيبَ المُشَقِّقَ ، فَلَعَلَّ تَشْقيقَ الحَطَبِ ، كانَ خَيْراً له مِنْ تَشْقيقِ الخُطَبِ(٩٩) ، ولا الشّاعرَ المفلق في قَصائِدِهِ(١٠٠)، فَقَدْ سَمِعْتَ ما جاءَ في اللِّسانِ وَحَصائِدِهِ(١٠١) » .

ومن الظواهر الاجتماعية ، التي يمكننا ملاحظتها،في مقالات الزمخشري، ظاهرة مدى أهمية الشرف لدى المرأة ، وأن ذلك هو الطريق الصحيح ، الذي يرجوه من يريد الزواج ، وأن المرأة تخطب لهذه الصفة ، وليست لصفة الجمال ، وان كان هذا من الأمور المعروفة في المجتمعات العربية والاسلامية ، الا أن الزمخشري تناول هذا الموضوع تناولاً فنياً ، وأحاطه بأجمل صورة للوعظ والنصيحة ، فهو يقول(١٠٢) : « لاتُخْطَبُ المرأةُ لحسنِها ، ولكن لحصنِها ، فإنْ اجتمعَ الحصنُ والجمالُ ، فذاكَ هو الكمالُ ، وأكملُ من ذلكَ أن تعيشَ حَصورا(١٠٣) ، وإنْ عَمَّرْتَ طَويلا » .

فالعفة وصون العرض ، في نظر أبي القاسم ، يأتيان بالدرجة الأولى ، ثم يأتي الجمال مكملاً لهما ، وفي هذا تتجلى لنا الروح العربية المسلمة المحافظة ،

الفصيح ، وفي الكلام استفهام انكاري . ويقول : ان باقل بن عمرو بن ثعلبة الايادي ، يضرب به المثل في العي ، وائل الاول : بمعنى الناجي . ووائل الثاني : هو ابن زفر بن اياس . ووائل اسم قبيلته ، وهوخطيب مصقع ، يضرب به المثل في البيان ، ادرك الاسلام وأسلم . يسحب على وجهه : اي يجر مكبا .

(٩٩) الخطيب المشقق : شقق الكلام : اخرجه احسن مخرج .
قوله : فلا تغبطن الخ : أي فلا تتمنى أن تكون مثل الخطيب الذي يخرج الكلام احسن مخرج ، فلعل تقطيع الحطب ، كان أحسن من تحسين الحطب .

(١٠٠) قوله ولا الشاعر المفلق : هو من يأتي بالبلاغة العجيبة في شعره .

(١٠١) قوله فقد سمعت الخ : اشارة لما في الحديث النبوي الشريف « وهل يكب الناس على مناخرهم في النار ، الا حصائد السنتهم » .
حصائد الالسنة : ما يقطع من الكلام لا خير فيه .

(١٠٢) ينظر اطواق الذهب . ص ١٠٧ .

(١٠٣) حَصوراً : الحصر : الحبس ، ويقال حصره : اي ضيق عليه . والمراد اي إحبس نفسك عن الزواج ، اي أمنعها فعل ذلك .

بأجلى معانيها ، وأوضح صورها . ثم نراه يقول بعد ذلك : إنّ اجتماعَ الكمال والجمال ِ ، من أحسن ِ حالاتِ الزواجِ ، ثم كأنه يلوم نفسه على ما قال ، حيث يستدرك قائلا : وأحسن من ذلك التنحي نهائياً عن الزواج ، والابتعاد عن النساء ، مهما طال عمر الانسان . ولعله في هذا يقصد نفسه ، لأنه كما علمنا ، عاش عازباً ، ولم يتزوج أبداً .

كان الزمخشري قوي العقيدة ، صادق الايمان ، منافحاً عن الدين الاسلامي ، والعروبة ، ضد الشعوبية ، وضدّ من أراد النيل ، من الدين الاسلامي ، ومن العرب والعربية ، أوليس هو القائل : « فرقك بين الرطب والعجم ، هو الفرق بين العرب والعجم[١٠٤] » ، أو قوله في كتابه المفصل[١٠٥] : « الله أحمد على أن جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز ، وأنضوي الى لفيف الشعوبية وأنحاز ، وعَصَمَني من مذهبهم ، الذي لم يُجدِ عليهم ، الا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بأسنّةِ الطاعنين[١٠٦] » .

ومن هذا يتبين لنا أن الزمخشري ، كان فوق مرونته العقلية ، جريئاً في ثبوته على مذهبه ومعتقده ، فهو يقول[١٠٧] : « السنة منهاجي ، ومنها آجي ، عيني تقرّ بكم عند تقربكم[١٠٨] » .

وهو هنا يريد أن يقول : إنّ الطريقة المرضية المسلوكة ، في الدين ، هي سبيله الواضح ، ومذهبه الأبلج ، منها يذهب ، ومنها يجيء ، وهو لا يخرج عن تلك السنة . وبسبب شدة حب الزمخشري للدين الاسلامي ، وتعلقه وايمانه به ، أحب العرب والعربية ، ودافع عنهما بايمان ، واعتبرهم الأصل ،

---

(١٠٤) ينظر الكلم النوابغ . ص ٩٠ .
العجم الاول : هو النوى ، وكل ما كان في جوف مأكول الزبيب ، وما أشبهه ، فهو عجم ، واحدته عجمة . والرطب : ما ادرك من ثمر النخل .
(١٠٥) ينظر ص٢ . طبعة : التقدم بمصر ـ ط١ . سنة ١٣٢٣هـ .
(١٠٦) الرشق : الرمي بالنبال ، ويستعار للقول .
المشق : الطعن بسرعة .
(١٠٧) النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ . ص ٨ .
(١٠٨) تقَرُّ بكم : اي يصبح قرير العين . تقربكم : اي دنوكم وقربكم .

وغيرهم الفروع . قال فيهم[١٠٩] « العرب نبع صلب المعاجم ، والغَرَبُ من الأعاجم » .

وكان الزمخشري أعرف أهل زمانه ، بما ترك الأولون ، ومقاماته تشهد على ذلك . وفي احدى مقاماته نراه يصور الشمائل العربية ، ويكلف بتقديم طائفة من الصور المختلفة عن عادة الغزو ، والأخذ بالثأر ، وكثير من الحوادث التأريخية . وقد أتى بكل ذلك بطريقة فنية ، قوية أخاذة ، جعلت له مكاناً بين العالمين بمعرفة المسير التأريخي ، والعادات والتقاليد العربية ، التي حرمها الاسلام ، وبقيت بعض آثارها بين القبائل البدوية ، حتى بعد الاسلام .

والزمخشري ليس مبتكراً في هذا ، ولكن فضله فيها ، أنه تناولها تناولا فنيا ، وأحاطها بعاطفة حارة صادقة . واسمعه يقول في احدى مقاماته ، وهي المقامة المسماة بأيام العرب ، وهي من أطول مقاماته[١١٠] :

« يا أبا القاسمِ استَنْكِفْ أن تَشْتَرِيَ المتاعَ القليلَ الفانيَ ، بالمُلْكِ الكبيرِ والنَّعيمِ الخالدِ ، فقد استنكفَ أنْ يدفعَ ابنَه عُتبةُ بحصين بن ضِرارٍ شُتَيْر بن خالد[١١١] . وَقَدْ عُرِضَتْ عليه ثَلاثٌ ، وقيلَ له اخْتَرْ فلم يرضَ الا أن يُعطىَ أعْوَرَ بأعْوَرَ . ولا تجعل الدنيا لكَ مونِسَه[١١٢] ، فإنَّها ــ لا أمَّ لكَ ــ مومِسَه[١١٣] ، تَجرُّ على طالبِها مِنْ جَهْدِ البَلاء ، ما جَرَّتْهُ أسماء على راكب

(١٠٩) ينظر : النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ . ص ١٥ .

(١١٠) ينظر ص ٢١٢ ــ ٢٣٢ . وهي كما نرى طويلة ، اقتصرنا على ذكر بعضها .

(١١١) قصة ذلك أن عتبة بن شُتَيْر ، قتل حصين بن ضرار ، فطلب ضرارثأر ابنه ، فأسر شتير ، وهرب عتبة وكان شيخا أعور ، فخيره بين ثلاث: أن يرد عليه ابنه ، ويدفع اليه عُتبَةَ ، او يقتله مكانه فقتله .
للتفصيل في هذه القصة ينظر : مقامات الزمخشري . حاشية ص٢١٣.

(١١٢) مونسة : أراد مؤنسة ، اي غير موحشة .

(١١٣) الموسمة والمومس : المراة الفاجرة . من الومس : وهو الكلام الخفي، واسم بغي كانت في بني مرة بن سعد بن ذبيان .

الشَّيْماء[١١٤] ، وعلى هاشمٍ ودُرَيْد ابني حَرْمَلة[١١٥] ، من وَقْعِ السِّنان ، ونفوذ المِعْبَلَة[١١٦] .. » .

والرسالة كلها على هذا المنوال ، يأتي الزمخشري فيها بالخبر تلو الخبر ، جرياً على شكل الأحاديث ، وهو بهذا يخالف بديع الزمان الهمذاني ، الذي يأتي بأخباره على شكل أقاصيص . ولسنا ندري إن كان بامكاننا اضافة هذا النوع من الأحاديث ، الى الأقاصيص الوصفية ، فإن مؤلفها لا يريد منها ، الاغراب في العقدة والشخصيات ، وإنما يأتي بها كما أتانا بها الزمخشري على شكل أحاديث متتابعة .

ولو سرنا معه في هذه المقامة ، لرأينا هذا التتابع الذي ذكرناه واضحاً كل الوضوح ، ولرأيناه كذلك ينتقل من فكرة الى أخرى ، ومن حادثة الى حادثة ، مجمّلاً ذلك بالعظات التي يأتي بها بين الفينة والفينة . ومن هنا نرى مدى ثقافة الزمخشري ، ومعرفته للحوادث السابقة لزمنه ، واطلاعه على الحوادث والأحاديث ، بعقل يقظ ، وفكر متنبه ، أتاحته له ثقافته الواسعة ، واطلاعه الكثير .

وكان الزمخشري بطبعه كلفاً بحرية الرأي ، ميّالاً الى عمق الفكر ، وتقليب وجهات النظر ، ميالاً الى المناقشة والجدل ، ولا عجب في ذلك ، فان الجدل والمناقشة ، من عناصر مذهب الاعتزال . وهذا الزمخشري يقول في احدى مقالاته[١١٧] :

---

(١١٤) الشيماء : فرس معاوية بن عمرو الشريد .

(١١٥) هاشم ودريد : رجلان من سادتهم .

(١١٦) المعبلة من النصال : ما عرض وطول . وقد عبلت السهم : ركبت فيه معبلة . وقصة ذلك : أن اخا الخنساء الشاعرة ، معاوية بن عمرو بن الشريد السلمي ، وافى عكاظ في بعض المواسم ، فلقي اسماء المرية ، فدعاها الى نفسه ، فامتنعت وهددته بسيد العرب هاشم بن حرملة . فقتل معاوية نتيجة فعلته . وقتل دريد ثأرا لمعاوية ، من صخر اخي معاوية . ثم قتل صخر من بعض بني جشم . للتفصيل ينظر : مقالات الزمخشري . حاشية ص ٢١٤ .

(١١٧) ينظر اطواق الذهب . ص ٤٣ — ٤٤ .

« إمْشِ في دينِكَ تحتَ رايةِ السُّلْطانِ (١١٨) ، ولا تَقْنَعْ بالرِّوايةِ عَنْ فُلانٍ وفُلانٍ ، فَما الأسدُ المُحْتَجِبُ في عرينِه ، أعَزَّ من الرجل المُحْتَجِّ على قَرينِه (١١٩) ، وما العَنْزُ الجَرْباءُ تَحْتَ الشَّمْأَلِ البَليلِ (١٢٠) ،أذَلَّ مِنَ المُقَلِّدِ (١٢١) عندَ صاحبِ الدَّليلِ ، وَمَنْ تَبعَ في أصولِ الدِّينِ تَقْليدَه ، فقد ضَيَّعَ وراءَ البابِ المُرْتَجِ اقْليدَه (١٢٢) ، وَجامعِ الرِّواياتِ الكثيرةِ ، ولا حُجَّةَ عِنْدَهُ ، مُقْوٍ أوْقَرَ ظَهْرَهُ بالحَطَبِ ، وأغْفَلَ زَنْدَهُ (١٢٣) .. » .

هكذا كان الزمخشري ، قوّياً في ايمانه ، حريصاً على الذود عن دينه الإسلامي ، وعن العروبة ، ولذا فقد كان دائم الخوف من ارتداد أهله وقومه عن الدين الإسلامي ، لأن أقليم خوارزم ، كان محاطاً بقبائل تركية ، مشركة بالله ورسوله ، كما كان هذا الاقليم،محط أنظار جيرانه ، الذين كانوا يتطلعون الى امتلاكه ، ويودون أن يبدل أهله دينهم . وفي هذا يقول أبو القاسم الزمخشري ، في كتابه ربيع الأبرار (١٢٤) : « إنّ خوارزم ثغر من ثغور الاسلام ، قد اكتنفه أهل الشرك ، وأطافت به قبائل الترك ، فغزو أهله معهم دائم ، والقتال بينهم قائم ، قد أخلصوا في ذلك نياتهم ، وأمحصوا عن طوياتهم،

---

(١١٨) السلطان : الحجة .
(١١٩) المحتج : الاتي بالحجة . والقرين : الصاحب .
(١٢٠) الشمال : ريح الشمال . والبليل : الندية ، وقد تتأذى منها العنز الجرباء وتذل . وهو يريد بالعنز هنا انثى الحبارى ، وهي طائرمعلوم، حيث تقلبها ريح الشمال ، فترفعها وتخفضها ، لا سيما اذا كانتضعيفة من الجرب .
(١٢١) المقلد : من يأخذ بقول الغير من غير أن يعرف دليله .
(١٢٢) المرتج : المغلق . والاقليد : المفتاح .
(١٢٣) أوقر : الوقر : الحمل الثقيل على ظهر أو راس .
والزند : العود الذي تقدح به النار ، وهو الاعلى . والسفلى زنده ، ومثناهما زندان ، ولا يقال زندتان ، وجمعه أزند وزنود وزناد .
(١٢٤) ينظر : الجز الاول (خ) . ورقة ٩٦ (نسخة مكتب الاوقاف العامة ببغداد ، برقم ٣٨٦) . وينظر أيضا آثارالبلاد وأخبار العباد . ص٥٢٥.

وقد تكفل الله بنصرهم ، في عامة الأوقات ، ومنحهم الغلبة في كافة الوقعات ، ثم حصنه بجيحون ، بواد عسر المعبر ، بعيد المسالك ، غزير الماء ، كبير المهالك، فلا يتوغله متوغل ، الا خاطر بمهجته ، ولا سلك منافذه سالك ، الا كان على يأس من سلامته » .

أحبّ الزمخشري زمخشر ، مسقط رأسه ، حباً جمّاً ، وأحب مكة موطنه الثاني مثل ذلك الحب ، وقد رأينا ذلك ، حين كلامنا عن شاعريته ، كما أحب أحد أبنائها الأبرار ، وهو الأمير ابن وهاس ، فقد كان من الشخصيات التي كان لها أثر كبير في حياة أبي القاسم ، وقد مدحه الزمخشري شعراً ، كمامدحه نثراً ، فهو يقول فيه ، في احدى مقالاته(١٢٥) :

« لله بِلادُ عبد مَكّيٍّ ، ذي مُنْتَسَبٍ زَكيٍّ ، قامَ عندَ مَطْلَعِ سُهَيْلٍ ، قبلَ أنْ يَتَقَوّضَ خِباءُ اللّيلِ(١٢٦) ، فذكرَ اللهَ تعالى وَوَحّدَهُ ، وأثْنَى عليه وَمَجّدَهُ ، وَصَلّى على النبيِّ وسَلّم ، وطافَ بالبيتِ الحرامِ واسْتَلَمَ(١٢٧) ، واعْتَنَقَ المُسْتَجارَ والمُلْتَزَمَ(١٢٨) ، وَتَبَيَّنَ بالمَقامِ وَزَمْزَمَ(١٢٩) ، وأتَى الحَطيمَ(١٣٠) فَدَعا تحتَ الميزابِ ،ثمَّ تَنَحّى فأقبلَ علىالأحزابِ(١٣١)، فَصَفَّ قَدَمَيْهِ في يَمينِ الحِجْرِ(١٣٢) ، الى أنْ طَلَعَ مُسْتَطِيرُ الفَجْرِ(١٣٣) » .

---

(١٢٥) ينظر اطواق الذهب . ص ٦٢ .
(١٢٦) اي قبل انهدام خيمة الليل ، اي زوال ظلامه .
(١٢٧) الإستلام : لمس الحجر الاسود وتقبيله .
(١٢٨) المتلزم : الجدار الذي بين الحجر الاسود والباب .
(١٢٩) تيمن : اي تبرك .
والمقام : اي مقام ابراهيم عليه السلام . وهو الحجر الذي فيه اثر قدميه الشريفتين ، وسبب هذا الاثر ، انه لما ارتفع بنيان الكعبة ، قام على ذلك الحجر ، ليتمكن من رفع الحجارة ،فأثرت فيه قدماه ، آية له.
(١٣٠) الحطيم : موضع من الركن اليماني ، الى الشامي ، فيه مزرابالرحمة.
(١٣١) الاحزاب : الجماعة ، والمراد بهم المجتمعون هناك حينئذ للعبادة .
(١٣٢) الحجر : ما حواه الحطيم المحاط بالكعبة المشرفة ، من جانب الشمال.
(١٣٣) مستطير الفجر : ما انتشر من شفقه وضوئه .

فالزمخشري هنا يمدح ابن وهّاس ، الطاهر النسب ، بأنه قائم بوظائف العبادة ، في تلك المواطن الشريفة .

كتب الزمخشري مقاماته ، بعدما تاب وزهد ، في الحياة ومباهجها ، ونذر نفسه لخدمة الله عوضاً عن وقوفه على أعتاب الأمراء والوزراء ، ودعا الى مقت هذه الدنيا ، كما مقتها الله وأنبياؤه ، لأنها حياة زوال .وقد أتانا الزمخشري، بكل ذلك بأسلوب وعظي عاتب ، معزز بالحديث النبوي الشريف ، الذي يؤكد على قلة شأنها عند الله ، فهو يقول(١٣٤) :

« يا أبا القاسِم ما لَكَ لا تَرْفُضُ هذه الفانيةَ رفضاً ، ولا تَنْفُضُ يديكَ عن طَلَبِها نفضاً ، ألم تَرَ كيفَ أبغَضَها اللهُ ، وأبغضَها أنبياؤُهُ، ومَقَتَها أولياؤُهُ ، ولولا استيجابها أن تكونَ مَرْفوضَةً لو زَنَتْ عندَ اللهِ جناحَ بَعوضهْ(١٣٥) ، إنْ راقَكَ رُواؤها الجميل ، فَمـا وراءَهُ مُشَوَّه(١٣٦) . ما هيَ الاّ سَمٌ ذُعاف" ، بالعَسَلِ مُمَوَّه(١٣٧) ، مُنَغَّصَةُ المَسارِ ، لم تَخْلُ من أذَى ، مطروقَةُ(١٣٨) المشاربِ ، لم تَصْفُ من قَذَى ، مع كل استقامةٍ فيها اعوجاج ، وفي كلّ دَعَةٍ مِنَ المَشَقَّةِ مزاج ، شَهْدُها مشفوع" بإبَرِ النَحْلِ ، رُطَبُها مَصْحوب"

---

(١٣٤) مقامات الزمخشري . ص٢٥ . مقامة الزهد .

(١٣٥) لوزنت عندالله جناح بعوضة : من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافراً منها شربة مـاء » .

(١٣٦) رواؤها : جاءت في الاصل هكذا : « روّاها » .
وراءه : جاءت في الاصل هكذا : « وراه » .
الذعاف : السم الذي يقتل .
المموه : اصله ان يطلى الحديد ونحوه بماء الذهب ، ليظن انه ذهب ، ثم صار مثلا في كل شيء مزور . والتمويه تفعيل من تركيب الماء ، لان اصله ماه بدليل مويه وامواه .

(١٣٧) يقال ماء طرق ومطروق : وهو الذي طرقته الدواب وخاضه ، وبالت وبعرت فيه ، ومنه قولهم : هذا معنى مطروق : الذي الم به غير واحد.

(١٣٨) السلاء : شوك النخل ، والواحد سلاءة .

بسَلاّءِ(١٣٩) النّخْلِ ، أمامَ الظَّفْرِ بغَنيمَتِها الإصْطِلاءُ بنارِ الحَرْب ، قبلَ اعْتِناقِ سَيْبها مُعانقةُ أبناءِ الطّعْنِ والضّرْب ..» .

ومن هذا نرى أن الزمخشري ، قد تخلص لخدمة الله ، بعدما تاب وزهد في الحياة وملاهيها ، وأن لا نعيم الا في الحياة الأخرى واسمعه يقول(١٤٠) :

« يا أبا القاسمِ أجَلٌ مكْتوبٌ ، وأملٌ مكْذوبْ ، وعَمَلٌ خيرُه يَقْطُرُ وشَرُّه يَسيلْ ، وما أكثرَ خَطأَهُ وصَوابُه قَليلْ ، أنت بينَ أمرَيْن ، لَذَّةِ ساعةٍ بَعْدَها قَرْعُ السِّنّ(١٤٠) والسُّقوطُ في اليَدْ ، ومَشَقَّةِ ساعةٍ يَتْلوها الرّضوانُ ، وغِبْطَةُ الأبد ، فما عذرُكَ في أن ترْقِلَ ، كُلَّ هذا الإرقالِ(١٤١) ، الى الشَّقاءِ وطولِ الحِرْمانْ ، وأنْ تغِذَّ كلَّ هذا الإغذاذِ(١٤٢) ، الى النّارِ ، وغَضَبِ الرَحْمَن ، وأينَ عِلَّتكَ في أن تَشْرُدَ شِرادَ الظّليمْ(١٤٣) ، عَنْ رِضْوانِ اللهِ ودارِ النّعيمِ ، هَيْهاتَ لا عُذْرَ ولا عِلّةَ ، الا! أنَّ عاجلاً حَداكَ(١٤٤) حُبُّهُ على ايثارِهْ ، ودَعاكَ داعي الشّهْوَةِ(١٤٥) الى اخْتِيارِهْ ، الا أنّ تَمامَ الشَّقْوَهْ(١٤٦) ، ان تَقْعُدَ أسيرَ الشّهْوَهْ . » .

---

(١٣٩) مقامات : الزمخشري . ص ١٧ ـ ١٩ .
(١٤٠) يقال للنادم : قرع سنه ، وسقط في يده ، واكل كفه ، وعض انامله وبنانه . وهذا من باب الكناية ، لان ذلك مما يرداف الندم .
(١٤١) الارقال : الاسراع ، مستعار من ارقلت الناقة ، فهي مرقال .
(١٤٢) يقال جاء مغذا : اي مسرعا . وقال ابو عبيد : الانجذاب : سرعة المشيء ، والاغذاذ مثله .
(١٤٣) شراد الظليم : مثل يقال اشرد من ظليم ، وهو ذكر النعام ، وكانه سمي ظليما لانه يظالم غيره ، بان يأخذ بيض ذاك يحضنه ، كما يأخذ ذاك بيضه .
(١٤٤) حداه على الامر : بعثه عليه وحثه ، وهو من حدو الابل .
(١٤٥) جعل للشهوة داعيا مجازا ، كما جعل لها شيطانا .
(١٤٦) الشَّقْوَة والشُّقْوَة : لغتان وهي قرينة الشهوة .

والزمخشري سواء في مقاماته ، أم في مقالاته ، يحاول أن يعرفنا أنه يريد أن يقدم لنا من آداب النفس ، ولطافة الذهن والحس ، كما يحاول أن ينبهنا الى ما ينتظرنا من سوابغ نعمة الله ، مما يغنينا عن التفكير ، في طلب الزائل ، كما يريد أن يعرفنا عواقب الصلاح والفساد ، وما يتبعهما من تنعم أو عذاب • ونحن على ثقة أن الرجل قد استفاد كثيراً ، من تجارب من سبقوه ، وأن دراساته الواسعة ، واطلاعه الكثير ، جعله متفهماً للحوادث الماضية ، بحيث جعلنا نراها كأنما هي متصلة ، بالحوادث الحاضرة، ولنره وهو يخاطب نفسه قائلا(١٤٧):

« أذْكُرِ المَرْوانيَّ(١٤٨) ، وما مُنِيَ به من خُطَّةٍ على رَأسِهِ مَصْبوبَه ، حين غُصَّتْ بحَبَّةِ الرُّمَّانِ حُبابَتُهُ المَحْبوبَه ، ثم هَبْها مُرَوَّقَةَ المَشارِب ، مُصَفَّقَةً(١٤٩) مِنَ الشَّوائِب ، قَدْ صَفَتْ لصاحِبِها كُلُّ لَذَّه ، وأظلَّتْهُ سَحابَةَ اللَّهْوِ هاطِلَةً مُرِذَّه(١٥٠) • أما يَكفي تَيَقُّنُ المَسْرورِ بزَوالِ ما هو فيه، مُنَغِّصاً

(١٤٧) ينظر مقامات الزمخشري . ص ٢٦ .
(١٤٨) المرواني : هو يزيد بن عبدالملك بن مروان .
وحبابة : هي جارية اشتراها يزيد بن عبدالملك .
وقصة ذلك : ان يزيد بن عبدالملك بن مروان ، اشترى جارية ، اسمها حبابة ، بأربعة آلاف دينار ، وبلغ من استهتاره بها ، انه لهى بها عن تدبير الخلافة ، فكان لا يقعد للناس ، في الايام ، الا يوما واحدا ، فأصبح ذات يوم ، فقال : لأكذبن اليوم ، من قال لا تصفو الدنيا لبشر يوما ، فأمر فحملت المفارش والآلات الى بستان له بظاهر الرصافة ، وفرش له حول بركة ، واجتمع من كان يستأنس به من ندمائه واندفعت حبابة تضرب وتغني ، فاهتز على غنائها وطرب ، وصفق بيديه وقال : اطير اطير ، قالت : فعلى من تدع الخلافة يا أمير المؤمنين ؟ قال : عليك . فبينما هم على ذلك ، اذ اخذت حبابة ، حبة رمان ، فرمت بها في حلقها، فغصت بها ، وكانت فيها نفسها ، وكذب الله دعواه ، ومات بعدها بسبعة ايام . ينظر مقامات الزمخشري . حاشية ص ٢٦ .
(١٤٩) مروقة : روق الشراب وصفقه : صفاه . قال الاصمعي : صفق الشراب : حوله من اناء الى اناء ليصفو . والتصفيق : الصرف والتحويل من صفق الى صفق : وهو الناحية .
(١٥٠) مرذة : المرذة : التي اتت بالرذاذ ، وهو الضعيف من المطر ، وارذت

لِسُرورِها ، وَزاجِراً للعاقِلِ أنْ يَلْوي(١٥١) على غُرورِها ، بَلى إنْ نَزَلَ اللَّبيبُ على قَضِيَّةِ لُبِّهِ ، إنْ دَعاهُ داعي الشَّهْوةِ لم يُلَبِّهْ ، وهيهاتَ إنَّ مَدْعُوَّ الهَوَى لَمُجيبْ ، وإنَّ سَهْمَ دَعْوَةِ الدَّاعي لَمُصيبْ ، اللَّهُمَّ الاَّ عَبْداً بحَبْلِ اللهِ يَعْتَصِمْ ، وَيَتَمَسَّكُ بعُرْوَتِهِ الَّتي لا تَنفَصِمْ .. » .

ومقامات الزمخشري مليئة بهذا النوع من الزهد ، زهده بالدنيا ، وترغيبه بالآخرة ، وما ينتظر الفاسد فيها من عذاب ، وما ينتظر الصالح فيها من ثواب ، وترغيبه لنا بالزهد ، من خلال حديثه عن الأوائل،ثم نراه يتحدث عن اللغة وعن العروض وعن الشعر وعيوبه، مستخدماً كل ذلك في سَبيلِ الترغيب في الآخرة، والزهد في الدنيا ، وقد جاء بذلك على شكل صور فنية بليغة ، ولعله قصد اليها رغبة في تثبيت مقدرته البلاغية ، وقوته في معرفة الشعر وميزانه ، ومن ذلك قوله في المقامة العروضية(١٥٢) :

« يا أبا القاسِمِ لَنْ تَبلُغَ أسبابَ الهُدَى ، بمعرفةِ الأسبابِ والأوْتادْ(١٥٣) ، أو يَبْلُغَ أسبابَ السَّمَواتِ فرعون ذو الأوتادْ ، إنَّ الهُدَى في عروضٍ(١٥٤) سِوَى عِلْمِ العَروض في العِلْمِ ، والعَمَلِ

السماء وارض مرز : عليها رذاذ . قال الاصمعي وعن الكسائي : ارض مرذة .

(١٥١) لا يلوى على شيء : اي لا يعرج عليه . وحقيقة لوى عليه : عطف عليه.

(١٥٢) مقامات الزمخشري . ص ١٨٦ . والمقامة طويلة ، ولكننا اكتفينا منها بالقليل ، بغية التدليل .

(١٥٣) السبب : اسم لحرفين ، فان كان اولهما متحركا والثاني ساكنا نحو « قُلْ » فهو سبب خفيف ، وان كانا متحركين نحو (لِمَ) فهو سبب ثقيل .
والوتد : اسم لثلاثة احرف ، متحركان بعدهما ساكن نحو : (نَعَمْ) .

(١٥٤) في عروض : في جانب . يقال : انا في عروض فلان ، اذا كان في ناحيته وكنفه .

بالسُّنَنِ والفُروضْ ، ما أحْوَجَ مِثْلَكَ الى الشُّغْل بتَعْديلِ أفاعيله، عَنْ تَعْديلِ وَزْنِ الشِّعر بتَفاعيله ، مَنْ تَعَرَّضَ لابتغاءِ صُنوفِ الخيرِ وضُروبه ، أعْرَضَ عَنْ أعاريضِ الشِّعر(١٥٥) ، وَأضْرَبَ عَنْ ضُروبهْ ، ما تَصْنَعُ بالضُّروبِ(١٥٦) والأعاريضِ،في الكَلامِ الطَّويلِ العَريضْ،في صِناعةِ القَريض،وَوَراءَ ذلكَ حَيْلولةُ الجَريض(١٥٧)».

وهناك المقامة التي عنونها بالنهي عن الهوى ، والتي رصفها بأبيات من الشعر ، متحدة القافية والوزن ، وهو فن ــ كما يظهر ــ يجيده الزمخشري اجادة تامة ، يقول فيها(١٥٨) :

« يا أبا القاسِمِ إنّ الّذي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ(١٥٩) ، رَكّبَ فيكَ عَقْلَكَ وَهَواكْ ، وَهُما في سُبُلِ الخَيْرِ والشَّرِّ دَليلاكْ ، وفي مَراحِلِ الرُّشْدِ والعَيِّ نَزيلاكْ(١٦٠) ، أحَدُهُما بَصيرٌ عالِمٌ يَسْلُكُ بك في البَرْدَيْنِ(١٦١) المَحَجَّةَ(١٦٢) البَيْضاءَ ، وَيَرِدُ بِكَ زُرْقَ المناهِلْ(١٦٣) ، والآخَرُ اعْمَى جاهِلٌ ، يَخْبِطُ بكَ في

---

(١٥٥) الاعاريض : جمع العروض ، الذي هو آخر المصراع الاول من غير قياس ، ويحتمل ان يكون جمع اعروضة .

(١٥٦) الضروب : الضرب : مصراع الثاني كالعروض للاول ، وذلك نحو : منزلي فحوملي .

(١٥٧) حيلولة الجريض : من قولهم : حال الجَريضُ دون القريض ، وهو أن يجرض بريقه ، اذا غص به عند الموت . والجريض بمعنى الجرض . وقيل : هو الغصة .

(١٥٨) مقامات الزمخشري . ص ١٦١ ــ ١٦٥ .

(١٥٩) فسواك : فجعلك مستوي الخلقة ، متناسبها غير متفاوتها .

(١٦٠) نزيلاك : الذي ينزل معك ، ويقال للضيف النزيل .

(١٦١) البردان : الغداة والعشي .

(١٦٢) المحجة : الطريق ، او جادة الطريق ، او السنة . وجمعها محاج .

(١٦٣) زرق المناهل : أي الماء الازرق ، وهو الصافي ، ويكون أزرق : لانعكاس زرقة السماء فيه لصفائه .

بَيْضَةِ الهاجِرَةِ(١٦٤) البيدَ ذاتَ المَعاطِشِ(١٦٥) ، والمَجاهِلِ » .

وهكذا يسير على هذا المنوال ، من الانتقال من عظة الى عظة ، حتى نراه يقول : « وَكُنْ في تَقْواكَ كسالِكَ طريقٍ شائِكٍ(١٦٦) ، لا بُدَّ لَهُ مِنْ أن يَتَوقَّى ويَتَحَفَّظْ ويأخذ حِذْرَهُ وَيَتَيقَّظْ .

هَواكَ أعْمى فلا تَجْعلْه مُتَّبَعاً
لا يَعْتَسِفْ بِكَ عَنْ بَيْضاءَ مَسْلوكَهْ
إتْرُكْهُ وامْشِ على آثارِ عَقْلِكَ في
مَحَجَّةٍ مِثْلُها لَيْسَتْ بِمَتْروكَهْ
فالعَقْلُ هادٍ بَصيرٌ لا يَزيغُ الى
بَصيرَةٍ عن سَدادِ الرَّأي مأفوكَهْ
وَمَنْ يَقُدْهُ هَواهُ في خِزامَتِه
فَذاكَ بَيْنَ ذَوي الألْبابِ أُضْحوكَهْ »

وبعد دراسة مقامات الزمخشري ، نستطيع أن نبيح لأنفسنا ، الحكم عليه ، بسعة الاطلاع ، والثقافة الواسعة ، التي نراها في استشهاده بالأحاديث النبوية ، وفي معرفته للحوادث التأريخية ، وفي خوضه في الشؤون الأدبية والوعظية ، ولم يكتف بكل هذا ، بل تعداه الى المعضلات الكلامية ، ولا غرابة في ذلك ، وهو أحد أقطاب مذهب الاعتزال ، وقد أتى بكل ذلك بأسلوب خطابي وعظي ، فهو مفطور على العظة والوعظ ، نتيجة نشأته الدينية ، ولهذا كثيراً ما نراها مثبوتة في مقاماته ، بجانب أوصافه ولمحاته الأدبية ، وكأنه أراد

---

(١٦٤) بيضة الهاجرة : شدة القيظ .
(١٦٥) المعاطش : جمع معطشة . والمعطشة : الارض لا ماء بها .
(١٦٦) من قول وهب بن منبه لعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، حين سأله عن التقوى : يا امير المؤمنين : هل مشيت قط في طريق شائك ؟ ينظر مقامات الزمخشري . حاشية ص ١٦٤ .

بذلك أن يودع مقاماته ، أظهر ضروب البيان ، ومن ذلك قوله في مقامة النوقي(١٦٧) :

« يا أبا القاسم لا تقولن لشيء من سيئاتك حقير ، فلعله عند الله نخلة ، وعندك نقير(١٦٨) ، وراو(١٦٩) في جلالة قدر الناهي وكبره ، ولا تنظر الى دقة شأن المنهي عنه وصغره ، فإن الأشياء تتفاضل بتفاضل عناصرها ، وإن الأوامر والنواهي ، تجل وتدق بحسب مصادرها ، لا تسم الهنة من الخطيئة هنه(١٧٠) ، فإن ذمتك باجتنائها مرتهنه ، وتذكر حساب الله وموازينه المعدلة ، والنقاش(١٧١) في مثقال الذرة ، ووزن الخردله ، واستعظم أن تنفلت عن ملتقى أجفانك لحظه ، أو تفرط من عذبة لسانك(١٧٢) لفظه ، أو تخالج(١٧٣) من ضميرك خطره ، أو تتصل بقدمك خطوه ، ولحظتك بمقلة مريب ، ولفظتك لا عن لهجة أريب(١٧٤) ، وخطراتك

(١٦٧) مقامات الزمخشري . ص ٦٢ – ٦٥ .

(١٦٨) النقير : النقرة في ظهر النواة التي تخرج منها النخلة ، وهو مثل في القلة .

(١٦٩) روأت في الأمر اذا فكرت فيه ، ورويت عامية .

(١٧٠) الهنة الاولى : الشيء الذي يستفحش ذكره ، وهو مؤنث ، ومذكره (هن) ويجمع على هنين . ويكنى به عن الاشياء التي تذكر بأسمائها ، عن كل اسم جنس ، أو هو الفرج .
وهنة الثانية : اي الشيء القليل جدا بحيث لا يكاد يذكر .

(١٧١) النقاش : المناقشة ، وهي المداقة في الحساب ، والتفتيش عن جليله ودقيقه .

(١٧٢) عذبة اللسان . طرفه .

(١٧٣) خالج قلبه كذا : اي جاذبه ونازعه فكره ، والخلج الجذب ، ومنه الخليج ، لانه خلج من البحر .

(١٧٤) اللهجة : اللسان . وقالوا الفصيح اللهجة بالتحريك ، سميت للهجة بالمنطق والاستكثار منه .

فِكْرٌ في خِلافِ سَدَدْ[175] ، وَخَطْوَتُكَ مَشْيٌ على غَيْرِ جَدَدْ[176] ، فَقَدْ عَلِمْتَ أنَّكَ مأمورٌ بالغَضِّ مِنَ البَصَرْ ، وَحَذْفِ فُضولِ النَّظَرْ ، وبأَنْ تَجْعَلَ الصَّمْتَ مِنْ دَيْدَنِكَ وَدينِكْ[177] ، إذا لم يَعْنِكَ المَنْطِقُ في دُنْياكَ ودينكْ .. » .

فالزمخشري لا يلبث ، بين الفينة والأخرى ، يذكرنا ، بحساب الله ، كل حسب عمله ، كما يذكرنا بفناء هذه الدنيا ، وبقاء الأخرى ، وكأنه واعظ حكيم، وعلى ذكر الحكمة ، فللزمخشري عبارات حكيمة،احتواها كتابهالكلم النوابغ، كما تناثرت في مقاماته وكتبه ، ومنها قوله[178] : « من لم يقومه التأنيب ، لم يقومه التأديب » . وقوله[179] : « سورة السفيه تكسرها الحكماء ، والنار المضرمة يطفيها الماء » . وقوله أيضا[180] : « عيش المجاهد جهيد ، ورزق الزاهد زهيد » . أو قوله[181] : « الأمين آمن ، والخائن حائن » . وقوله[182] : «ما أدري أيَّهما أشقى من يَعومُ في الأمواج ، أم من يقوم على الأزواج ؟ » .

وكتابه الكلم النوابغ ، كله على هذه الصورة ، من الحكم القصيرة المسجوعة ، وقد أورد له العاملي في كتابه « الكشكول » ، نبذاً من هذه الحكم[183] .

---

(175) السدد : السداد ، ونحوها الرشد والرشاد ، والفلح والفلاح .
(176) الجدد : المستوى من الارض . والجُدْجُد مثله .
(177) الديدن : العادة . والدين : العادة أيضا .
(178) ينظر الكلم النوابغ . ص ٢٨ . ويقومه : اى يصلح اعوجاجه .
(179) المرجع السابق . ص ٦٦ .
وسورة السفيه : سطوته . وسورة الشراب : وثوبه في الراس .
(180) ينظر الكلم النوابغ . ص ١٨ .
وجهيد : اي نكد . وزهيد : اي قليل .
(181) المرجع السابق . ص ١٨ .
والحائن : الهالك .
(182) المرجع السابق . ص ٩٠ .
(183) ينظر ص ٣٤٦ .

ومن بديع كلامه قوله(١٨٤) : وَأَيْنَ مَنْ انتَضيتَ مِنْ صُلْبِه، ثم أغْمَدَكَ الهوَى في قَلْبِهِ(١٨٥) ، فكُنْتَ أخَصَّ بفُؤادِه من سَوادِه ، لِفَرْطِ مِقَتِهِ(١٨٦) لكَ وَوِدادِه . أباكَ وأبي إلاّ كُلَّ خَيْرٍ لَكَ ، وَرَبَّاكَ وَحَباكَ ما قَدَرَ عليه مِنْ مَباغيكْ ، وَرَشَّحَكَ لِما اصْلَحَكَ تَرْشيحاً وَرَقَّحَ(١٨٧) لكَ ما عِشتَ به ترقيحا وَنَقَّحَ(١٨٨) عودَكَ مِنَ العقَدِ تَنْقيحا ..» .

---

(١٨٤) مقامات الزمخشري . ص ١٥٢ ـ ١٥٣ .

(١٨٥) يريد ابن الذي كنت نطفة في صلبه ، وانتضاك الله منه ، ثم حباك ما تحت قلبه ، فكأنما انتقلت من صلبه الى قلبه .

(١٨٦) لفرط مِقَتِهِ : لكثرة حبه ووداده . ويقال : هو ذو مقة ، اي محبة .

(١٨٧) الترقيح ، الكسب والاصلاح ، والاسم منه الرقاحة : اي الكسب والتجارة ..

(١٨٨) نقح : نقح الشيء : أزال عيوبه . ونقح العصا والجذع : شذبها .

مميزات فنه الكتابي :

أهم ما يلاحظ على أسلوب الزمخشري ، تأثره بالكتّاب السابقين ، ولا سيّما كتّاب القرن الرابع الهجري ، في اعتمـــاده كثيراً على المحسنات البديعية ، وخاصة السجع والجناس ، واعتماده في بعض الأحيان ، الى تضمين النثر ، بعض الاشارات التأريخية ، والتلميحات الأدبية والثقافية ، والحكم الوعظية ، كما عني أحيانا بتدعيم نثره بالشعر(١) .

امتاز الزمخشري عمن سبقه ، من كتّاب النثر باستعماله بعض الألفاظ الصعبة ، التي نراها منتشرة في مقاماته ، ولعل مرجع ذلك ، هو معرفته ،كيفية انتقاء ألفاظه ، والتعمق في معانيه ، وقد أتاحت له عزوبيته ، وفراغه الطويل ، وعدم التزامه بواجبات الأسرة ، وانعزاله عن الناس ، أشباع تلك الرغبة ، في ميله لركوب الصعب من الألفاظ . وربما كان لعاهته المستديمة ، واحساسه العميق بها ، أثر في لجوئه الى ذلك ، ليعوض ذلك النقص الجسماني ، بالتفوق على معاصريه ، ومن هنا إنكبّ على الدراسة والمطالعة ، وربما يرجع بعض ذلك أيضاً الى عيشة الضنك والبؤس ، التي طبعت نفسه باليأس ، والتبرم بالحياة ، فكان ذلك من أسباب استجابته ، الى هذه الطريقة ، ولا عجب في ذلك ، لأن الأدب مرآة النفس البشرية ، يرق اذا رقت ، ويجفو إذا جفت وقد يكون لمذهبه الإعتزالي ، وتفكيره العقلي ، أثر فيما يتراءى لنا ، من صعوبة في ألفاظه .

وعلى أية حال ، فنحن نرى أن هذه الأسباب مجتمعة ، أثرت في أدبه ، وطبعته بطابع الوعورة والصعوبة، وربما التعقيد، ويظهر هذا لقاريء مقاماته، في استماله للفظ الغريب ، كأنه حلية يحلي بها كلامه . كما يظهر في جنوحه ــ في بعض الأحيان ــ الى استعمال الاستعارة البعيدة ، كما في قوله(٢) :

---

(١) تنظر الصفحات الآتية من مقاماته : ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٧ .
(٢) ينظر المصدر السابق . ص ٦٦ .

« .. وَقيلَ أهَبَّ المَلِكُ لِفُلانٍ قَبولِهِ[٣] رُخاء ، وأَرْخَى له عَزالي[٤] سحابِه إرْخاءً ، وَقُصارَى ذاكَ أنَّه يُصيبُه بِنَفْحَةٍ[٥] من السُّحْتْ ، وَرَضْخَةٍ[٦] مِنَ الحَرام البَحْتْ ، هَزَّ من عِطْفِهِ وَنَشِطْ ،وكُشِفَ غِطاءُ الهَمِّ وكُشِطْ ، واستُطيرَ فَرَحاً وازْدُهِي، وَرَمَحَ أذياله وَزُهِي ، وما شِئْتَ من اغتباطٍ مع نَخْوَه، وَطَرَباتٍ مِنْ غَيْرِ نَشْوَهْ ، وَكادَ يُباري كُبَيْداتِ السَّماءْ ، وَيُناطِحُ هامَةَ الجَوْزاءْ ... » .

فالزمخشري في هذه القطعة ، جعل للقلوب ريحاً قبولاً ، ثم جعلها رخاءً لينة الهبوب طيبة ، وفي هذا استعارة ، ولكنها بعيدة ، تحتاج الى التأمل ،لأنها استعارة غريبة ونادرة ، على حد قول محمد سعيد الرافعي الفاروقي ، محقق مقامات الزمخشري .

وكان الزمخشري واسع الاطلاع ، مثقفاً ثقافة عالية ، حزين النفس ،كسير القلب ، فأثر ذلك في أدبه ، وطبعه بطابع انعكاسي لنفسيته،في الظروف المختلفة، المختلفة ، التي عاشها ، ولهذا رأينا كيف أن المقامات في نظره ما هي الا المواعظ والحكم ، وعلى ذلك فهي انعكاس لنفسه ، في فترة من فترات حياته ، تلك الفترة التي استجابت بها نفسه الى الانقطاع الى الله ، بعد أن تحررت من سيطرة التطلع الى المال ، والمنصب والجاه ، والوقوف على أعتاب الأمراء والوزراء .

---

(٣) قبوله : القبول من الرياح : الصبا تهب من تلقاء الكعبة .

(٤) عزالى : العزلاء : فم المزادة وهي مسكبتها التي في اسفلها ، كأنها في الاصل صفة للمسكبة ، تأنيث الاعزل . شبهت بالذنب الاعزل ، وهو المائل في شق ، والجمع عزالى وعزالي ، وبها تشبه مخارق الودق ، وتستعار لها ، فتراها واردة على طريق التشبيه تارة ، وعلى طريق الاستعارة اخرى .

(٥) نفحة : النفحة اصلها في الرائحة ، ثم استعملت في القليل من العطية ، يقال أصابه بنفحة ونفحات .

(٦) رضخة : رضخ له : اقل له من العطاء . ورضخ له في الدلو : اذا سكب له فيها شيئا من الماء . واعطاه رضيخة من مال ورضاخة .

من كل ما تقدم نرى أن الزمخشري ، كان كاتباً حاذقاً ، وأديباً لامعاً ، له أسلوب أخاذ يخلب الألباب ، فيلهي عن تأمل ما به من صنعة ، بألفاظه الفصاح ، التي نراها كأنما خلقت لتكون في أماكنها ، من جمله وفقراته ، وعلى هذا يمكننا اعتبار نثره من الطبقة العالية ، مع أنه كثير السجع ، ولكنه لا يلزم ذلك ، ولذلك فقد أمتاز بالتعبير المشرق الفصيح •

أما أسلوبه في مقاماته ، فهو الأسلوب التجريدي الوعظي ، الذي يغلب عليه كما نوهنا ــ السجع ، ولكنه سجع يكاد يكون طبيعياً على كثرته ، كما يغلب عليه استعمال الألفاظ الصعبة ، التي تجعلنا نقول : إنّه ربّما كان يعنى ويشقى في اختيارها ، كما عني بالحكم والمواعظ • وفي استطراده الظاهر في انتقاله من فكرة الى أخرى ، مما يعطينا الحق أن نقول : إنّ ذوقه في نثره ، كان قريباً من ذوق أصحاب التصنع ، في القرن الرابع الهجري ، مع بعض المغالاة في هذا التصنع ، الذي بلغ ذروته ، في عصر الزمخشري •

ولعل كثرة استخدام الزمخشري للبديع ، وما يتصل به من تعقيد بعض زخارفه ، بالاضافة الى استخدامه للالفاظ الصعبة المبهمة ، التي لا تفهم الا بالرجوع الى القواميس ، هو الذي جعل أسلوبه يتراءى أحياناً للقاريء ، وفيه غير قليل من التكلف والتعمّل •

أما قدرته البلاغية فيها ، فربّما كان لاعتزاله أثر فيها ، كما أننا يجب ألا ننسى أنه نشأ نشأة أدبية كلامية ، ومن الطبيعي وهو لغوي أديب ، أن يكون بصيراً ، بحقائق اللغة ومجازاتها ، وأن يستعين بعلمه وذوقه ، في استعمالهبعض المعاني الدقيقة ، والألفاظ الأنيقة ، ولذلك جاء أسلوبه قوياً أنيقاً ، على ما فيه من صناعة ، تبدو متكلفة أحياناً •

أما من الوجهة العقلية ، فالزمخشري يقف عند تكرار ذكر الموت والميعاد والثواب والعقاب • وهو بمقاماته يغرس بذور التقى والإباء ، في صدور الناس • وقد استطاع أن يؤدي ما تجيش به نفسه ، ويطفح به صدره ، في تعابير فصيحة عميقة المعاني ، فيها سلاسة ومتانة ، ورقة وبراعة •

أما ذلك التناقض الذي يتراءى لنا عنده ، في غموض أسلوبه وتعقيده ،

وفي سلاسته ومتانته ورقته ، وسلامته وجزالته ووضوحه ، فما هذا الا صور للنفس الإنسانية ، التي تفصح عما يختلج بها ، من معـــان وأفكار وآراء وأغراض •

إذاً فمقامات الزمخشري ، تنتهي الى فلسفة واحدة، هي الوعظ والنصيحة والاسلوب الخطابي التجريدي ، والقول في مقالاته ، مثل القول في مقاماته ، من حيث أنها قيلت في الوعظ والنصيحة ، فهي نصائح فصيحة ، ومواعظ مليئة بمحاسن الجناس والكنايات والنكات البلاغية الجليلة ، والتشابيه الحسنة ، التي تدرك بعد الدراسة والتمعن •

يقول في احدى مقالاته[٧] : « موسِر" يَشِحُّ بالنَّوالِ ، ومُعْسِر" يَلِجُّ في السؤالِ[٨]، إذا التقيا فَجَنْدَلَتانِ تَصْطَكّانِ[٩]، وَجَديلتانِ مِنَ الضَّرائِرِ تَحْتَكّانِ[١٠] ذاكَ كَــزٌّ شَـحيح[١١] غَيْرُ مِعْوانٍ[١٢] ، لَهُ في وَجْهِ الصُّعْلوكِ فَحيحُ أفْعُوانٍ[١٣] ، وَهَذا مُلِحٌّ مُلْحِف" ، مُحِفٌّ مُحْجِف"[١٤] ، لَهُ دَقٌّ بالوَجْنَتَيْنِ ،

(٧) ينظر أطواق الذهب . ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(٨) قوله موسر الخ : اي أن الناس قسمان : غني يبخل بالعطاء ، وفقـير شديد الطلب .

(٩) وقوله اذا التقيا : اي اذا التقى الموسر والمعسر ، كانا كصخرتين ، تضرب كل منهما الاخرى .

(١٠) وقوله وجديلتان من الضرائر .. اي وكانا كقبيلتـين من الاضـداد تصطدمان . واصل الضرائر : الزوجات لزوج واحد . ويجوز ان يقال « وجدلتان من الظران » الخ . والجدلة مدقة لهراس اي (الهاون) . والظران : الحجارة المدورة المحددة . ولعل هذا ما قالـه المصنف ، فحرفه محرف .

(١١) ذاكَ كز شحيح : اراد بذاك اي الموسـر . والكز : الممسك . واصلـه اليابس المنقبض .

(١٢) المعوان : الحسن المعونة ، او كثيرها .

(١٣) الافعوان : حية خبيثة . والفحيح صوتها من فيها ، والحفيف صوتها من جلدهـا .

(١٤) قوله : وهذا ملح الخ : الالحاح كالاحفاف : تكرار السؤال بعنف ، واحفه ذكره بالقبيح . والاحجاف : الزيادة عن الحد المعروف المألوف .

دَقَّ انقصَارِ بالميجَنتَيْنِ[١٥] ، إنْ مُنِحَ تَبَشْبَشَ وتَطَلَّقَ ، وَتَبَصْبَصَ وتَمَلَّقَ[١٦] ، وإنْ مُنِعَ أَخَذَ بالمَخانيقِ[١٧] ،وَرمى بالمَجانيقِ[١٨] » .

ففي هذه القطعة ، نرى مقدرة أبي القاسم البلاغية ، وتشابيهه الجميلة ، واستعماله الأضداد ، بمعان حلوة جميلة .

وقد أفادنا الدكتور الحوفي ، ببعض ملاحظاته ، عن أسلوب الزمخشري ، وفتح أمامنا الطريق ، لنرى من خلالها ، المزايا الأخرى ، التي استطعنا على ضوئها اصدار بعض الأحكام ، على أسلوب أبي القاسم .

ومما أشار اليه الدكتور الحوفي ، أن الصبغة العامة ، لأسلوبأبي القاسم هي مجاراته لكتاب عصره ، وكلفه بالسجع وتكلف المحسنات البديعية ، وجنوحه الى حل المنظوم ، والتلاعب بالألفاظ الاصطلاحية[١٩] ، ويعلق على ذلك بقوله : ولقد كان من المأمول ، من أبي القاسم ، أن يتحرر من هذه القيود ، التي كبلت النثر الفني ، منذ القرن الثالث الهجري ، الى القرن العشرين ، لكنه لم يتحرر منها ، مع أنه قال في مقدمة المقامات[٢٠] : « ولتعلم أن ما سماه الناس البديع ، من تحسين الألفاظ ، وتزيينها ، بطلب الطباق فيها

(١٥) وقوله : وله دق الخ : اي ضرب بيديه على أعلى خديه ، كضرب القصار الثياب بمقصرتيه ، اي مدقتيه . والقصار : هو من يحور الثياب ، او يبيضها .
والميجنة : المدقة .

(١٦) تبصبص : استبشر .
تملق : تلطف . وتودد ، وزاد في ذلك عما ينبغي ، واعطى بلسانه خلاف ما في قلبه .

(١٧) قوله : وان منع اخذ بالمخانيق : اي امسك بمواضع الخنق من الرقبة ، وهي جمع مخنق . ويقال : اخذ بتلابيبه ، اي قبض على الثياب التي على لبته .

(١٨) قوله : ورمى بالمجانيق : كناية عن قذفه بالكلام القبيح ، وهي جمع منجنيق والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة والنار ، في الحصار .

(١٩) ينظر كتابه « الزمخشري » . ص ٢٧٢ .

(٢٠) ينظر ص ٣.

والتجنيس ، والتسجيع والترصيع ، لا يملح ولا يبرع ، حتى يوازي مصنوعه مطبوعه ، والا فما قلق في أماكنه ، ونبا عن مواقفه ، فمنبوذ بالعراء ، مرفوض عند الخطباء والشعراء » .

ونحن نقول : إنّه على الرغم من نهج الزمخشري هذا المنهج ، وسلوكه ذلك المسلك الوعر الصعب ، وتعمّله وتكلفه أحياناً ، واغرابه وايثاره الألفاظ الصعبة في بعض الأحيان ، إلا أنه أتانا بكل بليغ فصيح وجميل . ولعل سر بلاغته وفصاحته ، يرجع الى ما في معانيه من قوة وروح ، كما يرجع الى طرافته ، بحيث يَسْتَهْوي العقل والقلب ، وأما سر جماله ، فيرجع الى ذوقه الأدبي المرهف ، ودقته في قياس الجمال البلاغي ، بما يضفيه من رشاقة ورونق على ألفاظه ، ليطلعنا على ما في أسلوبه من كمال وجلال .

وخلاصة القول : إنّ مقامات الزمخشري وحدها ، تكفي لتجعله علماً ، من أعلام النثر ، في القرن الخامس الهجري ، فهي تحفة من تحف النثر الفني ، فيها من إمارات العقل والذكاء ما فيها . وأسلوبه فيها ــ على صعوبته ــ من أدق الأساليب وأصفاها ، ولذلك نستطيع أن نعده ، على رأس من خرّجهم أقليم خوارزم من النوابغ ، في القرن الخامس الهجري .

الفصل الخامس

رشيد الدين الوطواط

اذا كنّا قد التقينا في القرن الرابع الهجري ، بأبي بكر الخوارزمي ، فاننا نلتقي في القرن السادس ، برشيد الدين الوطواط ، الذي يُعَدُّ أشهر كتّاب هذا القرن ، في بلاد فارس عامة ، وفي اقليم خوارزم خاصة .

وقد تكلمنا من قبل على رشيد الدين شاعرا ، وقلنا إنّه ولد في مدينة بلخ ، التي كانت يومذاك أعظم مدن خراسان ، وكانت مساوية في مكانتها لنيسابور وهراة ومرو ، تكثر فيها المدارس(١) ، والجوامع والمكتبات ،التي كان يقضي فيها الفضلاء والعلماء أيامهم ، ناشرين نور العلم والفضل ،مقيمين فيها أسواق الافادة والاستفادة(٢) .

قدم رشيدالدين من بلخ ، الى خوارزم وافدا ، واشتغل بالأدب حتى مهر فيه ، وأصبح كاتب الدولة الخوارزمية . وكانت خوارزم قد بلغت أوج حركتها الثقافية ، الأدبية والعلمية ، في هذه الحقبة الزمنية ، فكان لهذا أثره البالغ في نفس هذا الأديب المثقف ، بعد أن عاش في هذه البيئة ، وفي وقت وصلت فيه الصنعة في الكتابة أوج عظمتها ، ولذلك لم يكن غريبا أن يتأثر بكل ما يحيط به ، ويعنى عناية كبيرة بتلك الفنون ، ويتزيد في صنعته الى درجة الغلو . ذلك الغلو الذي يدل على مهارة الكاتب وبلاغته . وقد كان رشيد الدين باتفاق من ترجموا له ، أكثر أهل عصره صنعة ، وأكثرهم براعة ، في النواحي الأدبية واللغوية ، وأعلمهم بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب .

ومن دراسة ديوان رسائله ، يتراءى لنا صحة هذا القول ، فالصنعة ظاهرة في نثره ، كما هي ظاهرة في شعره ، فهو يتكلفها ويؤثر الجناس ، على

---

(١) من اشهر مدارسها المدرسة النظامية ، التي التحق بها رشيد الدين ، وحصل فيها قدرا كبيرا من معلوماته ، وكان استاذه بها ، الامام أبو سعد الهروي .

(٢) للتفصيل ينظر مقدمة كتاب : حدائق السحر ١ : ٣ .

سائر أنواع البديع ، ولكنه ـ كما نرى ـ لو أراد أن يترك الصنعة ،ويمضي على سجيته لأحسن وأجاد .

وأظهر فنونه الكتابية ، فن الرسائل الديوانية ، والرسائل الإخوانية ، ورسائله الاخوانية تظهر فيها عاطفته القوية ، المتمثلة في حنينه الى وطنه بلخ، ومن ذلك رسالته الى جار الله الزمخشري ، التي يقول فيها[٣] :

« أنا منذُ لَفَظتني الأقدارُ مِنْ أوطاني ، ومعاهدِ أهلي وَجيراني، إلى هذه الخطةِ التي هي اليوم ، بمكانِ جارِ الله أَدامَ اللهُ دولتَه ، جَنَّةُ للكرامِ ، وَجُنَّةٌ[٤] من نكباتِ الأيامِ ، كانَتْ قُصوى منيتي ، وقصارى بغيتي ، أن أكونَ أحدُ الملازمينَ لسدتِهِ الشريفةِ ، التي هي مخيم السيادة ، ومقبل أفواه السادة. مَنْ أَلْقى بها عَصاهُ ، حازَ في الدارَيْنِ مُناه ، وَنالَ في المَحَلَّيْن مبتغاه ، ولكن سوءَ التقصير ، أو مانعَ التقدير، حرَمني من تلكَ الخدمةِ ، وَحَرَّمَ عليَّ تلكَ النعمة ... » .

ومن محتوى الرسالة ،نفهم أن رشيدالدين ، بعث بهذه الرسالة ، الى جارالله الزمخشري ، وهو مجاور لبيت الله الحرام ، تلك المجاورة التي طالما تمناها الوطواط لنفسه ، ولكن سوء التقصير ، أو مانع التقدير ، على حد قوله ، حرمه منها .

ثم يتحول الحنين الى آلام نفسية مبرحة ، فيتمثل لنا في شكل ثورة عارمة ، ومعاناة لأحزان دفينة ، سببها تلك المجافاة ، التي كانت نصيبه من بلده وأهل بلده ، حتى صغرت في عينيه ، بعدما كانت حبيبة الى نفسه ، مثلما صغروا في عينيه وهم أهله وأحبته ، فهو يقول[٥] :

« كانَتْ بَلْخ كسا الله سَيدَنا من دروعِ العصمةِ أضفاها ،وسقاه

---

(٣) ينظر مجموعة رسائله ٢ : ٢٩ ـ ٣١ .

(٤) الجَنَّة : البستان التف شجره حتى ستر الارض بأشجاه . وجمعها جنان وجنات واجنة . والجُنَّة : الوقاية والستر والدرع : كل ما واراك من السلاح ، وكل ما وقيء وجمعه جنن .

(٥) مجموعة رسائله ٢ : ٧ .

من كؤوسِ النعمةِ أصفاها ، أعزّ عليّ من مكّة على الحجاج ، فصارت أهونَ من « تبالة[٦] على الحجاجِ ، لما عايَنْتُ من جَفَوات ِ ساكنيها ، وعانَيْتُ من سيئاتِ قاطنيها ، فَطَوراً بالمشافهةِ والمخاطبةِ ، وتارةً بالمراسلةِ والمكاتبةِ ، هم ببلخ وأنا بخوارزم ، وَبَيْننا جبالٌ سامية ، وبحارٌ طامية ، ومهامهُ قفر فسيح ، لا يجوزها بَرْقٌ ولا يجوبها ريح ، وكلاكل ضرّهم عليَّ ملقاة ، ورواحل شرّهم اليّ مُزْجاة ، أسكتَ اللهُ شقشقة لا تهدر الاّ بالافحاش والابذاء ، وقطع أنملة لا تنقش الاّ صورة الايحاش والايذاء .. » .

ولنستمر معه في كتابه ، لنراه يصرخ متألماً ، فيصف أهل بلخ بالظلم ، وعدم الانصاف ، لأنهم بعملهم هذا قد أنكروا عليه فضله ، ونسوا انه درّة بلدهم وَضَوْؤها ، وقدوة أخيارها . فهو يقول :

« ولَوْ نظر أهل بَلْخ ، بعيون الانصافِ ، وعدلوا عن مواقفِ الظلمِ والاجحافِ ، لَعَرفوا واعترفوا أنّي درّة تاجها ، وشمسة قلائدِ مفاخرها ، كلّما ذُكِرَتْ محاسنُ بَلْخ ، في المحافلِ الغاصّة وَنُثِرَتْ بين يدي العامةِ والخاصةِ ، فأنا صدر جريدتها ، وبيت قصيدتها ، تثني عليَّ الأصابعُ ، وتُطْوى عليَّ الأضالعُ . وليتَ شعري ما بال أهل بلخ يقدحون فيَّ ، ويبرزون مساويَّ ، فيخمدون بذلك نارهم ، ويهدمونَ فخارهم ، أما يعلمون أنّي ركنٌ ، ان حطّمت قبن[٧] رباعهم ، ويمن ان قطّعت قفن[٨] ذراعهم .. » .

---

(٦) تبالة : بلد باليمن ، استعمل عليها الحجاج ، فأتاها فاستحقرها فلم يدخلها . فقيل : اهون من تبالة على الحجاج .

(٧) قبن : اي ذهب في الارض . والرباع : جمع ربع . والربع : الفصيل يولد في الربيع ، وهو اول النتاج ، ومنه ربعية النتاج وربعية القوم اي ميرتهم اول الشتاء ، أو اول الربيع ، وبعدها الصيفية ، ثم الدفتبة ، ثم الرمضية .

(٨) قفن : اي مات . والذراع في المساحة عند العرب ثلاثة : الشرعية ، والحديد السوداء ، والهاشمية . وتقدر كل منها بكذا من الاصبع .

وعلى هذا المنوال من المدح والفخر بالنفس ، والذم والهجاء ، لمنكري فضله ، ينهي رشيدالدين كتابه هذا ، الذي بعثه الى واحد من أعيان بلده بلخ .

برع رشيدالدين في كتابة الرسائل الديوانية ، كما برع في كتابةالرسائل الاخوانية . وكان طابع الصنعة ظاهراً على كل ما نظمه وما أنشأه ، تلك الصنعة التي تدل على أن صاحبها ، كان على درجة كبيرة من الالمام بمعارف عصره . ولا عجب اذ كان من أصحاب اللسانين ، وهم الذين أجادوا العربية والفارسية . وترجع أهميته في النثر العربي ، الى رسائله المؤلفة فيه. كما ترجع الى كتابه المشهور : حدائق السحر في دقائق الشعر .

ومن يقرأ ما كتبه ياقوت الحموي عنه ، يجده يشيد به ، وبفضله في النثر اشادة عظيمة ، فهو عنده أفضل أهل زمانه فيه(٩) .

أما صناعته في الكتابة ، فربّما من باب التقليد ، وليست صادرة عن طبع في ذلك ، لأنه لو أراد أن يرسل نفسه ، كما قلنا على سجيتها ، لأحسن وأجاد .

وأول رسالة تلقانا من رسائله ، كتابه الى الخليفة المقتفي لأمر الله ،وهو يبدأ بقوله(١٠) :

« الحمد للهِ كاشِفُ غُمَّةِ الغَمِّ عن عبادِه ، ومزيلُ ظلمةِ الظلمِ عن بلادِه ، قاهرُ مَنْ يترك حجتَه ، وناصرُ من يَسْلُك عن محجتِه . مُعمّر من يعمر العالم بالعدلِ والاحسانِ ، ومُدَمّرِ من يَسْفِك دماءَ بني آدمَ بالظلمِ والعدوان . قَدُمَتْ جَبَروته ، وَعَظُمَتْ ملكوته ، لا مَرَدَّ لقضائِه ، ولا مَفرَّ عن نازلِ بلائِه .. » .

ولعلّ أهم ما يلاحظ في كتابة الوطواط ، أنها مليئة بالمحسنات البديعية، من جناس وسجع وغيرهما .

---

(٩) ينظر معجم الادباء ١٩ : ٢٩ ، روضات الجنات ١ : ٧٧ ، الكنى والالقاب ٢ : ٢٧١ (طبعة الحيدرية . النجف) .
(١٠) ينظر : مجموعة رسائله ١ : ٤ .

ولنستمر في كتابه لنراه وهو يصف الأهوال التي أصابت البلاد بقوله(١١) :

« وَتَطايَرَتِ السهامُ ، وتَكَسَّرَتِ الجِراحُ ، وتكَسَّرَتِ الرِماحُ ، وأُطلقَتِ الأعنة ، وَأُشْرِعَتْ الأسنة ، وتَضايقَ المجالُ ، وتسابقَ الآجالُ ، وَحَمَيَ الوَطيسُ ، ودَمِيَ المرؤوسُ والرئيسُ ، والتفَّتِ الساقُ بالساقِ ، وتَلاعَبَتِ الأسيافُ بالأعناقِ ، وخضبت الدماء الخناجر ، وبلغت القلوب الحناجر ، حمل العبد على العدوّ وأتباعه ، زُمر الشقاق ، وعُصب النفاق ، حملة الليث الخادر ، وسَطا عليهم سطوة الاسدِ الزائرِ(١٢) ، رافعاً عَقيرتَه(١٣) بالتهليلِ والتكبير ، منتظراً النَصْرَ مِنَ اللهِ العزيزِ القَديرِ ، فَمَنَّ اللهُ بالظفرِ على عَبْدِهِ ، وأيده بنصرٍ مِنْ عندِهِ .. » .

أرأيت هذه المحسنات المتتابعة ، في احدى رسائل الوطواط ، وتلك العبارات المتتالية ، التي أتانا بها ، فاذا الكلمة في السجعة الأولى ، تعود في السجعة الثانية ، ولكن مع شيء من القلب والعكس ، في هيئتها وصورتها ، فإذا « خناجر » في السجعة الأولى ، تصبح « حناجر » في السجعة الثانية .

وتتوالى سجعاته ، حتى تتحول الى لعب بالألفاظ ، وهذا النوع كان يستهوي الأدباء في عصر الوطواط ، استهواء شديداً ، ولعل ذلك مما جعله يكثر من الجناس ، على اختلاف ألوانه . ومما ذكرنا قوله من كتاب بعث به الى الشيخ الامام مجدالدين ، حجة الحق صاحب البخاري(١٤):

« فارَقْتُ سَيِّدَنا ـ أطالَ اللهُ في شمولِ السلامةِ ، وسبوغِ الكرامةِ بقاءَهُ . وَرَزَقَني قَبْلَ اقترابِ الأجل ، وانقطاعِ الأملِ لقاءَه . وأنا أرْفلُ في أثوابِ الصِّبا . والعيشُ روائحُهُ اطيبُ من نسيمِ

(١١) مجموعة رسائله ١ : ١١ ـ ١٢ .
(١٢) الاسد الزائر : اي المغضب .
(١٣) العقيرة : الصوت .
(١٤) ينظر مجموعة رسائله ٢ : ١١ ـ ١٢ .

الصَّبا ـ فَها أنا وهامتي لاحَ القَتيرُ[١٥] بمعرفتها ، وطلعت نجومُ الشيبِ من مشرِقِها • زالَ النظامُ ، والعيشُ عادَ ذابلاً عوده ، آفلاً سعوده • والعمر آض[١٦] منفصماً عراه ، منتقضاً قواه ، وما أبْلى جدَّتي تطاولُ مدَّتي • ولكن شدائد لا تُعَدّ صنوفُها ، وحَوادِثُ لا تُرَدُّ صُروفُها » •

ولننظر الى قوله : لاحَ القَتيرُ ، والعمرُ آض ، وكان بمقدوره أن أن يقول ظهرت أوائل الشيب ، والعمر رجع ، ولكنه آثر هـذا التلاعب بألفاظه ، ليثبت مقدرته ومهارته في صنعته •

ومن رسائله التي تكثر فيها الصنعة قوله : من رسالة الى قوام الدين سهيل بن عزيز المستوفي[١٧] :

« حَضَرْتُ البابَ ، وَخَدَمْتُ البَوّابَ ، وَجَدَّدْتُ العَهْدَ بتقبيلِ ترابِ تلكَ العقوةِ[١٨] المباركةِ ، التي هي مرتبـــعُ الأماثلِ ، ومنتجعُ الأفاضلِ وشكرتُ صَنيعَةَ الأمسي ، وطلوعَهُ الشَمسي ، على بيتي الذي هو أَهْوَنُ البيوتِ ، وأوهَنُ من بيتِ العنكبوت•• » •

وما من ريب في أن هذا كله ، يدل على مدى ما كان يحاوله الوطواط ، من تصنع في رسائله وآثاره ، ذلك التصنع الذي خرج به الى الغلو ، والى الاستحالة أحياناً ، ولعله كان يأتي بالفنون البديعية ، ليثبت كما قلنا تفوقه ومهارته ، وليدل على أن باستطاعته أن يستخرج كل مايمكن من عقد التصنع وصعوباته • وهو في هذا ربما كان متأثراً بالحريري ، والصاحب بن عباد ، ولكنه زاد عليهما في صناعته •

لم يتعرض من ترجموا لرشيد الدين الوطواط • الى الكلام عن تدينه ، ذلك التدين العميق ، الذي يتراءى واضحاً ، لكل من يقرأ رسائله ، فهو كثير

---

(١٥) القتير : أول الشيب .
(١٦) آض : رجع .
(١٧) مجموعة رسائله ٢ : ٨٦ .
(١٨) العقوة : المحلة .

الاستشهاد بآي القرآن الكريم ، والمعاني القرآنية ، ولعل بعض ذلك التدين، يعود الى نسبه المتصل بالخليفة الثاني ، عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ولذلك نراه متحمساً في دفاعه عن الاسلام وعقائده ، واقفاً بصمود في وجه كل من أراد النيل منه • ومن ذلك كتابه الى من رمى عقائد المسلمين بالقبائح، وشهد على بواطن الأمور بالفضائح[١٩] :

« سَمِعْتُ أَيُّها الطالب للدنيا وَزَخارفِها ، الراغب عن الجنةِ ومخارِفِها[٢٠] ، المغرور في زمانِكَ برئاسةٍ كظلِّ السحابِ زائلة ، وكطيفِ الخيالِ راحلة ، وكوكب الصباح آفلة • المسرور من دينكَ ودنياكَ وآخرتِكَ وأولاك ، بشرذمةٍ من الجهال ، يجتمعونَ حولَكَ ، ويستمعونَ قولَكَ ، وإنْ كانَ اكثرُه باطلاً ، وعن دنيّةِ[٢١] الصدقِ وجليةِ الحقِّ عاطلاً ، أنَّكَ تصعدُ المنبرَ وهو أحد مصاعدِ رسولِ اللهِ، صلّى اللهُ عليه وسلم ، فَتَلْغو عليه بشتمِ أمتِهِ ، وَتَغْلو في اشاعةِ فواحش أهل ملته ، وترمي عقائدَ المسلمينَ بالقبائحِ ، وتشهدُ على بواطنِ المؤمنينَ بالفضائحِ ، مِنْ غيرِ مشاهدةٍ وعيان ، واختبارٍ وبرهان • أليسَ لَكَ دينٌ يردعُكَ ، ولا حياءٌ ينفعكَ ، ولا كرمٌ يزجرُكَ ، ولا حِجْرٌ يحجركَ • تَشْهَدُ بأنَكَ عالمٌ بالسرائرِ ، وتحكمُ كأنكَ مطلعٌ على الضمائرِ • هَيْهاتَ هيهاتَ ، ما للآدمي الذي أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة • وهو فيما بينهما بول وعذرة ، الى علمِ الغيوبِ سبيل ، وعلى معرفةِ مكنوناتِ القلوبِ دليل ، وانّما ذلكَ للهِ العلي الحكيم •• »

وعلى نحو ما اشتهر بحبهللدين الاسلامي ، ووقوفه بجانبه ، اشتهر بالكتابة الديوانية ، في بلاط السلاطين الخوارزميين ، وفي عصر السلطان السلجوقي سنجر واخوته ، ذلك العصر الزاهر في الأدب والعلم •

(١٩) ينظر مجموعة رسائله ٢ : ١٣ .
(٢٠) المخرفة : البستان ، أو جماعة النخل ما بلغت . وجمعها مخارف .
(٢١) الدنية : القرابة .

كان رشيد الدين كاتباً شاعراً ، ومن الكتاب الذين جمعوا الشعر والرسائل ، الطوال والقصار ، والكتب المؤلفة باللغتين[٢٢] .

ومن خلال تراجمه ، يظهر لنا أنه أهم كاتب ، ظهر في القرن السادس الهجري ، مما جعل محمد عوفي يقول فيه ما معناه[٢٣] : إنه صاد بفضله ، ووفور أدبه ، قلوب ملوك الزمان،وأرباب الدولة ، مما جعل السلطان اتسز، يطلب الاستئناس بمحاورته في أكثر الأوقات ، ويرغب في مجاورته ، ويغرم بنتاج طبعه .

وهذا الرجل بلغ من فن الصنعة ، ما لم يبلغه أحد في عصره ، مما جعل عوفي أيضاً يقول فيه[٢٤] : إنّ كل من تكفل التكلف في صنعة الكتابة ، أو رأى التأنق واجبا ، ما هو الا تلميذ كلامه .

وقد تبادل رشيدالدين الرسائل ، مع كثير من علماء عصره وأدبائه ، ومنهم الزمخشري ، والحسن القطّان . وقد اورد ياقوت الحموي ، بعض رسائله الى القطّان ، وهي رسائل تدور على الهجاء والسباب . أما رسائل القطّان اليه ، فلم يتحفنا ياقوت بشيء منها ،لأنه لم يستطع ـ على حد قوله ـ العثور على شيء من ذلك ، حينما كتب كتابه : معجم الأدباء .

ومن الرسائل التي أوردها ياقوت الحموي ، هذه الرسالة المتضمنة لأجوبة يدل آخرها على اضراب القطان عن تهمته ، والاذعان بابراء ساحته[٢٥] :

---

(٢٢) ذكر الخوانساري في كتابه : روضات الجنات ١ : ٨٧ . ان لرشيدالدين رسائل في الفارسية ايضا . اما ابن خلكان في كتابه : ترجمات المتقدمين من الشعراء . ص ٢٥ فذكر أن له نثرا باللغتين: أي بالعربية والفارسية.

(٢٣) ينظر كتابه : لباب الالباب . ص ٧٨ .

(٢٤) المصدر السابق . ص ٧٨ .

(٢٥) ذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم الادباء ٩ : ٩٥ ـ ٩٦ . انه حينما كان في مرو ، عرض عليه الشيخ فخرالدين أبو المظفر عبدالرحيم بن تاج الاسلام أبي سعد السمعاني ، جزءا يشتمل على رسائل للحسن القطان، الى رشيد الدين الوطواط ، محشوة بالسب له والثلب ، تصريحا لا تعريضا . ويلزمه الحجة في انه نهب كتبه ، وسلبه نتيجة عمره ، ولذلك فانه يترك مجازاته لله وحده على فعله ذاك . وهذه الرسالة ←

« بســـمِ اللهِ الرحمن الرحيم » : قَرَعَ سَمْعي مِنْ أَفْواهِ الوارِدينَ ، وأَلْسِنَةِ الطّـارِئينَ على خَوارِزْمَ ، أنَّ سَـيِّدَنا ــ أدامَ اللهُ فضلَه ــ كُلّما تَفَرَّغَ من مهمّاتِ نفسهِ ، وَوَظائِفِ دَرْسِه ، أقبلَ بمجامعِـهِ على أكلِ لحمي ، والاطنـاب في سَـبّي وشَتْمي ، وَيَنْشَبُني الى الاغارةِ على كُتُبِـهِ ، ويبالغُ في هَتْكِ أستارِ الكَرَمِ وحُجُبِه ، أهَذا يَليقُ بالفضلِ والمُروّةِ ؟ أو يجملُ بالكرمِ والفتوّةِ ، أنْ يَفْتَري على أخيهِ المسلمِ ، بمثلِ هذا الكَذِبِ المُقْلِقِ ، والبُهْتانِ المؤلمِ ، واللهِ ــ إذا نُفِخَ في الصّور ، يَوْمَ النّشور ، وَبُعِثَتْ هـذه الرِّمَمُ،(٢٦) الباليَـةُ ، مِنَ الأجـداثِ مُتَدَرِّعَةً ملابِسَ الحياةِ الثّانيةِ ، وَجُمِعَتْ عِبادُ اللهِ في مواقِفِ العَرَصاتِ ، وَتَطايَرَتْ صَحائِفُ الأعْمالِ الى أرْبابِها ،وَسُئِلَتْ كُلُّ نَفْسٍ عَمّا كَسَبَتْ ، فَمِنْ مُسيءٍ يُسْحَبُ على وَجْهِهِ الى النّارِ ، وَمِنْ مُحْسِنٍ يُحْمَلُ على أعْطافِ الملائِكَـةِ الى الجنّةِ ــ لَمْ يَتَعَلّقْ في ذلك المَقامِ الهائِلِ ، أحَدٌ بِذَيْلي طالبـاً منّي مُلْكاً غَصَبْتُهُ ، ولا مالاً نَهَبْتُهُ،(٢٧)، أوْ دَماً سَفَكْتُهُ أوْ سِتْراً هَتَكْتُهُ ، أوْ شَخْصاً قَتَلْتُهُ ، أوْ حقاً أبطَلْتُهُ .. » .

ومن الملاحظ أنّ أسلوب الوطواط في هذه الرسالة ، يغلب عليه السجع، وهو لون من ألوان البديع ، الذي أغرم به رشيد الدين . وعلى الرغم من هذا السجع الذي التزمه الكاتب في هذه الرسالة ، إلا أنه أجاد وأبدع ، في استعانته بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف . أما اجادته فتظهر في تصويره

موجودة ايضا في مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط ٢ : ١٨ . وفي تاريخ جها نكشاي ٢ : ٦ ــ ٧ .

(٢٦) في مجموعة رسائله ٢ : ١٨ « الامم » . وفي معجم الادباء ٩ : ٩٨ «الرمم» فاثبتنا ما رايناه اكثر مناسبة للمعنى .

(٢٧) في مجموعة رسائله ٢ : ١٨ « أو مالا نهبته » واثبتنا مافي معجم الادباء ٩ : ٩٩ .

لليوم العظيم ، الذي يقفه كل مسلم أمام الله ، ليحاسب على ما اقترفته يداه، كما تظهر في تصويره ليوم الحشر ، وبعث الرمم البالية من الأجداث ، تلك الاجادة التي جعلتنا نعيش الموقف بكل جوارحنا ، لأن الكاتب استطاع أن ينقلنا بعواطفنا ، الى تلك اللحظة الحاسمة ، منتظرين صحائف أعمالنا ، بقلوب واجفة ، داعية ربّها أن تكون مع من يحملون على أعطاف الملائكة الى الجنّة .

وقد جاء الكاتب بكل ذلك بأسلوب مبدع مشوّق ومروّع ، في نفس الوقت ، حيث جمع بين الترغيب والترهيب ، بما يلاقيه المحسن المؤمن ، وما يلاقيه المسيء المذنب .

ويذكر ياقوت الحموي أن الحسن القطّان ردّ على هذه الرسالة جواباً ، يكون في نحو كراستين ، يغلظ فيه له بالقول ، ويصرح فيه بالسب والتهمة ، فكتب اليه رشيد الدين يقول(٢٨) :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم » ، وَرَدَ كِتابُ سيِّدِنا أطالَ اللهُ بقاءَه – في دَوْلَةٍ مُفْتَرَّةٍ(٢٩) المباسِمِ ، وَنِعْمَةٍ مُتَجدِّدَةِ المَراسِمِ ، مُشْتَمِلاً مِنَ الإيذاءِ والايحاشِ ، والابْذاءِ والإفْحاشِ(٣٠) ، على كلماتٍ ، بَلْ على ظُلُماتٍ ، لَوْ أطْفأَ – أدامَ اللهُ عُلُوَّه – بَعْضَ لَهَبِهِ ، وسَكَّنَ ثائِرَةَ غضبه(٣١) ، ثم عادَ اليه مُتَصَفِّحاً لألفاظِهِ وَمَعانيهِ ، مُتَفَحِّصاً عن مقاطِعِهِ وَمَبانيهِ ، لَما ارتضى ذلكَ مِنْ دينِهِ وعَقْلِهِ ، ولما استَحْسَنَهُ من كَرَمِهِ

(٢٨) ينظر : مجموعة رسائله : ٢ : ١٩ ، معجم الادباء ٩ : ١٠٠ – ١٠١ .
(٢٩) افتر : اي ضحك ضحكا حسنا ، وأبدى أسنانه . وافتر عن ثغره : اذا تبسم ضاحكا .
(٣٠) وردت هذه العبارة هكذا في معجم الادباء ٩ : ٩٨ . وفيها اختلاف عما ورد في مجموعة رسائله حيث جاءت هكذا « مشتملا على الإيذاء والافحاش ، على كلمات ، بل على ظلمات » .
(٣١) هكذا وردت في معجم الادباء ٩ : ٩٨ . وفي مجموعة رسائله ٢ : ١٩ « كلمة غضبه محذوفة » .

وَفَضْلِهِ ، إلاّ أنّي أعْذِرُهُ فيما قَصُرَ كَلامُهُ أو طالَ[٣٢] ، لعلمي أنّه ـ أدامَ اللهُ عُلُوَّهُ ـ مَسْلوبٌ مَغْلوبٌ ، جَرِيحُ أسِنَّةِ القَهْرِ ، طَرِيحُ صَدَماتِ الدَّهْرِ ، عَضَّتْهُ أنْيابُ النَّوائِبِ ، وَخَدَشَتْهُ أظْفارُ المَصائِبِ . نَهِبَتْ كُتُبُهُ وأموالُهُ ، وَغُصِبَتْ رِحالُهُ وأَثْقالُهُ .. » .

وهكذا نرى رشيدالدين يسترسل في رسالته هذه ، ناصحاً هاجياً ،حتى يصل الى غرضه الأصلي ، وهو نفي تهمة السرقة ، التي ألصقها به القطّان ، حيث يقول :

« أمّا أنا فاللهُ تَعالَى يَعْلَم ـ وَقَدْ خابَ مَنْ استَشْهَدَ بهِ[٣٣] باطلاً ـ انّي ما فَتَحْتُ للإغارَةِ باباً ، ولا نَهَبْتُ كتاباً[٣٤]، بَلْ ذَهَبْتُ يوماً على مُقْتَضَى إشارَتِهِ الكَرِيمَةِ . لأحْمِلَ كُتُبَهُ الى المُعَسكرِ[٣٥] ، فَلمّا دَخَلْتُ دارَه الرَّقيعَةَ، وَرَأيْتُ كتباً كثيرةً ، فَوْقَ ما يُحيطُ به عَدٌ ، أو يَشْتَمِلُ عليه حَدٌ ، فقلتُ: نَقْلُ هذهِ أمْرٌ مُشْكِلٌ ، وَحَمْلُ هَذِهِ خَطْبٌ مُعضِلٌ ، فتَرَكتُها في أماكِنِها[٣٦]، وَخلَّيْتُها برُمَّتِها في مَعادِنِها ، وَخَرَجْتُ كَما دخلتُ خالي الحقائِبِ ، فارِغَ الزّكائِبِ[٣٧] .. » .

(٣٢) وردت هذه الفقرة في معجم الادباء هكذا : « فيما قال قصر كلامه او طال » .

(٣٣) في معجم الادباء ٩ : ١٠٢ « استشهده باطلا » .

(٣٤) في المصدر السابق ٩ : ١٠٢ « فتحت للاغارة بابه ، ولا نهبت كتابه » ، واثبتنا ما في رسائل رشيد الدين ، لانه اعم واشمل .

(٣٥) في مجموعة رسائله ٢ : ١٩ « العسكر » . واثبتنا ما في معجم الادباء .

(٣٦) ورد في معجم الادباء ٩ : ١٠٣ « فتركتها بحالتها في أماكنها » .

(٣٧) الزكائب : جمع زكيبة .والزكيبة : شبه الجوالق . والجوالق « معرب جوال » وعاء من أوعية الطعام . وقيل الجوالق والجواليق : هو البـر .

ففي هذه الرسالة يتبين لنا ، تلك الخصومات والمشاحنات ، القائمة بين الأدباء ، واتهام بعضهم بعضاً ، بسرقة الكتب كما رأينا ، ولكن التهمة بالسرقة لم تقف عند هذا الحد ، ولكنها كانت تتعداه ، حتى تصل الى التهمة بسرقة الأدب ، شعره ونثره . سرقة الأفكار والألفاظ والمعاني ، ولم يكن هذا بالشيء الجديد ، وانما هو قديم قدم الأدب .

ومما يؤكد لنا وجود السرقات الأدبية ، ما كتبه رشيدالدين ، الى واحد من الشعراء متهماً اياه بالسرقة ، من شعر الفحول من الشعراء ، ليشتهر بعد أن كان غمراً(٣٨) :

« عادة الأحداث الأغمار ، أنَّهم يَسْرِقونَ أبياتاً ، من دواوين شتى ، ثم يَتَصَرَّفونَ فيها ، تَصَرُّفَ الأجنبي في مالِ غيرِهِ ، ويعملونَ منها شعراً متكلفاً بارداً ، معتلّ اللفظ والمعنى « مختلّ الأساس والمبنى ، ثم بعد هذا كله يكتبون على صدر ذلك الشعر ، أسم فحل من فحول الشعراء ، ويبعثونَ به اليَّ طالبينَ منّي التَنْبيهَ على صالحِهِ وفاسِدِهِ ، ومستقيمِهِ ومائدِهِ ، ظنّاً منهم أنّي إذا رأيتُ اسمَ ذلكَ الفَحْلِ ، على صدرِ ذلكَ الشعر ، لم أجترىء على تزييفِ باطِلِهِ ، ولم أتَجاسَرْ على تَهْجينِ عاطِلِهِ ، أوَلَيْسوا يدرونَ أنَّ الناقِدَ البَصيرَ ، والعالِمَ الخبيرَ ، لا ينظر الى مَنْ يقول ، بل ينظر الى ما يُقال ، فقد يَسْمعُ القول وفيه طائلٌ ، من صبيٍّ جاهلٍ فَيَسْتَحْسِنُهُ ، وَقَدْ يَسْمَعُ القولُ وفيه باطلٌ من شَيْخٍ فاضلٍ فَيَسْتَهْجِنُهُ ، اعتماداً على وفورِ بضاعتِهِ ، وتَعْويلاً على مهارَتِهِ ، في صناعَتِه ، والسلام » .

فرشيدالدين في هذا الكتاب ، ليس كاتباً فحسب ، بل هو ناقد مجيد ، يتمتع بكل الصفات المتوفرة في الناقد ، في عدله وبعده عن الأهواء النفسية .

كذلك حدث بينه وبين القاضي جمالالدين ، يعقوب بن شيرين ، تلميذ الزمخشري ، جملة من المراسلات والمكاتبات ، ومما كتبه إليه قوله(٣٦) :

(٣٨) ينظر : مجموعة رسائله ٢ : ٦٧ ــ ٦٨ .
(٣٩) ينظر : المصدر السابق ١ : ٥٢ .

« يا جمال الدين يا علماً في الهدى ما مثلهُ علَمُ
ذو فعال كلّه سنن ومقالٍ كلّه حكم

أفاض الله تعالى على سيدنا جمال الدين ، أفضل القضاة كرمه ، وأصناف نعمه ، فقد أعجبتني مواقع براعته ، حين وافاني خطابه الجليل خطره ، الجميل أثره ، العالي عِزّه وقدرُه ، الحالي عجزُه وصدرُه .. » .

وعلى هذه الصورة ، من المديح لابن شيرين ، والسجع الذي يملأ الكتاب ، يختم الوطواط كتابه هذا ، الذي افتتحه ببيتين من الشعر ، كما هي عادته في كثير من رسائله .

كما جرت بينه وبين الشاعر الخاقاني ، مكاتبات شعراً ونثراً ، واعترف كل منهما لزميله بالفضل والأدب ، ومدح بعضهما بعضا . ولكن الأمر انتهى بينهما الى سوء التفاهم والعداوة ، فأخذ الخاقاني يهجوه .

كذلك تراسل رشيدالدين ، مع أديب صابر بن اسماعيل الترمذي ، وجرت بينهما جملة من المكاتبات الشعرية ، مدح كل منهما الآخر ، على الأخص في الفترة التي كان رشيدالدين فيها ، يقوم بمهمة الكاتب الخاص للسلطان اتسز ، خوارزم شاه ، بينما كان أديب صابر ، نديما للسلطان سنجر السلجوقي . وأخيراً ساءت العلاقة بينهما ، فتهاجيا بأفحش العبارات والأقوال(٤٠) .

وأهم ما في رسائل رشيد الدين أنها تعرفنا على بعض ظواهر الحياة السياسية ، مثل تعرض اقليم خوارزم ، لهجمات القبائل التركية ، الذين يطلق رشيد الدين عليهم « أهل الكفر » ، كما تبين لنا شيئاً عن بيئة هذا الأقليم ، عن شدّة برودته شتاءً وشدة حرارته صيفاً ، وذلك في قوله من كتاب بعث به ، الى الخليفة المقتفي(٤١) :

« .. إنّ خوارزمَ حَماها اللهُ تَعالى ، واقعٌ في نَحْرِ الكفرِ ،

---

(٤٠) ينظر حدائق السحر . ص ٤٤ . وفي ديوان رشيدالدين الوطواط الكثير من هذا الهجاء .

(٤١) ينظر : مجموعة رسائله ١ : ١٦ ـ ١٧ .

ولأهلِها أعداءٌ مِنَ الكفّارِ شدادُ الأنيابِ ، حِدادُ الأظفارِ ، والعَبْدُ[٤٢] يغزوهم كلَّ سنةٍ كرَّتَيْن ، في فَصْلَيْنِ مختلفين ، شتاء يكشِّرُ البردُ فيه عن أنيابِه ، ويشقُّ الإهابَ بجرابِه[٤٣] ، وصيفٌ يَحْمي حرُّه وطيسَ الحَصْباءِ[٤٤] ، وتَعْمي شَمْسُه عينَ الحرباءِ ، بأولادِهِ وأقاربِهِ وأجْنادِهِ وكتائبِهِ ، يَرْدي أبطالَهم ، ويَسْبي أطفالَهم ، ليصونَ بلادَ المسلمينَ ، من بوائِقِ مكرِهم ، ويحفظَ ديارَ المؤمنينَ ، من صواعقِ شرِّهم .. » .

ومن الملاحظ أن رشيد الدين ، يشير في هذا الكتاب ، الى خروجه مع الجيش المحارب ، واشتراكه في الحروب ، التي كان يخوضها السلاطين الخوارزميون ، واصطحابهم له في حملاتهم ، ولا سيّما السلطان خوارزم شاه ، آتسز .

كما يتبين لنا في هذا الكتاب ، إحدى الظواهر الاجتماعية ، وهي الغزو الذي كان عادة يأتي مع الحروب . وفيه بعض الظواهر الدينية مثل تمسكهم بالدين الإسلامي ، ومحافظتهم على شرائعه ، ضد أعدائه الكفّار . وفيه اشارة الى تسامح الدين الإسلامي معهم ، واعطائهم حرياتهم .

وفي نهاية الكتاب اشارة الى ظاهرة سياسية هامة ، وهي موالاتهم للدولة العباسية ، والعمل على اتساع رقعتها ، والوقوف بوجه كل من يعاديها في قوله[٤٥] :

---

(٤٢) يريد نفسه ، لانه كان يذهب مع الجيش ، برفقة سلاطين خوارزم .

(٤٣) الاهاب : الجلد

جرابه : الجراب (وقد يفتح) المزود : وهو وعاء من اهاب الشاة لا يوعى فيه الا اليابس . وجمعه : جُرُب و جُرْب وأجْربة ويستعار لقراب السيف . وقد اتى الشاعر هنا به على التشبيه ، بالسيف الذي يشق الجلد .

(٤٤) الحصباء : الحصى ، واحدتها حصبة .

(٤٥) ينظر : مجموعة رسائله ١ : ٢١ .

« إنَّ آباءَ العبدِ ، سَقاهم اللهُ صوبَ غفرانِه ، وكَساهم ثَوبَ رضوانِه ، كانوا مِنَ المستنفذينَ مجهودهم ، والمستفرغينَ مجلودهم[٤٦] ، في موالاةِ الدولةِ القاهرةِ العباسية ، مَهَّدَ اللهُ بنيانَها ، وَشَيَّدَ أركانَها .. » .

ثم يتدرج الى ذكر الفتن التي أصابت خراسان ، في زمن هذه الدولة ، وامتدت حتى بلاد ما وراء النهر ، وتخريب المساجد والمدارس ، وسفك الدماء ، وضعف الدين الإسلامي في الديار ، الى غير ذلك من الظواهر العامة ، التي احتوتها كتب رشيدالدين ، التي بعث بها الى الخليفة المقتفي لأمر الله .

والوطواط يحرص دائماً على أن ينوه ، بالموقف الإيجابي الذي وقفته عائلته ، في مساندتها للدعوة الاسلامية ، منذ دخولها في الاسلام ، وانه قد اقتفى أثرهم في ذلك ، فقصر أيامه على نصرة الدولة الاسلامية[٤٧] .

ومن مكاتباته نعرف أن اقليم خوارزم ، كان يسوده الهدوء والطمأنينة ، في أوقات كثيرة ، كما كان مقصداً للوافدين من الأقاليم الأخرى[٤٨] . وان هذا الاقليم أصبح مأمناً للخائف ، وملاذاً للهارب ، ومسكناً للطائف ، ومعاذاً للراهب ، وذلك في قوله[٤٩] :

« حتّى صارَتْ خوارزمُ ، عَمَّرَها اللهُ في زمانِنا، مأمنَ الخائفينَ ، ومسكنَ الطائفينَ ، وملاذَ الهاربينَ ، ومعاذَ الراهبينَ ، يَتَوَجهونَ اليها بأمورٍ مِنَ النكباتِ مضطربةٍ ، وصدورٍ منَ الحسراتِ ملتهبةٍ . فينصرفونَ عنها وعللهُمْ مشفية ، وأحزانهم منفية ، ومهماتهم مكفية . لله الحمد والمنّة ، على هذا العزِّ الواسعِ النطاقِ ، والشَرَفِ المرتفعِ الرواقِ .. » .

---

(٤٦) مجلودهم : اي شدتهم وقوتهم ، وصبرهم وصلابتهم . قال الشاعر :
« فاصبر فان اخا المجلود من صبرا » .

(٤٧) ينظر : مجموعة رسائله ١ : ٢١ .

(٤٨) ينظر كتابه الذي بعثه الى والي اصفهان ، سنة ٥٤٥هـ . في مجموعة رسائله ١ : ٤٠ .

(٤٩) ينظر المصدر السابق ١ : ٦٢ .

ورسائله تعرفنا على جوانب من الحياة الثقافية ، مثل عقد حلقات للدرس ، واقامة الندوات لذلك الغرض ، وذلك في قوله من كتاب ، بعث به ، الى عمادالدين ، صالح بن البلالي[٥٠] :

« مجلسُ سيِّدِنا أقْضَى القضاةِ ، عمادُالدينِ ، قدوةُ الاسلامِ ، سَيِّدُ علماءِ الشرقِ ، والغربِ ،متَّعَ اللهُ أهلَ الاسلامِ ، بطولِ مدّتِه، وصرفَ مَكارهَ الأيامِ عن جنباتِ سدّتِه ، دوحة للشرائعِ سامقة ، وبيعة للصنائع باسقة ، قد تفرعت منها أغصانٌ ظاهرةُ الثمارِ ، وأفنانٌ زاهرةُ الأزهارِ ، وهذا الشبل البار ، والنجل السار ، الذي فَرّقَ الأمةَ ، وجمّلَ حلقَ الأئمةِ ، بجلوسِه في ندوةِ الدرسِ والفتوى ، وتمسكِه بعروةِ الورعِ والتقوى .. » .

ومنه أيضاً نعرف أن اقليم خوارزم ، كان مجمع العلماء والفضلاء والحكماء وذلك في قوله[٥١] : « إنّ خطةَ خوارزم حَماها اللهُ ، كانت في جميعِ الأوقاتِ مجمعَ العلماءِ ومرتعَ الفضلاءِ ، يسكنُها الحكماء المحققون ، ويقيمُ بها الأطباء المبرزون ، كالامامِ فريدِ العصرِ أبي مضر الضبي ، رحمةُ اللهِ عليه ، وكالسيِّدِ العالمِ شَرفُ السادةِ ، اسماعيل الجرجاني ، طيَّبَ اللهُ ثراه ، وهو الذي انتَشَرَتْ تصانيفُه في الآفاقِ ؛ واشتهرتْ مجموعاتُه ، في أقطارِ خراسانَ والعراقِ ، وغيرهما من سرواتِ كلٍّ فنٍّ ، ورجالاتِ كلٍّ علم ... » .

كما يبين لنا بعض الظواهر الأخرى ، مثل ظاهرة بيع الأبناء ، وان كنا لا نستطيع الجزم بأنها ظاهرة عامة ، لأننا لم نقف على مثل هذه الظاهرة ، في حياتهم الاجتماعية ، وانما وجدناها ، عند رشيدالدين ، في كتاب أرسلهالى بعض الأفاضل[٥٢] :

« سألتَني لا زالتْ أمورُك منتظمةٌ ، وثغورُكَ مبتسمةٌ ، عن أمرِ الغلام ، بعناهُ والدموعُ ينسكبُ مزنُها ، والضلوع يلتهب حزنُها ،حسرةً

(٥٠) مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط ١ : ٤٨ ـ ٤٩ .
(٥١) المرجع السابق ١ : ٦٤ .
(٥٢) ينظر مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط ٢ : ٨١ ـ ٨٢ .

على ما فقدناه من نسيمِ وصالِه ، ونعيمِ جمالِه ، والله لولا السيوف وحدتها ، والحتوف وشدتها ، لما بعنا شعرةً من ذؤابةِ رأسِه ، بل قطرة من صبابة كأسه ، بملءِ الأرض تبراً وعَسْجَداً ، وبطلاع[٥٣] الدنيا درّاً وزبرجدا ، وهل يليق بشيمتِنا الزاكية ، وهمّتِنا العالية ، وسجيّتِنا السرية ، وحميّتِنا العمرية ، أن نبيعَ أولادَنا بالذهبِ ، وأكبادَنا بالنشبِ ، وأرواحَنا بالطعامِ الذمي ، وأفراحَنا بالحطامِ الدني ، لا ولكن أذية زمت الينا ، وبلية قضيت علينا ، لعن الله ثمناً بخساً ، وزمناً نحساً ، بيعَ يوسف صلوات اللهِ عليه به فيه ، حتى ابيضتْ من الحزنِ عينا أبيه . الدعاء الدعاء ، فإن بدعاءِ مثله ترفَعُ المشكلاتُ ، وتُدفَعُ المعضلاتُ ، والسلام » .

فرشيد الدين في هذا الكتاب ، يبرر موقفه من بيع ابنه ، بسبب الحروب التي كان يخوضها ، في مشاركته مع الجيش الخوارزمي ، وهو وان كان صادقاً ، في ادعائه هذا ، الا أنّ عذره باطل ، لأنه ليس الأب الوحيد في الجيش ، بل هناك الكثير من الجنود ، وأكثرهم آباء .

ولا نغالي لو قلنا : ربّما يكون هذا الولد الذي ذكره رشيدالدين ليس ابنه من صلبه ، وانما هو غلام من الغلمان ، كان في خدمته ، وعلى هذا فهو في مكانة الولد .

كما يتبين لنا ظاهرة أخرى ، هي ظاهرة الأسرى في الحروب ، التي كانوا يخوضونها مع القبائل التركية ، التي سماها رشيدالدين قبل قليل ، بأهل الكفر ، وهذه الظاهرة هي ظاهرة عامة ، تتبع الحروب أينما وجدت ، وفي أي زمن كان ، وفي رسالة رشيدالدين ، الى الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله ، رأيناه ينوه بهذا مصوراً ما يفعله الجيش الخوارزمي بتلك القبائل ، في قوله : « يردي أبطالَهم ، ويَسبي أطفالَهم ، ليصونَ بلادَ المسلمين ، من بَوائِقِ مكرِهم ، ويحفظَ ديارَ المؤمنينَ ، من صَواعقِ شرِّهم .. » .

ولرشيدالدين رسائل اخرى كثيرة ، تلقي بعض الضوء ، على مشاكل عصره ، من فتن وحروب ، وما ينتج عن ذلك من تدمير المساجد والمدارس ، وسفك الدماء ، وقتل الأبرياء .

---

(٥٣) طلاع : ملء .

مميزات فنه الكتابي :

رشيدالدين الوطواط ، شاعر في منثوره ، كما هو شاعر في منظومه . سلك في نثره الطريقة التي سلكها ، أبو بكر الخوارزمي من قبل ، الا أنه غالى فيها ، حتى رأى بعضهم[١] أنّه يتصنع ويتكلف ، ويبتعد عن الرقة ، ولا سيّما في رسائله التي تبادلها مع الحسن القطّان . ولعل التزامه السجع ، وشغفه بالمحسنات البديعية في رسائله ، هو الذي أوحى اليهم بهذا الحكم عليها .

ومن يقرأ مجموعة رسائله ، يرى أن أسلوبه يغلب عليه الاكثار ، من المحسنات البديعية ، لاسيّما الجناس والسجع . كما يمتاز بأنه أسلوب واضح، قليل الغريب والحوشي . تغلب عليه المسحة الدينية ، الواضحة في استشهاده بالآيات القرآنية ، وتغلب عليه ظاهرة استشهاده بالشعر العربي .

ونحن بعد أن عشنا فترة ليست بالقصيرة مع رسائله ، وألممنا بنتف أخرى عن حياته من خلال تراجمه ، نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون ، إنّ رشيدالدين ، كان من فصحاء الاسلام ، ومن ذوي البيانين ، ومن كتّاب الدرجة الأولى في الإنشاء[٢]،وبهذا استحق بجدارة أن يصفه ياقوت، بنادرة الزمان ، وفرد الدهر .

ورسائله توضح لنا ، أنّه قد طرق في نثره ، أكثر الأغراض الأدبية المعروفة ، في الشعر العربي ، من مدح وذم وهجاء ، وتهنئة وتعزية ورثاء ، وتشوق وشكوى وتوصية واعتذار ، الى غير ذلك .

---

(١) ينظر راي الدكتور محمد زغلول سلام ، في كتابه : الادب في العصر الايوبي . ص ١٨٥ . وقد كرر رايه هذا في كتابه الاخر : الادب فيعصر صلاحالدين الايوبي . ص ٢١٢ . مطبعة : مؤسسة الثقافة الجامعية ـ اسكندرية ١٩٥٩م .

(٢) ذكر المستشرق براون في كتابه : تاريخ الادب في ايـران . ص ٤١٧ . ان رشيدالدين الوطواط ، كان يلقب غالبا بالكاتب ، لاشتغاله بالكتابة .

فمن المـــدح قوله من كتاب ، بعث به الى وزير الخليفــة المقتفي لأمرالله[٣] : « .. وكيف لا أواظبُ على اقامةِ وظائفِ حمده ، وهو الذي نظمَ للخلافةِ عقودَها، وأقامَ للامامةِ عمودَها ، وأوضحَ للدولةِ منارَها، وأظهرَ للملّةِ آثارَها ، وتركَ البدعةَ مقصوصةَ الجناحِ .. فللّهِ درّه من وزيـرٍ ، لم يتــدنسْ عِرْضُــه بالأَوْزارِ ، ولم يتلطّخْ رِداؤهُ بالأَوْضارِ[٤] » .

وكثيراً ما خرج مدح الوطواط ، الى حدّ التشوق للممدوح ، ذلك التشوق الذي يصوره في حالة مفارقة العاشــق معشوقه ، ولنره يقول من كتاب بعث به ، الى العالم مجدالملك ، عزيز طغرائي[٥] :

« كتبتُ الى مجدِ الملكِ ، أطالَ اللهُ بقاءَ المجدِ والشرفِ ، باطالةِ بقائـه ، وأدامَ عزّ الأدبِ بادامةِ عزّهِ وعلائـهِ ، وفي اطباقِ عيني عيون مفجرة ، وفي احناءِ قلبي نيران مسجرة[٦] ، شوقاً الى طلعتـه التي ببهائـها تتحلّى المجالسُ ، ونزاعاً الى غرّتـه التي بضيائـها تتجلّى الحنادس[٧] . ولو ساعدتـني السعود ، وعاضدتْني الجدود ، لأطفأتُ نائرةَ الغرام ، وأَلْوَيْتُ أصابعي ناصية المرام ، بعزمةٍ من عزماتِ الرجال ، ونهضةٍ من نهضاتِ الأبطال .. » .

وقبل أن يختم كتابه ، نراه يستشهد ببيتين من شعر المتنبي ، يبيّنان لنا شدّة شوقه للممدوح ، ويظهران كأنهما قيلا في الغزل ، لا في المدح :

وما شَرَقي بالمـاءِ الا تذكّراً لمـــاءٍ به أهلُ الحبيب نـزولُ
يحرمـه وقع الأسـنةِ دونـه فليسَ لظمآن إليــه وصولُ

وأخيراً .. والحق يقال إن رشيد الدين الوطواط ، قد بلغ الذروة في كتابته ، من حيث الصنعة في فنه ، ومع ذلك فأسلوبه واضح ، ليس فيه تعقيد ولا اغراب ، وان كانت فيه الصنعة والتصنع أحياناً .

---

(٣) ينظر : مجموعة رسائله ١ : ٣٠ .
(٤) الاوضار : الاوساخ .
(٥) المصدر السابق ١ : ٤٤ .
(٦) مسجرة :اي موقدة .
(٧) الحنادس : الليالي الظلماء .

الخـــاتمة

بعد الجهد والصبر ، الذي يستوجبه البحث العلمي ، ويتطلبه العمل الجاد ـ لا سيّما إذا كان البحث شاملاً ، والأخبار عنه غامضة ، ولم يحظَ بأية دراسة سابقة تجلو هذا الغموض ، وتبدد عنه الظلام ـ استطعت أن أصل الى بعض الأمور المهمة ، المميزة لأدب هذا الاقليم •

ولتبيان هذا أقول : إنّ هذا الاقليم مرّ في عصور زاهرة في أدبه العربي، وزها فترة ليست قصيرة ، في اتناجه الشعري والنثري ، ومثّل حقبة من أخصب الحقب الأدبية ، في تاريخ الدولة الاسلامية ، تمثلت في القرن الرابع الهجري ، والقرنين التاليين له • وقد استطاع هذا الاقليم ، في ظلّ الدولة الاسلامية ، أن ينهض نهضة كبيرة ، في الحياة الثقافية والأدبية ، ظهرت واضحـة جلية في القرن الرابع الهجري ، ممثلة في الشاعر الكاتب ، أبي بكر الخوارزمي ، وغيره من شعراء هذا الاقليم وكتّابه •

ومن تتبعنا لمسير الأدب في اقليم خوارزم ، ومن دراسة اتجاهاته ،رأيناه أدباً راقياً ، متيناً في شعره ، فنّياً في نثره ، متتبّعا ـ في أكثر الأحيان ـ خطى الأدب العربي ، الجاهلي منه والاسلامي ، محاكياً له في نماذجه في صورهـا المختلفة ، مضفياً عليه ألواناً من التجديد ، جعلته محتفظاً بشخصيته ، متميزاً عن غيره •

ومن هنا نستطيع أن نقول : إنّ هناك تيارين من الأدب ، سارا جنباً الى جنب في هذا الاقليم النائي ، هما التيّـار التقليدي الذي جاء رغبة في التقليد والمحاكاة ، ومجاراة لروح العصبية للعرب وللعربية ، والدين الاسلامي الجديد عليهم ، وتمسكهم بالمحافظة على الخط التقليدي ، الذي سار عليه الأدب العربي •

والتيّار الآخر : هو التيّار الذي انطلق من بيئتهم البعيدة ، وأصلهم غير العربي ، والذي يظهر واضحاً جليّاً ، في ميلهم وشغفهم بالمحسنات البديعية ، وفي صورهم المستحيلة ، في مديحهم الذي يضفونه على الممدوح ، في صورة يكره العرب أن يُمدحوا بها • وقد درست كلّ هذا مفصلاً في الاتجاهات الشعرية ، وفي دراستي للشعراء ، على أن هذا التيار يكاد يذوب ويتلاشى أمام التيّار الأول ، بحيث لا نكاد نلمسه في أدبهم ، إلاّ بعد التمعن والتدقيق ، اذ كان لهؤلاء طريقتهم في تناولهم للأدب الجاهلي ، والأدب الاسلامي،وصياغتهم ذلك بأسلوب فني جديد ، جعل تلك الجدة ــ على قلّتها ــ حافلة خصبة ، رفعت من قدر هذا الأدب في أعيننا • وقد وفّر له قائلوه ضروباً من الجهد الفني ، ظهر واضحاً في الصنعة البديعية ، التي مال اليها أكثر أدبائهم ، وتغلبت هي على بعضهم الآخر •

ومن الجدير بالاشارة ، أن أكثر أدباء هذا الاقليم ، لم يقتصروا على فن واحد من فنون الأدب ، وإنّما هم شعراء وكتّاب ناثرون ، ثم فقهاء ومحدثون وفلاسفة • وقد حاز بعضهم قصب السبق في العلوم العقلية واللسانية ، الا أنه من الجدير بالذكر أن نشير الى أننا لم نجد للأدب في هذا الأقليم ،انعكاساً للبيئة التي ترعرع فيها ، ولعل مرد ذلك يرجع الى ضياع الكثير من اتناجهم ، نتيجة عوادي الدهر ، ونتيجة الغزو التتاري المغولي ، الذي قضى على الشيء الكثير ، حتى أباد كلّ شيء تقريباً • ومع هذا فقد تميز أدبهم ــ الى حد ما ــ ببعض الخصائص التي جعلته ذا خصائص فنية ، تجلت فيها آثار النهضة الثقافية العالية ، التي كان يعيشها أقليم خوارزم ، ولا سيّما في ظلّ الدولة الخوارزمية ، وفي الحقبة التي حكم البلاد فيها ، السلطان خوارزم شاه اتسز•

ومما لاحظناه في هذا الاقليم أيضاً ، ظهور بعض الشخصيات التي لعبت دوراً كبيراً في كثير من ميادين الحياة الأدبية ، حتى انها فرضت نفسها على النتاج الأدبي بشتى ميادينه ، فهي شاعرة ناثرة ومؤلفة في آن واحد • ويتجسد هذا في بعض مؤلفات القرن الرابع الهجري ، والقرنين التاليين له ،

إذ تظهر لنا تمكنهم من العلوم والثقافة والأدب . وخير من يمثل هذا الجانب، أبو بكر الخوارزمي ، الشاعر الناثر والكاتب المؤلف . وأبو القاسم الزمخشري . وأبو الريحان البيروني . والامام الوافد فخرالدين الرازي . ثم ابن سينا .

إن الأدب في هذا الاقليم ـ كما رأينا ـ لم يكن انعكاساً للبيئة التي ترعرع فيها ، ولكن لا يعني هذا انعدام أثر هذه البيئة ، في هذا الأدب ، فقد كان لها أثرها في الاتجاهات الأدبية التي عرفها أدبهم ، كما كان للحوادث التي مرّ بها اقليم خوارزم ، وتعاقب الدول عليه أثره الفعّال ، ومساهمته في ظهور وبروز بعض الاتجاهات الأدبية ، فظهر ذلك في تغلب فن المديح على أكثر شعرائهم وكتّابهم ، وفي تلك المغالاة في مديحهم ، وفي صورهم المستحيلة التي يضفونها على الممدوحين ، لاشباع رغبة رجال الدولة في المديح . ومن هنا رأينا المنافسة الداعية الى التجويد الفني في أدبهم ، إذ يرهق الأديب نفسه ، في انتقاء الألفاظ واختيار المعاني ، لتحوز قصيدته أو قطعته النثرية ، اعجاب الممدوح ويحظى برضاه .

ومن هنا كان اتجاههم الشعري ، قد تمثل في عدة جوانب منها : الميل الى الغرابة في المعاني وفي الألفاظ . فالألفاظ ـ في كثير من الأحيان ـ تستدعي تفسيراً وتحليلاً ، ورجوعاً الى المعاجم . وتشهد على هذا حواشي هذه الرسالة، وقد رأينا هذه الصورة التي ذكرناها ، واضحة جلية في شعر القاسم بن الحسين، الذي ينحو منحى أبي تمام والمتنبي ، في استغلاق معانيه وعمقها . كما رأيناها في مقامات الزمخشري . وعزونا ذلك لعدة أسباب ، فصّلناها في دراستنا له كاتباً وناثراً .

أما الجانب الآخر : فهو جانب منهج القصيدة ، من حيث استهلالها بالغزل التمهيدي ، ثم التخلص الى الغرض فيها وهو المديح .

وهناك جانب آخر : هو مراعاة الشعراء الجزالة والفخامة في اللفظ ، ويكاد

هذا يكون شاملاً في أشعارهم • ثم هناك جانب الأسلوب وتجميله بألوان من المحسنات البديعية ، ولا سيّما الجناس والطباق والتورية والتكرير •هذا بالاضافة الى الاستعارات العذبة ، والتشبيهات الرائقة التي نجدها عند الكثير منهم • وقد غالى بعضهم في استعمال هذه المحسنات ، حتى خرج بها من الصنعة الى التصنع أحياناً ، كما هي الحال عند الشاعر الكاتب ، رشيدالدين الوطواط ، الذي تغلبت عليه الصنعة شاعراً ، كما تغلبت عليه ناثراً •

ومما يجب التنبه اليه ، أن كثيراً من شعرهم كان خالياً من العاطفة ، ولعل مرد ذلك ، عدم اقتصار الشاعر على قرض الشعر ، وانّما كان الواحد منهم شاعراً وناثراً ، وفقيهاً ومحدثاً ، فابن سينا مثلا ، كان شـــاعراً وفيلسوفاً في آن واحد •

وليس معنى هذا أن شعرهم كان خالياً من العاطفة ، فنحن تتلمسها في اشعارهم التي تفيض حنيناً لأوطانهم التي فار قوها • وخاصة لدى اولئـك الشعراء الوافدين ، كما هي الحال عند الشاعر ، محمد بن عبدالملك الكلثومي، وشاعر الشام ابن عنين • والشاعر رشيدالدين الوطواط وغيرهم • أو اولئك الشعراء المهاجرين والمفارقين ، كما هو الحال عند الإمام ، جار الله الزمخشري•

ومن الجدير بالذكر أيضاً ، أن شعر الطبيعة ــ كما لاحظنا ــ قليل جداً في شعر شعرائهم • ولست أدري السبب في ذلك ، وان كنت أرجح أن ضياع أكثر منتوجهم ، كان السبب الرئيس فيه ، وان ما وصل الينا من شعرهم كادَ يخلو لسوء الحظ من هذا الضرب من الشعر ، فبيئة خوارزم ــ كما علمنا ــ لها ميزاتها الخاصة ، التي من الممكن أن تجذب اليها خواطر الشعراء ، فهي بيئة باردة جداً ، وافرة الخيرات والأشجار الباسقة على اختلاف أنواعها ، ثم هناك نهر جيحون ، الذي تتجمد مياهه شتاء ، حتى يتحول الى طريق يسير عليه الناس ، والقوافل والدواب ، وهناك الحيوانات المختلفة ذوات الفراء الجميل • فمثل هذه الظواهر المتمثلة في وصف الطبيعة الحية وفي الطبيعة الصامتة ، لابدّ أن تثير في نفس الشاعر أحاسيس مختلفة ، تنطلق شـــعراً

على لسانه ، في وصف هذه الطبيعة الساحرة ، وهذا ما لا نجد منه إلاّ النزر القليل عند بعضهم ، حتى لا يكاد يذكر • على أنه مع قلته لا يصح لنا الحكم بخلو شعرهم من وصف الطبيعة فيه ، فقد جاء في أشعارهم ، وصف للطبيعة الحية ، متمثلا في وصفهم للريحان والطير والعقرب والحيّة ، كما في شعر أبي بكر الخوارزمي • كما وصفوا الطبيعة الصامتة ، متمثلة في النجوم والقمر وشعاعه ، كما جاء في شعر السهيلي •

وبهذا يمكننا القول بشيء من الاحتراس ، إنّ قصائدهم تستوحي الذاكرة والتراث ، أكثر مما تستوحي العصر والواقع •

والحقيقة أن شعرهم كان يمثل جانباً انسانياً ، فيه الحبّ والحنين ،وفيه التحسر والبكاء • كما يمثل جانباً سياسياً ، فيه المدح والفخر والهجاء ، وقد تمثل هذا الجانب ، في شعر الشعراء المدّاحين ، وخاصة اولئك الذين كانوا على اتصال ببلاط الدولة الحاكمة ، كأبي بكر الخوارزمي،ورشيد الدين الوطراط•

والقول في النثر مثل القول في الشعر ، من حيث أثر البيئة فيه ، ومن حيث سير الناثرين على الخط التقليدي ، وصياغة نثرهم بطريقة فنية ، تعطيه ميزة خاصة به ، وهذا ظاهر عندهم في النثر أكثر منه في الشعر •

لم يستحدث أهل هذا الأقليم ، مذهبا جديداً في تأريخ الأدب العربي ، وهذا لا يعني أنهم لم يأتوا بجديد ، فقد امتاز أدبهم بجديد من حيث الموضوعات وجديد من حيث فنون البلاغة ، من بيان وبديع • وجديد في تناوله فن المقالة ، وفن المقامة (١) ، التي تعتبر أهم أنموذج نثري ظهر في هذا الاقليم ، على يد الامام جارالله الزمخشري •

---

(١) تبلغ عدة مقامات الزمخشري خمسين مقامة ، وهي كمقامات الحريري، من حيث انها كتبت في ظلال مذهب التصنع وتعقيده .
أما المقالة ESSAY فمن اهم صور النثر الادبي وامتعها ، وهي انشاء نثري قصير كامل ، يتناول موضوعا واحدا غالبا . تكتب بطريقة لا تخضع لنظام معين ، بل تكتب حسب هوى الكاتب ، ولذلك تسمح ←

ومن الرسائل التي حللناها ، أو التي درسناها ولم نحللها ، خرجنا بمجموعة من الخصائص التي تحلى بها النثر • ولعل أهم ما خرجنا به أنه كان نثراً متسلسل الأفكار ، منتظم الخطوات ، كثير العناية بالألفاظ ، متأنقاً في الصياغة •

والى جانب هذا ، هناك خصائص أخرى متناثرة ، في نثر كتّابهم ،ولكننا لا نستطيع أن نحكم بعمومها في جميع الرسائل ، مثل ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم ، والاقتباس من الشعر ، الذي نجده في رسائل أبي بكر الخوارزمي ، ورسائل رشيدالدين الوطواط •

ولا يسود رسائل كتّاب هذا الاقليم ، تيّار واحد من الإيجاز أو الإطناب ، بل نجد رسائل موجزة ، غاية في الايجاز ، ورسائل أخرى مسهبة، تستغرق الصفحات •

ومما لا شك فيه أنه كان للمعتزلة دورها الفعّال ، في نهضة النثر العربي في هذا الاقليم ، نتيجة لاتساع المناظرات الكلامية عند هذه الفرقة • وقد رأينا أن النثر كان متعدد الفروع ، فهناك النثر الأدبي بنوعيه : الخالص والتأليفي ، وهناك النثر العلمي ، والنثر التأريخي وغيره •

وعلى الرغم من هذا التفوق الذي ناله النثر ، والدقة والإتقان الذي وصل اليه ، الا أنه كان امتداداً للنثر العربي ، في القرن الرابع الهجري ، والقرون التي قبله •

وحين نذكر الخصائص الفنية في نثرهم ، لا ننسى أن نشير الى وجود خصائص ذهنية ، نتج عنها ذلك الفن الذي رأيناه في ثوب من الجمال ، الذي

لشخصيته بالظهور . وقد مثلت مقالات أبي القاسم الزمخشري هذا خير تمثيل في كتابه : « اطواق الذهب » .

للتفصيل عن هذين الفنين ينظر : النقد الادبي ١ : ٩٩ . مط : لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة . ط ٣ ١٩٥٢م .

يخلب السامع ، فيؤثر في وجدانه وعواطفه ، كما يؤثر في عقله ، بما يحمله من قوة ومتانة ولين وسلاسة ، وبلاغة وذوق أدبي رفيع ٠

وما من شك بعد هذه الاستنتاجات ، أن صوت الأدب في هذا الاقليم، قد اتضح لنا الآن بجميع خصائصه ، فهو أدب تمثلت فيه كل السمات والصفات التي تمثلت في أدب المشرق ٠ في جنوحه الى الصنعة البديعية ، وجريه وراءها أينما وجدت ، وعلى اختلاف فنونها ٠

وهكذا كانت حياة هذا الأدب في هذا الاقليم ، متعددة في أغراضها وموضوعاتها ، كتعدد شعرائه وكتّابه ، واختلاف أساليبهم ٠

وختاماً لابد لنا من القول المعروف وهو : إنّ الأدب في كل عصر ، صورة للحياة العقلية ، وهذا ما كان لأدباء هذا الاقليم ، في شعرهم ونثرهم ٠ وهذا ما طبعهم بطابع خاص ، على الرغم من سيرهم على الخط التقليدي في الأدب العربي ٠

ومع كل ما بذلت من جهد ، فانني أحسّ أنه ما تزال هناك بعض الجوانب التي تحتاج الى مزيد من عناية الدارسين ، وجهد الباحثين والمحققين ٠فالشاعر الكاتب أبو بكر الخوارزمي مثلا ، ما زال بحاجة الى دراسة فنية مستقلة ، تعطيه منزلته اللائقة بين كتاب عصره ، واني لأرجو بعد هذا أن تتاح الفرصة لباحثين آخرين ، بدراسات جزئية غير شاملة ، كأن يدرس أدب هذا الاقليم ، في فترات متقطعة ، كما تدرس الجوانب الأخرى ، التي لم أتعرض لها في بحثي، وأقصد بها الجوانب اللغوية ، والجوانب العلمية التي يمكن أن تبحث تحت عنوان : العربية في اقليم خوارزم ، لنرفع الستار الذي خيّم على تناجنا العربي في هذا الاقليم ٠

كما أن كثيراً من مؤلفات أهل هذا الاقليم ــ التي سلمت من عوامل الدهر ، والغزو التتاري المغولي ، لا تزال في حاجة الى مزيد من الجهد ، لأجل

اخراجها وتحقيقها ، وأخص منها كتب الزمخشري ، مثل ربيع الأبرار ، الذي ما زال مخطوطاً مع توفر نسخه(٢) ، ومثله في ذلك ديوان شعره .

والآن وقد طالت رحلتنا ، مع الأدب العربي في أقليم خوارزم ، فقد آن للقلم أن يتوقف ، بعد رحلة طويلة قضاها مع هذا الأدب ، منذ فتح هـــذا الاقليم سنة ٩٣ للهجرة ، حتى سقوط الدولة الخوارزمية ، سنة ٦٢٨ للهجرة، على يد التتار المغول .

واني لأرجو أن أكون قد وفقت ، في رسم صورة مقاربة للأدب العربي، والحياة الأدبية في هذه الحقبة ، من تاريخ أدبنا العربي في هذا الاقليم ، الذي كان في يوم من الأيام ، من أقاليم الخلافة الاسلامية .

هذا ونرجو من الله العون والتوفيق ، للقيام باحياء تراثنا العربي في هذا الاقليم ، وفي غيره من الأقاليم والأمصار الاسلامية ، ليتكون من مثل هــذه الدراسات الاقليمية ، نظرة عامة عن مدى انتشار لغتنا العربية ، ومدى اهتمام أهل البلاد المفتوحة بها ، ومحافظتهم على تعلم آدابها ، وعلومها وفنونها.

هند

(٢) علمنا اخيرا من الدكتورة بهيجة الحسني ، انها حققت الجزء الاول منه. كما علمنا من الدكتور ناجي معروف ، والاستاذ كمال ابراهيم ، انهما يقومان بتحقيقه على اصح النسخ ، بتكليف من المجمع العلمي العراقي .

المصادر والمراجع

— **ابن ابي اصيبعة ، موفق‌الدين ابو العباس (ت ٦٦٨ هـ) .**

عيون لأنباء في طبقات الأطباء ، دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٦٥ م .

— **ابن الأثير،عزالدين ابو الحسن علي بن محمدالشيباني الجزري(ت٦٣٠هـ).**

الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت للطباعة والنشـــر ١٣٨٥هـ ـ ١٣٨٦هـ/١٩٦٥ـ١٩٦٦م (١٢) مجلد .

اللباب في تهذيب الأنساب . مكتبة المقدسي ، القاهرة ١٣٥٦ـ١٣٥٧هـ . (٣) أجزاء في مجلدين .

— **ابن بركات ، محمـــد بن علي بن عبدالعزيز بن علي بن مزهر بن نظيف الحموي الكاتب الملكي المحامدي .**

تاريخ المنصوري . عنى بنشره : بطرس غريا زينوييج . دار النشر للآداب الشرقية . موسكو ١٩٦٠ م .

— **ابن بطوطة ، شرف‌الدين ابو عبدالله الطنجي (ت ٧٧٧ هـ) .**

رحلة ابن بطوطة . دار صادر ، بيروت ١٣٨٤هـ/١٩٦٤ م .

مهذب رحلة ابن بطوطة ، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار . الأميرية ببولاق ، القاهرة ١٩٣٤ م .

— **ابن تغرى بردى ، جمال‌الدين ابوالمحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ) .**

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . مط ، دار الكتب المصـــرية ، القاهرة ١٣٤٨ ـ ١٣٧٥هـ/١٩٢٩ ـ ١٩٥٦م (١٢) جزء.

— **ابن الجوزي ، جمال‌الدين ابو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ) .**

المنتظم في تاريخ الملوك والامم . مط . مجلس دائرة المعارف العثمانيـــة ، حيدر آباد الدكن ـ الهند ١٣٥٧ ـ ١٣٥ هـ . المجلدة (٥ـ١٠) .

— **ابن حجر العسقلاني ، شهاب‌الدين ابو الفضل احمد بن علي المصـــري (ت ٨٥٢ هـ) .**

النكت الظراف على الأطراف (مطبوع مع كتاب تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف) ، للامام جمال‌الدين يوسف بن الزكي المزي ، المتوفى ســـنة ٧٤٢هـ . بمباي ، الدار القيمة بالهند ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

— **ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧ هـ) .**
صورة الأرض . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت .

— **ابن خلدون،ابو زيد عبدالرحمن بن محمد الحضرمي الأشبيلي(ت٨٠٨هـ).**
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المعروف بتاريخ ابن خلدون . دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨ م (٥) مجلدات .
مقدمة ابن خلون ، تحقيق المستشرق الفرنسي أ. م. كاترمير ، عن طبعة باريس ١٨٥٨ بيروت ، لجنة البيان العربي ، القاهرة . ط ١ ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

— **ابن خلكان ، شمس الدين ابو العباس احمد بن محمد (ت٦٨١ هـ) .**
ترجمات المتقدمين من الشعراء . مؤسسة فرانكلين ١٨٦٦م .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تحقيق : محمد محي‌الدين عبدالحميد، مط ، السعادة بمصر . ط١ ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ م ٦ أجزاء .

— **ابن عبد ربه ، احمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ) .**
العقد الفريد . تحقيق : محمد سعيد العريان. مط ، الاستقامة بالقاهرة، ط ٢ ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣ م

— **ابن عبدالحق ، صفي‌الدين عبدالمؤمن البغدادي (ت ٧٢٩ هـ) .**
مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع . تحقيق : ت . ك . ج . جوينبول . طبعة ليدن . بريل ١٨٥٢ – ١٨٦٤ ، وطبعة دار الكتب العربية ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .

— **ابن العبري ، ابو الفرج غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥ هـ) .**
تاريخ مختصر الدول . تحقيق : الأب انطون صالحاني اليسوعي . مط ، الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت . ط ٢ ، ١٨٩٠ ، ١٩٥٨ .

— **ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد الدمشقي (ت١٠٨٩هـ).**
شذرات الذهب في أخبار من ذهب . نشر مكتبة القدسي ١٣٥٠هـ . (٨) أجزاء في (٤) مجلدات .

— **ابن عنين ، أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر (ت٦٣٠هـ) .**
ديوان ابن عنين (مستل من مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلة ٢٣–٣٥). تحقيق : الاستاذ عبدالعزيز الميمني . دمشق ، المجمع العلمي العربي ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

— **ابن فضلان ، احمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد (كان حيا سنة ٣٠٩ هـ) .**
رسالة ابن فضلان . تحقيق : الدكتور سامي الدهان . مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ١٣٧٩هـ /١٩٥٩م .

— **ابن الفقيه ، ابو بكر احمد بن محمد الهمذاني .**

مختصر كتاب البلدان . تحقيق : م. ج. دي غويه . طبع بالأوفست ببغداد ، مكتبة المثنى . وطبعة ليدن . بريل ١٣٠٢ هـ .

— **ابن الفوطي ، كمال‌الدين ابو الفضل عبدالرزاق بن احمد الشيباني (ت ٧٢٣ هـ) .**

تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب . تحقيق : الدكتور مصطفى جواد. الجزء الرابع في (٤) أقسام . مط . الهاشمية بدمشق ١٩٦٢ م .

— **ابن قاضي شهبة ، ابو بكر تقي‌الدين بن احمد بن محمد بن شهاب‌الدين (ت٨٥١هـ) .**

طبقات النحاة واللغويين . نسخته في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، برقم (٨١) وفي مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب ـ جامعة بغداد برقم (٤٣٨) تاريخ .

— **ابن قطلوبغا ، ابو العدل زين الدين قاسم (ت ٨٧٩ هـ) .**

تاريخ التراجم في طبقات الحنفية . مط . العاني ببغداد ١٩٦٢ م .

— **ابن القيسراني ، ابو الفضل محمد بن طاهر الشيباني (ت٥٠٧هـ) .**

الانساب المتفقة . تحقيق : ب . دوجونك . ليدن ، بريل ١٨٦٥ م .

— **ابن الكازروني ، ظهيرالدين على بن محمد البغدادي (ت٦٩٧هـ) .**

مختصر التاريخ (من أول الزمان الى منتهى دولة بني العباس) . تحقيق الدكتور مصطفى جواد . مط . الحكومة ، بغداد ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

— **ابن كثير ، عمادالدين ابو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت٧٧٤ هـ) .**

البداية والنهاية في التاريخ . مط . السعادة بمصر (١٤) جزء . ومط . النصر ، الرياض ، ط ١ ، ١٩٦٦ م .

— **ابن ماكولا ، الأمير ابو نصر علي بن هبةالله (ت٤٧٥هـ) .**

الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من‌الأسماء والكنى‌والأنساب. تحقيق : الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي ، أمين مكتبة الحرم المكي . مط . مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند ١٣٨١هـ / ١٩٦٢ م . (١ـ٦) جزء ولم يكمل بعد .

— **ابن منظور ، ابو الفضل جمال‌الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ) .**

لسان العرب المحيط . دار لسان العرب . بيروت .

— **ابن نقطة ، ابو بكر محمد بن عبدالغني البغدادي (ت ٦٢٩ هـ) .**
تكملة الاكمال ، نسخة المتحف البريطاني برقم (٤٥٨٦) . ومنها مايكروفلم في المكتبة المركزية لجامعة بغداد ، برقم (م خ ٦٢–٦٣) .

— **ابوالبركات ، كمال‌الدين عبدالرحمن بن محمد الانباري (ت٥٧٧ هـ) .**
نزهة الألباء في طبقات الأدباء . تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي . مط. المعارف ببغداد ١٩٥٩ م .

— **ابوُ الجناب ، الشيخ نجم‌الدين الكبرى (ت ٦١٨ هـ) .**
فوائح الجمال وفواتح الجلال . تحقيق : الدكتور فريتز ماير . مط . فرانتر بالمانيا ١٩٥٧ م .

— **ابو السعادات ، عفيف الدين عبدالله بن اسعد اليافعي اليمني (ت٧٦٨هـ).**
مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمـــــان . منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات . بيروت.ط ٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م (٤) أجزاء .

— **ابو شامة ، شهاب‌الدين ابو محمد عبدالرحمن المقدســـي الدمشـــقي (ت ٦٦٥ هـ) .**
تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، المعروف بالذيل على الروضتين في أخبار الدولتين . باعتناء : محمد زاهد الكوثري . مط . الاسلامية . القاهرة . ط١ ، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧ م .

— **ابو الفداء ، عمادالدين اسماعيل بن علي بن الملك الأفضل (ت٧٣٢هـ) .**
المختصر في أخبار البشر . دار الفكر . دار البحار – بيروت ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦ م .
تقويم البلدان . طبع في مدينة درسدن ١٨٤٦ م ، ومطبعة دار الطباعة السلطانية بباريس ١٨٤٠ م .

— **ابو الفرج ، قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (ت ٣٣٧ هـ) .**
صنعة الكتابة . نسخته في المكتبة المركزية – جامعة بغداد برقم (٣٧٧٣٣).

— **آربري ، ا . ج .**
تراث فارس . مط ، دار احياء الكتب العربية ، البابي الحلبي ١٩٥٩ م .

— **الأسنوي ، جمال‌الدين عبدالرحيم بن الحسن (ت٧٧٢ هـ) .**
طبقات الشافعية . تحقيق : عبدالله الجبوري ، مط ، الارشاد ، بغداد ، ط ١ ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

— **الاصبهاني ، ابو القاسم حسين بن محمد الراغب (ت ٥٠٢ هـ) .**
محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء .
منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦١م (٤ أجزاء في مجلدين) .

— **الاصبهاني ، ابو نعيم احمد بن عبدالله (ت ٤٣٠ هـ) .**
ذكر أخبار أصبهان . تحقيق : سفين ديدرنك . ليدن ، بريل ١٩٣١ — ١٩٣٤م (جزءان) .

— **الاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي ، المعروف بالكرخي (ت ٣٤١ هـ) .**
المسالك والممالك . مط . دار القلم بالقاهرة ١٣٨١هـ/١٩٦١م ، وطبعة ليدن ١٩٢٧م ، من منشورات مكتبة الصدر — طهران

— **اغابزرك ، محمد محسن الطهراني (ت ١٨٧٥ هـ) .**
الذريعة الى تصانيف أهل الشيعة . مط . النجف ، ١٩٦٧ م .

— **الآلوسي ، محمود شكري .**
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . مط . الرحمانية بمصر . ط ٢ . ١٣٤٣هـ / ١٩٢٥ م .

— **الباخرزي ، ابو الحسن علي بن الحسن (ت٤٦٧ هـ) .**
دمية القصر وعصرة أهل العصر . تحقيق : محمد راغب الطباخ . مط . حلب ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م . وطبعة دار الفكر العربي — القاهرة . تحقيق : عبدالفتاح محمد الحلو . والقسم المخطوط (نسخته لدى الدكتور سامي مكي العاني) .

— **بارتولد ، و .**
تاريخ الترك في آسيا الوسطى . ترجمة : أحمد السعيد سليمان . مط . الانجلو المصرية ١٣٧٨هـ/١٩٥٨ م .

— **براون ، ادوارد جرانفيل .**
تاريخ الأدب في ايران من الفردوسي الى السعدي . نقله الى العربية الدكتور ابراهيم أمين الشواربي . مط . السعادة بمصر ١٣٧٣هـ/١٩٥٤ م .

— **البسنوي ، علاءالدين دده بن مصطفى السكتواري (ت١٠٠٧هـ) .**
محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر . مطبعة العامرة الشرقية ، ط ١ ، ١٣١١ هـ .

— **البغدادي ، اسماعيل باشا بن محمد البابانى (ت ١٩٢٠ م)**
هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين . مط . وكالة المعارف استانبول ١٩٥٥ م .

— **البكري ، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ) .**

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . مطبعة لجنة التأليف، والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٦٤هـ/١٩٤٥ م .

— **البلاذري ، أبو العباس احمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ) .**

فتوح البلدان (٥) أقسام في مجلد واحد . تحقيق : عبدالله انيس الطباع، وعمر انيس الطباع ، دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٣٧٧هـ/١٩٥٧ م ، وطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩ م .

— **البيروني ، أبو الريحان محمد بن احمد (ت٤٤٠هـ) .**

الآثار الباقية عن القرون الخالية . لايبزك ١٩٢٣ م .

القانون المسعودي . تحقيق : محمد نظام الدين . مط . مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ـ الهند ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ م .

تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن . انقرة ١٩٦٢ م .

— **البيهقي ، أبو الفضل محمد بن حسين دبير (ت ٤٧٠ هـ) .**

تاريخ البيهقي ، ترجمه الى العربية يحيى الخشاب وصادق نشأت . مط. دار الطباعة الحديثة . مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ٩٥٦ م .

— **بيومي ، السباعي .**

تاريخ الأدب العربي . مط . الانجلو المصرية . ط ٢ ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٨م.

— **التفتازاني ، مسعود بن عمر بن عبدالله سعدالدين (ت ٧٩٣ هـ) .**

النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ ، مط . وادي النيل بالقاهرة . ط١، ١٢٨٦ هـ.

— **التونكي ، محمود حسن .**

معجم المصنفين . مط . وزنكوغراف طبارة في بيروت ـ سوريا ١٣٤٤ هـ.

— **تويسركاني ، الدكتور قاسم .**

عدد من بلغاء ايران في لغة العرب ونخب من آثارهم . مط . الجامعة ، طهران ١٣٣٦ هـ .

— **الثعالبي ، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن اسماعيل (ت ٤٢٩ هـ)**

اربع رسائل « منتخبة من مؤلفاته . مط . الجوائب ، القسطنطينية . ط ١ ، ١٣٠١ هـ .

الاعجاز والايجاز . مط . العمومية بمصر . ط ١ ، ١٨٩٧ م .

تاريخ غرر السير ، المعروف بكتاب « غرر اخبار ملوك الفرس وسيرهم » . تحقيق زوتنبرج . طبعة طهران ١٩٦٣ م .
التمثيل والمحاضرة . تحقيق : عبدالفتاح محمد الحلو . مط . البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م .
تتمة اليتيمة . عني بنشره : عباس اقبال . مط . فـــردين ، طهران ١٣٥٣ هـ .
خاص الخاص . مط . دار مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٦٦ م .
لطائف المعارف . تحقيق : ابراهيم الأبياري وحسن كامل الصيرفي . مط. البابي الحلبي ١٣٧٩هـ/١٩٦٠ م .
يتيمة الدهر . تحقيق : محمد محي‌الدين عبدالحميد . مط . السعادة بمصر ١٣٧٧ هـ ، وتحقيق : اسماعيل الصاوي ، مط . حجازي بالقاهرة ١٩٣٤ م (١ــ٤) أجزاء .

ــ **حاجي خليفة ، مصطفى بن عبدالله (ت ١٠٦٧ هـ) .**

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . مط . المكتبة الاســـــلامية والجعفري تبريزي ــ طهران . ط ٣ ، ١٣٧٨هـ/١٩٤٧ م .

ــ **حسن ، الدكتور حسن ابراهيم .**

النظم الاسلامية . مط . النهضة المصرية . ط ٣ ، ١٩٦٢ م .

ــ **حسن ، الدكتور علي ابراهيم .**

التاريخ الاسلامي العام . مط . السنة المحمدية ، القاهرة . ط ٣ . ١٩٦٣ م .

ــ **الحسيني، صدرالدين ابو الحسن علي بن السيد ابي‌الفوارس ناصر بن علي.**

اخبار الدولة السلجوقية . اعتناء : محمد اقبال . مط . لاهور ١٩٣٣م.

ــ **الحلواني ، احمد عبدالمنعم عبدالسلام .**

السمو الروحي في الأدب الصوفي . مط،البابي الحلبي ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

ــ **حمدي ، الدكتور حافظ احمد .**

الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي . مط ، الاعتماد بمصر ١٩٥٠ م .
الدولة الخوارزمية والمغول . مط . الاعتماد بمصر ١٩٤٩ م .

ــ **الحوفي ، الدكتور احمد محمد .**

الزمخشري . مط . لجنة البيان العربي ، القاهرة . ط ١ ، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦ م .

- **حويش ، الدكتور عمر الملا .**

اثر البلاغة في تفسير الكشاف ، مط . دار البصري ، بغداد ، ١٢٩٠هـ / ١٩٧٠م .

- **الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) .**

تاريخ بغداد او مدينة السلام . مط . السعادة بمصر ١٣٤٩ هـ /١٩٣١ م. (١٤) جزء .

- **الخوارزمي ، ابو بكر محمد بن العباس (ت٣٨٣هـ) .**

المكارم والمفاخر ، مط . القاهرة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥ م .

رسائل ابي بكر الخوارزمي . مط . دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٧٠ م .

- **الخوانساري ، الميرزا محمد باقر الموسوي الاصبهاني (ت ١٣١٣ هـ) .**

روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات . مط . طهران . ط ٢ ، ١٣٤٧هـ . (٤) أجزاء في مجلد واحد .

- **الديار بكري ، حسين بن محمد بن الحسن (ت ٩٨٢ هـ) .**

تاريخ الخميس في أحوال انفس نفيس . مط . الوهبية بالقاهرة ١٢٨٣هـ .

- **الذهبي ، ابو عبدالله شمس‌الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ) .**

تاريخ الاسلام ـ نسخته المصورة في مكتبة المتحف العراقي ببغداد ، قسم المخطوطات برقم (١٦٥٨) .

دول الاسلام . مط . جمعية دائرة المعارف العثمانية . ط ٢ ، ١٣٦٥ هـ .

العبر في خبر من غبر (٥) أجزاء . جـ١ ، ٤ ، ٥ . تحقيق : الدكتور صلاح‌الدين المنجد . دار المطبوعات والنشر ـ الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦ م. و جـ (٢ـ٣) تحقيق : فؤاد السيد . مط ، حكومة الكويت ١٩٦١ م .

المشتبه في الرجال اسمائهم وانسابهم . تحقيق : محمد البجاوي . مط. البابي الحلبي . ط ١ ، ١٩٦٢ م . (جزءان في مجلد واحد) .

- **رضا . الشيخ احمد.**

معجم متن اللغة (٥) أجزاء . دار مكتبة الحياة. بيروت ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م

- **الزبيدي ، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥ هـ) .**

تاج العروس من جواهر القاموس . منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت لبنان .

- **الزركلي ، خيرالدين .**

الأعلام ، مط . كوستاتسوماس ، القاهرة ١٣٧٣ ـ ١٣٧٨هـ/١٩٥٤ ـ ١٩٥٩ م . ط٢ . (١١)جزء مع المستدرك الثاني للطبعتين الثانية والثالثة.

— **الزمخشري ، جارالله ابو القاسم ، محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ) .**

اطواق الذهب في المواعظ والخطب ، مذيل بمائة حكمة لسيدنا عمر بن الخطاب (رض) مط . السعادة بمصر ١٣٢٨هـ ، ومط. الرحمانية بمصر. الطبعة الاولى . ومط . جمعيـــة الفنون في بيروت ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م (شرح الفاظه : الشيخ يوسف افندي الأسير) .

الكلم النوابغ ، طبع في باريس ١٨٧١ م .

ديوان الزمخشري ، نسخته في دار الكتب المصرية برقم (٥٢٩) ادب ، ومنه نسخة مصورة لدى الدكتورة بهيجة الحسني .

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . دار الكتاب العربي–بيروت ١٩٤٧م.

مقامات الزمخشري . مط . التوفيق بمصر ١٣٢٥ هـ .

مقدمة الأدب . تحقيق: سيد محمد كاظم امام ، طهران ١٣٤٢هـ/١٩٦٣م.

— **الزوزني ، ابو عبدالله حسين بن احمد بن حسن (ت ٤٨٦ هـ) .**

تاريخ الحكماء ، وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي. تحقيق : يوليوس ليبرت . ليبزك ١٩٠٣م ، ومط . مؤسسة الخانجي ، مصر ١٩٠٣ م .

— **زيدان ، جرجي .**

تاريخ آداب اللغة العربية . منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت١٩٦٧م.
تأريخ التمدن الاسلامي ، مط . الهلال . ط ٤ ، ١٩٣١ م .

— **سبط ابن الجوزي ، شمس الدين ابي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ) .**

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. مط. مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الذكن – الهند ١٣٧٠ – ١٣٧١هـ / ١٩٥١ – ١٩٥٢ م .

— **السبكي ، تاج الدين ابو نصر عبدالوهاب بن علي (ت٧٧١هـ) .**

طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق : عبدالفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحي . مط . البابي الحلبي ١٣٨٣–١٣٨٥هـ/٩٦٤–١٩٦٦م . ط١ . صدر منه (٨) اجزاء . وطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ . ط١ (٤) . اجزاء في مجلدين .

— **السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢ هـ) .**

الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ . تحقيق : فرانز روزنثال ، ترجم التعليقات والمقدمة : الدكتور احمـــد صالح العلي . مط . العاني ببغــــداد ، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .

— **سركيس ، يوسف اليان .**

معجم المطبوعات العربية والمعربة . مط . سركيس بمصر ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م .

— **السمرقندي ، نظام الدين ابي الحسن العروضي (ت٥٦٠ هـ) .**

جهار مقالة (المقالات الاربع في الكتابة والشعر والنجوم والطب) . عليه خلاصة حواشي محمد بن عبدالوهاب القزويني . نقله الى العربية : عبدالوهاب عزام ، ويحيى الخشاب . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨هـ/١٩٤٩ م .

— **السمعاني ، ابو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت٥٦٢هـ).**

الأنساب . اعتنى بنشره : د . س . مرجليوث . مط . ليدن ١٩١٢ م ، اعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد ، مط . دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الدكن ــ الهند . ط١ ١٣٨٤ــ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٢ ــ ١٩٦٦م . صدر منه (٦) أجزاء ، ولم يكمل بعد .

— **السيوطي ، جلال‌الدين عبدالرحمن (ت ٩١١ هـ) .**

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . تحقيق:محمد ابو الفضل ابراهيم . مط . البابي الحلبي . ط١ ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ، مط. السعادة بمصر . ط٢ ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩ م ، ومط . الميمنية ، القاهرة ١٣٠٥هـ .

طبقات المفسرين . تحقيق : أ. مورسبنج ، طهران ، منشورات اسدي ١٩٦٠م . وطبعة ليدن ١٨٣٩ .

لب اللباب في تحرير الأنساب . تحقيق : هنريكو انجلو ويجرز ــبريطانيا لوشتمانو ١٨٤٠ . اعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد .

نظم العقيان في أعيان الأعيان . حرره : فيليب حتي ــ نيويورك ، مط . السورية الاميركية ١٩٢٧م .

— **شعيرة ، محمد عبدالهادي .**

تاريخ المغول والدول الاسلامية الآسيوية (دول الثغور الشرقية منذ الفتح الى عام ٧٣٦هـ . مط./سنة ١٩٦٠ــ١٩٦١م .

— **الشنتناوي ، احمد ، وآخرون .**

دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) . مط . لجنة الترجمة ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م .

— **شيخ الربوة ، شمس الدين ابو عبدالله محمد ، ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي (ب ٧٢٧هـ) .**

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر . مط . الاكاديمية الامبراطوريـــة بمدينة بطرسبورغ ١٢٨١هـ/١٨٦٥م .

— **شيخو ، لويس .**

مجاني الأدب في حدائق العرب . مط . الكاثوليكية ــ بيروت ١٩٥٧ م .

— **الشيرازي ، ابو اسحاق ابراهيم بن علي (ت٤٧٦هـ) .**

طبقات الفقهاء ، تحقيق : نعمان الأعظمي . مط . بغداد ، المكتبة العربية ١٣٥٦ هـ .

— **الصدر ، السيد حسن .**

تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام . مط . شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة ببغداد ١٣٥٤هـ/١٩٥١ م .

— **الصدفي ، رزق الله منقبريوس .**

تاريخ دول الاسلام . مط . الهلال بمصر ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م .

— **الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت٧٦٤هـ) .**

الوافي بالوفيات . نسخة مصورة منه في المكتبة المركزية لجامعة بغداد برقم (٩٢٠ ص ف و) ، (٥) اجزاء . جـ١ تحقيق : هلموت ريتر . فيسبادن ١٩٦٢ م . جـ (٢ــ٤) باعتناء ديدرينغ . جـ ٢ طبعةوزارة المعارف١٩٤٩م. جـ/ (٣ــ٤) المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٥٣ ــ ١٩٥٩م . جـ (٧)باعتناء الدكتور احسان عباس ، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن . بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون . مط . دار الفكر العربي والمدني ١٣٨٩هـ/١٩٦٩ م .

— **طاش كبرى زاده ، احمد بن مصطفى (ت ٩٦٨ هـ) .**

طبقات الفقهاء . تحقيق : الحاج احمد نيلة . مط . الزهراء الحديثـــة بالموصل . ط٢ ، ١٩٦١ م .

مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم . تحقيق : كامل كامل بكري ، وعبدالوهاب ابو النور . مط . الاســـتقلال ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٨م (٤) اجزاء .

ـــ **الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ) .**

تاريخ الرسل والملوك . ليدن . بريل ١٨٨٣ ــ ١٨٨٥م .
ومط ، الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩ م . «قوبلت هلاه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة بريل ، بمدينة ليدن ١٨٧٩م .

ـــ **العاملي : بهاءالدين (ت ١٠٣١) .**

الكشكول . مط . الشرف العامرة بمصر ١٣٢٩هـ .

ـــ **العاملي ، محسن بن عبدالكريم بن علي بن محمد الأمين الحسيني الدمشقي (ت ١٣٧١ هـ) .**

أعيان الشيعة . مط ، الاتقان بدمشق . ط١ ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩ م (١ــ٥٦)جزءولم يكمل بعد .

ـــ **العبيدي ، عبيدالله بن عبدالكافي بن عبدالمجيد .**

شرح المضنون به على غير أهله (شرح) على الأبيات التي انتخبها عزالدين عبدالوهاب الزنجاني . تحقيق : اسحاق بنيامين المقدسي . القاهرة . مط . السعادة ، ط ١ ، ١٣٣١هـ/١٩١٣ م .

ـــ **العتبي ، ابو نصر محمد بن عبدالجبار (ت ٤٢٧ هـ) .**

تاريخ أبي نصر العتبي ، المعروف باليميني . هامش الجزء العاشر من كتاب الكامل في التاريخ . مط . دار الطباعة ، القاهرة ١٢٩٠هـ .

ـــ **العجمي ، احمد بن احمد بن محمد بن ابراهيم الشافعي الأزهري المصري (ت١٠٨٦هـ).**

ذيل لب اللباب . نسخته في مكتبة الدراسات العليا ، في كلية الآداب / جامعة بغداد ، برقم (٣٢٨) .

ـــ **العزاوي ، المحامي عباس .**

التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان ، مط . شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ١٣٧٩هـ / ١٩٥٧ م .

ـــ **عطية الله ، احمد .**

القاموس الاسلامي . مط . النهضة المصرية بالقاهرة . ط١ ، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م .

ـــ **العقاد ، عباس محمود .**

عرائس وشياطين . مط . البابيالحلبي . سنة الطبع \ .

— **الغرناطي ، ابو حامد الأندلسي (ت ٥٦٥ هـ) .**
تحفة الألباب (بحث مستل من كتابه تحفة الألباب) . تحقيق : سيزاري دوبير Cesare. Duber. مدريد ١٩٥٣م .

— **الغزي ، المولى تقي الدين عبدالقادر التميمي الداري المصري (ت٥٠٠١ او ١٠١٠ هـ) .**
الطبقات السنية في تراجم الحنفية . تحقيق : عبدالفتاح الحلو ، مط . الاهرام التجارية ، القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

— **الغساني ، الملك الأشرف ابو العباس اسماعيل بن العباس (ت ٨٠٣ هـ).**
العسجد المسبوك في ذكر الخلفاء والملوك ، المنسوب للخزرجي المتوفى سنة (٨١٢ هـ) . نسخة مصورة في مكتبة الدراسات العليا ، في كلية الأداب ـ جامعة بغداد ، برقم (٨٧٢) .

— **الغياث ، عبدالله بن فتح الله البغدادي (كان حياً سنة ٨٨٣ هـ)**
تاريخ الغياثي . نسخته في مكتبة الدراسات العليا ، في كليـــة الآداب ـ جامعة بغداد ، برقم (٦١) .

— **فروخ ، الدكتور عمر .**
تاريخ الأدب العربي . مط ، دار العلم للمـــــلايين ـ بيروت . ط ١ ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م .

— **فياض ، الدكتور علي اكبر .**
محاضرات عن الشعر الفارسي والحضارة الاسلامية في ايران . مط ، الاصلاح ، الاسكندرية ، مصر ١٩٥٠م .

— **القاريء ، ابو محمد جعفر بن احمد بن الحسين السراج (ت٥٠٠هـ) .**
مصارع العشاق . مط . دار صادر ـ بيروت ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م .

— **القرشي ، محيالدين ابو محمد بن ابي الوفاء المصري (ت ٧٧٥هـ) .**
الجواهر المضية في طبقات الحنفية . مط ، مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند . حيدر آباد الدكن . ط١ ، ١٣٣٢ هـ .

— **القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ) .**
آثار البلاد واخبار العباد . مط ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٠هـ/١٩٦٠ .

— **القفطي ، ابو الحسن جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني (ت ٦٤٦ هـ) .**
انباه الرواة على أنباء النحاة . تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم .مط، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥ م .

المحمدون من الشعراء واشعارهم . تحقيق : حسن معمري . منشورات دار اليمامة للترجمة والنشر . الرياض ، المملكة العربيـــة السعودية ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

— **القلقشندي ، الشيخ ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) .**

صبح الأعشى في صناعة الانشا . النسخة المصورة عن الطبعة الأميرية ، القاهرة ١٣٢٤هـ / ١٩٦٠ م (١٤) جزء .

مآثر الانافة في معالم الخلافة . تحقيق : عبدالستار احمد فراج .مط. الحكومة بالكويت ١٩٦٤ م .

— **القمي ، الشيخ عباس بن محمد رضا بن ابي القاسم (ت١٣٥٩هـ) .**

الكنى والألقاب . مط . الحيدرية ، النجف ١٣٧٦ — ١٣٨٩هـ/ ١٩٥٦ — ١٩٧٠ م .ومط العرفان ، صيدا ١٣٥٧هـ (٣) أجزاء .

— **القيرواني ، ابو اسحاق ابراهيم بن علي المصري (ت ٤٥٣ هـ) .**

زهر الأداب وثمر الألباب . تحقيق : علي محمد البجاوي . مط ، دار احياء الكتب ، البابي الحلبي ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣ م .

— **القيسي ، الدكتور احمد ناجي .**

عطار نامه ، أو كتاب فريدالدين العطار النيسابوري وكتابه منطق الطير . مط ، الارشاد ، بغداد ، ط١ ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨ م .

— **الكتبي ، محمد بن شاكر بن احمد (ت ٧٦٤ هـ) .**

فوات الوفيات . تحقيق : محمد محيالدين عبدالحميد . مط ، السعادة بمصر ١٩٥١م . (جزءان) .

— **كحالة ، عمر رضا .**

معجم المؤلفين . مط . الترقي بدمشق ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م . (١٥) جزء.

— **كراتشكوفسكي ، اغناطيوس يوليانوفتش .**

تاريخ الادب الجغرافي العربي.نقله الى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم مط ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة (ق١) ١٩٦٣م . (ق٢) ١٩٦٥ م .

— **لسترنج ، كي .** Cuy Lestrange.

بلدان الخلافة الشرقية . نقله الى العربية : بشير فرنسيس ، وكوركيس عواد . مط ، الرابطة ، بغداد ١٣٧٣هـ/١٩٥٤ م .

— **اللكنوي ، ابو الحسنات محمد عبدالحي (ت١٣٠٤هـ) .**

التعليقات السنية على الفوائد البهية . « هذا الكتاب هامش كتاب الفوائد

البهية في تراجم الحنفية » . مط . مكتبة ندوة المعارف بالهند ـ دهلي ١٩٦٧ م .
الفوائد البهية في تراجم الحنفية . مط ، مكتبة ندوة المعارف بالهند ـ دهلي ١٩٦٧ م .

ـ **مبارك ، كي .**

النثر الفني في القرن الرابع الهجري . مط ، السعادة بمصر . ط ٢ ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤ م .
الموازنة بين الشعراء . مط ، القاهرة ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م .

ـ **المباركبوري ، القاضي ابو المعالي طهر .**

رجال السيد والهند الى القرن السابع . مط ، الحجازية ، بومباي ، الهند ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م .

ـ **المصري ، الدكتور حسين مجيب .**

في الأدب العربي والتركي . مط . النهضة المصرية ١٩٦١م .

ـ **المصنف ، ابو بكر بن هداية الله الحسيني المريواني (ت ١٠١٤ هـ) .**

طبقات الشافعية « مطبوع مع كتاب طبقات الفقهاء لأبي اسحاق الشيرازي المتوفى سنة (٤٧٦ هـ) » . بغداد ١٣٥٦ هـ .

ـ **المقدسي ، ابو بكر محمد بن احمد ، شمس الدين بن ابو عبدالله البشاري (ت ٣٨٠هـ) .**

احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . طبعة ليدن ، بريل ١٩٠٦ م .

ـ **المقدسي ، مطهر بن طاهر (ب بعد سنة ٣٥٥هـ) .**

البدء والتاريخ « منسوب الى أبي احمد بن سهل البلخي » . مط، برطرند، بمدينة شالون ١٩٠٣ م .

ـ **مكاريوس ، شاهين .**

تاريخ ايران . مط ، المقتطف بمصر ١٨٩٨ م .

ـ **م . م، مجهول .**

العيون والحدائق في اخبار الحقائق . مط ، بريل ١٨٧١م .

ـ **نعمة ، العلامة الشيخ عبدالله .**

فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم . مط . دار مكتبة الحيـــاة ، بيروت ١٩٣٠ م .

— النسوي ، محمد بن أحمد بن علي (ت ٦٣٩ هـ) .

سيرة جلال‌الدين منكبرتي . مط ، الاعتماد بمصر ١٩٥٣م .

— النويري ، شهاب‌الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣ هـ) .

نهاية الأرب في فنون الأدب . مط . كوستاتسوماس ، القاهرة ، وطبعة المؤسسة المصرية العامة . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب . (١٨)جزء .

— الهمذاني ، محمد بن عبدالملك (ت ٥٢١ هـ) .

تكملة تاريخ الطبري . تحقيق : البرت يوسف كنعان . مط ، الكاثوليكية ، بيروت ط١ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦١م .

— وجدي ، محمد فريد .

كنز العلوم واللغة ، مط ، الواعظ بمصر ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م .

— الوطواط ، أبو اسحاق برهان الدين بن يحيى بن علي الكتبي (ت٧١٨هـ) .

غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة . مط ، الأدبية ، القاهرة ١٣١٨هـ .

— الوطواط ، رشيدالدين محمد العمري الكاتب البلخي (ت٥٧٣هـ) .

حدائق السحر في دقائق الشعر . مط ، لجنة التأليف والترجمةوالنشر ، القاهرة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م .

مجموعة رسائل رشيدالدين الوطواط ، جمعها : محمد أفندي فهمي ، مط ، المعارف بالفجالة بمصر . ط ١ ، ١٣١٥ هـ .

— اليافي ، عبدالكريم .

دراسات فنية في الأدب العربي . مط . جامعة دمشق ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م .

— ياقوت ، شهاب‌الدين عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ) .

المشترك وضعا والمفترق صقعا . حققه : فردينانذويستفلد. كوتنكتن ، ديترفش ١٨٤٦ . وطبع بالاوفست ببغداد ، مكتبة المثنى .

معجم الأدباء المعروف بارشاد الأريب الى معرفة الأديب . اعتناء : د. س. مرجليوث . مط ، هندية بالموسكي بمصر . ط٢ ، ١٩٢٣—١٩٣٠م . (٨) أجزاء . وطبعة الدكتور فريد الرفاعي ، القاهرة ١٩٣٦ م (١—٢٠) جزء ، وطبعة البابي الحلبي ، الطبعة الأخيرة .

معجم البلدان ، مط ، دار صادر — بيروت ١٣٧٥هـ/١٩٥٦ م . ومط ، السعادة بمصر . ط ١ ، ١٣٢٤هـ/١٩٠٦ م ، وطبعة لايبزك ١٨٦٩ م .

— **اليعقوبي ، ابو علي احمد بن عمر بن جعفر بن رسته (ت ٢٨٤ هـ) .**

الأعلاق النفسية ، طبعة ليدن . بريل ١٨٩١م .
كتاب البلدان . تحقيق : م.ج. غويه . ليدن ، بريل ١٨٩٢ . (مطبوع مع الاعلاق النفيسة لابن رسته) . ومط ، النجف ، الحيدرية ١٩٣٩ ، ١٩٥٧ م .

— **اليونيني ، قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد بن احمد بن قطب الدين البعلبكي الحنبلي (ت ٧٢٦هـ) .**

ذيل مرآة الزمان . مط ، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ــ الهند . ط ١ ، ١٣٧٤ ــ ١٣٧٥هـ / ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ م .

المصادر الاجنبية :

— The Encyclopaedia of Islam. vol. 11, Leyden-London, Late E.J. Brill, 1927.

— Encyclopaedla-Britanica. London, 1768.

— Barthold. W.
Turkestan down to the Mongol livasion. London 1968.

— **الجويني ، علاءالدين عطا ملك بن بهاءالدين محمد بن محمد (ت٦٥٨هـ) .**

تاريخ جهانكشاي ــ بسعي واهتمام وتصحيح : محمد عبدالوهاب قزويني . در مطبعة بريل درليدن ، سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦ م .

— **ذبيح الله ، الدكتور صفا .**

تاريخ أدبيات ايران . مط ، تهران ١٣٣٨هـ . « فارسي » .

— **الرازي ، شمس الدين محمد بن قيس .**

المعجم في معايير اشعار العجم . مط ، تهران ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م .

— **رازي ، عبدالله .**

تاريخ مفصل ايران (ازتأسيس مادتاعصر حاضر) ش جاب دوم . تهران ١٣٣٥هـ .

— **سامي ، شمس الدين .**

قاموس الأعلام . مط ، مهران ، استانبول . س . باب عالي . جاده سنده نمرو (٧) ، ١٣٠٨هـ . « باللغة التركية » .

— **عوفي ، محمد .**

لباب الألباب . باتصحيحات جديدة ، وحواشي وتعليقات: كامل بكوشش، سعيد نفيسي . تهران ـ كتابفروشي ، ابن سينا ١٣٣٣ هـ .

— **قزويني ، حمد الله بن ابي بكر بن احمد بن نصر مستوفي (ت٧٣٠هـ) .**

تاريخ كزيده ، باهتمام دكتر عبدالحسين نوائي ، جـاب اين كتاب در خرداد ماه ١٣٣٦ . درجابخانه فردوسي آغاز .

— **الوطواط ، رشيد الدين محمد العمري الكاتب البلخي (ت٥٧٣هـ) .**

ديوان رشيد الدين وطواط . مقابلة وتصحيح : سعيد نفيسي . مط ، تهران ـ شاه‌آباد ١٣٣٩هـ .

ملاحظـة :

هناك بعض المصادر وردت الاشارة الى طبعاتها في هوامش الرسالة ، لقلة رجوعي اليها ، ولكثرة مصادري .

وتجدر الاشارة الى انني اعتمدت « لسان العرب » في أكثر الشروح التي جائت في حواشي البحث . ولجأت أحيانا الى « تاج العروس » و « معجم متن اللغة » .

الفَهارس

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

فهرس الموضوعات

الصفحة

فهرس الاعـلام

ـ ا ـ

ـ ب ـ

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

ـ د ـ

ـ ذ ـ

— ر —

— ز —

ـ ض ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

- غ -

ـ ف ـ

ـ ق ـ

- ل -

- م -

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

فهرس المواضع والبلدان

ـ ا ـ

ـ ب ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

فهرس الأشعار

ـ حرف التاء ـ

ـ حرف الجيم ـ

ـ حرف الحاء ـ

ـ حرف الدال ـ

ـ حرف السين ـ

ـ حرف الشين ـ

ـ حرف الضاد ـ

ـ حرف الميم ـ

ـ حرف الواو ـ

ـ حرف الياء ـ

صدر البيت	القافية	اسم الشاعر	الصفحة
وان غادر الغدران	يهمي	أبو الهيجا ، مقبل بن عطية البكري	٢٥٤
ماأنسى لا انسى	وترددادي	محمد بن حامد	٢٦٥
هذا دفتري انساً	ساقيا	محمد بن حامد	٢٦٩
كفى بك داء	امانيا	محمد بن حامد	٢٧٠
مدحت ابا العباس	شعري	ابن الرومي	٢٧٣
قد صح لي	سلفي	القاسم بن الحسن	٢٧٩
ان الهوى سبب	ثاني	الرقاشي	٢٩٤
لا الراح راحي	ندماني	الرقاشي	٢٩٩
ولقد ذكرتك	دمي	عنترة بن شداد العبسي	٢٩٩
ليس التعلل	شيمي	المتنبي	٣٠٠
العلم ياتي	آبي	محمد بن احمد النسوي	٣٠٧
مجالس مولانا	والدنيا	رشيد الدين الوطواط	٣١٥
قد زرت يا ملك	منصبي	رشيد الدين الوطواط	٣٣٢
صدغ الحبيب	كالليالي	رشيد الدين الوطواط	٣٣٥
قلت للنائبات	دوري	الباخرزي	٣٦٣
يامحنة الدهر	فخفي	ابن المعتز	٣٨١

فهرس الكتب التي وردت في متن الكتاب

ـ ا ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

« الكتب الاجنبية »

فهرس الشعوب والعقائد والملل

فهرس الايام والحضارات واللغات والمناصب

ـ ا ـ

ـ ت ـ

ـ س ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ ف ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

تصميم الغلاف : راجحة عباس

الخطوط : بسام حمود

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١١٤٨ لسنة ١٩٧٦

دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م

الجمهورية العراقية
وزارة الاعلام
بغـداد

السعر ٤٥٠ فلسًا

دار الحرية للطباعة
١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م